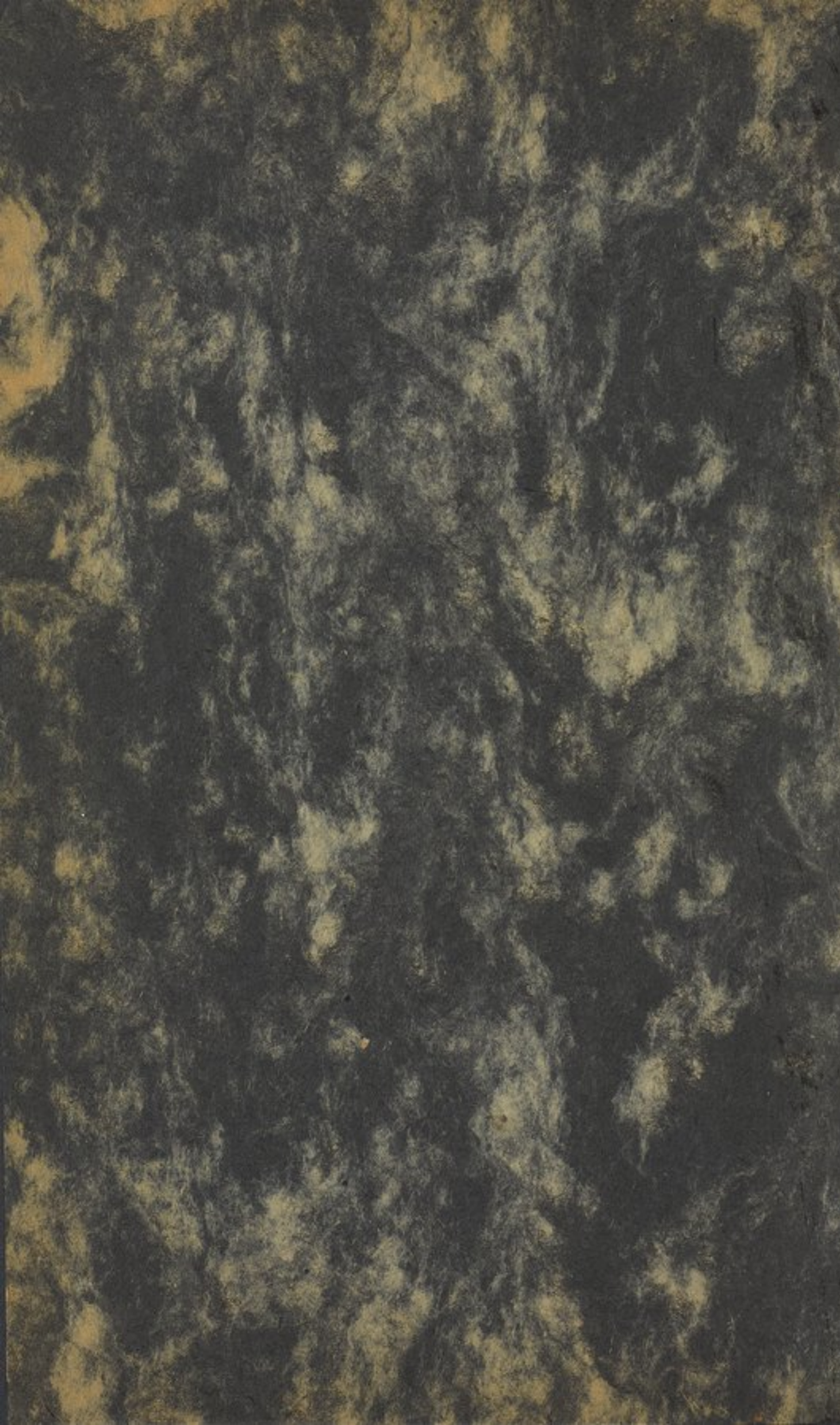




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني
المتوفى في عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد

عفا الله عنه !

الجزء التاسع

893.7M32

03

v. 9

الطبعة الأولى

في عام ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ، بشارع محمد علي ، بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

v. 9

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آله وأصحابهم .

خاتمة

كتاب المحبة
لسان الدين

وقال - رحمه الله تعالى - ! آخر بعض تراجم هذا الكتاب ماصورته : خاتمة تشتمل على إشارات ، وتختال من الحق في شارات ، قال بعض مَنْ يَطأ بمطية السلوك ، رحى الملوك ، وينقض زوايا الغيوب ، عن المطلوب ، يبصر بصائر القلوب : شهدت أصناف المحبين والعشاق ، على اختلاف البلاد وتباين الآفاق ، لا أدرى أقال كشفاً وشهوداً ، أو فرضاً ووجوداً ، أو يقظة أو هجوداً ، وقد رَكَّضُوا مطايا الأشواق ، وضربوا آباطنها ببعضِ المشارب والأذواق ، وتزودوا أزواد الحقائق ، وودعوا أحباب العوائد والملائق ، وتساهلوا في المحبوب اعتراض العوائق ، وتفاضلوا في اختيار الجواد^(١) واقتحام المضائق ، والترك إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق ، فمن خابط عَشْواء^(٢) ، ومسقط أهواء ، يقول :

يأليت أنى أوقد النارا فإن من يهواك قد حارا

فيحييه الصدى :

ومن طلب الوصول لدار لبلى بغيراً طريقها وقع الضلال
ومثبت بحيث لا يبدو علم ، ولا يقتص خف ولا قدم ، في مفازة وجود من حلها
عدم ، وهو يصيح :

بأبى وأمى والذى ملكت يدي أفدى الذى يهدى الطريق للاحبا

ثم يقول :

ولقد سررتُ إليك لكن حين لم يكن الدليل أجل قصد السالك
ومن طاول نقد زاده ، وفرغ مزاده ، قد استسلم ، وعجز أن يتكلم ، ولسان حاله يشد :
إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط في زمن البذر
وراكض يقطع الدؤ ، ويعرف^(٣) [في] الجؤ^(٣) ، يثبت الأعلام الخافية ، ويقصد الموارد

(١) الجواد : جمع جادة - بتشديد الدال - وهى الأرض الواضحة التى يسهل فيها السير .
(٢) العشواء : الناقة التى لا تبصر ليلًا ، فيبرها لا يكونه على الجادة ، وتضرب مثلاً لمن لا يهتدى في سيره .
(٣) يعرف : يصوت -

الصفافية والظلال الضافية ، حادية أمه ، ودليله علمه ، والراحلة عمله ، ينشد بأعلى صوته :
قَرَبَ اللقاء فكيف لا تراح للقاء سكان الحمى الأرواح
ومرافق ركض البريد ، ويصحب التفريد ، بلغ الطية ، وأناخ المطية ، قبل وصول
الرفقة البطية :

سرى سلخ شهر في فُواق حلوبة فله ما أنأى سراه وما أدنى
(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا وملئت منهم رُعبا) .
وقلت :

نَهَضُوا وقد جن الدجى وتخالفت	سبل الردى ففسدّون وضلّ
سلى عن المنبتّ حين تقطعت	أسبابه تيهاً ولا من يسأل ^(١)
قوم سطت بهم السباع ، وفرقة	عطشوا ، وأين من الظّاء المنهل ؟
لفح المجير وجوههم بسعيه	فهم افتنوا ببلالة وتعللوا
وجماعة ركبوا المفاوز دائماً	عثرُوا على أثر فشطّ المنزل
وركائب جعلوا الدليل أمامهم	وسرّوا ففازوا بالذى قد أملوا
والليل متلعة ، ومدرجة الهوى	لا يستقل بها المطىّ الدّل
والواصلون هم القليل وكيف لا	قفر ومسبعة وليل أليل
يارحمة للعاشقين تفحّموا	خطر النوى وعلى الشدائد عولوا
طارت بهم أشواقهم ففعلهم	معقولة عن شأنها لا تعقل
عذرا لكم يا أهل عُدرة شأنكم	سلّمتُ فيه لكم فقولوا وافعلوا ^(٢)

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك ، وأفلت من أفلت من الشّرك ، وسلم

(١) المنبت : الذى يعمل متواصلا من غير استجمام ، فيؤول أمره إلى الانقطاع ،
وفيه ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .
(٢) عذرة : قبيلة اشتهرت بالحُب ، وإليها ينسب الحب العفيف الطاهر ؛
فيقال « حب عذرى »

من قتيل المعتك ، وأشرفوا بركاب الآمال ، على ثنية الجبال ، زرعوا بإزاء الباب ،
ونادوا من وراء الحجاب :

كلُّ كَتَى عن شوقه بلغاته ولربما أبكى الفصيح الأعمى
وأوصلوا رفاع شكواهم ، بسرائر هوام ، وبرزوا صفا ، واستظهروا بشفعائهم التي
ظنوا أنها لا تخفى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى) وقد تعينت الأوصاف
وتميزت ، وانتبذت الأصناف وتميزت ، والعشاق نجحت وسلمت ، مذعلت ،
منهم الصفوة والجان ، والحرافيش والبهلوان ، ممن يعول على ذراعه ، وملاكته
وصراعه ، وطول باعه ، وصلابة طباعه ، وسلاطة لسانه ، وامتزاج إساءته بإحسانه ،
شأنه البحث عن المحبوب ، مع الشروق والغروب ، والتوصل إلى وصله المطلوب ،
بالحركة الشريفة واللفظ الخلوب ، ومن اتَّسم بإذاعة الأسرار ، وصحبة الشرار ،
واللسان المهذار ، حسب من الأغيار ، ومنهم بُذاة ، ليس لهم إلا المُنَادمة أداة ، تعذر
عليهم تميز المحبوب فغلطوا ، وعكفوا على تنزيهه فأفراطوا :

ربما ضر عاشقٌ معشوقا ومن البر ما يكون عقوقا
وغلبت على سجيّتهم السلامة ، ولم تنلهم لعدم الموصل والمعرف الملامة ، وليس
للقبول عليهم علامة ، ومنهم من شعاره الخشمة ، ولزيمه العفاف والعصمة ،
أولو الحياء والوقار ، والكتم للأسرار ، ومخالطة الأبرار ، والتوصل إلى المحبوب
بالافتقار ، وصفاء الضائر من الأكدار ، لا تختلجهم الشواغل ، ولا يطرق شرابهم
الواغل^(١) ، أغنتهم الشواهد عن الدعوى ، وأصمَّت^(٢) الرضا عن الشكوى ، وتقسمت
معاملاتهم الآداب ، وصح منهم إلى مراتب المراقبة الانتداب ، والناقد بصير ،
وكلام النيات قصير ، ومنهم المغلوب الحال ، المحمول من فوق الرجال ، رقص

(١) الواغل : الذي يدخل على القوم وهم على الشراب ، من غير أن يدعى
إلى ذلك ، وقال امرؤ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا واغل
(٢) في ب « وأصمَّت الرضا »

وشطح ، وسكر فافتضح ، فهو بلخ الرقعة ، وملوع الحرقه ، دغنى وعبدى بلخ ، فإنه يضحكنى سبع مرات فى اليوم ، ومنهم من لم يأخذه نعت ، ولا تعين له فوق ولا تحت ، ولا حمد ولا مقت ، ولا حين ولا وقت ، لو نطق لقال : أنا المعدم الموجود ، والشاهد المشهود (ألا بعداً للمدين كما بعدت ثمود) .

قضى وصلها لى ، وابتلاكم بحبها وهل يأخذ الإنسان غير نصيبه^(١) ولم يكن إلا أن خرجت الرقاع ، وفضلت البقاع (ووفيت كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) .

فكان فى رقعة طائفة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) قلدم العقل وله طور ، ورأيت الحركات لا يتناهى لها دور ، وعالم الجزئيات لا يُستبر له غور ، وحوار المعاد فى بعض الفروض لا يكون له كور ، ويأثر ما أصبحتم فى المعاد الأول تعتقدونه ، أن جعلتم التصرف فى عالم الملك لمن دونه ، قفوا مكانكم ، ولوموا أنفسكم ودعوا شأنكم .

وكان فى أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) أساطين الحكمة المشرقية ، وفرأش الأنوار الحقيقية ، دعونا من استكثر الأنوار ، واحتشاد الأطوار ، الحق نور إرشاد لا يطيق حسن ذاته ، إلا من ركب ظهر شتاته ، فارفعوا الكلف ، واذكروا مجرى من تقدم وسلف .

وكان فى أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) لم تتركوا البراهين على أصلها ، ولا ناسبتهم جنس هذه الموضوعات بفصلها ، وآثرتم شغبا طويلا ، وأوسعتم المُشابهة تأويلا ، ولم تعتمدوا من العقل دليلا ،

(١) هذا عكس قول المجنون :

قضاها لغيرى ، وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير لى ابتلانيا

ولا وقفتم في مجازات العقول قليلا ، وهوّلتم باصطلاح غيركم تهويلا ، وادعيتم
الشهود ولم يجعل الله تعالى في الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلا ، وبنيتم الحقائق
على قياس ونظر ، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر :

رب خل أدار فيّ اعتقادا لم أكن قبله عرفتُ بفنّه

حكمت نفسه على علم غيبي جعل الله باطنى عند ظنه

وعسى أن تكونوا من أخطأ في اجتهاده فأثيب ، واستغفر فسمع « لا تثریب » ،
فتمرتكم صحيحة ، والمقاصد من التبعة مريجة ، إذا كانت صريحه ، ولولا
الافتيات ، لوضحت في ميدان السبق لكم الشّيات ، لكن شأنكم الهذيان ،
وقلبت منكم بضعنائكم من المتأخرين الأعيان ، كابن قسي وابن برّجان ، فتبرؤا
من أتباعكم المطيعة ، وأحزابكم الخيفة ، وأخلصوا فعل الأنصار يوم قتال بني حنيفة ،
وحبذا الحكم المقتدى ، ومن يهد الله فهو المهتدى ، واكتبوا الأسن عن
طلائعها وذلائقها ، ولا تكلفوا العقول فوق طاقتها ، فلا بد من توقيف وتسليم ،
وفوق كل ذي علم عليم ، وإذا محيتم فأثبتوا ، أو نطق الناس فاسكتوا ، ولا ترضوا
أن تكتبوا مع الذين كبتوا ، ولكم الحظ السني ، والوصل الهني .

وكان في أخرى : أعود بالله من الشيطان الرجيم (وما خلقناهما إلا بالحق) ذهب بوجودكم العدم ، وابتلع حدوثكم
وما بينهما لاعيين ، ما خلقناهما إلا بالحق) ذهب بوجودكم العدم ، وابتلع حدوثكم
القدم ، ورضيتم بالاشراف ، في الاستشراف ، والتوغل لزييم الانحراف ، ومن
جعل الحس وهما ، فقد كابر العيان ظلما ، والعقل الذي غلطكم هو آلة حكمكم ،
وأداة علمكم ، والعوالم أوثق من أن تكون تمويه راقش ، والوجود المطلق أبسط
من أن يصيرا بآر اّاقش ^(١) ، ثم مالمكم والتبجح والتشبع ، والتعقب والتتبع ، ولم يغن

(١) أبو براقش - بفتح الباء والراء جميعاً - طائر صغير كالقنفذ ، إذا هيج انتفش

فتغير لونه ألوانا شتى ، وفيه يقول الشاعر :

وأبو براقش كل لو ت لونه يتلون

ويضرب مثلا للرجل المتلون المتقلب

العراك ، ووقع في ثمرتك الاشتراك ، فالفيلسوف يَتَّحِدُ بالعلة القريبة من الخلق ،
ثم يتلاشى في ذات الحق ، والحكيم يَجُوزُ إلى عين الحق رتبة الفناء المطاق ،
والمتشرع قد عضده ونصره ، « كفت سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ » ، وإن كان معظم القول
الهذر ، ففيمكم بعدُ نظر .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين) أنتم الأحباب ، ولكم يفتح من الجنان الأبواب ،
ركبتهم ظهور الأعمال ، وركب غيركم ظهور الآمال ، وفزتم بسحب الأذيال ^(١) ،
ومن دونكم يحرك مناكب الخيال ، فبدايتكم الأساس الوثيق ، الذي يبنى عليه
التحقيق ، ونهايتكم إليها ينتهي الطريق ، وبها يحط فريق الله تعالى ونعم الفريق ،
أولكم المقرب المدرّب ، وأوسطكم الفرد المعرب ، وآخركم الولي المقرب ، حضرتكم
بذكر محبوبكم حتى غبتم ، فهنيئاً لكم طبتم ، حواسٌ مسدودة ، وخيوط أفكار
كلها ممدودة ، ومشاهد مشهودة ، ومغلطات تتجاوز حُرّاسها ، وقواطع معترضة
بجل مِرّاسها ، إلى أن لا توجد تَقِيّة ، ولا تبقى بقية ، عند تجلى المعالم الخفية ،
لو اشتمل العلم على عملكم ، لكان الكل من هلمكم ، بحيث تتعين المراتب
وتتميز ، وتتفرق المشارب وتتجيز ، فلا يعترض قاطع إلا وقد علم شأنه ، وتعين وقته
ومكانه ، ولا تمثل غاية إلا ودرجها محدودة ، ومراحلها معدودة ، ومشاهدها قبل
دخول الطريق مشهودة ، فهناك تُطَوَّى المراحل ، ويلوح في اللحمة القريبة الساحل ،
ويأمن طول الطريق الواصل .

وكان في رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأدخلوا ، من بعد ما تحيروا
للإصطفا ، وانتخلوا ^(٢) : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (إن الله اصطفى آدم ونوحا
وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم) أنتم

(١) سحب الذيل : كناية عن مشية الخيلاء .

(٢) انتخله ، واجتباء ، وانتخبه ، واختاره ، كلها ألفاظ بمعنى واحد

الأحباب ، وإباب اللباب ، وبواسطكم اتصلت بين النفوس وبين الحق الأسباب ،
لولاكم لم يفتح الباب ، فلا يصل إلامن أوصلتم ، ولا يحجب إلامن قطعتم وفصلتم ،
أنتم الرعاة والخلق الحمل ، وأنتم الدعاة لمن يريد نيل الأمل ، مهدي^(١) لكم سرور
القرب تمهيداً ، وبعثتم إلى الناس ليوحداوا الله توحيداً ، ولتكونوا شهداء على الناس
ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فطوبى لمن أصاخ^(٢) منكم إلى نداء ، واستضاء بنور
هدى ، صلوات الله عليكم أبداً ، أنتم أولو الأولوية المعقودة ، والعساكر المحشورة
المحشودة ، ورؤساء أهل المحبة ، وأدلاء مبتغى الوسيلة والقرية ، ومسالكم قد
بينتها الصحف المنزلة ، والملائكة المرسلة ، ودخلت على العذارى خدورها ، وامت
السماء بدورها ، وأغنت عن تقرير محلها المكاتب المائجة بالصبيان^(٣) ، والسنن
المعقودة لها خلق التبيان ، والقواعد المفترضة على الأعيان ، والخزائن المرسومة
بعلوم الأديان (اليوم أنمت لكم : ينكم ، وأنمت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام
ديناً) وقيل لأنبأهم من الجمهور ، وأقطاب فلكهم المشهور : على قدر أنبأكم ،
مناقل أبواعكم ، وبحسب اقتدائكم ، يكون سماع ندائكم ، والمهاد لمن وثره ، ومن
يعمل مثقل ذرة خيراً يرّه ، وتأخيركم في التوقيع هو التقديم ، وساقى القوم آخرهم
شرباً ممثلاً قديم ، قال الخبير : فرأيت وجوههم قد تهلت ، ونوآسم السررات
نحوهم قد أقبلت

ومن سواهم من خالص وزائف ، بين راج وخائف ، وسمعت أن طائفة
استدعيت بحث حفي ، وأدخلت من باب خفي ، قيل لهم : هم أصحاب الخبر
المستكتم ، وأرباب المقام غير المعلوم ، جعلنا الله تعالى منهم برحمته !

ولولا الحب ما قطعوا الفيافي ولولا الحب ما قطعوا البحارا
فدغهم والذي ركبوا إليه وبحثا عن خلاصك واختبارا

(١) مهدي - بالبناء للجهول - وطئت وعبدت ، والسرر : جمع سرير
(٢) أصاخ : استمع وأنصت (٣) المائجة بالصبيان : كناية عن كثرة المتعلمين فيها

فلا تشغل بحب ديار ليلى ولكن حب من سكن الديارا
وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير مانصه : وقد أتينا على ما شرطنا من
تقرير ما أمكن من هذه الآراء ، وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه ،
ومع ذلك مُحِبُّون ، وعلى آثار الحبيب مُكِبُّون ، ما كل طريق تَوَصَّل ، ولا كل
تجارة على الرمح تحصل ، ومن العشاق مهجور ومطروء ، وموصل وموعود ، ومغبوط
ومحسود ، ومحروم ومجذود^(١) ، ومرحوم ومردود .

يا غايى ، ولكل شئ غاية ، والحب فيه تأخر وتقدم
قل لى بأى وسيلة يحظى بما يرجوه غيرى من رضاك وأخرم
ورقة ولكل دائرة مفروضة ، وهالة^(٢) حول قمر الحق معروضة ، تعود الخطوط من
محيطها المُسَدَّد ، إلى مركزها المحدد ، فانفيلسوف يروم التثبت بالعلة الأولى ،
ويعنى بها ذات الحق ، أو أن يتحد بالثانية ، وهى مرآة وجه الحق ، والإشراق
يروم التَّجَوُّهُر بنور الأنوار المعبر عنه بالحق ، والاتصال به إما بواسطة من الحق
أو بغير واسطة من الحق ، والحكيم أن يؤديه فكره إلى الحق ، ثم يَفْنَى في
الحق ، ثم يبقى بالحق ، والمتشرِّع أن يُجَنَّ في جنة الحق ، ويحصل على جوار
الحق ، وينظر إلى جوار الحق ، وصاحب الوَحْدَةِ المطلقة أن يكون المنفرد عين
الحق ، فسبحان الحق ، المعبود بالحق ، الموجد للجمع في الفرق ! لا إله إلا هو ،
وزيد في هذا المحض الذى كثر في قربه الدعداع ، وطال على الرؤس منه
الصُّدَاع ، ما تفرد له المقالة المختصرة ، والعناية الميسرة ، بحول من لا حول ولا قوة
إلا به . انتهى .

(١) المجذود - بالجيم - صاحب الجد ، وهو الحظ والبخت ، وضده المحدود
- بالخاء المهملة - والمحروم

(٢) الهالة : اسم لدائرة القمر ، كما أن « الطفاوة » اسم لدائرة الشمس ،
ومن كلامهم « فلان لا يخرج من جهالته ، حتى يخرج القمر من هالته »

وقال رحمه الله تعالى في عد ما عدد من فرق الاعتزال ما نصه :

والحب حرَّكم لكل جدالٍ والحبُّ أقحمهم على الأهوال
والحبُّ قاطعٌ بينهم وأضلهم عن نيل ما راموه كل ضلال
والحب أنشأ فيهم عصبية بالقييل أضرم نارها والقال

من كلامه
في عدد فرق
الاعتزال

وإنما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمل حرمات هذا الفراش المختلف الآراء عن ذُبَال^(١) الحق ، يبتغون إليه الوسيلة ، قوم بالطاعة ، وقوم بالمعصية ، وما منهم إلا مُدَّعٍ في الحجة ، متهاك ، حريص على السعادة بزعمه (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) ممن قصدا الحق فأخطأه ، وأراد الصواب فضلَّ عنه ، واشتهر بالحكمة بعد في الملة الإسلامية جماعة بالشرق والأندلس ، فمن المشاركة : أبو الفرج ، ويعقوب الكندي ، وحُذَيْن بن إسحاق ، وثابت بن قرّة ، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة والمزاولة ، إلى أن قال : ومن أهل الأندلس : محمد بن مسعدة السرقسطي ، وأحمد بن طاهر الطرطوشي ، ويحيى بن عمران القرطبي ، وطُفَيْل ابن عاصم ، وكُتَيْب بن همام البياسي ، والحسن بن حرب الداني ، وابن ميسرة ، ومسلمة الجربطي ، وأبو بكر بن الصانع ، وأبو بكر بن طُفَيْل ، وأبو الوليد بن رُشد ، وكل هؤلاء من المتقدمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك ، قال الشاعر :

وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح

حيارى يَمِيدُ بِهِمْ شَجْوُهُمْ كأنهم ارتَضَعُوا الخندريسا

إذا لم يكن عون من الله للفتى أنته الرزايا من وجوه الفوائد
(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك

(١) الذبَال - بضم الذال - جمع ذبالة ، وهي ما يستضاء به ، والفراشة : حشرة تلقى بنفسها على النار فتحترق ، ويضرب بها المثل في الجهالة المردية .

ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)
 (فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة) (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف
 كان عاقبة المكذبين) (قل فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين) وانخلق قد
 مدوا أبصارهم وآملهم ، وتحركوا طوعاً وكرها يَعْمُشُونَ إلى نور الله تعالى ، فمن أعمى
 أصم لا يسمع ولا يبصر ، وأعمى فقط يجترى عن العيان بالخبر ، وأحول يبصر
 الشيء شيئين ، والواحد أثنين ، كما قال الشاعر :

أحوى الجفون له رقيب أحول الشيء في إدراكه شيئان
 فيلوح في عنيّ منه واحد ويلوح في عينيه منه أثنان
 يا ليتته ترك الذي أنا مبصر وهو الخير في الحبيب الثاني
 وضعيف لا يبصر من بعيد ، وأجهر لا يبصر من قريب ، وأعشى تكثر في عينيه
 الأشعة ، وربما تندر ، وزرقاء اليامة ^(١) :

سبحان من قَسَمَ الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه
 أعمى وأعشى ، ثم ذو بصر ، وزرقاء اليامة
 لولا استقامة من هدا هُ لما تبينت العلامه
 ومجـاور الفرر الخيف له البشارة بالسلامه
 أقام سبحانه الحجة ، وفرق بين الأمر والإرادة ، وأعطى الكفاية من القدرة
 (فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون) اقتصرنا من هذا البحر على نقطة ، ومن هذا
 الودّق على قطرة .

* ومن يَسُدُّ طريق العارض المَطْل ؟ *
 * عَدُّ الحصى والقطر ليس يُرَامُ *

(١) زرقاء اليامة : امرأة تضر بها العرب مثلاً في قوة الإبصار ، وقد زعموا
 أنها كانت تبصر الأشياء على مسافة سير ثلاثة أيام ، وأربعة الأبيات من قصيدة طويلة
 أثرها مؤلف (ج ١ ص ٢٣)

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكرًا من غير تبويب ولا تعيين ، لشباع آرائهم ، والعلم بمقاصد ملهم ، وأغراض دعواتهم ، من توحيد الله تعالى وتنزيهه وصفاته وأسمائه ، وكيف يحشر الناس ليوم لا ريب فيه (لتجزى كل نفس بما كسبت) وتعليم طرق النجاة ، وإيضاح سبيل الله تعالى ، والتحذير من الغفلة وعن إليه الرجعى ، وله الآخرة والأولى ، والتخويف من كل ما يقطع عنه ، والترغيب فيما يوصل إليه ، وشأن الرياضة والتدريج فى أحوالها حتى تنتقل من الظواهر إلى البواطن ، وتسرى فى الخلف من السلف ، والندب إلى الاقتصار على الضرورة والقناعة بالبلاغ ، وتبين الرسم فيها ، والتعيين لحدودها ، قد تضمنت ذلك كله آيات الله التى تكفل بحفظها ، وسنة رسوله التى قيض مَنَاحِلَ الصدق لتصحيح نقلها ، فالسكاتب والمنة لله تعالى مأثرة^(١) ، والمدارس حافلة ، فمالنا والإطالة فى الموجود الذائع ، والمشهور الشائع .

والشمس تكبر عن حلى وعن حُلل ففى الدرارى فى التقليد بالدرر
ما أغنى الشمس عن مدح المادح ! تحصيلُ الحاصل عَنَاهُ (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) .

فلنذكر بعضَ أرباب الآراء من قريب وبعيد ، وخلق جديد ، على صورة المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذى تجزى منه الحفنة عن الجفنة ، والقربة عن القربة ، ونقتصر على اليسير لإقامة الترتيب ، وإحكام التبويب ، وليرى الواقف عليه أننا قد نفَضْنَا الزوايا^(٢) ، ورشَفْنَا الرَوَايا^(٣) ، وامتَكْنَا العظام^(٤) ، واستقصينا النظام ، حرصا على نشيدة الحق أن تعقل ، وعلى الطباع أن تنقل ، وعلى المرائى الصَّديَّة أن تصقل ، وعلى صورة النجاة أن تمقل ، ونسال الله تعالى

(١) فى ب « مأثرة » بالحاء مهجلة - وهو تحريف ، وانظر (ص ١٠ من هذا الجزء) .

(٢) يشير إلى قولهم فى مثل « كم فى الزوايا من خبايا » .

(٣) الروايا : جمع راوية ، وهى قرب الماء ونحوها .

(٤) امتك العظم : مص مافيه من المخ .

هداية توصل إليه ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، انتهى .
 وقال رحمه الله تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته : غصن المحبين ،
 وأصنافهم المرتبين ، ويشتمل على مقدمه بيان ، وستة أفنان .
 فالقدمة ... فنقول : أصناف المحبين والعشاق كثير ، وهَبَاءٌ كثير ، وجَرَادٌ
 آثارها نَشِير ، بحيث يَشُقُّ إحصاؤهم ، ولا يتَأَنَّى استقصاؤهم :
 فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى : قَتِيلُكَ ، قالت : أَيُّهُمْ فِهِمُ كَثُرُ؟^(١)
 ثم مدَّ النَّفْسَ بما لا يقتضى المقام الاختصارى ذكره في هذا الموضع .
 وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة ، وهى الخاتمة التى تنبه النفوس
 الصَّبة ، على حكم الحجة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ، بعد
 كلام ما صورته : فَرَّ فى معنى هذه الخاتمة فيها حكم تنثال ، وتجرى مجرى الأمثال :
 الحجة بحر بعيد الشط ، وَخَطٌّ والفناء منتهى الخط ، إناعرضنا الأمانة - إلخ . الحجة
 مَهْوَى بعيد ، وَجَالٌ وعد ووعيد ، من خل يقلى ، ثم خيال يولى ، وليس له حد
 عليه يعول . الحجة ظهر لا يركبه ، مَنْ يرى الموت فيتنسكه ، ولا يعلوه ، مَنْ يَأْنِي
 إلى وادى الفناء فبسلوه ، إن الله مبتليكم بنهر . كم قَصَمَتِ الحجة من ظهر ؟ وكم
 سر صيرت إلى جَهْر ؟ أولها العاقل المشهور ، وآخرها الطى المنشور ، ثم الموت
 ثم النشور ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب . الحجة أنس يستدرج ،
 ثم شوق يلجم ويُسْرِج ، ثم فناء يزعج ، عن الوجود ويخرج
 * على قدر أهل العزم تأتي العزائم *^(٢)
 الحجة كأس كم جردت من كأس ؟ وآس مَنْ شَمَّه لم يمد من آس :
 متى أرتجى يوما شفائي من الصَّغَى إذا كان من يجنى على طيبي

(١) البيت لأبي فراس الحمداني ، وقبله قوله :

تسائنى من أنت وهى عليمة وهل بقى مثلى على حاله نكرو

(٢) هذا صدر بيت لأبي الطيب التتبي ، وعجزه قوله :

* وتأتى على قدر الكرام المكارم *

تزاحم أنفاس المحبين على خَطَرَات الصبا ، تزاحم الهباء على مطارح شعاع الدُّبَا ،
فلولا بليها لالتهمت ، وتعليل عليها لتلك الأرقام لذهبت :

عليلة في حواشي مرَّطها بلل . يهدى لكل عليل منه إبلال^(١)
الحبة رقة ، ثم فكرة مسترقة ، ثم ذوق ، يطير به شوق ، ثم وجَل لا يبقى معه
ظوق ، ثم لا تحت ولا فوق :

أينما كنت لا أَخْلَفُ رَحْلا مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى وَرَحْلي
الهوى هَوَان ، وَحَمَام له ألوان ، دمع ساجم ، ووجد هاجم ، وهُيَام لا يبرح ،
ثم وراءه مالا يُشْرَح :

قال : بمن جُنَّ ؟ وهل في الورى ما يبعث الخَبْل سوى حبه ؟
مَنْ اقْتَحَم بحر الهوى ، هَوَى . لا تدخل في بحر الهوى حتى تشاور صبرك ، وتجاوز
قبرك ، فَإِنْ كنت منأَوْ فَرُخْ بسلام . الهوى طريق ، ولسلوكة فريق . الزاد
سر مكتوم ، ووفاء معلوم :

والمليادين أبطال لها خلقوا وللدَّواوين حُسَاب وكتاب
الحب حَجَّ ثَان ، لا يَثْنِي نَفْس المريد عنه ثَان ، طريقُهُ التجريد ، وزاده الذِّكْر ،
وطوافه المعرفة ، وإفاضته الفناء (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر
الحرام ، وأذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين) . الغرام ، صعب
المَرَام ، والدخول فيه حرام ، ما لم يكن فيه شروط كرام . من عرف ما أخذ ، هان
عليه ما ترك (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ظهر الهوى طريقا سهلا ، فكثير
التائهون جهلا :

إذا لم يكن عون من الله للفتي أتته الرزايا من وجوه الفوائد

(١) المرط — بكسر الميم وسكون الراء — كساء من خَز أو صوف أو كتان
يؤتز به ، وربما تلقى المرأة على رأسها وتلفع به ، والإبلال : مصدر « أبل المريض »
إذا برى .

والعكس

قد ينجباً المحبوب في مكروهاها مَنْ ينجباً المكروه في المحبوب
وقال الشيخ :

هو الحب فاسلم بالحشى ما الهوى سهلاً فما اختاره مُضَيَّ به وله عقل
وعش خاليا فالحب راحته عني وأوله سقم وآخره قتل
نصحتك علما بالهوى والذي أرى مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو
فمن لم يمت في حبه لم يعيش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
طريق القوم مبنية على الموت ، وإليه الإشارة بقوله « موتوا قبل أن تموتوا »
بيدى لا بيد عمرو ، وقال بعضهم : رأيت رب العزة فقلت : يارب بم أصل إليك ؟
قال : فارق نفسك وتعال

رَفَضُ السوى فرض على العين لا تخطن الحق بالمين^(١)
والأين والكيف سوى ظاهر فاستغن عن كيف وعن أين
الخشب ، الذى يُتَخَذُ منه النشب ، ينقسم إلى أقسام ، وأجزاء جسام : القسم
الأول : فى الحدود والمعرفات ، والأسماء الواقعة والصفات .
وللسان الدين رحمه الله تعالى فى المواعظ اليد الطولى .

قال فى الروضة فى الفصل الثانى فى محركات العزيمة ، وهى اليقظة ، ما نصه :
قلت : والمحركات المشتركة فى باعث اليقظة كثيرة : منها الوعظ السائق بمقود
الشارد عن الله تعالى إلى مَرَبط التوبة ، ومحرك العزيمة يُرَدِّدُ أذانه على نَوَامِ أهل
الكهف ، وقد ضرب نوم الغفلة على آذانهم ، حتى يحول بينهم وبين آذانهم ،
ويركبهم ظلمة الرياضة حتى تلحقهم بالجذوبين من إخوانهم ، ولما كان حب
الدنيا هو المانع عن الشروع فى إطلاق العمل ، والقاطع به بعده لم يجد أساة خبل

(١) فرض على العين : هو من اصطلاح الفقهاء ، ومعناه واجب على كل
أحد ، والمين : الكذب . (٢) — (٩)

الهوى وجنون الكسل أنجمَ من رُقَى^(١) العذل والتأنيب ، وتقبيح المحبوب ، سيما إذا انزعجت نبال نبلة عن حنيات ضلوع الصدق ، وقال بعضهم : الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب .

أوقد النار من رسالة ليلى واحذر السيل بعدها من دموى ولا تعدل الوعظ البليغ باللسان الفصيح ، والقلب القريح ، فإذا رأيت الأرض قد اهتزت وربت ، وهضاب القلوب القاسية قد تقلبت ، فشمّر للفراس والزراع عن الذراع ، واغتمم السراع والإسراع .

إذا هبت رياحك فاغتممها فإن لكل خافقة سكونا

حفر لها ماء يريها بدأة واضمن لها حوضا وإن لم تحفر

واربأ بنفسك عن تسامح بائع واغتم إذا سامتك شهوة مشترى

قالوا : الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط^(٢) في بساط اللذات ، وينقل خطراتها عن الخطو في ملعب الخطيئات ، ويمثل لها الصبر عيانا ، ويبين العواقب المحجوبة بياناً ، ويُنشئ سُحاب الحزن في أجواف أجزائها ، ويدكرها بما آلتها وانتهائها ، ويعرض عليها مصارع فنائها ، وخراب بنائها ، وفراق حبايبها وأبنائها ، عند نزول هازم اللذات بفنائها ، فترجع إلى الله تعالى بحكم الاضطراب أفكارها ، وتخضع من خيفة الله تعالى وجلاله أبصارها .

والوعظ يكون بلسانين ، ويوجد فنين : لسان حال ، ولسان مقال ، وربما كان لسان الحال أبلغ ، وهو يُسمَع من القبور الموحشة ، والقصور الخالية ، والعظام البالية ، وفيه حكايات وأخبار ، ولسان مقال كقوله سبحانه وتعالى (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم

(١) الرقى : جمع رقية - بالضم - وهى العوذة ، وهى فعل الراقى .

(٢) ثبطه - بالضعيف - حمله على القعود والتهاون ، فثبط هو : أى تقاعد .

(الأمثال) وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين ، وضمن فصولها الكتاب المبين ، والسُّوط الذي يحمل على الأوثبة ، ويسوق ذَوْدُ^(١) المتطهرين إلى غدير التَّوْبَةِ ، ونحن نجعله هَيْئَةً بين يدي الفراسة ، لتزكية النفوس إن صدق حكم الفراسة ، فمن ذلك ما صدر عني على لسان واعظ .

الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد في قربه من العبيد ، القريب في بُعدِه فهو أقرب من حبل الوريد^(٢) ، محيي ربوع العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومُفْنِي نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العَرَض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سُجُون دُجُون التقييد ، إلى فُسْح التجريد ، نحمده وله المنتظمة درره في سلوك الدوام وسموط التأيد ، حَمَد من نزه أحكام وحدانيته ، وأعلام فردانيته ، عن مرابط التقييد ، ونَحْبَط الطَّبَع البائد ، ونشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيّد ، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو شهادة تتخطى بها معالم الخلق إلى حضرة الحق على كَيْدِ التفريد ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفَذْلُكَ الحساب وبيت القصيد ، الخصوص بمنشور الإدلال ، وإقطاع السكّال ، بين مقام المُرَاد ومقام المُريد ، الذي جعله السبب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد ، وخاطَبَ الخلائق على لسانه الصادق بحجتي الوعد والوعيد ، فكان مما أوحى به إليه ، وأزل الملك به عليه ، من الذكر الحميد ، لياخذ بالْحُجَزِ والأطواق من العذاب الشديد (ولقد خلقنا الإنسان ونَعَلَمَ ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حَبْلِ الْوَرِيدِ) إلى قوله (الحديد) صلى الله عليه وعلى آله صلاةٌ تقومُ ببعض حقه الأكيد ، وتَسْرِي إلى تربيته الزكية من ظهور المواجِدِ الجائية على البريد .

(١) الندود - بالفتح - الإبل من الثلاثة إلى التسعة ، أو إلى العشرة ، وفي أمثالهم : « الندود إلى الندود إبل » يريدون القليل ينضم إلى القليل يصير كبيراً .
(٢) حبل الوريد : عرق في العنق ، وفي القرآن الكريم (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

قعدتُ لندكبر ولو كنت منصفاً لدكرتُ نفسي فهي أحوج للذكرى
 إذا لم يكن منى لنفسى واعظ فياليت شعري كيف أفل في الأخرى
 آه ! أي وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبائنا يسمع؟ وفيماذا وقد تبين الرشد من الغي
 يطعم؟ يامن يُعطى ويمنع، إذ لم تقم الصنعة فماذا نصنع؟ اجتمعنا بقلوبنا يامن يفرق
 ويجمع، ولين حديدها بنار خشيتك فقد استماد نبيك صلى الله عليه وسلم من
 قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، اعلّموا - رحمكم الله ! - أن الحكمة ضالة المؤمن
 يأخذها من الأقوال والأحوال، ومن الجاد والحيوان، وما أملاه المَلَوَان^(١)، فإن
 الحق نور لا يضره أن صدر من الخامل، ولا يقصر بمحموله احتقار الخامل،
 وأنتم تدرون أنكم في أطوار سفر لا تستقر لها دون العاية رحلة، ولا تتأني معها
 إقامة ولا مهلة، من الأصلاب، إلى الأرحام، إلى الوجود، إلى القبور، إلى
 النشور^(٢)، إلى إحدى داري البقاء، أفي الله شك؟ فلو أبصرتم مسافرا في البرية
 يبتغي ويفرش، ويمهد^(٣) ويعرش، ألم تكونوا ناضحكون من جهله، وتعجبون
 من ركاكة عقله^(٤)؟ والله ما أموالكم ولا أولادكم وشواغلكم عن الله التي فيها
 اجتهدكم لإبقاء سفر في فقر^(٥)، أو إعراس في ليلة فقر^(٦)، كأنكم بها مطرحة تعبر
 فيها الموائى، وتنبو العيون عن خبرها المتلاشى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله
 عنده أجر عظيم) ما بعد انقيل إلا الرحيل، ولا بعد الرحيل إلا المنزل الكريم
 أو المنزل الويل، وإنكم تستقبلون أهوالا سكرات الموت بواكر حسابها، وعقب
 أبوابها، فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الأبواب، وما كل
 حقيقة يشرحها الكلام (يا أيها الناس إن وعد الله حق، فلا تفرنكم الحياة الدنيا
 ولا يفرنكم بالله الغرور) أفلا أعددتُم لهذه الورطة حيلة، وأظهرتم للاهتمام بها تخيلة؟

(١) الملوَان : الليل والنهار (٢) النشور : الخروج من القبور للعرض على الله .

(٣) يمهد : يوطئ ويذل ويعبد . (٤) ركاكة عقله : أراد ضعفه .

(٥) القفر : الأرض الموحشة . (٦) الإعراس : النزول ليلا ، والنفر

- بالفتح - التنرق والانتشار، ويوم النفر : اليوم الذي ينفر الحجاج فيه من منى إلى مكة .

أَتَمُ يَلَا عَلَى غَفْوِهِ مَعَ الْمُقَاتِلَةِ وَهُوَ الْقَائِلُ فِي مَقَامِ النَّهْيِ (إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) ؟
أَتَمُّنَا مِنْ مَكْرِهِ مَعَ الْمُنَابَذَةِ (وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) ؟ أَطْمَعًا فِي رَحْمَتِهِ
مَعَ الْخِلَافَةِ وَهُوَ يَقُولُ (فَسَاءَ كِتَابُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) ؟ أَمَشَاقَةً وَمَعَادَةً (وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ
فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ؟ أَشْكَاءٌ فِي اللَّهِ ؟ فَتَعَالَوْا نَعِيدُ الْحِسَابَ ، وَنَقْرُ الْعَقْدَ وَنَتَصَفَّ
بِدَعْوَةِ الْحَقِّ أَوْ غَيْرِهَا ، مِنْ الْيَوْمِ تَفْقَدُ الْعَقَائِدَ عِنْدَ التَّسَاهُلِ بِالْوَعِيدِ ، فَالْعَامِي
يَدْمِي الْأَصْبَعَ الْوَجِيعَةَ ، وَالْعَارِفَ يَضْمُدُ لَهَا مَبْدَأَ الْعَصَبِ .

هَكَذَا هَكَذَا يَكُونُ التَّعَامِي هَكَذَا هَكَذَا يَكُونُ الْغُرُورُ

(يَا خَسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وَمَا عَدَا ، عَمَادًا (١) ؟
وَرَسُولُكُمْ الْخَرِيصُ عَلَيْكُمْ الرُّؤْفُ الْرَحِيمُ يَقُولُ لَكُمْ « السَّكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ
وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْأَحَقُّ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي »
فَعَلَامَ بَعْدَ هَذَا الْمَعُولِ (٢) ؟ وَمَاذَا يَتَأَوَّلُ ؟ اتَّقُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِكُمْ وَانصَحُواهَا ،
وَاجْتَنِبُوا فُرْصَةَ الْحَيَاةِ وَارْتَحِمُوا (أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا خَسِرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ
اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّاحِرِينَ) وَتَنَادَى أُخْرَى (هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ) (٣)
وَتَسْتَفِثُ أُخْرَى (يَا لَيْتَنَا نَرَدُ فَنَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) ، وَتَقُولُ أُخْرَى (رَبِّ
ارْجِعُونِي) فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ ، قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِهِ ، وَقَدَّمَ اغْدَهُ مِنْ أَمْسِهِ ،
وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالْغَفْلَةُ تَقُودُ إِلَى الْقَوْتِ ، وَالصَّحَّةُ مَرَكَبُ الْأَلَمِ ،
وَالشَّيْبَةُ سَفِينَةٌ تَقْطَعُ إِلَى سَاحِلِ الْمَرَمِ .

وَإِنْ شَاءَ قَالَ بَعْدَ الْخُطْبَةِ : إِخْوَانِي ، مَا هَذَا التَّوَانِي ، وَالْكَفْلُ بِالْوُجُودِ
الْقَانِي عَنِ الدَّائِمِ الْبَاقِي وَالْذَّهْرُ يَقْطَعُ الْأَمَانِي ، وَهَازِمُ اللَّذَاتِ قَدْ شَرَعَ فِي نَقْضِ
الْمُبَانِي ؟ أَلَا مَعْتَبَرٌ فِي عَالَمِ هَذِهِ الْمَعَانِي ؟ أَلَا مَرْتَحِلٌ عَنْ مَغَابِنِ هَذِهِ الْمَغَانِي ؟

(١) « مَا عَدَا عَمَادًا » حَرْفِيَّتُهُ : مَا جَعَلَكَ تَجَاوِزَ مَا ظَهَرَ لَكَ ؟

(٢) الْمَعُولُ : مُصَدَّرٌ مُبْجَى بِمَعْنَى التَّعْوِيلِ .

(٣) الْمَرَدُّ : الرَّجُوعُ .

أَلَا أَدُنُّ تُصْنِي إِلَى سَمِيعَةٍ أَحَدُهَا بِالصَّدَقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتَ
 مَدَدَتْ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهَ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلَمْ يَسْمَعْ الصَّوْتَ
 هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتَوَبُوا سَرَّاعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْقَوْتُ
 يَا كَلْفًا مِمَّا لَا يَدُومُ ، يَا مَفْتُونًا بِغُرُورِ الْوُجُودِ الْمَعْدُومِ ، يَا صَرِيحَ جِدَارِ الْأَجَلِ
 الْمُهْدُومِ ، يَا مُشْتَغَلًا بِنِيبَانِ الطَّرِيقِ قَدْ ظَهَرَ الْمُنَاسَخُ ^(١) وَقُرُبَ الْقُدُومِ ، يَا غَرِيقًا فِي بَحَارِ
 الْأَمَلِ مَا عَسَاكَ تَعُومُ ، يَا مَعْلَلَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَمَعَ السَّرَابِ ، لَا بَدَأَ أَنْ تَهْجُرَ
 الْمَشْرُوبَ وَتَتْرَكَ الْمُطْعُومَ ، دَخَلَ سَارِقُ الْأَجَلِ بَيْتَ عَمْرٍكَ فَسَلَبَ النَّشَاطَ وَأَنْتَ
 تَنْظُرُ ، وَطَوَى الْبَسَاطَ وَأَنْتَ تَكْرَبُ ، وَاقْتَلَعَ جَوَاهِرَ الْجَوَارِحِ وَقَدْ وَقَعَ بِكَ النَّهْبُ ،
 وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْوَسَادَةُ عَلَى أَنْفِكَ وَيَقْعَدُ .

لو خفف الوجد عني دعوت طالب ثاري

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) كَيْفَ التَّرَاخَى وَالْقَوْتُ مَعَ الْأَنْفَاسِ يَنْتَظِرُ؟ كَيْفَ الْأُمَانُ
 وَهَاجِمُ الْمَوْتِ لَا يَبْقَى وَلَا يَدَّرُ؟ كَيْفَ الرُّكُونُ إِلَى الطَّمَعِ الْفَاضِحِ وَقَدْ صَحَّ الْخَبَرُ؟
 مَنْ فَكَّرَنِي كَرْبَ الْحَمَارِ ^(٢) تَنَفَّصَتْ عِنْدَهُ لَذَّةُ النَّبِيذِ ، مَنْ أَحَسَّ بِلَغْطِ الْحَرِيقِ فَوْقَ
 جِدَارِهِ لَمْ يُضْغَعْ بِصَوْتِهِ لِنَغْمَةِ الْعُودِ ، مَنْ تَيَقَّنَ بِذِلِّ الْعِزَّةِ هَانَ عَلَيْهِ تَرْكُ الْوِلَايَةِ .

ما قام خيرك يا زمان بشره أولى لنا ما قَلَّ مِنْكَ وما كَفَى

أَوْحَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَى مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنْ ضَعِ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ ،
 فَبَعْدَ مَا حَازَتْهُ مِنْ شَعْرَةِ تَعِيشِ سَنِينَ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ وَبَعْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ تَمُوتُ ، قَالَ :
 يَا رَبِّ فَالآنَ .

رَأَى الْأَمْرَ يُفْضَى إِلَى آخِرٍ فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلًا

إِذَا شَعَرْتَ نَفْسُكَ بِالْمِيلِ إِلَى شَيْءٍ فَأَعْرِضْ عَلَيْهَا غَصَّةَ فِرَافِهِ (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ

(١) المناخ - بضم الميم - اسم مكان من « أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ يَنْخِجُهَا » أَي جَعَلَهَا
 تَبْرَكَ ، وَهَذَا إِيمًا يَكُونُ عِنْدَ انْتِهَاءِ السَّيْرِ : وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا حِظُّ الرِّحَالِ وَالْإِقَامَةِ .

(٢) الحمار - بضم الحاء - مَا يَعْتَرِي شَارِبَ الْحَمْرِ مِنَ الدَّوَارِ وَنَحْوِهِ .

أيننة ويحيا من حي عن بينة) فالتفروح به هو الحزون عليه ، أين الأحباب ؟ مروا ،
فيا ليت شعري أين استقروا ؟ استكانوا والله واضطروا ، واستغاثوا من سببك بأوليائهم
قفروا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ماضروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والعروش
ذابلة ذاوية ، والمظام من بعد التفاضل متشابهة متساوية ، والمساكن تندب في
أطلالها الذئب العاوية .

صَحْتُ بالرَّبع فلم يستجيبوا ليت شعري أين يمضي الغريب
وبجنب الدار قبر جديد منه يستسقى المسكان الجديد
غاض قلبي فيه عند التماحي قلت هذا القبر فيه الحبيب^(١)
لا تسئل عن رجعتي كيف كانت إن يوم البين يوم عصيب^(٢)
باقتراب الموت عللت نفسي بعد إلى كل آت قريب

أين المعمر الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين التالد ؟ أين المجادل أين
المجالد ؟ (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)^(٣) وُجُوهٌ علاهين الثرى ،
وصحائف نفص ، وأعمال على الله تعرض ، بحث الزهاد والعباد ، والعارفون والأوتاد ،
والأنبياء الذين يهْدَى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذي لا سعادة بعده ، فلم
يجدوا إلا البعد عن الله تعالى ، وسببه حب الدنيا « لن تجتمع أمتي على ضلالة »

هَجَرْتُ حباثتي من أجل ليلى فإلى بعد ليلى من حبيب
وماذا أرتجى من وصل ليل ستجزى بالقطيعة عن قريب

وقالوا : ما أورد النفس الموارد ، وفتح عليها باب الخنف ، إلا الأمل ، كلما قوتها
مناقف الحدود فتح لها أركان الرخص ، كلما عقدت صَوْمَ العزيمة أهداها طرف

(١) أصل « غاض » أن يقال في الماء ونحوه ، تقول « غاض الماء » تريد
أنه غار في جوف الأرض ، والالتماح : النظر . (٢) يوم عصيب : شديد .
(٣) الركز - بالكسر - الصوت .

الغرور في أطباق : حتى ، وإذا ، ولكن ، وربما ، فأفرط القلب في تقليبها حتى أفطر

ما أوبق الأنفس إلا الأمل وهو غرور ما عليه عمل

يفرض منه الشخص وهما ماله حال ولا ماض ولا مستقبل

ما فوق وجه الأرض نفس حية إلا قد انقض عليها الأجل

لو أنهم من غيرها قد كونوا لامتأ السهل بهم والجبل

ما نهم إلا لقم قد هيأت للموت ، وهو الآكل المستعجل

والوعد حق والورى في غفلة قد خودعوا بعاجل وضلوا

أين الذين شيدوا واغترسوا ومهدوا واقترشوا وظلوا

أين ذوو الراحة زادت حسرة إذ جنبوا إلى الثرى وانتقلوا

لم تدفع الأحباب عنهم غير أن بكوا على فراقهم وأغولوا

الله في نفسك أولى من له ذخرت نصحا وعمابا يقبل

لا تتركها في عمى وحيرة عن هول ما بين يديها تغفل

حقر لها القانى وحاول زهدها وشوقها إلى الذى تستقبل

وفد إلى الله بها مضطرة حتى ترى السير عليها يسهل

هو الفناء والبقاء بعده والله عن حكمته لا يسأل

يا قرة العين ويا حسرتها يوم يوفى الناس ما قد عملوا

يا طرد الخالفة ، إنكم مُدْرَكُونَ فاستبقوا باب التوبة ، فإن رب تلك الدار يجير ولا يجار عليه ، فإذا أمنتهم فاذكروا الله كما هداكم ، يا طُمُئِيلِيَّةُ الهمة ، دُشُوا أنفسكم بزُرُ الثائنين ، وقد دُعُوا إلى الله دعوة الحبيب ، فإن لم يكن أكل فلا أقل من

طيب الوليمة ، قال بعض العارفين : إذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى انتشرت
 رعايا الطاعة في عمالة الأعمال (وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب)
 معاني هذا المجلس والله نسيم سحر ، إذا استنشقه تخمور الغفلة أفاق ، سوّط هذا
 الوعظ يبغض إن شاء الله زَكَمَةَ^(١) البطالة ، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، إكسير
 هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر ، القلوب المنكسرة عَيْنُ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (إنما
 يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله) إلهى دلنا من حيرة يضل فيها إلا إن
 هديت الدليل ، وأجرنا من غمرة وكيف إلا بإعانتك السبيل ؟ نفوس صدىء على مَرَّ
 الأزمان منها الصَّقِيل ، ونبايخنوبها عن الحق المقيّل ، وأذان أنهضها القول الثقيل ،
 وعثرات لا يقيّلها إلا أنت يامقيّل العثرات يامقيّل ، أنت حسبنا ونعم الوكيل ، انتهى .
 ومن مواعظ لسان الدين رحمه الله سبحانه ما أورده في الروضة إثر ما سبق ،
 إذ قال : إخواني صَمَّتْ الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار إليه شهير ،
 أين الملك وأين الظهير ؟ أين الخاصة أين الجماهير ؟ أين القَبِيل والعشير ؟ أين كسرى
 ابن أردشير ؟ صدق والله الناعي وكذب البشير ! وغشَّ المستشار وأتهم المشير ،
 وسئل عن الكل فأشار إلى التراب المشير :

خذ من حياتك للممات الآتى وبدارٍ ما دام الزمان مُوَائِي^(٢)
 لا تغترر فهو السراب بقيعة قد خودع الماضى به والآنى
 يا من يؤمل واعظاً ومذكراً يوما ليوقظه من الغفلات
 هلا اعتبرت وبالله من عبرة بمدافن الآباء والأمات
 قف بالبقيع ونادٍ في عرصاته فلكم به من جيرة ولدات
 درجوا ولست بخالد من بعدهم متميز عنهم بوصف حياة

(١) الزكمة - بفتح الزاى - الزكام ، وهو تحلب فضول رطبة من بطني الدماغ
 المقدمين إلى المنسخرين ، فتفسد مسالكهما .
 (٢) بدار : اسم فعل أمر بمعنى بادر : أى أسرع ، وموائى : مساعد ومساعد .

والله ما استمَلَّتْ حَيًّا صارخا إلا وأنت تعد في الأموات
 لافوتَ عن درك الحمام لهارب والناس صرعى مَعْرَكِ الآفات
 كيف الحياة لدارج متكلف سنة الكرى بمدارج الحيات
 أسفاً علينا معشر الأموات لا تنفك عن شغل بهك وهات
 ويغرنا لمع السراب فنفتدى في غفلة عن هاذم اللذات
 والله ما نصَحَ امرأ من غشه والحق ليس بخافت المشكاة
 يامن غدا وراح ، وألف الراح ^(١) ، يامن شرب الراح ^(٢) ، مزوجة بالعذب القراح ^(٣) ،
 وقعد لعيان صروف الزمان مقعد الاقتراح ، كأنك والله باختلاف الرياح ، وسماع
 الصباح ، وهجوم غارة الاجتياح ^(٤) ، فأدبل الخفوت من الارتياح ، ونسيت أصوات
 الغناء برنات الرياح ، وعوضت عُرُرُ الثوب القباح ، من غرر الوجوه الصُّباح ،
 وتناولت الجسوم الناعمة أيدي الأطراح ، وتنفوسيت العهود الكريمة بمر المساء عليها
 والصباح ، وأصبحت كَمَاة النطاح ، من تحت البطاح ، وخملت المهندة والرماح ، ذليلة
 من بعد الجماح .

ولو كان هَوْلُ الموت لا شيء بعده لهان علينا الأمر واحتقر الهول
 ولكنه حَسْر ونشر وجنة ونار ، وما لا يستقل به القول
 يامشتغلا بداره ، ورَمَّ جداره ، عن إسماعه إلى النجاة وِبداره ، يامن صاح بإنذاره
 شيب عذاره ، يامن صَرَفَ عينَ اعتذاره بأقذاره ، يا من قطعه بعد مزاره وثَقُلُ
 أوزاره ، يامعتلقاً ينتظر هجوم جَزَّاره ، يا مختلساً للأمانة يرتقب مفقش ما تحت
 إزاره ، يامن أمعن في خمر الهوى خَفَ من إسكاره ، يامن خالف مولى رِقِّهِ تَوَقَّ
 من إنكاره ، يا كلفا بعارية ترد ، يا مفتونا بأنفاس تُعد ، يا معولاً على الإقامة

(١) الراح ، هنا : الراحة ، ضد التعب . (٢) الراح ، هنا : الخمر .

(٣) القراح - بالفتح ، بزنة السحاب - المساء لا يخالطه شيء .

(٤) اجتاحه يحتاجه : أهلكه واستأصله .

والرحال تشدّ ، كأنى بك وقد أوثق الشدّ ، وألصق بالوسادة الخدّ ، والرجل تقبض
والأخرى تمدّ ، واللسان يقول (ياليتنارد) :

إنا إلى الله وإنا له ما أشغل الإنسان عن شأنه
يرتاح للأواب يُزهِى بها والخيوط مغزول لأكفانه
ويخزن الفلّس لورّائه مستنفدا مبلغ أكوانه
قوَّض عن القانى رَحَالَ امرئ مد إليه عين عرفانه
مائم إلا موقف زاهد قد وكل العدل بميزانه
مُفَرِّط يشقى بتفريطه ومحسن يحزى بإحسانه

يا هذا خفي عليك مَرَضُ اعتقادك فالتبس الشحم بالورم ، جهلت قِيمِ المعادن
فبِعْتَ الشَّبهَ بالذهب ، فَسَدَ حَسُّ^(١) ذوقك فتفككت بمنظله ، أين حرصك من أجلك ؟
أين قولك من عمالك ؟ يدركك الحياء من الطفل فتتحمى حتى الفاحشة في البيت
بسببه ، ثم توافعها بعين خالق العين ، ومُقدِّر الكيف والأين ، تالله ما فعل فعلك
بمعبوده ، مَنْ قَطَعَ بوجُوده (ما يكون من نجوى ثلاثة - إلى عليم) تعود عليك
مَسَاعَى الجوارح التى سخرها لك بالقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، فتبخل
منها فى سبيله بفلس ، وأحد الأمرين لازم : إما التكذيب ، وإما الحقيقة ، وجمعك
بين الحالتين عجيب ، يرزقك السنين العديدة من غير حق وجب لك ، وتسىء
الظن به فى يوم ، توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التماذى ؟ تعترف بالذنب
فما الحجة فى الإصرار ؟ (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى حَبُثَ لا يخرج
إلا نَكِدا) يا مدعى النسيان ماذا فعلت بعد التذكير ؟ يا معتذراً بالغفلة أين ثمرة
التنبية ؟ يامن قطع بالرحيل أين الزاد ؟ ياذبابة الحرص كم ذاتلجج فى ورطة الشهد ؟
يانامامل عينيه حَذَارِ الأجلُ قد أنذر ، يائمل الاغترار قرُبَ خمار الندم ، تدعى الحذق

بالصنائع وتجهل هذا القدر ، تبذل النصيح لغيرك وتغش نفسك هذا الغش ، أندمل جرحُ توبتك على عَظْم ، قام بناء عَزَمَتك على رمل^(١) ، نبتت خضراء دَعَوَتك على دِمنَةٍ^(٢) ، عقدت كفك من الحق على قَبْضَةِ ماء (أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) ، إذا غام جو هذا المجلس ، وابتدأ رش غمام الدموع ، قالت النفس الأمارّة : حوالينا لا علينا ، فدالت رياح الغفلة ، وسَحَابُ الصيف هفاف ، كلما شد طفل العزيمة على دُرّة التوبة صانَعَتَه ظنُّ الشهوة عن ذلك بعصفور ، إذا ضيق الخوف فُسْحَة المهل سرق الأمل حدود الجار ، قال بعض الفضلاء : كانوا إذا فقدوا قلوبهم ، تفقدوا مطلوبهم ، ولو صدق الواعِظُ لأنر ، اللهم لا أكثر ، طيب يداوى الناس وهو عليل ، والخطب جليل ، والمتفطن قليل ، فهل إلى الخلاص سبيل ، اللهم انظر إلينا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء ، وشملت الأموات والأحياء ، يا دليل الحارين دُلّنا ، يا عزيز أرحم دُلّنا ، يا وليّ من لا وليّ له كن لنا كلنا ، إن أعرضت عنا فمن لنا ؟ نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب ، فقلّب قلوبنا يا مقلب القلوب ، واسْتُرْ عيوبنا يا ستارَ العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب ، اهـ .

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعظة ، ونصه :

من إنشائه
مخاطب طالب
موعظة

إذا لم أنُحْ يوماً على نَفْسِي التي بحرائها أَحْبَبْتُ كلَّ حبيب
وقد صح عندى أن عادية الردى تدبُّ لها والله كل ديب^(٣)
فَمَنْذَا الذى يبكى عليها بأدمعى إذا كنت موصوفاً برأى لبيب

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى إنسانه ، وقد

- (١) بناء على رمل : كناية عن ضعف البناء ، وأنه موشك أن ينهار لضعف أسسه .
(٢) يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ فقال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء » .
(٣) في ب « وقد صح عندى أن عادية الردى » .

ذبت بالسقم نرجسة لحظه ، وذوت وردة خده ، واصفرت لمغيب الفراق شمسُ
حسنه^(١) ، وهو يجود بنفسه التي كان يبخل منها بالنفس ، يخاطب بلسان حاله
مسترحها ، وليت العجل يهضم نفسه ، وأنت على أثر مسجبه إلى دنت الحسم ،
(وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) .

ومنها : تالله لو لم يكن الخببر صادقا لنشب بمحلق العيش بعده شوكة الشك :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي

ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شئ

فالحازم من بتر الآمال^(٢) طوعا ، وقال : يبدى لا بيد عمرو^(٣) (يا أيها الناس إن
وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .

وقل أمير الوعاظ رحمه الله تعالى * وبضدها تتمير الأشياء * يا مقتولا ماله
طالب ثار ، بريد الموت مُطلق الأعنة^(٤) في طلبك ، وما يحميك حصن ، ثوب
حياتك منسوج من طافات أنفاسك ، والأنفاس تستلب ذرات ذاتك ، وحركات
الزمان قوية في النسج الضعيف ، فيأسرعة التمزيق ، يا رابطاً مناه بخيط الأمل ،
إنه ضعيف الفتل ، صياد التالف قد بث الصقور ، وأرسل العقبان ، ونصب
الأشراك ، وقطع المواد ، فكيف السلامة ؟ نهيا لسرعة الموت وأشد منها قلب
القلب ليت شعري لما يؤول الأمر :

فوالله لا أدري أيغلبني الهوى إذا جدَّ جدُّ البين أم أنا غالبه

فإن أستطع أغلب وإن يغلب الهوى فمثل الذي لا قيت يغلب صاحبه

مركب الحياة تجرى في بحر البدن برُخاء الأنفاس ، ولا بُدَّ من عاصف قاصف
بفلسكه ويغرق الركاب :

(١) اصفرت شمسه : كناية عن دنوه من الارتحال والمغيب .

(٢) بتر الآمال : قطعها . (٣) هذا مثل تقوله الزباء ملكة الجزيرة .

(٤) الأعنة : جمع عنان ، وهو ما تقاد به الدابة ، ومطلق الأعنة : كناية عن

فأقضوا مآربكم عَجْالاً إِنَّمَا أعماركم سفر من الأسفار
 وقال : كأنك بحرب التلف قد قامت على ساق ، وانتهزمت بجنود الأمل ، وإذا
 بملك الموت قد بارز الروحَ يَجْذِها بِحَطَّاطِيفِ الشدائد من قيان العروق ، قد شد
 كتاف الذبيح ، وحرار البصر لشدة الهول ، وملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحو
 أبواب الجنة ، وملائكة العذاب عن اليسار قد فتحو أبواب النار ، وجميع المخلوقات
 لستوكف الخبر ، والكون كله قد قام على صيحة : سَعِدَ فلان ، أو شقى فلان ،
 تهتك تجلى أبصار الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى ، ويحك ! تهياً
 فتلک الساعة ، حَصَلَ زاداً قبل الفوت :

تمتع من شميم عَرَّار نجد فما بعد العشية من عَرَّار
 مَبْلٌ لعينيك سرعة الموت ، وما قد عزمت أن تفعل حينئذ في وقت الأسر
 فافعله في وقت الإطلاق ، وقال أبو العتاهية :

خانك الطرف ائـد أيها القلب الجموح ^(١)
 فدَوَّاعى الخير والشر دُنُوٌّ ونـزوح ^(٢)
 كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
 أحسن الله بنا إن الخطايا لا تبوح ^(٣)
 فإذا المشهور منا بين أيديه فضوح ^(٤)
 كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوخ
 صاح منه برحيل طائر الدهر الصدوح ^(٥)
 موت بعض الناس في الأر ض على بعض فتوح
 سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح

- (١) القلب الجموح : الجامع الذى لا يقف عند حدود العقل ، ولكنه يجرى مع شهواته ، وفي ديوان أبي العتاهية : « خانك الطرف الطموح » .
 (٢) في الديوان : « لدواعى الخير » . (٣) في الديوان : « إن الخطايا لا تفوح » . (٤) في الديوان : « فإذا المستور منا » .
 (٥) في الديوان : « صائح الدهر الصدوح » .

بين عَيْنَيَّ كل حى عَـلَمَ الموت يلوح
 كلنا فى غفلة والـدهر يغـدو ويروح ^(١)
 لبنى الدنيا من الدنيا غـبوق وصـبوح
 رُحْن فى الوشى وأصبحن عليهن المـسـوـح
 كل نطاح من الدهر له يوما نـطـوـح
 نُحْ على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح
 لتنوحنَّ ولو عُـمـرُت ما عُـمـرَ نوح ^(٢)

وقال فى المعنى :

لمن طَلَّ أسـانـله مُعـطـلة مناهله ^(٣)
 غداة رأيتـه تنعى أعالـيه أسـافـله
 وكنت أراه مأهولا ولكن بادَ آهـله ^(٤)
 وكلَّ لاعتساف الدهر مُعـرَضـة مقاتله
 وما مُتـمـلـك إلا وريب الدهر شامله ^(٥)
 فيصرع من يصارعه وينـضـل من يفاضله
 ينازل من يهـمُّ به وأحيانا يُخـاـرَـله ^(٦)
 وأحيانا يؤخـره وتارات يعاجله
 كفـاك به إذا نزلت على قوم كـلاـكلـه
 وكم قد عزَّ من ملك تحف به قبائله ^(٧)
 ويثنى عـظـفه مـرَحـًا وتعجبه شمائله
 فلما أن أتاه الحق ولَّى عنه باطله

(١) فى الديوان : « والموت يغدو ويروح » . (٢) فى أصل الديوان : « لست
 بالباقي ولو عمرت » وفى نسخة « لتموتن ولو عمرت » . (٣) فى الديوان « معطلة
 منازله » . (٤) مأهولا : مسكونا ، وآهله : ساكنه ، وباد : هلك .
 (٥) فى الديوان : « وما من مملك إلا » . (٦) فى ب « وأحيانا يحامله »
 وأثبتنا ما فى الديوان . (٧) فى الديوان : « تحف به قبائله » .

خَفَضَ عَيْنَهُ لِمَوْتِ وَاسْتَرَحَّتْ مَفَاصِلُهُ ^(١)
 فَمَا لَبِثَ السَّيَاقُ بِهِ إِلَى أَنْ جَاءَ غَاسِلُهُ
 فَجَهَزَهُ إِلَى جَدَثٍ سَيَكُنُّ فِيهِ خَاذِلُهُ
 وَيَصْبِيحُ شَاحِطًا لِلْمَوْتِ مُفَجَّعَةً ثَوَاكِلُهُ ^(٢)
 مَخْمُوشَةً نَوَادِيهِ مَسْلُوبَةً حُلَائِلُهُ ^(٣)
 وَكَمْ قَدْ طَالَ مِنْ أَمَلٍ فَلَمْ يَدْرِكْهُ أَمَلُهُ
 رَأَيْتَ الْحَقَّ لَا يَخْفَى وَلَا تَخْفَى شَوَاكِلُهُ
 أَلَا فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ أَيُّ زَادَ أَنْتَ حَامِلُهُ
 لِمَنْزِلٍ وَخَدَةٍ بَيْنَ الْمَقَابِرِ أَنْتَ نَازِلُهُ
 قَصِيرَ السَّمَكِ قَدْ رَمَضْتَ عَلَيْكَ بِهِ جَنَادِلُهُ ^(٤)
 بَعِيدٍ تَجَاوَرَ الْجِيرَانُ ضَيْقُهُ مَدَاخِلُهُ
 أَلَيْتَهَا لِلْمَقَابِرِ فِيكَ مِنْ كُنَّا نَنَازِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نَتَاجَرُهُ وَمَنْ كُنَّا نَعَامِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نَعَاشِرُهُ وَمَنْ كُنَّا نَدَاخِلُهُ ^(٥)
 وَمَنْ كُنَّا نَشَارِبُهُ وَمَنْ كُنَّا نَتَوَاكَلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نَفَاخِرُهُ وَمَنْ كُنَّا نَطَاوَلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نَر_اقِبُهُ وَمَنْ كُنَّا نَزَالِلُهُ ^(٦)
 وَمَنْ كُنَّا نَكَارِمُهُ وَمَنْ كُنَّا نَجَامِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا لَهُ إِقْلَا قَلِيلًا مَا نَزَالِلُهُ ^(٧)

(١) في الديوان : « فغمض عينه للموت » . (٢) الشاحط : البعيد ، والمثوى :
 مكان الإقامة ، وفي ب « ساحط المثلوى » وأثبتنا ما في الديوان . (٣) في الديوان : « مسلبة
 غلائله » (٤) في الديوان : « قصير السمك قد رصت » والجنادل : الحجارة ، واحدها جندل ،
 ورمضت : حميت من الرمضاء (٥) في الديوان : « ومن كنا نطاوله » (٦) في الديوان :
 « رافقه ... ننازله » وليس بشيء (٧) في الديوان : « قليلا ما نزالله » .

ومن كفا له بالأمس إخوانا نواصله^(٨)
 فحل محلة من حلها صرمت حباله
 ألا إن المنية منهل والخلق ناهله
 وأخر من ترى تقنى كما فنيت أوائله
 لعمر ك ما استوى في الأمر عالمه وجاهله
 ليعلم كل ذى عمل بأن الله سائله
 فأشرع فائزاً بالخير قائله وفاعله

ثم قال لسان الدين رحمه الله تعالى ، بعد ما سبق ، ما صورته : وهذا الغرض بحر ،
 ويكفى من خزائنه عرض ، ومن بيت ماله قرض ، إن شاء الله تعالى .
 ثم قال : تنبيه يشتمل على سؤالين : أحدهما أن يقال : الوعظ غير مناسب
 للمحبة ، إذ لا يحصل إلا بعد الفراغ واليقظة ، الثانى : أن يقال : عظمت الحسرة
 لفراق عالم الحس ، وأطلمت فى قشور ، فنجيب عن الأول : إنا لم نجلب الوعظ
 إلا بين يدي تأميل حضور المحبة ، فكأنه يجرى مجرى الأسباب ، فإن الغرض به
 وجهة النفس من جو السرور ، واللعب بالزور ، إلى جو الحزن والارتماض ، ومن
 هنالك تأخذ بخطاها أيدي الاضطرار ، فتحصل اليقظة ، ثم التوبة ، ومنها
 يستقيم الطريق فى منازل السائرين إلى الحق :

والنفس راغبة إذا رغبت بها وإذا تُرد إلى قليل تقنع
 وعند ذلك يطوى بساط الزجر والوعظ ، ويمد بساط الاعتبار والحب ، إن شاء
 الله تعالى ، فإنها كالشكلى بطبعها لما فارقت من عنصر نور الله تعالى ، والعوالم
 الروحانية التى هى الشعار والدثار^(٢) ، والأمل والدار ، والحياة والجمال ، والوجود
 والكمال ، وإن كانت لا تشعر بالسبب ، ولا تستحضر ذكر العلة ، فإذا ذكر الفراق أنت

(١) فى الديوان : « أحياناً نواصله » .

(٢) الشعار - بكسر أوله - ما يلى الجسد من الثياب ، والدثار - بالكسر

أيضا - ما يكون فوقه .

أوتنوشدت الآثار حَتَّتْ ، ويطرقها الحزن عند الألحان الشجية ، وتحس بعض الأحيان بالمواجد العشقية^(١) :

وقالوا أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت لهم : إن الأسى يبعث الأسى دعونى فهذا كله قبر مالك

وعن الثانى : إن كثيرا من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحس ، فضلا عن النظر فيه ، وإن شعرت بذلك عد منها نبلا ، ومن كان بهذه المثابة لا سبيل لنُدائه إلا من باب القُشور (أولئك ينادون من مكان بعيد) إلى أن يتأتى النداء من باب الله تعالى بفضل الله تعالى ، فالنفوس الشخصية غير متساوية ، وهى بهوى الهوى هاوية ، فالقريب منها يجذب بالأنامل ، والبعيد بالجزل السكامل ، وعلى قدر المحمول تكون قوة الحامل * يضع الهناء مواضع النقب *^(٢).

يكفى اللبيب إشارة مكتومة وسواه يدعى بالنداء العالى

وسواها بالزجر من قبل العصا ثم العصا هى رابع الأحوال

وقال رحمه الله تعالى فى فصل ذم الكسل ، ما صورته : ونحن نجلب بعض الأمثال فى ذمه ، مما يسهل حفظه ، ويجب لحظه ، فمن ذلك : الكسل مزلة الرجب ، ومسخرة الصبح ، إذا رقدت النفس فى فراش الكسل استغرقها نوم الغفلة (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) . الندامة فى الكسل ، كالسهم فى العسل . الكسل آفة الصنائع ، وأرضة البضائع . العجز والكسل ، يفتحان الخمول ولا تسل . الفلاح إذا ملَّ الحركة ، عدم البركة .

ظهر ان لا يُبلغانِ المرءَ إن رُكبا باب السعادة : ظهر العجز ، والكسل

(١) البیتان لمتعم بن نورة من مرثية له فى أخيه مالك ، وقبلهما :
لقد لامنى عند القبور على البكى صحابى لتذراف الدموع السوافكى

(٢) هذا نصف بيت يقوله دريد بن الصمة فى الحنساء ، وصدره قوله :

* متبذلا تبدو محاسنه *

وفى اغتنام الأنام : من أضاع الفرصة ، تجرع الفصة . إن كان لك من الزمان شيء فالحال ، وما سواه فمُحَال . تارك أمره إلى غد ، لا يفلح للأبد . الإنسان ابنُ ساعته ، فليحطها^(١) من إضاعته . التسويف سُمُّ الأعمال ، وعدوُّ الكمال . لم يُحرَمِ المُبادر ، إلا فى النادر . مادرجت أفرأخُ ذلِّ إلامن وكر طماعة ، ولا بَسَقَت فروعُ ندمٍ إلا من جرثومة إضاعته . العزم سوق ، والتاجر الجسور مرزوق . مَنْ وثق بعهد الزمان ، علقت يَدَاهُ بحبل الحرمان . الربح فى ضمن الجسارة ، والمضيع أولى بالجسارة .

ومن أمثالهم - فى نظر الإنسان لنفسه ، قبل غروب شمسهِ - قولهم : اعلم أن كل حَكِيم صانع إذا فكر فى أمره ونظر فى العواقب علم أنه لا بد يومًا أن يخرب دكانه الذى هو محل بضاعته ، وتنحل أنقاضه ، وتكل أدواته^(٢) ، وتضعف قوته ، وتذهب أيام شبابه ، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان ، واستغنى عن السعى ، فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ، ولا إلى أدوات مجددة ، فليَتَجَرَّ بما اقتناه ويشتغل بالانتفاع والالتذاذ بما اكتسبت يَدَاهُ ، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد ، فبادر واجتهد واحرص واستعجل ، وتزوّد قبل خراب دكانك وهدم بنيته ، فإن خير الزاد النقوى ، قال حسان :

إذا أنت لم ترحل بزاد من النقى وأبصرت بعد اليوم من قد تزوّد

ندمت على أن لا تكون كمثله ولم تتّردّد مثل ما كان أرسدا

قال أبو الفرج بن الطيب البغدادى فى اغتنام الوقت فى كتابه فى السياسة والآراء الفاضلة : يجب أن تعيد وتمثل ، فإن الفكر مضطرب متشوش بكثرة نوازع النفس واختلاف قواها ، والعمى فى بعض الأوقات ، فإذا سنع للنفس وقت فاضل بصفاء

(١) فليحطها : أى فليحفظها وليرعها .

(٢) تكل : تضعف وتفتقر .

جوهرها ، وأبرمت قانوناً أو صورة متوسطة فاضلة ، يجب أن يقيد بذلك وقت
سعد ربما لا يعاود أو يعاود ، انتهى .

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ
الموحدين بتونس ابن تفرجين ، يخبره بالتمحيص الجارى عليه ، ونصه : من أمير
المسلمين أيده الله ونصره ، وأعلى أمره وأظهره ، إلى ولينا في الله الذى له القدم
الرفيع المناصب ، والمجد السامى الذوائب ، والسياسة التى أخبارها سمر الركبان
وحدو الركائب ، الشيخ الجليل الكبير ، الشهير الخطير ، الهام الأمضى ، الرفيع
الأعلى ، الأجدد الأوحد ، الأسعد الأصعد ، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل
الأرضى الأتقى المعظم الموقر المبرور ، علم الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الإمام ،
معيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، أبى محمد عبد الله بن الشيخ الجليل الكبير الشهير
الماجد الخطير الرفيع الأسعد الأجدد الحسيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل
الأكمل المعظم المقدس المرحوم أبى العباس تفرجين ، وصل الله تعالى له عزة
تناسب شهرة فضله ! وسعادة تتكفل له فى الدارين برفعة محله :

رسالة من إنشاء
لسان الدين
إلى شيخ
الموحدين
بتونس

سلام كريم يخص مجادتكم الفاضلة ، ورتبتكم الحافلة ، ورحمة الله تعالى وبركاته .
أما بعد حمد الذى يُمحّص^(١) ليثيب ، ويأمر بالاستقالة ليُجيب^(٢) ، ويُعقب
ليل الشدة بصبح الفرج القريب ، ويخنى من شجر التوكل عليه ، والتسليم إليه ،
ثمر الصنع العجيب ، ويظهر العبر مهما كسر ثم جبر اسكل ذى قلب منيب^(٣) ،
والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى نلجأ إلى ظل شفاعته فى اليوم
العصيب ، ونستظهر بجأه على جهاد عبدة الصليب ، ونستكثر عدد بركاته فى
هذا الثغر الغريب ، ونصُول منه على العدو بالحبيب ، والرضا عن آله وصحبه بنجوم

(١) يحص : يبتلى ويختبر .

(٢) الاستقالة : أراد بها ترك الذنوب والندم عليها .

(٣) منيب : راجع إلى الله تعالى .

الهداية من بعد الأمانة من الأفلول والمغيب ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم
عزة متصلة ، وعِصْمة بالأمان من نُوبِ الزمان متكفلة إيا - من حمراء غرناطة
حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله تعالى الذى لطف وجبر ، وأظهر فى الإقالة
وحسن الإدالة^(١) العبر ، ممن كتب الله تعالى له العقبى لما صبر ، إلا الخبر الذى
كسا الأعطاف الخبر ، والصنع الذى صدق خبره الخبر ، والحمد لله تعالى كثيرا
كما هو أهله فلا فضل إلا فضله ، ولمسكانتكم عندنا المحل الذى قررت شهرة
فضلكم قواعده ، وأعلت مصاعده ، وأثبت التوائر شواهد ، إذ لانزال نتحف
بسيركم الذى فى التدبيرات يُقْتَنَى ، وعلم يسترشد به إذا العلم اختفى ، والسبيل عفا^(٢) ،
وإن تلك الدولة بكم استقام أودها ، وقامت والحمد لله عُمدُها ، وإنكم رعيتم
فى البنين حقوق آبائهم ، وحفظتم عليها ميراث عليائهم ، ولو لم تتصل بنا أنباؤكم
الحيدة ، وآراؤكم السديدة ، بما يفيد العلم بفضل ذاتكم ، ويُغرى قوى الاستحسان
بصفاتكم ، لغبطنا بمخاطبتكم ومفاتحتكم ، ما نجد من الميل لكم طبعاً وجيلة ،
من غير أن نعتبر سبباً أو علة ، فالتعارف بين الأرواح لا يفكر ، والحديث الكريم
يؤيد من ذلك ما ينقل ويذكر ، وبحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به فى
ملكنا القدر ، وحيث بلغ الورد وكيف كان الصدر ، وربما اتصلت بكم الحادثة
التي أكنأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاديا ، ولا برح فى جوانب
إحسانها راحا وغاديا ، يقيم حجرها السكافل ، ورضيع درها^(٣) الحافل ، الشقى الخاسر ،
الخائن الغادر ، محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره ، الخفية
عنا حيل مكره لخول قدره ، إذ دَعَاهُ محتومُ الحين ليهلك إلى أن يهلك ، وسوّلت
له نفسه الأمانة بالسوء أن يملك أخانا الخاسر ثم يملك ، وسبحان الذى يقول

(١) الإدالة : أن يجعل الله لك الدولة على عدوك .

(٢) السبيل : الطريق ، وعفا : درست وانمحت معالنه .

(٣) الدر - بفتح الدال وتشديد الراء - أراد به الثدى أو لبنه .

(يا نوح إنه ليس من أهلك) وكيف تم له ما أبرمه من تسوّر الأسوار ، واقتحام
 البوّار^(١) ، وتملك الدار ، والاستيلاء على قطب المدّار ، وأنتا كنفْتنا^(٢) عصمةُ الله تعالى
 بمتحوّلنا الذى كان به ليلنثذ محل نوائنا ، وكفّت^(٣) القدرة الإلهية أكف أعدائنا ،
 وخلصنا غالبا بحال انفراد الأمر عناية ونعم الرفيق ، وصدّق اللجأ إلى رحمة
 الله تعالى التى ساحتها عن مثلنا لا تضيق ، فهما تنكر الزمان أو تفرق الفريق ،
 وشرذمة القدر تأخذ علينا كلّ فج عميق ، حتى أويّنا من مدينة وادى آش إلى
 الجبل العاصم ، والحجة المرغمة أنف المخاصم ، ثم أجزّنا البحر بعد معاناة خطوب ،
 وتجهّم من الدهر وقطوب ، وبلاّ الله هذا الوطن بمن لا يرجو الله وقارا ، ولا يالو
 شعائره المعظمة احتقارا ، فأضرمه نارا ، وجلّل وجوه خزيا وعارا ، حتى
 هتك الباطل حياه ، وغير اسمه ومُسمّاه ، وبدد حاميته المتخيرة وشذّبها ، وسخّم
 دواوينه^(٤) التى محصها الترتيب والتجريب وهذبها ، وأهلك نفوسها وأموالها ،
 وأساء لولا تدارك الله تعالى أحوالها ، ولما تأذن جل جلاله فى إقالة العثار ، ودرك
 النار ، وأنشأت نواسم رضاه إدامة الاستغفار ، ورأينا قلاذة الإسلام قد آن انتشارها ،
 والملة الخنيفية كادت تذهب آثارها ، ومسائل الخلاف يتعدد مُثارها ، وجعلت
 اللتان نحونا تشير ، والملك يأمل أن يوافيه بقدومنا البشير ، تحركنا حركة خفيفة
 تشعر أنها حركة الفتح ، ونهضنا نبتدر ما كتب الله تعالى من المنح ، وقد امتعض
 لنا السكون بما حمل ، واستخدم الفلك نفسه بمشيئته تعالى واكتمل ، وكاد يقرب
 نقرى ضيفنا الثور والحمل ، وظاهرنا محلّ أخينا السلطان الكبير الرفيع المعظم
 المقدس أبى سالم الذى كان وطنه مأوى الجنوح ، ومهَبّ النصر الممنوح ،
 رحمة الله تعالى عليه ! مظاهرة مثله من الملوك الأعظم ، وختم الجليل بالجميل والأعمال

(١) البوار - بفتح الباء - الهلاك .

(٢) كنفْتنا : أحاطت بنا . (٣) كفّت - بتشديد الفاء - منعت .

(٤) سخّم دواوينه : سود وجوهها .

بالخواتم ، وأنف حتى عدوّ الدين لنعمتنا المسكفورة ، وحقوقنا المحجوبة المستورة ، فأصبح بعد العدو حبيبا ، وعاد بعد الإيابة مُنيبا ، وسَخَّر أساطيله تحضيضاً على الإجازة وترغيباً ، واستقبلنا البلاد وبحر البشر يزخر مَوْجُه ، وملك الإسلام قد خر على الحضيض أَوْجُه ، والروم مستوية على الثغور ، وقد ساءت ظنون المؤمنين بالعقبى والله عافية الأمور ، والخيثُ الغادر الذي كان يموّه بالإقدام قد ظهر كذب دَعْوَاه ، وهان مَتَوَاه ، وتورط في أشراك المندمة تورطَ مثله من اتبع هواه ، وجحد نعمة مولاه ، فلولا أن الله عز وجل تدارك جزيرة الأندلس بركابنا ، وعاجل أوارها بانسكابنا ، لكانت القاضية ، ولم تر لها من بعد تلك الريح العقيم من باقية ، لكننا بفضل الله تعالى رفعنا عنها وطأة العدو وقد دنا بَكَلْكَل ، وابتزنا منها أى مشرب ومأكل ، واعتزنا عليه بالله تعالى الذي يعز ويذل ، ويهدي ويضل ، فلم نسامحه في شرط يجر غَضَاضة ، ولا يخلف في القلوب مضاضة ، وخُضْنَا بحر الهَوَل ، وربّنا إلى الله تعالى ربَّنَا عن القوة والحَوَل ، وظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا ، وما بذلنا في مصانعة العدو من الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا ، فقويت فينا أطماعهم ، وانعقد على التحرّم بنا إجماعهم ، وقصدنا مآلقة بعد أن اثالت الجهة الغربية ، وأذعنّت المعازل الأبيّة ، فيسّر الله تعالى فتحها ، وهياً منحها ، ثم توالى البَيْعَات ، وصرخت بمآذن البلاد الدّعاة ، واضطرب أمر الخائن وقد ذلقت الخواف إليه ، وحسب كل صَيْحَة عليه^(١) ، فاقترضت نعامته الشائلة ، ودولة بغيه الزائلة ، وآراؤه القائلة^(٢) ، أن ضم ما أمكنه من ذخيرة مكنونة ، وآلة الملك مَصُونَة ، واستركب أوباشه^(٣) الذين استباح الحق دماءهم ، وعرف الخلق اعتزاهم للغدر واتهامهم ، وقصد سلطان قَشْتَالَة من غير عهد ولا وثيقة ، ولا مُثْلَى

(١) هذه كناية عن شدة الدعر والخوف ، وأصلها من القرآن الكريم (يحسبون

كل صَيْحَة عليهم) (٢) رأى فائل : ضعيف لا سداد فيه

(٣) الأوباش : كلمة عامية ، فصيحها « أوشاب » ومعناها الأخلاط .

طريقة ، ولا شِيمة بالرَّغَى خليقة ، لكن الله عز وجل حمله على قدمه ، لإِرافة دمه ،
وزين الوجود بعده ، فَلَحِيزٍ قدومه عليه راجيا أن يستَفِرَّه بعرض ، أو يحيل صحة
عَقْدِهِ المَبْرُم إلى مَرَض ، ومؤملا هو وشيعته الغادرة كُرة على الإسلام مُجْهِزَةً (١) ،
ونصرة لمواعيد الشيطان مُنْجِزَةً ، تقبض عليه وعلى شيعته ، وَصَمَّ عن سماع خديعته ،
وأخش بهم المُثْلَةَ ، وأساء بحسن رأيه فيهم القِتْلَةَ ، فأراح الله تعالى بيادتهم
نفوس العباد ، وأخيا بهلاكهم أرواق البلاد (٢) ، وَحَثَّنَا السَّيْر إلى دار ملكنا
فَدَخَلْنَاهَا في اليوم الأغر المحجَّل ، وحصلنا منها على الفتح الهني المعجَّل ، وعدنا
إلى الأريكة التي نبأنا عنها التمهيصُ فاحسبناه إلا سرورا أعقبه الكمال ، ومرضا
عاجله الإبلال (٣) ، فثابت (٤) للدين الآمال ، ونجحت الأعمال ، وبذلنا في الناس
من العفو ما غفَرَ الذنوب ، وَجَبَرَ القلوب ، وَأَشَعَّنَا العفو في القريب والْقَصَى ،
وَأَلَبَّنَا المريب ثوب البرى ، وتألَّفنا الشارد ، وأعذبنا الموارد ، وأجرينا العوائد ،
وَأَسْنَيْنَا الفوائد ، إلا ما كان من شِرْذِمَةٍ عظمت جَرَائِرُهم ، وَخَبِئَتْ في معاملة
الله تعالى سرائرهم ، وعُرف شَوْمُهم ، وصدق من يَلُومهم ، فأقصيناهم وشرذناهم ،
وَأَجَلَيْنَاهُمْ عن هذا الوطن الجهادي وأبعدناهم ، ولما تعرف سلطان قَشَاةٍ باستقلالنا ،
واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا ، بادر يُعَرِّف بما كان من عمله فيمن لَحَقَ به من
طائفة القَدَر ، وإخوان الخديعة والمسكر ، وبعث إلينا برؤسهم ، ما بين رئيسهم
الشقي ومروؤسهم ، وقد طفا على جدَّ أول السيوف حَبَابُهَا ، وراق بحناء الدماء
خضابها ، وبرز الناسُ إلى مشاهدتها معتبرين ، وفي قدرة الله تعالى مستقبلين ،
ولدفاع الناس بعضهم ببعض شاكرين ، وأَحَقَّ اللهُ تعالى الحقَّ بكلماته وقطع دابر
الكافرين ، فأمرنا بنصب تلك الرؤس بمسور الغدر الذي فرغته ، وجعلنا علما

(١) مجهزة : تأتى عليه . (٢) الأرواق : جمع رقيق ، وهو بقية الروح في الجسد

(٣) الإبلال : الشفاء . (٤) ثابت للدين الآمال : رجعت

على عاتق العمل السيء الذي اخترعته ، وشرعنا في مُعالجة العلم ، وأَفَضْنَا على العباد
والبلاد حُكْمَ السلم ، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله ، وسكن هذا الوطن بعد
زلزاله ، وأفاق من أهواله ، ولعلمنا بفضلكم الذي قضاياه شائعة ، ومُقدّماته ذائعة ،
أخبرناكم به على اختصار ، واجتزاء واقتصار ، ليسر دينكم المتين بتماسك هذا الثغر
الأقصى بعد استرساله ، وإشرافه على سوء مآله ، وكنا نخطب محل أخينا السلطان
الجليل المعظم الأسعد الأوحّد الخليفة أمير المؤمنين أبي إسحاق ابن الخليفة
أمير المؤمنين المعظم المقدس أبي يحيى بن أبي بكر ابن الأئمة المهتدين والخلفاء
الراشدين - وَصَلَّ اللهُ تَعَالَى أسباب سَعْدِهِ ! وحرس أكناف^(١) محبده ! - لولا أننا تعرّفنا
كُونَهُ في هذه المدة مقيما بغير تلك الحضرة التونسية ، فاجتزأنا بمخاطبة جهتكم
السنية ، وبين سلفنا وسلفكم من الود الراسخ البنيان ، والكريم الأثر والعيان ،
ما يدعو إلى أن يكون سببُ المخاطبة مَوْضُولا ، وآخره الود خيرا من الأولى ،
لكن الطريق جَمٌّ العوائق ، والبحر مفروق البوائق^(٢) ، وقَبُولُ العذر بشواغل
القطر بالفضل لائق ، ومُرَادنا أن يتصل الودُّ ، ويتجدد العهد ، والله عز وجل
يتولى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه ! وَيَجْمَعُ قُلُوبَهُمْ حيث كانوا على طاعة الله
تعالى ورضوانه ! وهو سبحانه يُطِيلُ سعادتكُم ، ويحرس مجادتكُم ، وينجح
إدارتكم ، وَيُسَيِّئُ إرادتكم ! والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن نثره رحمه الله تعالى قوله : أيها الناس ، ضاعف الله تعالى بمزيد النعم
سروركم ! وتكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم ! أبشركم بما
كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمينه وسعادته نعمُ الله تعالى عليكم !
أمتع الله تعالى الإسلام ببقائه ! وأيده على أعدائه ! ونصره في أرضه بملائكة سمائه !

(١) الأكناف : جمع كنف . وهو الجانب والناحية

(٢) البوائق : المهلكات ، وقياس مفردها أن يكون « باقية » ولكن المستعمل

مفرداً « موبقة » لأن الفعل « أوبق يوبق » .

وأن الله تعالى فَتَحَ له الفتح المبين ، وأَعَزَّ بحركة جهاده الدين ، وبيَّض وجوه المؤمنين ، وأظفره باطريرة البلد الذي فجع المسلمين بأسرهم فجعيةً تثير الحمية ، وتحرك النفس الأبية ، فانقم الله تعالى منهم على يده ، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده ، فصَدَّقَ من الله تعالى لأوليائه ، وعلى أعدائه ، الوعدُ والوعيد ، وحكم بإبادتهم المبدئ العيد (وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ؛ إن أخذهُ أليمٌ شديد) وتَحَصَّلَ من سببه بعد ما رويت السيوف من دماهم آلاف عديدة ، لم يُسَمَّعَ بمثلهما في المدد المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصَبَّ من إخوانكم المسلمين عددٌ يذكر ، ولا رجل يعتبر ، فتح هنى ، وصنع سنى ، ولطف خفى ، ووعد وفى ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقفُّوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نِعَمَهُ بالشكر يَزِدُّكم ، واستبصروا فى الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغتنبوا بهذه الدولة المباركة التى لم تَعْدَمُوا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً ، ولا رأياً مُصِيباً ، ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً ، وتضرعوا فى بقائها ، ونصّر لوائها ، إلى مَنْ لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً ، والله عز وجل يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولى الأمر منكم توفيقاً وسعادة ، والسلام الكريم يخلصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته من مُبْلِغ ذلك فلان . انتهى .

ومن نثر لسان الدين - رحمه الله تعالى ! - ما أنشأه عن سلطانه الغنى بالله تعالى

- حين وصله ابنه الذى كان بفاس - يخاطب سلطان فاس ، مانصه :

من نثره يخاطب
سلطان فارس ،
على لسان
سلطانه

المقام الذى تقلد نافلة الفضل ^(١) شقفاً ، وجود صورة السكال أفراداً وجمعا ، واستولى وجمع بين المنح ، والتهنئة بالفتح ، فأحرز أصلاً وفرعاً ، واستحق الشكر عقلاً وشرعاً ، وأغرى أيدى جوده ، بالقصد الذى هو حظُّ وليمه من وجوده ،

(١) أراد بنافلة الفضل الزائد منه .

فأثار من جيش اللقاء نَقْعاً ، وَوَسَطَ بِهِ جَمْعاً^(١) ، مقامُ محل أخينا الذي أقلامُ مقاصده
ذَرِبَةٌ بحسن التوقيع ، وعيونُ فضله مذكاة لإحكام الصنيع ، وَعَدَبَاتُ فخره تهفو
بذروة العلم المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهبُ التنويع ، أبقاه الله تعالى والسنُّ
فضله ناطقة ، وأفيسةُ سعدِهِ صادقة ، وألويته بالنصر العزيز خافقة ، وبضائعُ
مكارمه في أسواق البر ناطقة ، وعصائبُ التوفيق لركائب أغراضه موافقة ! السلطان
الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا .

سلام كريم ، طيب برّ عظيم ، يخصُّ مقامكم الأعلى ، وطريقتمكم المثلّى ،
وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، يُجِلُّ قدرِكم ، وملتزم برِّكم ، وموجب
حمدكم وشكركم ، فلان .

أما بعد حمد الله تعالى الذى جعل الشكر على المكرمات وَقْفًا ، ونهيج منه
بإزائها سبيلاً لا تَلْتَبِيسُ ولا تَخْفَى ، وَعَقَدَ بَيْنَهُ وبين المزيّد سبباً وحِلْفاً ، وجعل
المودة فى ذاته مما يُقَرِّبُ إليه زُلْفَى ، مريح تجارة من قصد وجهه بعمله حتى يرى
الشيء ضعفاً ، وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرام السيرة بمن يُوسِعُها فضلاً
وعظماً ، ومُدْنَى ثمار الآمال لتتمتع بها اجتناء وقطفاً ، والصلاة والسلام على سيدنا
ومولانا محمد النبي العربي الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذى مدّ من الرحمة على الأمة
سَجْفًا ، وملاً قلوبها تعاطفاً وتعارفاً ولطفًا ، القائل «مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ» ووعد
مَنْ عامل الله تعالى بربح المقاصد السنية ، وعدا لا يجد خُلْفًا ، والرضا عن آله وأصحابه
الذين كانوا من بعده للإسلام كَهْفًا ، وعلى أهله فى المواجهات ملتنا ، غيوثُ الندى كما
شامُوا سِماحا وليوث العدى كما شهِدُوا زَخْفًا ، والدعاء لمقام أخوتكم الأسعد بالنصر الذى
يكف من عُذْوَانِ الكفر كفاً ، والمجد الذى لا يغادر كتابه من المفاخر التى ترك الأول

(١) أخذ هاتين الفقرتين من قوله تعالى فى سورة العاديات (فالغغيرات صبحا ،

فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا)

لآخر حَرْفًا ، وإلى هذا - أيدكم الله بنصر من عنده ، وحكم لملككم الأسنى باتصال سعده ، وأنجز في ظهوره على من عاند أمره سابق وعده ! - فإننا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغنى بأصالة عقله ، عن اجتلاء الشاهد ونقله ، وجلاء البيان وصقله ، أن الهدايا وإن لم تحل العين منها كما حلت ، أو تناولها الاستنزار فما نهت في لحظ الاعتبار ولا جَلَّتْ ، أو كانت زَيْفًا كلما أغرى بها الاختبار قلَّتْ ، لا بد أن تترك في النفوس مَيِّلا ، وأن تستدعى من حسن الجزاء كَيْلا ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نَيْلا ، وأى دليل أوضح حَجَّة ، وأبين حجة ، من قوله صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا » من غير تبين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين لجين ولا نُضَار ؟ فكيف إذا كانت الهدية فِلْذة الكبد التي لا يلد العيش بعد فراقها ، ولا تضىء ظلم الجوانح إلا بطلوع شمسها وإشراقها ، وجمع الشمل الذى هو أقصى آمال النفوس الآلة ، والبواطن المصاحبة للحنين الحالفة ، لا سيما إذا اقتعدت محل الهنا ، بالفتح الرائق السنَّا ، وحَفَّتْ بها من خلفها وأمامها صنائع البر وقومة الاعتناء ، فهنا لك تفخر ألسن الثناء ، وتطابق أعلام الشكر السامية البناء ، وإننا ورد علينا كتابكم الذى سَطَّره البر وأملاه ، وكَنَفَه ^(١) اللحظ وتَوَلَّاه ، ووشَّحه البيان وحَلَّاه ، مهنثا بما منح الله جل جلاله من رد الحق ، وتعيين الجمع ورفع الفرق ، وتطويق الأمان وأمان الطوق ، وإسعاد السَّعد ، وبلوغ القصد ، وقطع دابر من جَحَدَ نعمة الأب والجدِّ ، وسلَّ سيف البغى دأى الحد ، والحمد لله تعالى حمداً يلهمه ويتبيحه ^(٢) ، ونسأله إمدادا يسوغه ويبيحه ، على أن أحسن العقبى وأعقب الحسنى ، وأرى النعم بين فرَادى ومَثْنَى ، وجمع الشمل الذى قد تبدد ، وجدد رسم السعادة لهذا القطر فتجدد ، وأخذ الظالم فلم يجد من محيص ^(٣) ، وجمع لنا

(١) كنفه : أحاط به . (٢) يتبيحه : يهيئه ويسهل سبيله .

(٣) لم يجد من محيص : أى لم يجد مهربا ولا مفرآ .

الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص ، وَقَلَدَ بَرُوسَ الفجرة الغدرة الفرضة التي
فَرَعُوها ، وأطفأ بِمِرَاقٍ دماهم نَارَ الضلالة التي شرَعُوها ، وكتب لقييلكم الفضل
الذي يحمد ويشكر ، والحق الذي لا يحدد ولا ينكر ، فلقد أوى لما تبرأت
الْخُلَاصَانِ ، وَتَحَفَّى^(١) عند ماتنكر الزمان ، وسبب الإدالة ، وطاوع الأصالة والجلالة ،
حتى فرج الله تعالى السكرية ، وآنس الغربة ، وأفال العثرة وتقبل القربة ، له الحمد
على آلائه ، وصلة نعمائه ، ملء أرضه وسمائه ، ووصل صحبته الولد مكنوفاً بجناح
اللطف ، ممهداً له ببركتكم مهادَ العطف ، فبرزنا إلى تلقيه تنويهاً لهديتكم
وإشادة ، وإبداء في برکم وإعادة ، وأركبنا الجيش الذي آثرنا حين استقلالنا
عرضه ، وقررنا بموجب الاستحقاق فرضه ، فبرزنا إلى الفضاء الأفصح^(٢) حسن
الترتيب ، سافراً عن المرأى العجيب ، ولولا الحنان الذي تجده النفوس الأبناء
وتستشعره ، والتشوق إلى اللقاء الذي لا يحدده منصف ولا يُنكره ، لماشق علينا
طول مقامه في حجرکم ، ولا نواؤه لصق أريكة أمرکم ، فجوارُكم محل لاستفادة
رسوم الإمارة ، وتعلم السياسة والإدارة ، حتى يرد علينا بقدم كتيبة جهادكم ، ويقود
إلينا طليعة نصرکم إيانا وإمدادکم ، فنحن الآن نشكر مقاصدکم التي اقتضى السكالُ
سياقها ، وزَيْنَ المجد أفاقها ، وقدرها فأحكم طباقها ، ونقرر لديکم أن حظنا من
ودادکم ، ومحلنا من جمیل اعتقادکم حظ بآن رجحانه وفضله ، ولم يأت بين مَنْ
سلف من السلف مثله ، من الصحبة في المنزل الخشن وهي الوسيلة ، وفي رعيها
تظهرُ الفضيلة ، والاشتراك في لازم الوصول إلى الحق ، وضم أشتات الخلق ، والمودة
الواضحة الطرق ، إلى ما بين السلف ، من الود الآمن بذره من الكلف ،
المذخورة أذمته للخلف ، فإذا كانت المعاملة جارية على حسبه ، وشعبها راجعة إلى

(١) تحفى : بالغ في التلطف ، ووقع في ب « تحفى » بالخاء معجمة - تحريف

(٢) الفضاء الأفصح : الواسع غاية السعة

مذهبه ، جنى الإسلام ثمرة حافلة ، واستكنفى الدينُ إيالةً كافلةً ، فإله عز وجل يهدد البلاد بيمين تديركم ، ويُجرى على مَهْيَعِ السدادِ جميعَ أموركم ، ويجعلكم ممن زين الجهاد عواتق أعماله ، وكان رضا الله تعالى عنه أقصى آماله ، حتى تُربى^(١) ما ترككم على ما ترأسلافكم الذين عرف هذا الوطن الجهادى إمدادهم ، وشكر جهادهم ، وقبل الله تعالى فيه أموالهم وأولادهم ، وَحَسَنَ من أجله معادهم ، وقد حضر بين يدينا رسولكم الذى وجهتم الولد أسعده الله تعالى لنظره ، وتخيرتموه لصحبة سفره ، فلان ، وهو من الأمانة والفضل ، والرَّجَاحَةِ والعقل ، بحيث طابق اختياركم ، واستَحَقَّ إثباركم ، فأطنب فى تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان عينت الرد ، وضربت الوعد ، وأخلصت فى سبيل الله تعالى القصد ، وغير ذلك مما يؤكد المودة المستقرة الأركان ، المؤسسة على التقوى والرضوان ، فأجبنه بأضعاف ذلك مما لدينا لكم ، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم وعملكم ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويخزُّسُ مجدكم ، والسلام الكريم يخصصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن ذلك ما كتبه - رحمه الله تعالى ! - على لسان الأمير سعد ابن سلطانه الغنى بالله تعالى إليه وهو :

من إنشائه
على لسان
ابن سلطانه

مولاي ومولى كبيرى ومولى المسلمين ، ورحمتى المتكفلة بالسعد الرائق الجبين .
يقبل قدّمكم التى جعل الله تعالى العز فى تقبيلها ، والسعد فى اتباع سبيلها ،
عَبْدُكم الصغير فى سنه الكبير فى خدمتكم وخدمة كبيره فى حياتكم بفضل الله تعالى
وَمَنَّهُ ، الهاش لتمرغ وجهه فى كتابكم من الذراع ، المنبثه^(٢) طباعه عن العبودية
السكّانة باليدار إلى ذلك والإسراع ، عبدكم وولدكم سعد ، كتبه من بابكم ،
الحووط بعز أمركم ، المتحف إن شاء الله تعالى بأنباء نصركم ، وقد وصل إلى عبدكم

(١) تربى : تزيد .

(٢) المنبثه : الخبيرة ، وإخبارها هنا بلسان حالها .

تشریفکم السابغ الحلل ، وتنويعکم المبلغ غاية الأمل ، وخط يدکم الکریمه ،
وغمامه رحمتکم الهامیه الدیمة^(١) ، فیاله من عزأثبت لی الفخر فی أبناء الملوك ، وسار بی
من الترشیح لرتب حظوتکم علی المنهج المسلوك ، قرّر من عافیه مولای وسعاده ،
واقتران السعود حیث حل بوفادته ، ما تکفل ببلوغ الآمال ، وتم لسان الحال فی
شکر الله تعالی لسان المقال ، والله تعالی یدیم أيام مولای حتی یقوم بحق شکر النعم
لسأنه ، وتودی بعده جوارحه من الدفاع بین یدی سلطانه ما یسر به سلطانه ،
وبعث جوابه منقولاً لید حامله من یده لیهنیء تقبیل الید الکریمه بحال تأکید ،
ویقرر ما لبعده إلی وجهه الکریم من شوق شدید ، ویعرف شمول نعمة الله تعالی
ونعمته لمن بیابه من خدم و حرم وعبید ، ویمدید الرغبة لمولاه فی صلة الإنعام
بتشریفه ، وإعلامه بتزایدات حرکاته وتعریفه ، ففی ضمن ذلك کلّ عز مشید ،
وخیر جدید ، ویهْدی تحية أهل منزل مولای علی اختلافهم بحسب منازلهم من
نعمة لحظه ، التي یأخذ منها کلّ بحظه ، والسلام الکریم ورحمة الله تعالی وبرکاته
وقال رحمه الله تعالی : ومن نثری ما خاطبت به السلطان علی لسان ولده من
من مآثقة ، وقد وصلت به إلیه من المغرب :

مولای الذی رضا الله تعالی مقترن برضاه ، والنزج مُسَبَّب عن نیته ودُعاه ،
وطاعته مرتبطة بطاعة الله ، أبقی الله تعالی علیّ بکم ظلّ رحماه ، وغمام نعماه ! وزادنی
من مواهبه هداية فی توفیه حقه الکبیر فإن الهدی هُدَى الله !

یقبل مواطیء أقدامکم التي ثراها شرفُ الخلدود وفخر الجباه^(٢) ، ویقرر من
عبوديته ما یسجل الحق مقتضاه ، ویسلم علی مثابة رحمتکم السلام الذی یحبّه الله تعالی
وبرضاه ، ولدُکم وعبدکم یوسف ، من منزل تأییدکم بظاهر مآثقة حرمها الله

(١) الهامیه : المتابعة ، والديمة : المطر الدائم .

(٢) الجباه : جمع جبهة ، وهی مستوى ما بین الحاجبین إلی ناصية الرأس .

والوجود ألسُنُ بالعز بالله ناطقة ، والأعلام والشجر ألويةٌ بالسعد^(١) خافقة ، وأنواعُ
التوفيق متوافقة ، وصنائع اللطيف الخبير مصاحبة مرافقة ، وقد وصل يامولاي
عبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به على مقامكم ، وجادت به سحائب إنعامكم ،
ولمن تحت حجة ستركم المسدول^(٢) ، وفي ظل اهتمامكم الموصول ، ولمن ارتسم بخدمة
أبوابكم الشريفة من الخدام ، وأولى المراقبة والالتزام ، ما يضييق عنه بيانُ العبارة ،
ويفتضح فيه لسان القول والإشارة ، من عنايات سنية ، ونعم باطنة وجلية ،
وملاحظة مولوية ، ومقاصد ملكية ، فاشتئت من قباب مذهب ، وملابس منتخبة
وأسرة مرتبة ، ومحاسن لا مستورة ولا محجبة ، واللواء الذي نشرتم على عبدكم ظلّه
الظليل ، ومددتم عليه جناح العز الجليل ، جعله الله تعالى أسعد لواء يسير في خدمتكم
ومد على وعليه لواء حرمتكم ! حتى يكون لجهادي بين يديكم شاهداً ، وبالنصر
العزير والفتح المبين عليكم عائداً ، ولطائفة الخلوص لأمركم قائداً ، ولأولياء بابكم
هاديا ولأعدائكم كائداً ، وانفق يامولاي أن كان عبدكم قد ركب مغتما برد اليوم ،
ومؤثراً للرياضة في عقب النوم ، والتف عليه الخدام ، والأولياء الكرام ،
فلما عدنا تعرضت لنا تلك العنايات المجلوة الصور ، المتلوة السور ، وقد حشر
الناس ، وحضرت منهم الأجفاس ، فعلا الدعاء ، وانتثر الثناء ، وراقت الأبصار ،
تلك الهمة العليا ، فنسأل الله تعالى يامولاي أن يكافئ مقامكم بالعز الذي لا يتبدل ،
والنصر الذي يستأنف ويُسْتَقْبَل ، والسعد الذي مُحْكَمه لا يتأول ، والعبد ومن
له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار ، وارتياح لقرب المزار

وأُبْرِحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دَنَّتِ الديارُ من الديار

والعمل على تيسير الحركة متصل ، والدهر لأوامر سعدكم محتفل ، بفضل الله تعالى ،

(١) الألوية : جمع لواء ، وهو العلم والراية ، وخفوقه : اضطرابه وتحركه في الهواء

(٢) سدول الستر : أرخاه ، فهو مسدول .

والسلام على مقام مولاي مقام الشفقة والرحمة ، والمنة والنعمة ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

ومن إنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف المذكور مشيخة الغزاة على لسان السلطان والده ما نصه :

هذا ظهور كريم فاتح بنشر الألوية والبُنود^(١) ، وقود العساكر والجنود ، وأجال^(٢) في ميدان الوجود ، جياذالباس والوجود ، وأضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود^(٣) ، على الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود ، عقد للمعتمد به عقد التشريف ، والقدر المنيف ، زاكي الشهود ، وأوجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود ، وبشر السيوف في الغُمود ، وأنشأ ريح النصر آمنة من الخمود^(٤) ، أمضى أحكامه ، وأنهد^(٥) العز أمامه ، وفتح عن زهر السرور والحبور كمامه ، أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر - أيد الله تعالى أمره ! وخلد ذكره ! - لكبير ولده ، وسابق أُمِّه ، وريحانة خَلْدِه ، وياقوتة الملك على يده ، الأمير الكبير الطاهر الظاهر الأعلى . واسطة السلك ، وهلال سماء الملك ، ومصباح الظلم الخلك ، ومظنة العناية الأزلية من مدبر الفلك ومجرى الفلك ، عنوان سعده ، وحُسام نصره وعضده ، وسميَّ جده ، وسلالة فضله ومجده ، السعيد المظفر الهام الأعلى الأمضى ، العالم العامل الأرضي ، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج يوسف ، ألبسه الله تعالى من رضاء عنه حُللاً لا تخلق جدَّتها الأيام ، ولا تبلغ كنهها الأفهام ، وبلغه في خدمته المبالغ التي يُسرُّ بها الإسلام ، وتَسبِّح في بحار صنائعها الأفلام ، وحرَّس معاليها الباهرة بعينه التي لا تنام ، وكنفه بركنه الذي لا يُضام^(٦) ، فهو القرع الذي

(١) البنود : جمع بند ، وهو علم الجيش . (٢) أجال : حرك

(٣) النجود : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض (٤) خمود النار :

سكونها بالانطفاء (٥) أنهد العز : أقامه (٦) كنفه : أحاطه ، ولا يضام : لا ينزل

(٤ - نفع ٩)

ظهير من إنشاء
بتولية مشيخة
الغزاة

جری فضله على أصله ، وارتسم نصره في نصاه ، واشتمل حده على فضله ،
وشهدت ألسن خلاله ، برفعة جلاله ، وظهرت دلائل سعادته ، في بدء كل أمر
وإعادته ، لما صرف وجهه إلى ترشيحه ، لافتراع هضاب ^(١) المجد البعيد المدى
وتوشيعه ، بالصبر والحلم والبأس والندى ، وأرهف منه سيفاً من سيوف الله تعالى
لضرب هام العدا ، وأطلعه في سماء الملك بذر هدى ، لمن راح وغداً ، وأخذه بالآداب
التي تقيم من النفوس أوداً ^(٢) ، وتبذر في اليوم فتجنى غداً ، ورقاه في رتب المعالي
طوراً فطوراً ، ترقى النبات ورقاً ونوراً ، ليجده بحول الله تعالى يداً باطشة بأعدائه ،
ولساناً نجيباً عند ندائه ، وطرأ على حلة علائه ، وغماماً من غمام آلائه ^(٣) ، وكوكبا
وهجاً بسمائه ، وعقد له لواء الجهاد على الكتبية الأندلسية من جنده ، قبل أن
ينتقل عن مهده ، وظلّه بجناح رايته ، وهو على كتف دابته ^(٤) ، واستركب جيش
الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتنوياً بمجادته ، وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم
سعادته ، رأى أن يزيد من عنايته ضروبا وأجناساً ، ويتبع أثره ناساً فناساً ، قد
اختلفوا لساناً ولباساً ، وأنفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماساً ، ممن كرم انماؤه ، وزينت
بالحسب العلى سماؤه ، وعرف غناؤه ، وتأسس على الجادة بناؤه ، حتى لا يدع من
العناية فناً إلا وجلبه إليه ، ولا مقادة فخر إلا جعلها في يديه ، ولا حلة عز إلا أضفى
ملاسمها عليه ، وكان جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية - أمّن الله سبحانه
خلاها ، وسكن زلزالها ، وصدق في رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء آمالها ! -
كلف همته ، ومرعى ذمته ، وميّدان اجتهداه ، ومتعلق أمل جهاده ، ومعراج
إرادته ، إلى تحصيل سعادته ، وسبيل خلاله ، إلى بلوغ كماله ، فلم يدع له علة
إلا أزاحها ، ولا طلبه إلا أجال قداحها ، ولا عزيمته إلا أورى اقتداحها ، ولا رغبة

(١) الهضاب : جمع هضبة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، واقتراعها : أراد به صعودها

(٢) الأود - بالتحريك - العوج (٣) الآلاء : النعم (٤) السكند : مجتمع الكتفين

إِلَافَسَحَ سَاحِهَا^(١) ، آخِذًا مُدَوَّنَتَهُ بِالْتَهْذِيبِ ، وَمَصَافَّهُ بِالْتَرْتِيبِ ، وَأَمَالَهُ بِالتَّقْرِيبِ ،
مَحْسِنًا فِي تَلَقُّيِ الْغَرِيبِ ، وَتَأْنِيسِ الْمُرِيبِ ، مُسْتَجِزًا لَهُ وَبِهِ وَعَدَ النُّصْرَ الْعَزِيزَ
وَالْفَتْحَ الْغَرِيبَ ، وَرَفَعَ عَنْهُ لِهَذَا الْعَهْدِ نَظَرَ مَنْ حَكَمَ الْأَغْرَاضَ فِي مُحَامَتِهِ ، وَاسْتَشْعَرَ
عُرُوقَ الْخِصَائِفِ لِشَذِيبِ كُنَانِهِ ، وَاسْتَفْلَ عَنْ حَسَنِ الْوَسَاطَةِ لَهُمْ بِمُصْلَحَةِ ذَاتِهِ ،
وَجَابَ جِبَاتِهِ ، وَثَمَّرَ مَالَهُ وَتَوَفَّرَ أَقْوَاتَهُ ، ذَاهِبًا أَقْصَى مَذَاهِبِ التَّعْمِيرِ بِأَمَدِ حَيَاتِهِ ،
فَانْفَرَجَ الضِّيقَ ، وَخَلَصَ إِلَى حَسَنِ نَظَرِهِ الطَّرِيقَ ، وَسَاغَ الرِّيقَ ، وَرَضَى الْقَرِيقَ ،
رَأَى - وَاللَّهِ الْكَفِيلَ لِنَجْحِ رَأْيِهِ ، وَشُكْرَ سَعْيِهِ ، وَصَلَةَ حِفْظِهِ وَرَعْيِهِ - أَنْ يَجْهَدَ لَهُمْ
اخْتِيَارَهُ ، وَيَحْسَنَ لَدَيْهِمْ آثَارَهُ ، وَيَسْتَنْبِطَ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سِيُوفِ جِهَادِهِ ، وَأَبْطَالَ
بِلَادِهِ ، وَحِمَاةَ أَحْوَازِهِ ، وَأَلَاتَ اعْتِزَازِهِ ، مَنْ يَجْرَى بِجُرَى نَفْسِهِ النِّفَاسَةَ فِي كُلِّ
مَبْنًى ، وَيَكُونُ لَهُ لَفْظُ الْوَلَايَةِ وَلَهُ - أَيْدِي اللَّهِ تَعَالَى ! - الْمَعْنَى ، فَقَدَّمَهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ الْأُولَى
كَبْرَى الْكُتُبِ ، وَمُقَادَةَ الْجَنَائِبِ ، وَأَنْجَمَةَ الْأَبْطَالِ^(٢) ، وَمُزْنَةَ الْوَدْقِ^(٣) الْهَطَّالِ ،
الْمُشْتَمَلَةِ مِنَ الْغَزَاةِ عَلَى مَشِيخَةِ آلِ يَعْقُوبَ نَسَبَاءِ الْمُلُوكِ الْكَرَامِ ، وَأَعْلَامِ الْإِسْلَامِ ،
وَسَائِرِ قَبَائِلِ بَنِي مَرَيْنَ ، لِيُوثَّ الْعَرَيْنَ ، وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَصْنَافِ الْقَبَائِلِ ، وَأُولَى الْوَسَائِلِ ،
لِيَحُوطَ جَمَاعَتَهُمْ ، وَيَعْرِفَ بِتَمَقُّدِهِ إِطَاعَتَهُمْ ، وَيَسْتَخْلَصَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَأْيِيهِ - أَيْدِي
اللَّهِ تَعَالَى ! - طَاعَتَهُمْ ، وَيَشْرَفَ بِإِمَارَتِهِ مَوَاكِبَهُمْ ، وَيَزِينَ بِهَلَالِهِ النَّاهِضَ إِلَى
الْإِبْدَارِ عَلَى فَلَكَ سَعَادَةِ الْأَنْدَارِ كَوَاكِبَهُمْ ، تَقْدِيمًا أَشْرَقَ لَهُ وَجْهَ الدِّينِ الْخَنِيفِ
وَتَهَالٍ ، وَأَحْسَ بِاقْتِرَابِ مَا أُمِّلَ ، فَلَخَّيْلَ اخْتِيَالِ وَمَرَّاحٍ ، وَلِلْأَسَلِ الشُّمْرِ اهْتِزَازَ
وَارْتِيَاكِجَ ، وَلِلْصُّدُورِ انْشِرَاحَ ، وَلِلْأَمَالِ مَعْدَى فِي فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَوَّاحٍ ، فَلْيَتَوَلَّ
ذَلِكَ - أَسْعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى - تَوَلَّى مِثْلَهُ مِنْ أَسْرَةِ الْمَلِكِ أَسْرَتِهِ ، وَأَسْوَةِ النَّبِيِّ
صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ أَسْوَتُهُ ، وَالْمَلِكِ الْكَرِيمِ أَصْلَ لِقَرَعِهِ ، وَالنَّسَبِ الْعَرَبِيِّ مُحْتَدَ

(١) السَّاحِ : جَمْعُ سَاحَةٍ .

(٢) الْأَنْجَمَةُ - بِالتَّحْرِيكِ - مَسْكَنُ السَّبَاعِ ، وَجَعَلَ الْأَبْطَالَ سَكَانَهَا عَلَى التَّشْبِيهِ

(٣) الْمَزْنَةُ - بِالضَّمِّ - السَّحَابَةُ هُنَا ، وَالْوَدْقُ : الْمَطَرُ ، وَالْهَطَّالُ : التَّنَاقُصُ .

لطيب طبعه ، آخذاً أشرفهم بترفيه المجالس بنسبة أقدارهم ، مُغرياً حسن اللقاء
 بإبشارهم ، شاكراً غنائهم ، مستدعياً ثنائهم ، مستدرّاً لأرزاقهم ، موجبا المزية
 بحسب استحقاقهم ، شافعا لديه في رغباتهم المؤمّلة ، ووسائليهم المتحمّلة ، مسهلا
 الإذن لو فودهم المتلاحقة ، منقفا لبضائعهم النافقة ، مؤنسا لغرمائهم ، مستجليا أحوال
 أهلهم وأبائهم ، مميّزا بين أغفالمهم ونبهائهم^(١) ، وعلى جماعتهم - رعى الله تعالى جهادهم ،
 ووفر أعدادهم ! - أن يطيعوه في طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ، ويكونوا يداً واحدة
 على دفاع أعداء الله تعالى وأعدائه ، ويشدوا في مواقف الكريهة أزره ، ويمتنعوا
 نهيه وأمره ، حتى يعظم الانتفاع ، ويشهر الدفاع ، ويخلص المصالح لله تعالى
 والمصالح ، فلو وجد - أيده الله تعالى ! - غاية في تشریفهم لبلغها ، أو موهبة
 لسوّغها ، لكن ما بعد ولده العزيز عليه مذهب ، ولا وراء مباشرتهم بنفسه
 مغرب ، والله تعالى منجح الأعمال ، ومبلغ الآمال ، والكفيل بسعادة المآل .

فمن وقف هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع ، وخير
 مستند إلى إجماع ، ووجوب اتباع ، وليكن خير مرعىٍ لخير راع ، بحول الله تعالى .
 وأقطعته - أيده الله تعالى ! - ليكون بعض المواد لأزواد سفره ، وسماط نَفَره ، في
 جملة ما أولاه من نعمه ، وسوّغته من موارد كرمه ، جميع القرية المنسوبة إلى عرب
 عنان ، وهي الحلة الأثيرة ، والمنزلة الشهيرة ، تنطلق عليها أيدي خُدّامه ورجاله ،
 جارية تجرى صريح ماله ، محررة من كل وظيفة لاستغلاله ، إن شاء الله تعالى ،
 فهو المستعان سبحانه ، وكتب في كذا ، انتهى .

وكتب لسان الدين - رحمه الله تعالى ! - في شأن تقليد الأمير سعد أخى
 المذكور الأصغر منه سنا ما صورته .

(١) النبهاء : جمع نبيه ، وهو الرفيع الذكر ، والأغفال : جمع غفل - بزنة
 قفل وأفعال - وأراد به ضد النبيه ، وأصله من لا يرجى خيره ولا يخاف شره ،
 وما لا علامة له تميزه من قدامح اليسر .

هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعَقَدَ منه في سبيل الله تعالى
 لواء منصوراً ، وأعطى المعتمدين باليمن كتاباً منشوراً ، وما كان عطاء ربك محظوراً^(١) ، في تقليد الأمير
 وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهـر سُفُورا ، ويسطع نورا ، وأقر عيوننا للمسلمين
 وشرح صدورنا ، ووعد الأهل أن تصير بإمداد شمس الهدى إياها بدورا ، وبشر
 الإسلام بالنصر المنتظر ، والفتح الرائق الغرر ، مواسط وثغورا ، وأتبع حماة الدين
 لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعد بها آمرا وأكرم بها مأمورا ، أمر به ، وأمضى
 العمل بمقتضاه وحسبه ، أميرُ المسلمين عبد الله محمد بن أمير المسلمين المجاهد في سبيل
 رب العالمين أبي الحجاج بن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الوليد بن
 فرج بن نصر ، أعلى الله تعالى رايته وسدد^(٢) رأيه ! وشكر عن الإسلام والمسلمين
 سعيه ! لقرة عينه ومقتضى حقه من العدو ودينه ، وغصن دَوَّحه ، وآية لَوَّحه ،
 ودرة قِلاَدته ، ودُرَيّ أفلاك مجآدته ، وسيف نصره ، وهلال قَصْره ، وزينة
 عصره ، ومتقبل هديه ورشده ، ومَظَنَّة إشراق سَعده ، وإنجاز وعده ، ولده
 الأسعد ، وسليل ملكه المؤبد ، الأمير الأجل الأعز الأسنى الأطهر الأظهر
 الأعلى ، لابس أثواب رضا ونعمته ، ومنحة الله لنصره وخدمته ، ومظهر عزه
 وبعد همته ، التقى الرضى العالم العامل المساجد حامى الحمى تحت ظل طاعته ،
 وكافى الإسلام الذى يأمن من إضاعته ، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظ الشهر
 فى يومه وحظ اليوم فى ساعته ، الموقر المهيّب المؤمل المعظم أبى النصر سعد عرّفه
 الله تعالى ببركة سعد بن عبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعظم
 بمجْدِهِ ، ووزيره فى حَلِّه وعَقْدِهِ ، وأجناه ثمرة النصر الذى كناه به ووصل سببه
 بسببه فما النصر إلا من عنده ، وأنتج له الفتح المبين من مقدمتى نصره وسعده ،
 لما صَرَفَ وَجْهَ عنايته إليه فى هذه البلاد الأندلسية التى خلص الله أفرادها

(١) محظوراً : ممنوعاً .

(٢) سدد رأيه : وفقه لإصابة الصواب .

وانقضاءها ، وتمحّض لأن تكون كلمة الله هي العليا قرأها ، وصدق مصالها في سبيله جل وعلا ومصاعها ، إلى ما يهدأ رجاءها ، ويحقق رجاءها ، من سلم يعقده ، ولا يعدم الحزم معه ولا يفقد ، وعطاء يفقد ، ورأى لا يتعقب ولا ينقد ، وحرب تَصْمَرُّه الجياد ، ويُعْمَلُ الأَسْلُ المَيَّادُ^(١) ، وكأن الجيش رَوْضُ أمله الذي في جَنَاه يسرح ، ومرمى فكره الذي عنه لا يبرح ، فديوانه ديوان أمانيه الذي تسهب فيه وتشرح ، أسهمه^(٢) من سياسته أوفى الحظوظ وأسناها ، وقصر عليه لفظ العناية ومعناها ، ووقف عليه مَوْحَدَهَا وَمَثْنَاهَا ، فأزاح غلله ، وأحيا أمله ، وأنشأ جذله ، ورفع عنه من لم يبذل الجذله ، ولا أخلَصَ لله فيه عمله ، واختار لقيادة مغانيه المنصورة ، وإمارة غزواته المبرورة ، أقرب الناس إلى نفسه نسبا ، وأوصلهم به سببا ، وأحقهم بالرتب المنيفة والمظاهر الشريفة ، ذانا وأبا ، وجدا وحسبا ، وأمره على أشرافه ، وذل به الأنفال على أعرافه ، وصرف إليه آماله ، واستعمل في أسنته يمينه وفي أعنته شماله ، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزة نصره ، ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنى فهيأه لهصره^(٣) ، وأدار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ، ونبه نفوس المسلمين على جلاله قَدْرَه ، وقدمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتعلة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبار بنى مَرين ، وسائر قبائلهم المسكرمين ، وغيرهم من القبائل المحترمين ، ينوب عن أمره في عَرْض مسائلم ، وقَرَى وافدهم ، وإجراء عوائدهم ، تقديمًا تهلّل له الإسلام واستبشر ، وتيقن الظفر فاستبصر ، لماعلم بمن استنصر ، فليخلصوا له طاعته الكبرى الطاعة ، وليعلقوا بينان نداه بنان الطاعة ، ويؤملوا على يديه نجاح الوسيلة إلى مقامه والشفاعة ، ويعلموا أن اختصاصهم به هو العنوان على رَفَع محالهم لديه ،

(١) اعتقل الرمح ، مثلا : وضعه بين ركابه وساقه ، والأسل : الرماح ، والميادة : للضربة ، وأراد اللينة المهز (٢) أسهمه : جعل ما ذكر سهمه وحظه ونصيبه . (٣) هصر الفصن : أماله ليحظى ثمره .

وعزة شأنهم عليه ، فلو وجد هَضْبَةٌ أَعْلَى لَرَفَعَهَا لَهُمْ وَأَعْلَاهَا ، أَوْ عِزَّةٌ أَعَزَّ لَجَلَالِهَا
أَوْ قِبَلَةٌ أَزْكَى لَصَرْفِ وَجْهِهِمْ شَطْرَهَا^(١) وولاهها ، حتى تجنى ثمرة هذا القصد ، وتعود
بالسعد حركة هذا الرصد ، وتعلو ذؤابة هذا الحمد^(٢) ، وتشهد بنصر الدين على يده
السنة الغُور والنَّجْد^(٣) ، بفضل الله سبحانه ، وعليه - أسعد الله الدولة باستعماله مكائلا
بأعلامها ، وزيناً لأيامها ، وسيفاً في طاعة إمامها ! - أن يقدم منهم في مجلسه أهل
التقديم ، ويقابل كرامهم بالتكريم ، ويستدعى آراء مشايخهم في المشكلات في
أُمُور الحرب ، ويفضي جفون عزائمهم في موقف الصبر والضرب ، ويتفقدهم
ياحسانه عند الغناء ، ويقابل حميد سعيهم بالثناء ، على هذا يعتمد وبحسبه يعمل ،
وهو الواجب الذي لا يُهْمَلُ ، وقصده بالإعظام والإجلال ، والالتقياد الذي يعود
بالآمال وينجح الأعمال ، بحول الله تعالى متقبل ، وكتب في كذا ، انتهى .

ومما اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سَلَا إلى سلطانه الغنى
بالله تعالى ، وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له وعودته إلى سلطانه :

هَنِيئًا بَمَا حَوَّلْتَ مِنْ رَفَعِهِ الشَّانَ	وإن كَرِهَ الْبَاغِي وإن رَغِمَ الشَّائِي
وَأَنْ خَصَّكَ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ	بمعجزة منسوبة لسلطان
أَغَارَ عَلَى كَرْسِيهِ بَعْضُ جَنْهِهِ	فَأَقَمْتَ لَهُ الدُّنْيَا مَقَالِدَ إِذْعَانِ
فَلَمَّا رَأَاهَا فَتَنَةً خَرَّ سَاجِدًا	وَقَالَ إِلَهِي آمَنْتُ عَلَىٰ بِغْفَرَانِ
وَهَبْ لِي مَلِكًا بَعْدَهَا لَيْسَ يَنْبَغِي	تَقَلُّدُهُ بَعْدِي لِإِنْسٍ وَلَا جَانِ
فَأَنَاهُ لَمَّا أَنْ أَجَابَ دَعَاءَهُ	مِنْ الْعِزِّ مَا لَمْ يُؤْتِ يَوْمًا لِإِنْسَانِ
وَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي الدَّهْرِ مُفْرَدًا	فَأَنْتَ لَهُ لَمَّا اقْتَدَيْتَ بِهِ الثَّانِي
فَقَابِلْ صَنِيعَ اللَّهِ بِالشُّكْرِ وَاسْتَعِنْ	بِهِ وَاجْزِ إِحْسَانَ الْإِلَهِ بِإِحْسَانِ

(١) أخذ هذه الفقرة من قوله تعالى : (فول وجهك شطر المسجد الحرام) .

(٢) ذؤابة كل شيء : أعلاه .

(٣) الغور : ما انخفض من الأرض ، والنجد : ما ارتفع منها ، وأراد جميع البقاع

وحق الذى سمالك باسم محمد
لما بلغ النعمى عليك سروره
فإني أنا العبد الصريح انتسابه
إذا كنت فى عز ومُلك وغبطة
لَوْ أَنَّ الصبا قد عاد منه بريعتان
أَلَيْتَ وافٍ لا أليسة خوان^(١)
كما أنت مولاي العزيز وسلطانى
فقد نلت أوطارى وراجعت أوطانى

مولاي الذى شأنه تحب ، والإيمان بعناية الله تعالى به قد وجب ، وعزه أظهره
مَنْ برداء العزة احتجب ، إذا كانت الغاية لا تُدرك ، فأولى أن تسلم وتترك ، ومنه
الله تعالى عليك ليست مما يشرح ، قد عقل العقل فما يبرح ، وقيد اللسان فما يرى
فى مجال العبارة ولا يسرح ، اللهم ألهمنا على هذه النعمة شكراً ترضاه ، وإمداداً
من لَدُنْكَ نتقاضاه ، يا الله يا الله ، سعود أنارت بعد أقول شهابها^(٢) ، وحياة كرت
بعد ذهابها ، وأحباب اجتمعت بعد فراقها ، وأوطان دنت بعد بُعْدِ شامها من
عراقها ، وأعداء أذهب الله تعالى رَسْمَ بغيهم ونحاه ، وبُغَاة أدار عليهم الدهر رحاه ،
وعباد أعطوا من كشف الغم ما سألوه ، ونازحون لو سُئلوا فى إتاحة القرب بما فى
أرماقهم لبذلوه ، وسبحان الذى يقول (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم
أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه) فليهن الإسلام بياض وجهه بعد اسوداده ،
وتغلب إيالة مَنْ لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده ، وعودة الملك المظلوم
إلى معتاده ، واستواء الحق النأى جنبه فوق مهاده ، ورد الإرث المغصوب إلى مستحقه
عن آبائه وأجداده ، والحمد لله الذى غسل عن وجه الأمة الحنيفية العار ، وأنقذ
عُهدتها وقد ملكها الذعار ، فرد المعارك ، وأعيد الشُّعار ، نحمدك اللهم حمداً يليق
بقدسك ، لا بل لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، والعبد يامولاي
قد بهرت عقله آلاء الله تعالى قبلك فالفكر جائل واللسان ساكت ، والعقل ذاهل

(١) الألية : اليمين والحلف ، وقال الشاعر :

على ألية إن كنت أدري أينقص حب ليلي أم يزيد

(٢) الأقول : الغروب ، وأراد بالشهاب النجم .

والطرف باهت ، فإن أقام رَسْمًا للمخاطبة فقلم مرح وركض ، وطِرْس هز جناح
الارتياح ونفض ، ليس هذا المرَام مما يرام ، ولا هذه العناية التي تحارفيها الأفهام ،
مما تُصمِّي غرضه السَّهَام ، فنسأل الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين ،
وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين ، حتى لا يغره السَّراب الخادع ، والذهر
المرغم للأتوف الجادع ، ولا يرى غير الله في الوجود من صانع ، ولا معط ولا مانع ،
ويتمعه بالعز الجديد ، ويوقفه للنظر السديد ، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد ،
والسلام ، انتهى .

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى أبا عبد الله بن عمر التونسي قوله :
سیدی الذي عهده لا ينسى ، وذكره يُصبح في ترديده بالجميل ويُمنسى ، أبقاكم
الله تعالى تجلون من السعادة شمسًا ، وتصرفون في طاعته لسانا فردًا وبنانا خمسًا .
وصلني كتابكم الأشعث الأغبر ، ومقتضبك الذي أضغاثه لا تُعبر ، شهادة
بعدم الاعتناء أوضاعه ، معدومًا إمتاعه ، قصيرًا في التعريف بالخال المتشوف إليها
باعه ، مضمنًا الإحالة على خلى من معناها ، غير متلبس بمَوْحَدَها ولا مُثَنَّاها^(١) ، سألته
كما يسأل المريض عما عند الطبيب ، ويحرص الحبيب على تعرف أحوال الحبيب ،
فذكر أنه لم يتحمل غير تلك السَّحاة المغنية في الاختصار ، المحجفة بحظي الأسماع
والأبصار ، فهممت بالعتب ، على البخيل بالكتب ، ثم عذرت سيدى بما يعترى
مثله من شواغل تطرق ، وخواطر تومض وتبرق ، وإذا كان آمنا سِرُّه ، مُهَنَّا
سِرُّه ، فهو الأمل ، ويقنع هذا الجميل ، وإن كان التفسير هو الأكمل ، وما ثم
ما يعمل ، ووده في كل حال وده ، والله سبحانه بالتوفيق يمد ، والسلام
وكانت لسان الدين رحمه الله تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة وأعيانها ،

(١) أصل موحد معدول عن واحد واحد ، ومثنى معدول عن اثنين اثنين ،
وفي القرآن الكريم (جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) وأراد
هنا الأعداد كلها شفعها ووترها

دلت على قوة عارضته في البلاغة ، وقد ألمعنا بجملة منها في هذا الكتاب في مواضع ولم نكثر منها طلباً للاختصار أو التوسط بحسب ما اقتضاه الباعث في الحال ، والله سبحانه وتعالى يبلغ الآمال ، ويرزق الأعمال .

من إنشائه على
لسان سلطانه
إلى رسول الله
صلى الله عليه
وسلم

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج يوسف
ابن نصر إلى سيد العالمين صلى الله عليه وسلم إثر نظم ، ونصّ الكل هو :

إذا فاتني ظل الحمى ونعيمه
فحسب فؤادي أن يهْبَ نسيمة
ويقتعني أنى به متكف
فزمره دمي وجسمي حطيمه^(١)
يعود فؤادي ذكر من سكن الغضى
فيقدمه فوق الغضى ويقيمه
ولم أر شيئاً كالنسيم إذا سرى
شفى سقم القلب المشوق سقيمه
نعلل بالتذكار نفساً مشوقة
ندبر عليها كأسه ونديمه
وما شفى بالغور قد مرّج
ولا سهرت عيني لبرق نثيمه
برانى شوق للنبي محمد
يسوم فؤادي برّحه ما يسومه
ألا يا رسول الله ناداك ضارع
على النأي محفوظ الوداد سايمة
مَشُوق إذا ما الليل مد رواقه
تهمّ به تحت الظلام همومه
إذا ما حديث عنك جاءت به الصبا
شجاه من الشوق الحثيث قديمه
أيجهر بالنجوى وأنت سميهما
ويشرح ما يخفى وأنت عليهما
وتعوزه السقيا وأنت غياثه
وتلقه الشكوى وأنت رحيمه
بنورك نور الله قد أشرق الهدى
فأقماره وضاحية ونجومه
لك أنهل فضل الله بالأرض ساكباً
فأنواؤه ملتفة وغيومه

(١) زمر : اسم برّ يستقى منه الحاج ، والحطيم - بفتح الحاء - اسم بقعة في البيت الحرام ، وهو ما بين الركن وزمزم ومقام إبراهيم

ومن فوق أطباق السماء بك أفتدى
لك الخلق الأرضى الذى جل ذكره
يجل مدى عليك عن مدح مادح
ولى يا رسول الله فيك ورائه
وعندى إلى أنصار دينك نسبة
وكان بودى أن أزور مَبُوءاً
وقد يجهد الإنسان طُرْفَ اعترامه
وعذرى فى تسويف عزمى ظاهر
عدنى بأقصى الغرب عن تترك العدا
أجاهد منهم فى سبيلك أمة
فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى
فلا تقطع الحبل الذى قد وصلته
وأنت لنا الغيث الذى نستدره
ولما نأت دارى وأعوز مطمعى
بعثت بها جهد المقل معولا
وكلت بها همى وصدق قريحتى
فلا تنسنى يا خير من وطىء النرى
عليك صلاة الله ما ذرَّ شارق
إلى رسول الحق ، إلى كافة الخلق ، ونعمام الرحمة الصادق البرق ، الحائز فى
ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق ، خاتم الأنبياء ، وإمام ملائكة السماء ، ومن

(١) الخليل : هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يلقب بخليل الرحمن لقوله تعالى :
(واتخذ الله إبراهيم خليلاً) والكليم : هو موسى عليه الصلاة والسلام ، لقوله تعالى :
(وكلم الله موسى تكليماً)

وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء ، شفيحُ أربابِ الذنوب ، وطبيبُ أدواء القلوب ، والوسيلة إلى علّام الغيوب ، نبي الهدى الذى طَهَّرَ قلبه ، وغُفِرَ ذنبه ، وختم به الرسالة ربه ، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حُبّه ، الشفيح المشفع يوم العرض ، المحمود فى ملاء السماء والأرض ، صاحب اللواء المنشور يوم النشور ، والمؤمن على سِرِّ الكتاب المسطور ، ومُخْرِج الناس من الظلمات إلى النور ، المؤيد بكفاية الله وعِصْمَتِهِ ، الموفور حظّه من عنايته ونعمته ، الظل الخفاق على أمته ، مَنْ لو حازت الشمس بعض كماله ما عدت إشراقاً ، أو كان للأباء رحمة قلبه ذابت نفوسُهم إشفاقاً ، فائدة الكون ومَعْنَاه ، وسرُّ الوجود الذى بهَرَّ الوجود سناه ، وصفى حضرة القدس الذى لا ينام قلبه إذا نامت عَيْنَاه ، البيريرُ الذى سَبَقَتْ له البشرى ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، ونزل عليه (سبحان الذى أسرى) مَنْ الأنوار من عنصر^(١) نوره مُسْتَمَدَّة ، والآثار تخلق^(٢) وآثاره مُسْتَجَدَّة ، مَنْ طُوِيَ بساطُ الوحي لفقده ، وسدَّ باب الرسالة والنبوة من بعده ، وأوتى جوامع الحكم فوقفت البلغاء حَسْرَى دون حَدِّه ، الذى انتقل فى الغرر الكريمة نوره ، وأضاءت لميلاده مصانعُ الشام وقصوره ، وطفقت الملائكة تَحِيَّه وفودها وتزوره ، وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته ، وأخذ عهد الإيمان به على مَنْ اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته ، المَفْزَعُ الأَمْنَعُ يوم القزع الأكبر ، والسند المعتمد عليه فى أهوال الحشر ، ذو المعجزات التى أثبتتها المشاهدة والحس ، وأقرَّ بها الجنُّ والإنس ، من جماد يتكلم ، وجذع لرفاقه يتألم ، وقر له ينشق ، وحَجَرٌ يشهد أن ما جاء به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس ، وماء من بين أصابعه يتَبَجَّس^(٣) ، وغمام باستسقائه يَصُوب^(٤) ، وطُوى^(٥) بصق فى أجاجها فأصبح

(١) العنصر : الأصل (٢) تخلق : تبلى وتذهب

(٣) يتبجس : يتفجر (٤) صاب المطر يصبوب : نزل

(٥) الطوى - بفتح الطاء وكسر الواو وتشديد الياء - البر ، والأجاج - بضم

الهمزة - الماء اللح

ماؤها وهو العذب المشروب ، الخصوص بمناقب الكمال وكل المناقب ، المسمى بالخائسر العاقب ، ذو الجد البعيد المرامي والمراقب ، أكرم من رفعت إليه وسيلة المعترف والمغترب ، ونجحت لديه قربة البعيد والمقرب ، سيد الرسل محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، الذي فاز بطاعته المحسنون ، واستنقذ بشفاعته المذنبون ، وسعد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، صلى الله عليه وسلم ما لمع برق ، وحمع ودق^(١) ، وطلعت شمس ، ونسخ اليوم أمس .

من عتيق شفاعته ، وعبد طاعته ، المعتصم بسببه ، المؤمن بالله ثم به ، المستشفى بذكره كلما تألم ، المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلم ، الذي إن ذكر تمثل طلوعه بين أصحابه وآله ، وإن هبّ النسيم العاطر وجد فيه طيب خلاله ، وإن سمع الأذان تذكر صوت بلاله ، وإن ذكر القرآن استشعر تردّد جبريل بين معاهده وخلاله ، لا ثم ترّبه ، ومؤمل قربه ، ورهين طاعته وحبه ، المتوسل به إلى رضا الله ربه ، يوسف بن إسماعيل بن نصر .

كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح ، وخيل الوجد ذات جمّاح ، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر ، وانكسار لا يتأخّر له إلا بدؤ مزارك الجبر ، وكيف لا يُعني مشوّك الأمر ، وتوطأ على كبده الجمر ، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربك المقدسة اللحد ، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد ، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت ، والركائب إليك ما رحلت ، والعزائم قالت وما فعلت ، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرخ ، وطيور الآمال عن وكور^(٢) العجز لم تبرّح ، فيالها من معاهد فاز من حيّاها ، ومشاهد ما أعطّر رباها^(٣) ، بلاد نيّطت^(٤) بها عليك التأمم ، وأشرقت بنورك منها النجود والتهائم ، ونزل في

(١) همع : هطل وتدفق ، والودق : المطر

(٢) الوكور : جمع وكر - بالفتح - وهو عش الطائر

(٣) الريا : الرائحة الطيبة (٤) نيّطت : علفت ، والتأمم : جمع تيممة ، وهي العوذة

حُجِّرَ أَمَّا عَلَيْكَ الْمَلَكُ ، وَانْجَلَى بَضِيَاءُ فِرْقَانِكَ فِيهَا الْحَلَاكُ ^(١) ، مَدَارِسُ الْآيَاتِ وَالسُّورِ ، وَمَطَالَعُ الْمَعْجَزَاتِ السَّافِرَةِ الْغُرَرِ ، حَيْثُ قَضِيَتْ الْفُرُوضُ وَحُتِمَتْ ، وَافْتَتَحَتْ سُورَةُ الرَّحْمَنِ وَحُتِمَتْ ، وَابْتَدَأَتْ الْمَلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ وَتَمَّتْ ، وَنَسَخَتْ الْآيَاتُ وَأَحْكَمَتْ .

أَمَّا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ هَادِيًا ، وَأَطْلَعَكَ لِلْخَلْقِ نُورًا بَادِيًا ، لَا يَطْفِئُ غُلَّتِي ^(٢) إِلَّا شَرُّكَ ، وَلَا يُسْكِنُ لَوْعَتِي إِلَّا قَرْبُكَ ، فَمَا أَسْعَدَ مَنْ أَفَاضَ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ إِلَى حَرَمِكَ ، وَأَصْبَحَ بَعْدَ آدَاءِ مَا فَرَضْتَ عَنْ اللَّهِ ضَيْفَ كَرَمِكَ ، وَعَقَّرَ الْخَلْدَ فِي مَعَاهِدِكَ وَمَعَاهِدِ أَسْرَتِكَ ، وَتَرَدَّدَ مَا بَيْنَ دَارَيَّ بَعَثْتَكَ وَهَجَرْتَكَ ^(٣) ، وَإِنِّي لِمَاعَفَتِي عَنْ زِيَارَتِكَ الْعَوَاقِقِ وَإِنْ كَانَ شَغْلِي عَنْكَ بِكَ ، وَعَدَّتْنِي ^(٤) الْأَعْدَاءُ فَيْكَ عَنْ وَصْلِ سَبَبِي بِسَبَبِكَ ، وَأَصْبَحْتَ بَيْنَ بَحْرِ تَتَلَاطَمُ أَمْوَاجُهُ ، وَعَدْوٍ تَتَكَاثِفُ أَفْوَاجُهُ ، وَيُحْجِبُ الشَّمْسَ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ عَجَاجُهُ ، فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَطَنُوا عَلَى الصَّبْرِ نَفْسَهُمْ ، وَجَعَلُوا التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ لِبُوسَهُمْ ، وَرَفَعُوا إِلَى مَصَارِحَتِكَ رُؤْسَهُمْ ، وَاسْتَعَذَّبُوا فِي مَرَضَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرَضَانِكَ بُوسَهُمْ ، يَطِيرُونَ مِنْ هَيْعَةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَيَلْتَفِتُونَ وَالْخَوَافِ عَنْ يُمْنِيَّ وَيُسْرَى ، وَيَقَارِعُونَ وَهُمْ الْفَتَى الْقَلِيلَةُ جُمُوعًا كَجُمُوعِ قَيْصَرٍ وَكُسْرَى ، لَا يَبْلُغُونَ مِنْ عَدُوِّ هُوَ الذَّرُّ عِنْدَ انْتِشَارِهِ ، عَشْرَ مَعَشَارِهِ ، قَدْ بَاعُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، لِأَنَّهُ تَكُونُ كَلِمَةُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعَمَلِيَّةُ ، فَيَأَلُّهُ مِنْ سِرْبٍ مَرُوعٍ ، وَصَرِيحٍ إِلَّا مِنْكَ مَمْنُوعٍ ، وَدَعَاءُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكَ مَرْفُوعٍ ، وَصَبِيَّةُ خُمُرِ الْحَوَاصِلِ ، تَخْفِقُ فَوْقَ أَوْكَارِهَا أَجْنَحَةُ الْمَنَاصِلِ ، وَالصَّالِبُ قَدَّمَ طَيَّ فَذَّ ذِرَاعِيهِ ، وَرَفَعَتْ الْأَطَاعُ بِضْبَعِيهِ ، وَقَدْ حُجِبَتْ بِالْأَقْتَامِ السَّمَاءُ ، وَتَلَاطَمَتْ أَمْوَاجُ الْحَدِيدِ ، وَالْبَأْسُ الشَّدِيدُ ، فَالتَقَى الْمَاءُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّمَاءُ ، وَعَلَى ذَلِكَ فَمَا ضَعُفَتْ

(١) الحلاك : الظلام الشديد (٢) الغلة : حرارة الجوف من عطش ونحوه

(٣) دار البعثة : مكة ، ودار الهجرة : طيبة (المدينة)

(٤) عدتني : صرفتني وشغلتني

البصائر ولا ساءت الظنون ، وما وعد به الشهداء تعتمده القلوب حتى تكاد تشاهده
العيون ، إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله تعالى وقد أبلينا العذر^(١) ، وأرغمنا الكفر ،
وأعمدنا في سبيل الله تعالى وسبيلك البيض والشمر ، أستاذت رقعتي هذه لتطير إليك
من شوقي بجناح خافق ، وتسعد من نيتي التي تصحبها برفيق موافق ، فتؤدّي
عن عبدك وتبلغ ، وتعفر الخدّ في رُبك وتمرغ ، وتطيب برّيا معاهدك الطاهرة
وبيوتك ، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك ، وتقول بلسان النطق ،
عند التشبث بأسبابك والتعلق^(٢) ، منكسرة الطرف ، حذرا يهرجها من عدم الصرف
يا غياث الأمة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتي واقطاعى ، وتعهد بطولك
قصر باعى ، وقو على هيبتك خور طباعى^(٣) ، فكم جزت من لج مهول ، وجبت^(٤)
من حزون وسهول ، وقابل بالقبول نيابتي ، وعجل بالرضا إجابتي ، ومعلوم من كمال
تلك الشيم ، وسجائانيك الديم ، أن لا يحيب قصد من خط بغنائها ، ولا يظما
وارد أكب على إناها .

اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة ، وأعطيته لواء الحمد
يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، وملكته أمته ما زوى له من زوايا
البيسطة المعمورة ، وجعلتني من أمته المجيولة على حبه المفطورة ، وشوقتني إلى
معاهده المبرورة ، ومشاهده المزورة ، ووكلت لسانى بالصلاة عليه ، وقلبي بالحنين
إليه ، ورغبتني بالتماس ما لديه ، فلا تقطع منه أسبابي ، ولا تحرمنى من حبه ثوابي ،
وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي .

هذه يارسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشطّ مزاره ، ولم يجعل بيده اختياره .

(١) أبلينا العذر : قدمناه وأديناه ، ويقال ذلك في العذر المقبول

(٢) التشبث : التعلق ، والأسباب : جمع سبب ، وأصله الحبل ، ويقال لكل
ما يتوصل به لأشئ .

(٣) خور طباعى : ضعفا (٤) جيت : قطعت

فإن لم تكن للقبول أهلاً فأنت للأغضاء^(١) والسماح أهل ، وإن كانت أنفاظها وعرة
فجناحك للقاصدين سهل ، وإن كان الحب يتوارث كما أخبرت ، والعروق تدس
حسباً إليه أشرت ، فلي بانتسابي إلى سعد^(٢) عميد أنصارك مزيه ، ووسيلة أنيرة خفية ،
فإن لم يكن لي عمل ترتضيه فلي نية ، فلا تنسني ومن بهذه الجزيرة المفتحة بسيف
كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أفعالك ، نعوذ
بوجه ربك من إغفالك ، ونستنشق من ريح عنايتك نَفْحَةً^(٣) ، ونرتقب من حُجَّيَا
قبولك لَحْجَةً^(٤) ، بدافع بها عدواً طغى وبقى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى ، فواقف
التمحيص قد أعيت مَنْ كُتِبَ وورَّخ ، والبحر قد أصمت من استصرخ ، والطاغية
في العُدوان مستبصر ، والعدو محلق والولى مقصر ، وبجاهك ندفع ما لا نطق ،
وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق ، فلا تفردنا ولا تهملنا ، وناد ربك فينا ،
(ربنا ولا تحملنا) وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم ، وربك
يقول لك وقوله الحق (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) والصلاة والسلام عليك
يا خير مَنْ طاف وسعى ، وأجاب داعياً إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك
وآلِكَ ، صلاة تليق بجلالك ، وتحق لكالك ، وعلى ضجيعيك وصديقك ،
وحبيبيك ورفيقيك ، خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك ،
وصهرك ذى النورين الخصوص ببرك ومحلتك ، وابن عمك سيفك المسلول على
حلتك ، بدر سمائك ووالد أهلك ، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيرا أنيرا
ورحمة الله تعالى وبركاته ، وكتب بمحضرة جزيرة الأندلس غرناطة ، صانها
الله تعالى ووقاها ! ودفع عنها ببركك كيدَ عداها ! انتهت الرسالة .
وكتب أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان مخدومه السلطان
الغنى بالله محمد بن السلطان أبى الحجاج - رحم الله تعالى الجميع ! - ماصورته :

(٥) أراد بالإغضاء إغماض الجفن عن ذلها

(١) أراد سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه ، وانظر (ص ٥٣ من هذا الجزء)

(١) النفحة - بالفتح - الهبة (٣) اللمعة - بالفتح أيضا - النظرة

- دعاك بأقصى المغربين غريب
مدل بأسباب الرجاء وطرفه
يكلف قرص البدر حمل تحية
لترجع من تلك المعالم غدوة
ويستودع الريح الشمال شمائلها
ويطلب في جيب الجيوب جوابها
إذا أثر الأخفاف لاحت محاربا
ويلقى ركاب الحج وهى قوافل
فلا قول إلا أنه وتوجع
غليل ولكن من قبولك منهل
ألا ليت شعرى والأمانى ضلّة
أينجد نجد بعد شحط مزاره
وتقضى ديونى بعد ما مطل المدى
وهل أفتضى دهرى فيسمح طائعا
ويا ليت شعرى هل الحومى مورد
ولكنك المولى الجواد وجاره
وكيف يضيق الذرع يوما بقاصد
وما هاجنى إلا تألق بارق
ذكرت به ركب الحجاز وجيرة
فبت وجفنى من لآلىء دمعته
- وأنت ، على بعد المزار ، قريب
غضيض على حكم الحياء مريب
إذا ما هوى والشمس حين تغيب
وقد ذاع من ردّ التحية طيب^(١)
من الحب لم يعلم بهن رقيب
إذا ما أطلت والصباح جنيب
يخر عليها راكعا وينيب
طلاح وقد لبي النداء لبيب^(٢)
ولا حول إلا زفرة ونحيب
عليل ولكن من رضاك طبيب
وقد تخطى الآمال ثم تصيب
ويكتب بعد البعد منه كتيب
وينفذ بيعى والمبيع معيب
وأدعو بحظى مسمعا فيجيب
لديك؟ وهل لى فى رضاك نصيب؟^(٣)
على أى حال ليس يخيب
وذاك الجناب المستجار رحيب^(٤)
يلوح بفؤد الليل منه مشيب
أهاب بها نحر الحبيب مهيب
غنى وصبرى للشجون سليب^(٥)

(١) ذاع : انتشر فعلا الجو (٢) طلاح : معيات ، واحدها طليح
(٣) حام حول الحمى : دنا منه ودار حوله ، والمورد : مكان ورود الماء
(٤) جناب رحيب : واسع (٥) سليب : مسلوب ، يريد أنه لا صبر له
(٥ — ٩ نفع)

ترنحني الذكري ويهفو بي الهوى
 وأحضر تعليلاً لشوق بالني
 مراحمي لو أعطى الأماني زورة
 فقول حبيب إذ يقول تشوقاً
 تعجبت من سيفي وقد جاور الغضى
 وأعجب أن لا يورق الرمح في يدي
 فيا سرّح ذاك الحى لو أخلف الحيا
 ويا هاجر الجو الجديد تلثيثاً
 ويا قادح الزند الشحاح ترفقاً
 أيا خاتم الرسل المكين مكانه
 فوادي على جمر البعاد مقلب
 فوالله ما يزداد إلا تلهباً
 فليلته ليل السليم ويومها
 هوأى هدى فيك اهتديت بنوره
 وحسبي على أنى لصحبك مُنتم
 عدت عن مغانيك المشوقة للعدا
 حراس على إطفاء نور قد ختته
 فكم من شهيد في رضاك مجدّل
 تمر الرياح الغفل فوق كلومهم
 لنصرك عنك الشغل من غير منة
 فإن صح منك الحظ طاوعني المنى
 ولولاك لم يعجم من الروم عودها

كما مال غصن في الرياض رطيب
 ويطرق وجد غالب فأغيب
 يُبثُّ غرام عندها ووجيب
 عسى وطن يدنو إلى حبيب
 بقلبي فلم يسبكه منه مذب
 ومن فوقه غيث المشوق سكب
 لأغناك من صوب الدموع صيب
 فعهدى رطب الجانبين خصيب
 عليك فشوق الخارجى شيب
 حديث الغريب الدار فيك غريب
 يماح عليه للدموع قلب
 أبصرت ماء ثار عنه لهيب
 إذا شدّ للشوق العصاب عصيب
 ومنسبى للصحب منك نسيب
 وللخزرجيين الكرام نسيب
 عقارب لا يخفى لهن ديب
 فمستلب من دونه وسليب
 يظله نسر ويندب ذيب
 فتعقب من أنفاسها وتطيب
 وهل يتساوى مشهد ومغيب
 ويبعد مرمى السهم وهو مصيب
 فعود الصليب الأعجمي صليب

وقد كانت الأحوال لولا مراغب ضمنت ووعدته بالظهور تريب^(١)
فما شئت من نصر عزيز وأنعم أثاب بهن المؤمنين مثيب
منابر عز أذن الفتح فوقها وأفصح للعضب الطرير خطيب^(٢)
نمود إلى هيجائها كل صائل كاريغ مكحول اللعاز ريب^(٣)
ونجتاب من سرود اليقين مدارعا يكفئها من يجتنى ويشيب^(٤)
إذا اضطرب الخطى حول غديرها يروك منها لجة وقضيب
فعدرا وإغضاء ولا تنس صارخا بعرك يرجو أن يجيب مجيب
وجاهك بعد الله نرجو ، وإنه لحظ مليء بالوفاء رغب
عليك صلاة الله ما طيب القضا عليك مطيل بالثناء مطيب
وما اهتز قد للغصون مرشح وما أفر ثغر للبروق شنيب

إلى حجة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره ، وفائدة الكون ونكتة أدواره ، وصفوة
نوع البشر ومنتهى أطواره ، إلى المجتنى وموجود الوجود لم يغن بمطلق الوجود
عديمه ، المصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظام أديمه ، المحتوم في القدم ،
وظلمات القدم ، عند صدق القدم ، تفضيله وتقديمه ، إلى وديعة النور المنتقل في الجباه
الكريمة والغرر ، ودررة الأنبياء التي لها الفضل على الدَّرَر ، وغمام الرحمة الهامية الدَّرَر
إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتنائه ، وحيبيه الذي له المزية على أحبائه ، وذرية أنبياء
الله تعالى آبائه ، إلى الذي شرح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله ،
وأتم عليه إنعامه الذي أجزله ، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله ، إلى بشرى
المسيح والذبيح ، ومن لهم التَّجَرُّ الرِّيح ، المنصور بالعرب والريح ، المخصوص
بالنسب الصريح ، إلى الذي جعله في المَحُولِ غماما ، وللأنبياء إماما ، وشق صدره

(١) تريب : تبعث على الريب ، وهو الشك .

(٢) العضب : السيف القاطع ، والطرير : اللين المهزلة

(٣) في ب « كاريغ مكحول اللعاز » تحريف (٤) يكفئها : يضمها

لتلقى روح أمره غلاما ، وأعلم به في التوراة والإنجيل إعلاما ، وعلم المؤمنين صلاة عليه وسلاما ، إلى الشفيع الذي لا تُرَدُّ في العصاة شفاعته ، والوجيه الذي قرنت بطاعة الله تعالى طاعته ، والرؤف الرحيم الذي خلصت إلى الله تعالى في أهل الجرائم صراغته ، صاحب الآيات التي لا يسع ردها ، والمعجزات التي أربى على الألف عدها ، فمن قر شق ، وجذع حن له وحق ، وبنان يتفجر بالماء ، فيقوم برى الظماء ، وطعام يشبع الجمع الكثير يسيره ، وغمام يُطَلَّلُ به مقامه ومسيره ، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض ، وأول من تنشق عنه الأرض ، ووسيلة الله تعالى التي لولاها ما أقرض القرض ، ولا عرف النفل والقرض ، محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذى الجلال ، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتبُ الأرسال ، وآياته التي أثبتت القلوب ببرد اليقين السلسال ، صلى الله عليه وسلم ماذر شارق ، وأومض بارق ، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق ، صلاة تتأرجح على شذى الزهر ، وتباج عن سنى الكواكب الزهر ، وتتردد بين السر والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر .

من عبد هُداه ، ومستقرى ^(١) مَوَاقِع نداء ، ومزاحم أبناء أنصاره في منتداه ، وبعض سهامه المفوقة ^(٢) إلى نحر عداه ، مؤمل العتق من النار بشفاعته ، ومحرز طاعة الجبار بطاعته ، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى وإضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاه ، وذخائر في الشدائد مُرْتَجَاه ، متاجر بضائعها غير مُزْجَاه ^(٣) ، الذى ملأ بحبه جوامح صدره ، وجعل فكره هالة لبدرة ، وأوجب حقه على قدر العبد لا على قدره ، محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى ، نسيب سعد

(١) مستقرى : متبوع ، ومواقع نداء : المواضع التي يقع فيها جوده وكرمه

(٢) فوق السهم - بتشديد الواو - صوبه ووجهه نحو الرمية ، والنحور : الأعناق

(٣) بضاعة مزجاة : قليلة ردية لم يتم صلاحها

ابن عُبادة من أصحابه ، وبوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ،
ظلله الله تعالى يوم الفزع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان ! كما أنار قلبه من
هدايتك بأنوار الهدى والإيمان ، وجعله من أهل السياحة في فضاء حُبِّك والهيان !
كتبه إليك يا رسول الله واليراع^(١) تقتضى الهيبة صفرة لونه ، والمداد يكاد أن
يحول سواد جَوْنَه ، وورقة الكتاب يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم
وصَوْنَه ، والدمعُ يقطر فتتقط به الحروف وتفصل الأسطر ، وتوهَّمُ المثلُ بِمَثْوَاكَ
المقدس لا يمر بالخطرسواه ولا يخطر ، عن قلب بالبعد عنك قريح^(٢) ، وجفن بالبكاء
جريح ، وتأوه عن تبريح^(٣) ، كلما هَبَّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسار ليس له
إلا جَبْرُكَ^(٤) ، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك ، وإن يقض فقبرك ، وكيف لا يسلم
في مثلها الأسي ، ويوحش الصباح والمساء ، ويرجف جبل الصبر بعد مارسا^(٥) ، لولا
لعل وعسى ، فقد سارت الركبان إليك ولم يُقَضِّ مسير ، وحومت الأسراب^(٦)
عليك والجفاحُ كسير ، ووعدت الآمال فأخلفت ، وحلفت العزائم فلم تفِ
بما حلفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل ، إلا على
التمثيل ، ولا من المعالم الملتزمة التنوير ، إلا على التصوير ، مهبط وحى الله تعالى
ومتنزل أسمائه ، ومتردد ملائكة سمائه ، ومدافن أوليائه ، وملاحد أصحاب خيرة
أنبيائه ، رزقنى الله تعالى الرضا بقضائه ، والصَّبْرَ على جاحم البعد ورمضائه ، من
حرء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك ، ومسجبة
رجلك يا رسول الله وخَيْلك ، وأناى مطارح دعوتك ومساحب ذيلك ، حيث
مصاف الجهاد فى سبيل الله وسبيلك قد ظللها القَتَام ، وشُهْبَانُ الأُسنة أطلعها منه
الإعتام ، وأسواق بيع النفوس من الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام ، حيث

(١) اليراع : القلم (٢) قريح : جريح (٣) التبريح : الإجهاد

(٤) الجبر : إصلاح العظم (٥) رسا : ثبت

(٦) حومت : دارت ، والأسراب : الجماعات

الجراحُ قد تحلت بعسجد نجيعها النحور ، والشهداء تحف بها الحور ، والأمم الغريبة
قد قطعها عن المدد البحور ، حيث المباسم المُفترَّة ، تجلوها المصارع البَرَّة ، فتحيبها
بالقرآء ثغور الأزاهر ، وتندبها صَوَادِح الأدواح برنأت تلك المزاهر ، وتحمل
السحاب أشلاءها المعطلة من ظلها بالجواهر ، وحيث الإسلام من عدوه المسكيد
بمنزلة قطرة من عارض غمام ، وحصاة من ثبير أو شمام^(١) ، وقد سدت الطريق ،
وأسلم الفراق الفريق ، وأغص الريق ، ويئس من الساحل الغريق ، إلا أن
الإسلام بهذه الجهة المتسكة بحبل الله تعالى وحَبْلِكَ ، المهتدية بأدلة سُبُلِكَ ، سالم
والحمد لله تعالى من الانصداع ، محروس بفضل الله تعالى من الابتداع ، مقدود
من جديد الملة ، معدوم فيه وجود الطوائف المضلة ، إلا ما يخص الكفر من هذه
العلة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة ، ولهذه الأيام يا رسول
الله أقام الله تعالى^(٢) أودَه بَرًّا بوجهك الوجيه ورَعْيَا ، وإنجاز الوعدك وهو الذى
لا يخلف وعدا ولا يخيب سَعْيَا ، وفتح لنا فتوحا أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ،
وبشرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع التثريب^(٣) ، ونصرنا وله المنة على عبدة
الصليب ، وجعل لألفنا الردينى^(٤) وَلَا مِنَّا السَّرْدَى حكم التغليب ، وإذا كانت
الموالى التى طوقت الأعناق مِنهَا ، وقررت العوائد الحسان سيرها وسنتها ، تبادر
إليها نوابها الصرحاء وخدامها النصحاء بالبشائر ، والمسرات التى تشاع فى العشائر ،
وتجولديها نتائج أيديها ، وغايات مَبَادِيهَا ، وتباحفها وتهادِيهَا ، بمجانى جناتها
وأزاهر غَوَادِيهَا ، وتطرف محاضرها بطُرفِ بَوَادِيهَا ، فبابك يا رسول الله أولى
بذلك وأحق ، ولك الحق الحق ، والحرُّ منا عَبْدُكَ المسترق ، حسبما سَجَّلَهُ الرق ،
وفى رضاك من كل من يلتمس رضاه المطمع ، ومثواك المَجْمَع ، ومولوك الإسلام

(١) ثبير وشمام : جبلان (٢) الأود : العوج (٣) التثريب : اللوم والتقريع

(٤) الألف الردينى : أراد به الرماح . واللام السردى : الدروع

في الحقيقة عبيد سُدَّتْكَ المؤمَّة ، وَخَوَّلْ مُثَابِتَكَ ^(١) المحسنة بالحسنات الجملة ، وشهب
تعشو إلى بدورك المسكلة ، وبعض سيوفك المقلدة في سبيل الله تعالى الحملة ،
وَحَرَسَةِ مِهَادِكَ ، وسلاح جهادك ، و بروق عِهَادِكَ ^(٢) ، وإن مكفول احترامك الذي
لا يخقر ، وَرَبِّيَّ إِنْعَامِكَ الذي لا يكفر ^(٣) ، وملتحف جاهك الذي يمحى ذنبه
بشفاعتك إن شاء الله تعالى وَيُقَفَّرْ ، يطالع روضة الجنة المفتحة أبوابها بِمَثْوَاكَ ،
ويفتح صِوَان ^(٤) الْقُدُس الذي أَجَنَّاكَ وَحَوَّاكَ ، وينثر بضائم الصلاة عليك بين
يدي الضريح الذي طَوَّاكَ ، ويعرض جنى ما غرست وبذرت ، ومصدق
ما بشرت به لما بشرت وأنذرت ، وما انتهى إليه طَلَقُ جِهَادِكَ ، وَمَصَبُّ عِهَادِكَ ^(٥) ،
لتمرعين نصحك التي أنام العيون الساهرة هجوعها ، وأشبع البطون ورواها ظمؤها
في الله تعالى وَجُوعُهَا ، وإن كانت الأمور بمرأى من عَيْنِ عَنَائِتِكَ ، وغيرها
متعرف بين إفصاحك وكنايتك ، ومجمله يا رسول الله صلى الله عليه ، وبلغ
وسيلتي إليك ، هو أن الله سبحانه لما عرفني لطفه الخفي في التخصيص ، المقتضى
عدم الحخيص ، ثم في التخصيص ، المغنى بعيانه عن التنصيص ، وفق ببركاتك
السارية رحمتها في القلوب ، ووسائل محبتك العائدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة
عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدبار ، ومزيد استبصار ، واستعانة بالله تعالى
وانتصار ، فسكن هبوب الكفر بعد إعصار ، وحُلَّ مَخْنَقِ الإسلام بعد حصار ،
وجرت على سنن السنة بحسب الاستطاعة والمنة السيرة ، وجبرت بجاهك القلوب
الكسيرة ، وسهلت المآرب العسيرة ، ورفع بيد العزة الضَّيْمَ ، وكشف بنور
البصيرة الغَيِّمَ ، وظهر القليل على الكثير ، وباء الكفرُ بِخَطَةِ التعثير ، واستوى
الدينُ الخفيف على المهاد الوثير ، فاهتبلنا يا رسول الله غرة العدو واتهنزناها ، وَشَمْنَا

(١) الخول : الخدم ، وزنا ومعنى ، والمثابة : مكان إقامة ، وأصله المسكان الذي
يعود إليه كلما زايله (٢) العهد - بكسر العين ، بزنة الكتاب - المطر
(٣) لا يكفر : لا يجحد (٤) أصل الصوان - بكسر الصاد ، بزنة الكتاب -
الذي يحفظ فيه المتاع ، وأجنتك : سترك

صَوَّارم عزة الغدوّ وهَزَزْنَاهَا ، وَأَزْحَنَّا عِللَ الْجِيُوشِ وَجَهَازَهَا ، فَسَكَانٌ مِمَّا سَاعَدَ عَلَيْهِ الْقَدَرُ ، وَالْخَطْبُ الْمُبْتَدَرُ ، وَالْوَرْدُ الَّذِي حَصَلَ بَعْدَهُ الصَّدَرُ ، أَنَّنَا عَاجِلُنَا مَدِينَةَ بَزْغَةَ ، وَقَدْ جَرَّعَتِ الْأَخْتَيْنِ مَالَقَةً وَرُنْدَةً ، مِنْ مَدَائِنِ دِينَكَ ، وَمَزَايِنِ^(١) مِيَادِينِكَ ، أَكْوَسَ الْفِرَاقُ ، وَأَذْكَرَتْ مِثْلَ مَنْ بِالْعِرَاقِ ، وَسَدَّتْ طَرِيقَ التَّزَاوُرِ عَنِ الطَّرَاقِ ، وَأَسَالَتِ الْمَسِيلَ بِالْفَجِيعِ الْمُرَاقِ^(٢) ، فِي مَرَاصِدِ الْمَرَادِ وَالْمُرَاقِ^(٣) ، وَمَنْعَتِ الْمُرَاسِلَةَ مَعَ هَدْيِ الْحَمَامِ ، لَا بَلْ مَعَ طَيْفِ الْمَنَامِ عِنْدَ الْإِلْمَامِ ، فَيَسِّرَ اللَّهُ تَعَالَى اقْتِحَامَهَا ، وَأَلْهَمَتْ بِيضَ الشَّفَارِ فِي زُرْقِ السَّكْفَارِ الْإِلْحَامِ ، وَأَزَالَ بِشَرِ السِّيُوفِ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْحُرُوفِ إِقْحَامَهَا ، فَانْطَلَقَ الْمَسْرَى ، وَاسْتَبَشَرَتْ الْقَوَاعِدُ الْحَسْرَى ، وَعَدِمَتْ بِطَرِيقِهَا الْخَفِيفِ مَصَارِعَ الصَّرْعَى وَمَنَاقِفَ الْأَسْرَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى فَتْحِهِ الْأَسْنَى وَمَنْحِهِ الْأَسْرَى ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَنْفَلٌ قَيْصَرٌ وَكَسْرَى ، وَفَاتَحَ مَغْلَقَاتِهِمَا الْمُنِيعَةَ قَسْرًا ، وَاسْتَوْلَى الْإِسْلَامُ مِنْهَا عَلَى قَرَارِ جَنَاتٍ ، وَأُمِّ بَنَاتٍ ، وَقَاعِدَةِ حَصُونٍ ، وَشَجَرَةِ غُصُونٍ ، طَهَّرَتْ مَسَاجِدَهَا الْمَغْتَصِبَةَ الْمَكْرَهَةَ ، وَفَجَعَ بِحَفَظِهَا الْقَيْلَ الْأَفِيلَ وَأَبْرَهَةَ ، وَانْطَلَقَتْ بِذِكْرِ اللَّهِ الْأَلْسِنَةُ الْمِدْرَهَةَ ، وَفَازَ بِسَبْقِ مِيدَانِهَا جِيَادُكَ الْقَرْهَةَ ، هَذَا وَطَاقِيَةُ الرُّومِ عَلَى تَوْفَرِ جَمُوعِهِ ، وَهَوْلُ مَرْتَبِهِ وَمَسْمُوعِهِ ، قَرِيبُ جَوَارِهِ ، بِحَيْثُ يَتَّصِلُ خَوَارُهُ ، وَقَدْ حَرَّكَ إِلَيْهَا الْخَنِينَ حِوَارَهُ ، ثُمَّ نَازَلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَهَا شَجَا الْإِسْلَامِ الَّذِي أَعْيَا النَّطَاسَى عِلَاجُهُ ، وَكَرَّكَ هَذَا الْقَطْرَ الَّذِي لَا تَطَاوُلُ أَعْلَامُهُ وَلَا تَصَاوُلُ أَعْلَاجُهُ ، وَرَكَابُ الْغَارَاتِ الَّتِي تَطْوِي الْمَرَاحِلَ ، إِلَى مُكَايَدَةِ الْمُسْلِمِينَ طَى الْبُرُودِ ، وَحَجَرُ الْحَيَاتِ الَّتِي لَا تَخْلَعُ عَلَى اخْتِلَافِ الْفُصُولِ جُلُودَ الزَّرُودِ ، وَمُنْغَصُّ الْوُرُودِ فِي الْعَذْبِ الْمُرُودِ ، وَمُغْفِضُ الْمَضَاجِعِ ، وَحِلْمُ الْهَاجِعِ ، وَبَجْهِزِ الْخَطْبِ الْفَاجِئِ الْفَاجِعِ ، وَمُسْتَدْرِكُ فَاتِكَةِ الرَّاجِعِ ،

(١) المزاين ، وهو اسم مكان من قولهم « حرب زبون » بزنة صبور —

وهي التي يدفع بعضها بعضا من السكثرة ، ووقع في ب « مزاين »

(٢) النجيع : الدم ، والمراق ، هنا : اسم المفعول من « أراق الدم » أى أساله

(٣) المراقي : جمع مرقاة ، وهي السلايل ونحوها مما يصعد عليه

قبل هبوب الطائر الساجع ، حصن أشبّ حمّاه الله تعالى دعاء لاخبرها ، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبرا ، فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجيد ، وأذلوا عزته بعزة ذى العرش المجيد ، وحفت به الرايات يسمّوها وسمّك^(١) ، ويلوح في صفحاتها اسم الله تعالى واسمك ، فلا ترى إلا نفوسا تتزاحم على مؤرد الشهادة أسرابها ، وليونا يصدّق في الله تعالى ضرابها ، وأرسل الله عليها رجزا إسرائيليا^(٢) من جرّاد السمّام ، تشدّ آياته عن الأفهام ، وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستغلاق والاستبها ، وقد عبثت جوارح صخوره في فنائص الهام ، وأعيا صعبه على الجيش اللّهام ، فأخذ مسائعه النقض والنقب ، ورغما فوق أهله الصقب ، ونصبت المعارج والمراقى ، وفرعت المناكب والتراقى ، واغتم الصادقون مع الله تعالى الخط الباقي ، وقال الشهيد السابق : يا فوز استبقا ، ودخل البلد فالتحم السيف ، واستلبّ البَحْتُ والزيف ، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامك في أبراجها المشيدة ، وظفر ناشد دينك منها بالنشيدة ، وشكر الله تعالى في قصدها مساعى النصائح الرشيدة ، وعمل ما يرضيك يا رسول الله في سدّ ثلّما ، وصوّن مستلّما ، ومُدّأواة أُلّما ، حرصا على الاقتداء في مثلها بأعمالك ، والاهتداء بمشكاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تشجى العدو ، وتصل في مرضاة الله تعالى ومرضاتك برواحها الغدوّ ، ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلتها بالجناح الساتر ، وأنامتها في ضمان الأمان للحُسام الباتر ، وقد وتر الإسلام من هذه المومسة البائسة بوتر الواتر ، وأحفظ منها بأذى الوقاح للمهاتر ، لما جرت على أسراه من عمل اختلّلت الخاتر ، حسب المنقول لا بل المتواتر ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تشك المطى الروازح ، وصدق في الجد جدها المازح ، وخفقت فوق أوكارها جنحة الأعلام ، وغشيتها أفواج الملائكة الموسومة وظلال الغمام ، وصابت من

(١) يسم : مضارع « وسم الشيء » إذا جعل له سمة وعلامة ، والوسم : مصدر

ذلك الفعل (٢) الرجز — بالسكسر — العذاب ، والإسرائيلى : المنسوب إلى نى إسرائيل ، وهو يشير إلى قوله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات)

السهم وَدَقَ الرَّهَامُ^(١) ، وكاد يَكْفِي السهم على الأرض ارتجاج أطواها بكلمة الإسلام ، وقد صَمَّ خَاطِبُ عروس الشهادة عن الملام ، وسمح بالعزير المَصُون مبايع الملك العلام ، وتكلم لسان الحديد الصامت وصمت إلا بذكر الله لسان الكلام ، ووفت الأوتار بالأوتار ، ووصل بالخطى درع الأبيض البتار^(٢) ، وسلطت النار على أربابها ، وأذن الله تعالى في تبار تلك الأمة وتبأبها^(٣) ، فنزلوا على حكم السيف آلافا ، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافا ، واستوعب المقاتلة أكنفا ، وقُرِنُوا في الجذل أكتافا ، وحملت العقائل والخرائد ، والولدان والولائد ، إركابا من فوق الظهور وإردافا ، وأقلت منها أفلاك الجول بدورا تضيء من ليالى الحاق أسدافا^(٤) ، وامتلأت الأيدي من المواهب والغنائم ، بما لا يصوره حلم النائم ، وتركت العوافى تتداعى إلى تلك الولائم ، وتفتن من مطاعها في الملائم ، وشُنَّت الغارات على حمص فجلت خارجها مغارا ، وكست كبار الروم بها صغارا ، وأجحرت أبطالها إجحارا ، واستاقت من النعم ما لا يقبل الحصر استبحارا ، ولم يكن إلا أن عدل القسم ، واستقل بالقول العزيز الرسم ، ووضع من التوفيق الوسم ، فكانت الحركة إلى قاعدة جَيَّان قيعة الظل الأبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، وكناس الغيد الخرد ، وكرسی الإمارة ، وبحر العمارة ، ومهوى هوى الغيث الهتون ، وحزب التين والزيتون ، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجانيه ، وتشرق بشواطئ الأنهار إشراق الأزهار زُهرُ مبانيه ، والقلعة التي تَحْتَمَّتْ بنان شرفاتها بخواتم النجوم ، وهمت من دون سحبها البيض سحائب الغيث السَّجُوم ، والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها ، وهجوم فراقها ، سِمة الوجوم لذلك المهجوم ، فرمتها البلاد المساعة بأفلاذ أكبادهـا الوادعة ، وأجابت منادى دعوتك الصادقة الصادعة ، وحبَّتها بالفادحة الفادعة ،

(١) الودق: المطر ، والرهام: جمع رهمة - بكسر الراء فيهما - وأصله للطر الضعيف الدائم . (٢) الأبيض البتار : السيف الشديد القاطع . (٣) التبار ، والتباب - بزنة السحاب فيهما - الهلاك . (٤) الأسداف : الظلم ، واحدها سدفة .

فَفَصَّتْ الرُّبَا والوهاد بالتكبير والنهليل ، وتجاوبت الخليلُ بالصَّهِيل ، وانهالت الجوعُ
 المجاهدة في الله تعالى انهيالَ السَّكْثِيبِ المِهِيل^(١) ، وفهمت نفوسُ العباد المجاهدة في
 الله تعالى حق الجهاد معاني التيسير من ربها والتسهيل ، وسفرت الرايات عن
 المرائى الجميل ، وأربت الحلات المساعة على التأميل ، ولما صبحتها النواصي المقبلة
 الغرر ، والأعلام المكتنبة الطَّرَر ، برز حامياتها مُصْحَرِين^(٢) ، وللحوزة المستباحة
 مستنصرين ، فكأثرهم من سَرَعَانِ الأبطال رَجُلُ الدَّبْيِ^(٣) ، ونَبَتْ الوهاد والربا ،
 فأقحموهم من وراء السور ، وأسرعت أقلام الرماح في بسط عددهم المكسور ،
 وتركت صرعاهم ولائم للنسور ، ثم اقتحموا رَبَضَ المدينة الأعظم فافترعوه ،
 وجَدَلُوا مَنْ دافع عن أسواره وصَرَغُوهُ ، وأَكْوَسَ الختوف جرَّعوه ، ولم يتصل
 أولى الناس بأخراهم ، ويحمد بمخيم النصر العزيز سُرَّاهم ، حتى جزل الكافر
 الصبر وأسلم الجلد ، وأنزل على المسلمين النصر فدُخِلَ البلد ، وطاح في السيل
 الجارف الوالد منه والولد ، وأتهم المطرف والمتلد ، فكان هولا بعيدا الشناعة ،
 وبعثا كقيام الساعة ، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود ، والسلام عن مطاولة
 النجود ، والأيدى عن ردم الخنادق والأغوار ، والأكبش عن مناطق الأسوار ،
 والنفوط عن إصعاق الفجار ، وعمد الحديد ، ومعاول البأس الشديد ، عن نقب
 الأبراج ونقض الأحجار ، فهيمَلَتِ الكُثْبَان ، وأبيد الشيب والشبان ، وكسرت
 الصُّلْبَان ، وفجع بهدم الكنائس الرهبان ، وأهبطت النواقيس من مَرَّاقِهَا العالية
 وصروحها المتعالية ، وخلعت ألسنتها الكاذبة ، ونقل ما استطاعته الأيدى المجاذبة
 وعجزت عن الأسلاب ذوات الظهور ، وجلل الإسلام شعار العز والظهور ، بما خلت
 عن مثله سواف الدهور والأعوام والشهور ، وأعرست الشهداء ومنوا النفوس المبيعة

(١) السكيب : مجتمع الرمل إذا عظم . (٢) مصحرين : ظاهرين ، كأنما
 برزوا للصحراء . (٣) الرجل — بالفتح — جماعة الجراد ، والذبى — بالفتح
 مقصورا — الجراد ، وأراد الفرسان الكثيرى العدد كأنهم الجراد في الكثرة .

من الله تعالى نحل الصدقات والمهور ، ومن بعد ذلك هدم السور ومحيت عن محيطه المحكم السطور ، وكاد يسير ذلك الجبل الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور ، ومن بعد ما خرب الوجار ، عقرت الأشجار ، وغفر المنار ، وسلطت على بنات التراب والماء النار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب ، وأصمى كَلْبَهَا السهمُ الصائب (١) ، وجللتها القشاعُ العصاب (٢) ، فالذئاب في الليل البهيم تعسل (٣) ، والضباع من الحذب البعيد تنسل ، وقد ضاقت الجدل عن الخناق ، وبيع العرض الثمين بالدانق ، وسبكت أسورة الأسوار ، وسويت الهضاب بالأغوار ، واكتسحت الأحواز القاصية سرايا المغوار ، وحجبت بالدخان مطالع الأنوار ، وتخلفت قاعها عبرة للمعتبرين ، وعظة للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان الحمية ، بالثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين .

ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولديها الحزينة عليها العبرى ، مدينة أبدة ذات العمران المستبعر ، والرَبَضِ الخرق المصحر ، والمباني الشم الأنوف ، وعقائل المصانع الجملة الحلى والشنوف ، والغاب الأوف ، بلدة التجر ، والعسكر المجر ، وأفق الضلال الفاجر الكاذب على الله تعالى الكذب الفجر ، فخذل الله تعالى حاميتها التي يعي الحسبان عدّها ، وسجر بحورها التي لا يرام مدّها ، وحقّت عليها كلمة الله تعالى التي لا استطاع ردّها ، فدُخِلَتْ لأوّل وهله ، واستوعب جحّمها والمنة لله تعالى في نهله ، ولم يكف السيف من عليها ولا مهله ، فلما تناوَلها العقّا والتخريب ، واستباحها الفتح القريب ، وأسندَ عن عواليها حديثُ النصر الحسن الغريب ، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب ، وأضرعت مسايها لهول

(١) أصمى : أصاب المقتل ، واللبة — بالفتح — مكان القلادة ، وهو العنق ،

(٢) القشاع — بزنة جعفر — المسن من النسور ، وجللتها : غطتها .

(٣) عسل الذئب والثعلب ونحوهما — من باب ضرب — اضطرب في عدوه .

المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذى عظم صيته ، والعز الذى سما طرفه
واثر أب ليته ، والعزم الذى حمد مسرّاه ومبيته ، والحمد لله ناظم الأمر وقد رآب
شقيقته ، وجابر السكسر وقد أفات الجبر مفيته .

نم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومثوى الطارف والتلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ؟
المدينة التى على عمل أهلها فى القديم ، بهذا الإقليم ، كان العمل ، والكرسى
الذى بعصاه رعى الهمل ، والمصر الذى له فى خطة المعمور الناقة والجل ، والأفق
الذى هو لشمس الخلافة العبشمية^(١) الحمل ، فخم الإسلام بعقوتها المستباحة ، وأجاز
نهرها المعبي على السباحه ، وعم دوحها الأشب بوارا ، وأدار السكاة بسورها
سوارا ، وأخذ بمخنفها حصارا ، وأعمل النصل بشجر نصلها اجتناء ما شاء واهتصارا ،
وجدل من أبطالها من لم يرض انجحارا ، فأعمل إلى المسلمين إصحارا ، حتى فرع
بعض جهاتها غلابا جهارا ، ورفعت الأعلام إعلاما بعز الاسلام وإظهارا ، فلولاً
استهلل العوادي ، وأن أتى الوادي ، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادى ،
ولقضى نفعه العاكف والبادى ، فاقضى الرأى - ولذنب الزمان فى اغتصاب
الكفر إياها متآب ، تعمل يشره بفضل الله تعالى أفتاد وأفتاب ، ولكل أجل
كتاب - أن يراض صعبها حتى يعود ذلولاً ، وتعنى معاهدها الآلة فتترك
طلولاً ، فإذا جع الله تعالى بمارج النار طوائفها المارجة ، وأباد بخارجها الطائرة
والدارجة ، خطب السيف منها أم خارجة ، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار
ومفارق الهضاب بالهشيم قد شاب ، والغلات المستغلات قد دعاها الفضل فما
ارتابت ، وكان صحيفة نهرها لما أضرمت النار حافى ظهرها ذابت ، وحيته فرت
أمام الحريق فانساب ، وتخلفت لغائم الدخان عمام تلويها برؤس الجبال أيدي

(١) العبشمية : المنسوبة إلى عبد شمس ، على طريق النعت ، وعبد شمس : جد

خلفاء بنى أمية ، ونظير هذا قول الشاعر ، وهو عبد يغوث بن وقاص الحارثي :

وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا

الرياح ، وتنشرها بعد الركود أيدي الاجتياح ، وأغربت بأقطارها الشاسعة (١) ،
وجهاتها الواسعة ، جنود الجوع ، وتوعدت بالرجوع ، فسلب أهلها لتوقع الهجوم
منزور المجوع ، فأعلامها خاشعة خاضعة ، وولدتها لثدى البؤس راضعة ، والله
سبحانه يؤفدُ بخبر فتحها القريب ركاب البشرى ، وينشر رحمته قبلنا نشرًا ،
ثم تنوعت يارسول الله لهذا العهد أحوال العدو تنوعًا يوم إفاقته من الغمرة (٢) ،
وكادت فتنته تؤذن بجمود الجرة ، وتوقع الواقع ، وحذر ذلك السم النافع ، وخيف
الخرق الذى يحار فيه الرافع ، فتعرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك ، وموصول
عنايتك ، فأنزل النصر والسكينة ، ومكن العقائد المسكينة ، فثابت العزائم وهبت (٣) ،
واطردت عوائد الإقدام واستتب ، وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله ،
وشمس الحق توجب ظلاله ، وهذاك الذى هديت يدحض ضلاله ، ونازلنا حصن
قنبيل والحاثر ، وهما معقلان متجاوران يتناحى منهما الساكن سرارًا ، وقد اتخذنا
بين النجوم قرارًا ، وفصل بينهما حسام النهر يروق غرارا ، والتف معصمه فى حلة
العصب وقد جعل الجسر سوارا ، فخذل الصليب بذلك الثغر من تولاه ، وارتفعت
أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرجت عروس الفتح المبين بمجلاؤه ، والحمد لله تعالى
على ما أولاه .

ثم تحركنا على نقشة تعدى ثغر الوسطة على عدوه المساور فى المضاجع ، ومصبحه
بالفاجىء الفاجع ، فنازلنا حصن روضة الأخذ بالكظم ، المعترض بالشجأ اعتراض
العظم ، وقد شحنه العدو مددا بثيسا ، ولم يألُ اختياره رأيا ولا تلبيسا ، فأعيا داؤه ،
واستقلت بالمداغة أعداؤه ، ولما أطلع إليه جيد المنجنيق ، وقد برك عليه بروك
القنيق ، وشد عصام المنع الوثيق ، لجأ أهله إلى التماس اليهود والمواثيق ، وقد

(١) أقطارها : نواحيها ، والشاسعة : البعيدة الأطراف .

(٢) الغمرة - بالفتح - الشدة (٣) ثابت : رجعت ، وهبت : وثبت .

غصوا بالريق ، وكاذ يذهب بأبصارهم لمعانُ الريق ، فسكناه من حامية المجاهدين
 بمن يحمي ذماره ، ويقرر عتماره ، واستولى أهل الثور إلى هذا الحد على معاقل
 كانت مستغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرشيّة الرماح^(١) إلى قلب قلوبها فنحوها .
 ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفضُ عن الأعراف متراكم الغبار ، وترخي عن
 آباط خيلها شد حزم المغار ، حتى عاودت النفوس شوقها ، واستتبع ذوقها ،
 وخطبت التي لا فوقها ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك المتصاعدة
 على الأفكار المتعاصية ، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي منه طرق
 وادعُ ، ومطلع الحق الذي صدع الباطل صادعُه ، وثنية الفتح التي ررقَ منها لامعُه ،
 ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفرضة المجاز التي لا تنكر ،
 ومجمع البحرين في بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشيطان ، ويتوازي الخيطان ،
 وكاد أن تلتقي حلقمتا البطان ، وقد كان الفكر قدّر قدر هذه الفرصة التي طرق
 منها حمّاه ، ورماء الفتح الأول بما رمّاه ، وعلم أن لا تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم
 إلا من تلقائهما ، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائهما ، فأجلب عليها برّجله وخيّله ،
 وسد أفق البحر بأساطيله ، ومراكب أباطيله ، بقطع ليلته ، وتداعى المسلمون
 بالعدوتين إلى استنقاذها من كهواته ، أو إسّاكها من دون مهواته ، فعجز الحول ،
 ووقع بملكه إياها القول ، واحتازها قهراً ، وقد صارت الضيق ما يناهز ثلاثين
 شهراً ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ، واسودّت الوجوه لخبرها الهاجم ،
 وبكتها حتى دموع الغيث الساجم ، وانقطع المدد إلا من رحمة من يُنفس
 الكروب ، ويغري بالإدالة الشروق والغروب ، ولما شكنا بشبّا الله تعالى نحرّها ،
 وأغصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تُكاثّر نجم السماء برها وبحرها ، ونازلناها

(١) الأرشيّة : جمع رشاء ، وهو في الأصل جبل الدلو ، وقد شبه الرمح في
 طوله ، ومن صفات الرمح التي يمدح بها أن يكون طويلاً ليصل إلى العدو وإن بعد
 وإضافة «أرشيّة» إلى الرماح من إضافة المشبه به إلى المشبه .

نذيقها شديد النزال ، ونجحنا بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال ، رأينا بأوا لا يظاهر^(١) ، إلا بالله تعالى ولا يُطال ، ومنعة يتحاماها الأبطال ، وجنابا روضه الغيث الهطال ، أما أسواقها فهي التي أخذت النجد والقر ، واستعدت بخلاء الجلالد عن البلاد فارتكبت الدور ، تحوز بحرا من العارة ثانيا ، وتشكك أن يكون الإنس لها بانيا ، وأما أبراجها فصفوف و صنف ، تزين صفحات السائف^(٢) منها أنوف ، وآذان لها من دوامع الصخر شُوف^(٣) ، وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسور مقلوب ، فصَدَقَها المسلمون القتال بحسب محلها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها ببوسهم ، وأقول شمسهم ، فرشقوها من النبال بظلال تحجب الشمس فلا يشرق سناها ، وعرجوا في المراقى البعيدة لقرعون مبنائها ، ونفوسها أنقبا ، وحصونها عقبا ، ودخلوا مدينة البنة بنتها غلابا ، وأحسبوا السيوف^(٤) استلالا والأيدي اكتسابا ، واستوعب القتل مقاتلتها السابعة الجئن^(٥) ، البالغة المنن ، فأخذهم الهول المتفاقم ، وجدلوا كأنهم الأرقام ، لم تغلت منهم عين تطرف ، ولا لسان يلبي من يستطلع الخبر أو يستشرف .

ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سوارا على سورها ، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها ، ودَفَوْا إليها بالضروب ، من حيل الحروب ، بروجا مشيدة ، ومجانيق توثق حبالها منها نشيده ، وخفقت بنصر الله تعالى عذبات الأعلام ، وأهدت الملائكة مدد السلام ، فخذل الله تعالى كفارها ، وأكْهَمَ شفارها ، وقلم بيد قدرته أظفارها ، فالتسوا الأمان للخروج ، ونزلوا على مَرَاتِي العروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات البروج ، فكان بروجهم من العراء إلى الأرض ، تذكرة بيوم العَرْض ، وقد جلل المقاتلة الصغار ، وتعلق بالأمان النساء والصغار ، وبودرت المدينة بالتطهير ، ونطقت المآذن العالية بالأذان

(١) البأو : الكبرياء والفخر ، ولا يظاهر - بالبناء المجهول - لا يغالب في القوة

(٢) السائف : اسم الفاعل من « ساف الدليل الأرض » إذا شم ترابها ليعرف

أعلى قصد هو أم جار عن الطريق . (٣) الشنوف : جمع شنف ، وهو حلية تلبس في الأذن من أعلي . (٤) أحسبوا السيوف : كثروها .

(٥) الجئن : جمع جنة - بالضم - وهو ما تنقى به كالدرع والترس .

الشهير ، والذكر الجهير ، وطرحت كفارها التماثيلَ عن المسجد الكبير ، وأزرى
 بالسنة^(١) النواقيس لسانَ التهليل والتكبير ، وأنزلت عن الصروح أجرامها ، يعي
 الهندام مرامها ، وألقى منبر الإسلام بها مجفواً فأنست غربته ، وأعيد إليه قربه وقربته ،
 وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول منجز الوعود ومُورِق العود (وما ظلمناهم ولكن
 ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر
 ربك ، وما زادهم غير تنبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة
 إن أخذه أليم شديد ، إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع
 له الناس وذلك يوم مشهود) فكان الدمع يفرق الآماق ، والوجد يستأصل
 الأرماق^(٢) ، وارتفعت الرغبات ، وعَلَّت السبات ، وجيء بأسرى المسلمين يرسفون
 في القيود الثقال ، وينسلون من أحداث الاعتقال ، ففكت عن سوقهم أساود
 الحديد ، وعن أعناقهم فلسكات البأس الشديد ، وظلّوا بجناح اللطف العريض
 المديد ، وترتبت في المقاعد الحامية ، وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية ،
 وعادت المدينة لأحسن أحوالها ، وسكنت من بعد أهوالها ، وعادت الجالية إلى
 أموالها ، ورجع إلى القطر شبابه ، ورُدَّ على دار الإسلام بابه ، واتصلت بأهل
 لا إله إلا الله أسبابه ، فهي اليوم في بلاد الإسلام قلادة النحر ، وحاضرة البر والبحر ،
 أبقى الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك ، ودائع الله تعالى في ذمتك ،
 بكلمة دينك الصالحة الباقية ! وسَدَّل عليه أستار عصمته الواقية ! وعُدْنَا والصلاة
 عليك شعار البروز والقفول ، وهَجَّيرَى الشروق والأفول ، والجهاد يا رسول الله
 الشأن المعتمد ، ما امتد بالأجل الأمد ، والمستعان الفرد الصمد

ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلغ وسيلتي إليك ، بلغ من هذا القطر

(١) أزرى به : انقصه وعابه وقلل من شأنه

(٢) الأرماق : جمع رمل ، وهو بقية الروح في الجسد ، ويستأصلها : يأتى عليها

المرتدى بجاهك الذى لا يذل من أَدْرَعَه ، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذى شرعه ، إلى أن لطفنا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ، ورفع التماثيل ببيوت الله تعالى ونصبها ، فانجباب عنها بنورك الحلـك^(١) ، ودار بإداتها^(٢) إلى دعوتك الفلك ، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذى نزل به على قلبك الملك ، فوجبت مطالعة مقرك النبوى بأحوال هذه الأمة المكفولة فى حجبك ، المفضلة بإدارة تجرك ، المهتدية بأنوار فجرك ، وهل هو الإثـمـرات سَعِيـك ، ونتائج رَعِيـك ، وبركة حبك ، ورضاك السكـفـيل برضا ربك ، وغمام رعدك ، وإنجاز وَعَدك ، وشعاع من نور سعدك ، وبَذَرٍ ينجى رِيْعَه من بعدك ، ونصر رايتك ، وبرهان آيتك ، وأثر حمايتك ورعايتك ، واستنبت هذه الرسالة مأثرة بحر الندى^(٣) الممنوح ، ومفاتيح باب الهدى بفتح الفتوح ، وفارعة المظاهر والصروح ، وملقية الرحل بتمنزل الملائكة والروح ، لتمد إلى قبولك يدَ استمناع ، وتطير إليك من الشوق الحثيث بجنـاح ، ثم تقف بموقف الانكسار ، وإن كان تجرّها آمنا من الخسار ، وتقدم بأنس القرية ، وتحجم بوَحْشة الغربة ، وتقاخر بالهيبـة ، وتجهش لطول الغيبة ، وتقول ارحم بُعْدَ دارى ، وضعف اقتدارى ، وانتزاح أوطانى ، وخلو أعطانى ، وقلة زادى ، وفراغ مزادى ، وتقبل وسيلة اعترافى ، وتعمد هفوة اقترافى ، وعجل بالرضا انصراف متحملى لانصرافى ، فكم جُبْتُ من بحر زاهر ، وقفر بالركاب ساخر ، وحاش لله تعالى أن يحجب قاصدك ، أو تتخطانى مقاصدك ، أو تطردنى موائدك ، أو تضيق عنى عوائدك ، ثم تمد مقتضية مزيد رحمتك ، مستدعية دعاء من حضر من أمتك ، وأحببتها يا رسول الله عرضا من النواقيس التى كانت بهذه البلاد المفتوحة تعين الإقامة والأذان ، وتسمع الأسماع الضالة والآذان ، مما قبل الحركة ، وسالم المعركة ،

(١) الحلـك : الظلام ، وانجيا به : انصداعه وتفرقه

(٢) الإدالة : جعل الدولة (أى العلية والفوز) له

(٣) مأثرة : طالبة ، وعن يبحر الندى المرسل إليه ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم

ومكن من نقله الأيدى المشتركة ، واستحق بالقدوم عليك ، والإسلام بين يديك ،
السابقة في الأزل البركة ، وما سواها فكانت جبالا عَجَزَ عن نقلها الهندام ، فنسخ
وجودها الإعدام ، وهى يا رسول الله جنى من جنانك ، ورطب من أفنانك ،
وأثر ظهر علينا من مسحة حنانك

هذه هى الحال والانتحال ، والعائق أن تشدَّ إليك الرحال ، ويعمل الترحال ،
إلى أن نلقاك فى عَرَصَات القيامة شفيعا ، ونحل بجهاك إن شاء الله تعالى محلا رفيعا ،
ونقدم فى زُمْرَةِ الشهداء الدامية كلومهم من أجلك ، الناهلة غلهم من سَجْلِكَ (١) ،
ونتهل إلى الله تعالى الذى أطلعك فى سماء الهداية سراجا ، وأعلى لك فى السبع الطباق
معراجا ، وأم الأنبياء منك بالنبي الخاتم ، وَقَفَى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم ،
أن لا يقطع عن هذه الأمة الغربية أسبابك ، ولا يسدَّ فى وجوها أبوابك ، ويوقفها
لاتباع هداك ، ويثبت أقدامها على جهاد عِدَاك ، وكيف تعدم ترفيها ، أو تخشى بَخْسًا
وأنت موفيا ، أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها ؟ وصلاة الله وسلامه تحيط بفنانك رحال
طبيها ، وتهدر فى ناديك شَقَاشِقُ خطيها ، ما أذكرك الصباح الطلّق هداك ، والغمام
السَّكَب نَدَاك ، وما حن مشتاق إلى أُنْم ضريحك ، وبليت نسيمات الأسحار
عما استرقت فى ريحك ، وكتب فى كذا ، انتهت الرسالة ، وفيها مالاخفاء به من
براعة لسان الدين ، رحمه الله تعالى وقدّس روحه الطاهرة ! آمين .

ومما علق بحفظى من نثره رحمه الله تعالى أثناء رسالة فى العزاء خاطب بها
ملك المغرب قوله بعد كلام : أين مروان بن الحَكَم ودَهَاؤُه ، وعبد الملك
ابن مروان وبهاؤُه ، والوليد وبنائُه ، وسليمان وغِذَاؤُه (٢) ، وعمر بن عبد العزيز
وثناؤُه ، ويزيد ونساؤُه ، وهشام وخَيْلاؤُه ، والوليد وندماؤُه ، والجَعْدَى وآراؤُه ،

(١) الناهلة : الراوية ، وغلهم : حرقه أجوافهم ، وسجلك : دلوك

(٢) اشتهر سليمان بن عبد الملك بن مروان بأنه كان يأكل كثيرا ، وكان تقدم
له الفراريج فى السفافيد حارة فيمسكها بطرف كفه ويلتهمها (وانظر مروج الذهب
١٨٥/٣ طبعة ثانية بتحقيقنا)

من إنشائه
فى عزاء

أم أين السفاح وحُسامه ، والمنصور واعتزاه ، والمهدى وإعظامه ، والهادى وإقدامه ، والرشيد وأيامه ، والأمين ونِدامه ، والمأمون وكلامه ، والمعتصم وإسراجهُ وإجلاله ؟ انتهى .

وقد تقدّم كلام أبي الخطاب بن دَحِيّة في هذا المعنى بطوله في الباب الثانى من هذا القسم ، فليراجع ثمة .

قلت : وقد تقدّم في الخطبة نُظْمى لمثل هذا ، وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثرا مما لم يحضرني منه الآن غير قولى : أين الإسكندر ويونانه ، وشَدّاد وبنِيانه ، والفروذ وعدوانه ، وفرعون وهامانه ، وقارون وطغيانه ، وكسرى أنوشروان وإيوانه ، وقيصر وبطارقته وأعوانه ، وسيف بن ذى يَزَن وعُمْدانُه ^(١) ، والمنذر ونُعمانه ، إلى أن قلت : وأين أبو بكر رضى الله تعالى عنه وثباته ، وعمر رضى الله تعالى عنه ووُثْبَانُه ، وعثمان رضى الله تعالى عنه ورَهْبَانُه ، أم أين على رضى الله تعالى عنه وشجاعته وعلمه ، وأين معاوية رضى الله تعالى عنه وحلمه ، وأين يزيد وظلمه ، ثم ذكرت ما تقدم لسان الدين ، وقلت بعده : وأين الواثق وغناؤه ، والمتوكل ومَواليه وأولياؤه وأبناءؤه ، والمنصور وآماله ، والمعتز وبِجَالِه ، والمستعين وعُمَالِه ، والمهتدى وأعماله ، والمعتضد وذِكاؤُه وإحاطته بالأخبار واشتِمالِه ، والمقتدر ونسائِه وإِهْمَالِه ، إلى أن قلت : وأين بنو عُبيد وضلالهم ، وبنو بويه وجلالهم ، وبنو سَلْجُوق ونظامهم ، وبنو سامان وإعظامهم ، وبنو أيوب

للمؤلف
على منوال
لسان الدين

(١) غمدان - بضم الغين وسكون الميم - قصر عظيم باليمن ، وقد وصفه ذوجدن الهمداني في قوله :

وغمدان الذى حدث عنه	بناه مشيدا فى رأس نيق
بمرمرة وأعلاه رخام	تخام لا يعيب بالشقوق
مصاييح السليط يلحن فيه	إذا يمسى كتوما من البروق
فأضحى بعد جدته رمادا	وغير حسنه لهب الحريق

وصلاحهم ، والجراكسة ومبانيهم وسلاحهم . ثم قلت في ملوك المغرب : وأين عبد الرحمن الداخل وأمرأؤه ، والناصر وزهراؤه ، والحكم ووزراؤه ، والمؤيد وظهراؤه ، أم أين المنصور بن أبي عامر وغزواته ومواليه ، والمظفر وأدواته ومعاليه ، أم أين بنو حمود وعُلاهم ، وأوصافهم وحِلاهم ، وبنو جهور وحَزْمهم ، وبنو باديس وعَزْمهم ، وأين مُعْتَصِدُ بنى عَبَّاد ، ومعتمد الذي سَنَّا كَرَمِهِ للمعتفين باد ، وبنو ذى النون وَمَزِيَّتِهِمْ ، وبنو ضُمَا دَح ومريتهم ، وبنو الأفطس وبنو هود ، وما كان لهم من المكارم في الحفل المشهود ، وأين لَمْتُونُهُ ، وصبرهم الذي ركبوا مُتُونُهُ ، أم أين الموحِّدون وناصرهم ومنصورهم ، ومصانعهم وقصورهم ، أم أين بنو الأحمر وَغَرَنَاطَتِهِمْ ، وإزالتهم عن حوزة الدين أدناسَ المعتدين وإمَاطَتِهِمْ ، وجَعَلَهُمُ الأمورَ لمثل ابن الحكيم ولسان الدين وإِنَاطَتِهِمْ ، أم أين بنو مَرِين وفارسهم ، ومغانيمهم ومدارسهم ، وأين بنو زِيَّان ومنازلهم الشاهقة ، وأشجار عزمهم الباسقة ، وأين الحَفْصِيُّونَ ، ومستنصرهم الذي قضى للعالي الديون ، وأبو فارس ، الذي شَنَّفَتْ بِأَخْبَارِهِ آذَانُ الطُروس والفهارس ، طحنت والله تعالى الجميعَ رَحَى المَنون ، وتَأَيَّمَتِ الأزواجُ ويَمَ البنون ، وطالت الأيام والسنون ، وبقيت القصور العالية ، خالية ، والرسوم المتكاثرة ، دائرة ، والساووك المنظومة متناثرة ، وعن قريب يقف الكل بين يدي رب الأرباب ، في يوم تَذْهَلُ فيه الأبواب ، وتنقطع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسباب ، ويقتص المظلوم من الظالم ، وتنبهم للنجاة الطرقُ والمعالم ، وتبلى السرائر لدى مَنْ هُوَ بها عالم ، (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) يوم يحكم الله تعالى في الخلق ، بالحق ، حسبما سبق في علمه إذ جعلهم قريبا وبعيدا ، وشقيا وسعيدا ، اللهم اجعلنا في ذلك اليوم الصعب ممن فاز بالنجاة ، وحاز شفاعته نبيك ومُصْطَفَاكَ ذِي الحُرمة والجاه ، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ، انتهى

رجع لنثر لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى .
ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب أبا زيان
لما تم له الأمر ، وهو مشتمل على نظم ونثر ، ونصه :

من كلام
لسان الدين
بن الخطيب
السلطان
أبا زيان

يا ابن الخلائف يا سمى محمد	يا من علاه ليس يحضر حاصر
أبشر فأنت مجدد الملك الذى	لولاك أصبح وهو رسم دأر (١)
من ذا يعاند منك وارثه الذى	بسعوده فلك المشيئة دأر
ألقت إليك يد الخلافة أمرها	إذ كنت أنت لها الولي الناصر
هذا وبينك للصريح وبينها	حرب مخرسة وبحر زاهر
من كان هذا الصنع أول أمره	حسنت له العقبى وعز الآخر
مولاي عندي في علاك محبة	والله يعلم ما تكن ضمائر (٢)
قلبي يحدثني بأنك جابر	كسرى، وحظى منك حظ وافر
بشرى جدودك قد حططت حقيقتي	فوسيلتي لعلاك نور باهر
وبذلت وسعى واجتهادى مثل ما	يلقى للمسكك سيف أمرك عامر
فهو الولي لدى الذى اقتحم الردى	وقضى العزيمة وهو سيف باتر
وولى جدك فى الشدائد عندما	خذلت علاه قبائل وعشار
فاستهد منه النصيح واعلم أنه	فى كل معضلة طيب ماهر
إن كنت قد عجبت بعض مدائحى	فهى الرياض، وللى رياض بواكر

مولانا ، وعمدة ديننا ودينانا ، الذى سخر الله تعالى البر والبحر بأمره ، وحكم
فوق السموات السبع بعز نصره ، وأغنى يوم سَعْدِهِ عن سَلِّ السلاح وشهره ،
وفتق عن زهر الصنع الجميل كلمة تسليمه وصبره ، وقبض له فى علم غيبه وزيراً

(١) الرسم : ما بقى من آثار الديار لاصقا بالأرض ، ودائر : عاف دارس متغير

(٢) تسكن : تخفى وتستتر .

مدخوراً لشد أزره ، وقود الملك إليه على حال حصّره ، الخليفة الإمام ، الذى استبشر به الإسلام ، وخفقت بعزه الأعلام^(١) ، ولاح بدر محيّا فافتضّ الظلام ، المقتدى بالنبي الكريم سميّه فى المرشد التى تألّق منها الصبح ، والمقاصد التى لازمها النجاح ، والتمحيص الذى نبع منه المنح^(٢) ، حتى فى الهجرة التى جاء بعدها الفتح ، أبو زيان ، ابن مولانا السلطان ولى العهد ترشيحاً ومآلاً ، ومؤمل الإسلام تقلداً للمذهب الصريح وانتحالا ، وأمير المسلمين لو أوسع القدر إمهالا ، ووُسْطى عقد البنين خلائق متعددة وخِلالاً ، المتحف بالشهادة ولما يعرف بדרه هلالاً ، المعوض بما عند الله تعالى سعادة ألبسته سِرِّبالاً ، وأباغته من رضوان الله تعالى آمالاً ، أبى عبد الرحمن بن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وستر الله تعالى المسدول على الضعفاء ، والمجاهد فى سبيل الله تعالى بنفسه وماله ، المتيف على مراكز النجوم بهمه وآماله ، المقدس أبى الحسن بن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين ، من قبيل بنى مرّين ، وصفوة الله تعالى فى هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين ، وزينة الدنيا وعمدة الدين ، هنأه الله تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل ، وخوّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والنفصيل ، وتوجه من تاج العزة القعساء عند اشتباه السبيل ، وعوضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل ، وجعل قدمه الراسخة ، وآياته الناسخة ، ورَبّوته السامية الباذخة ، وعزة نصره الشاذخة ، وأوزعه شكر آلائه ، فى الخلاص من ملكة أعدائه ، وخطر البحر وعدوان مائه ، وغُول السفر ، وارْتكاب الغرر ، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بدّلوا تبديلاً ، ولا ارتضوا لقبلة طاعته بعد أن ولوا وجوههم شَطْرَها تحويلاً ، بل صبروا صبراً جميلاً ، وباعوا نفوسهم تكميلاً لعقده إيمانهم وتكميلاً .

(١) الأعلام : جمع علم — بالتحريك — وهو الراية ، وخفوقها : اضطرابها فى الهواء ، والعبارة كناية عن ظهور ملكه .
(٢) التمهيد : الابتلاء والاختبار ، والمنح : الإعطاء .

يسلم على مقامكم الذى وسم السعد مشرق جبينه ، وذُخِرَتْ قَبْلُ الطاعة ليمينه ،
وأقسم السعد بمظاهرة^(١) أمره السعيد فبر والشكر لله تعالى فى يمينه ، عبدكم الذى اعتلق
منكم بالوسيلة الكبرى ، وقر بملككم عينا وشرح صدرا ، وبذل الجهد وإن قل
قُدْرَةً وقَدْرًا ، والتمس لكم الدعاء عِلْمًا وسِرًّا ، ابن الخطيب الذى حَطَّ رَحْلَ اقتصاده
بتراب الملوك الكرام جدودكم ، محاريب برکم وأسباب وجودكم ، وآبائكم الذين
فى مظاهرتهم^(٢) ورَعِيَهُمْ يظهر للناس مخايل هداكم وتدرُّ سحائب جودكم ، ملتحفًا
منذ سنتين بأصونة قبورهم وثيابها ، مستظلا بأفئدتها المعظمة وقباياها ، ممرغا خده
بترابها ، مؤاصلا الصراخ بالمرين ويا ليعقوب متطارحا على أبوابها ، فلم يُتَسَّحَّ اللهُ تعالى
له نعمة ترعى الضيف وتحمى الدخيل ، أو حمية تدفع الضيم وتشفى العليل ، إلا على
يدكم يا أيها الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبطل الميسدان فى موقف الهول
العظيم ، المدخور لنصر المظلوم وإنصاف الغريم ، وإجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم
كتبه مهنتًا بما سَنَى^(٣) الله تعالى لملككم من الصنع الذى خرق حجاب العادة ،
وأرى إعجاز السعادة ، معجلا ذلك بين يدي المبادرة إلى لثم بساطكم الذى لشرف
وجوهها تلثمه الوجوه ، وتحشاه الأملاك الجبابة وترجوه ، وأداء الواجب من
القيام بمنظوم ثنائه فى الحفل المشهود ، وإبلاغ لسان الحمد وسع المجهود ، وإلقاء
ما عند العبد من خلوص وجُنُوح^(٤) ، وحب واضح أى وضوح ، فولى دعوتكم
الشيخ أبو ثابت أعزه الله تعالى يقرره ، ويبين مجمله ويفسره ، والعبد واثق بفضل
الله تعالى على يديكم ، وملتئم النصر لديكم ، وقاطع أن طلبته بكم تَنَسَّى^(٥) ، وأنكم
سبب عاقبته الحسنى ، إما بالظهور على الوطن الذى تجرباً به المنقلب على ملككم ،
ومداليد إلى نثر سلسلكم ، ونقص إرثكم المسلم المحرر ، وزلزل وطنكم المؤسس على

(١) المظاهرة : المعاونة والمساعدة وتقوية شأنه .

(٢) سنى الأمر : يسره وسهل مسيله . (٣) الجنوح : الميل .

الطاعة المقررة ، وأضرمت النار في بساطكم^(١) وجبالكم ، وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم ، ومتكثراً عليكم بالقلة ، متعزراً بالذلة ، جانياً على داركم بمالاتيحه الملة ، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يأذن الله تعالى في الانتصاف ، والله يجعل الظهور بكم من الأوصاف ، ويعينكم على جبر الكسير ، وتيسير الأمر العسير ، ويهينكم منيحة الملك الكبير ، ويبقى كلمته في عقبكم بعد تملؤ التعمير ، والسلام :

من كلامه
في مخاطبة
أبي زيان
أيضاً

وله رحمه الله تعالى في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور : المولى الذى طوق المنن ، وأحيا السنن ، وأنبت الله تعالى حبه في القلوب النبات الحسن ، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها ، ومُقيّل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها ، السلطان أبو زيان إلى آخره - أبقاكم الله تعالى على القدم ، منصور العلم ، ظاهراً على الأمم ، مقصود الحى كالركن الملتزم ، عبدُ مقامكم الذى آوَيْتموه غريباً ، وآنستموه مريباً ، وأنلتموه على عدوه الدهرَ نصراً عزيزاً وفتحاً قريباً ، فلم يحش دركاً وتريباً ، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريباً ، ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق ، ويرقم الأوراق ، ويخرق الجيوب والأطواق ، وحب بهر نوراً وراق ، وجاس اشتهاه الشام والعراق ، ويطالع العبد محل مولاه الذى خلف ببابه قلبه وولده ، وصبره وجلده ، وصبر وطنه داره الحقيقى وبلده ، أنه لما قدم على محل أخيه ، المعتد بما أودع الله تعالى من الخلال الشريفة فيه ، مولاي ابن مولاي أبى عبدالله ، كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده ! وحكم بإعلاء جده ومضاء حده ! رعى الوسيلة ، وصدق الخيلة^(٢) ، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسرارير الفضيلة ، فلم يدع حقاً إلا صرفه ، ولا نكرة إلا عرفه ، ولا نعمة إلا سكبها ، ولا مزية إلا أوجبها ، ولا رتبة إلا أعلاها ، ولا نعمة إلا أولاهها ، وما ذاك يا مولاي وإن تعددت الرسائل والأذمة ، وأدّ كرت القرب بعد

(١) البسائط : جمع بسيط ، وأراد به الأرض المنبسطة الواسعة

(٢) صدق الخيلة : صدق الظن به ، يريد أنه فعل معه ما كان يتوقعه

أُمَّة ، إلا بَوْصَاتِكُمُ الَّتِي لَا تُهْمَلُ ، وَحَرَمَتِكُمُ الَّتِي لَا تُجْهَلُ ، وَعُظْفُ مَقَامِكُمُ الَّذِي اشتهر ، واعتنائكم بعبدكم الذي راق وبهر ، فالعبد عبيدكم بكل اعتبار ، وخدمكم وإن نأت الدار ، ومحسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار ، والأمل في مقامكم غير منقطع السبب ، والأهل والولد تحت كنف مقامكم الأصيل الحسب ، حتى يمن الله تعالى بحج بيته وزيارة رسوله على يديكم ، ويكون قضاء هذا الوطر منسوباً إليكم ، وبعد هذا يستقر القرار ، حيث يختار مَنْ يخلق ما يشاء ويختار ، بحول الله تعالى .

والعبد يذكركم مولاه بما بشره به بين يدي وداعه ، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه ، من انجلاء الحركة عن عزه وظهوره ، ونجاح أحواله واستقامة أموره ، وبهنيئه بصدق الوعد ، وإمطار الرعد ، وظهور السعد ، وهي وسيلة إذا عدت الوسائل ، وروعت الذمم الجلائل ^(١) ، ومثل مولاي مَنْ رَعَى وأبقى ، وسلك التي هي أبر وأتقى ، وما قصر عنه القلم من حق مولاي فالرسول أعزه الله تعالى يتممه ، وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه ، وهو جل وعلا يديم أيام مولاي ويبقى مجده ، ويصل سعده ، والسلام ، انتهى .

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحو قوله : سيدى الذى له المزية العظمى ، والحل الأسمى ، شيخ قبيل بنى مرين ، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين ، والمتميز بالدهاء والرجاحة ، والمعرفة الفسيحة الساحة ، والصدقة المباحة ، وشروط الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة ، أُسِّمَ على ذاتكم الطاهرة التي بخلت الأزمان والله أن تأتى بنظيرها ، وتنافس الدول في تكبيرها ، وسارت المواكب الملوكة بمسيرها ، وأنت الأسن بفضلها

من كلامه
يخاطب به
شيخ الدولة
يحيى بن رحو

(١) الذمم : جمع ذمة ، وهي العهد . والجلائل : جمع جلية ، وهي العظيمة ، وصف من الجلالة

وخيرها ، وأقرر لديها أنى أعددت من معرفتها بالأندلس كنزا لم أنفق منه إلى اليوم وَزَنَّا ، إعداداً له وَخَزَنَّا ، إذ لا يخرج العتاد الكبير إلا عن حاجة وفاقه ، ولا ترد اليد إلى الذخيرة إلا في إضاعة وعجز طاقة ، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلى جَهْلًا بقيمتها العالية ، وإزاء بجهتها الكافلة الكافية ، لكن نابت عن يدها أيد ، وكفى عن ابتذالها ما كف الله تعالى من عمرو وزيد ، والآن أقرر أنى قد كادت حاجتى إلى ذلك العتاد أن تتمحض^(١) ، وزبدته أن تتمحض^(٢) ، إذ هو حظى من رَغَى ذلك القبيل الذى قصرت عليه رياسته ، والوزير الذى من رأيه تستمد سياسته ، وإذا وَفَدَ خاصة هذه المدينة مُهَنِّين ، وبشكر إبالته الكريمة مُثْنِينَ ، فخيمته ظل ظليل ، ومشاركته معتمدى فى الكثير فكيف ولا غرض لى إلا فى القليل ، وعندى أن رَغِيهِ لمثل لى لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ، ولا ذِمَام يحسب ، فمثل من قدر قدر الهناء ، وشدأعلام الحمد والثناء ، سامية البناء ، وعرف أن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء ، وقد رفعت أمرى كله بعد الله تعالى إلى رأيك ، وغنيت عن سعيى لنفسى بجميل سعيك ، والسلام .

ومما خاطب به لسان الدين شيخه سيدى أبا عبد الله بن مرزوق التلمسانى رضى الله تعالى عنه قوله شافعاً : يا سيدى أبقاكم الله تعالى مَحَطَّ الآمال وقِبْلَةَ الوجوه ، وبلغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ، وكلاً بعين حفظه ذاتكم الفاخرة ، وجعل عز الدنيا متصلاً لكم بعز الآخرة ، بعد تقبيل يديكم التى يدها لا تزال تشكر ، وحسنتها عند الله تعالى تذكر ، أنهى إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان - مع كونه مستحق التبجلة بهجرة إلى أبواكم الكريمة قَدُمْتُ ، ووسائل من أصالة وحشمة كرمتم ، وفضل ووقار ، وتنويه للولاية إن كانت

(١) تتمحض — بالخاء المعجمة — تتخلص من الشوائب

(٢) تتمحض — بالخاء المعجمة — من قولهم «مخض اللبن» أى وضع فيه ماء

ذات احتقار ، وسن اقتضى الفضلُ به ، وأدب شكر الاختبار عليه وسرّه - له
بمعرفة سلفكم الأرضي وسيلة مرعية ، وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية ،
وتوجه إلى بابكم ، والتمسك بأسبابكم ، والمؤملُ من سيدي سترهُ بجناح رعيه في
حال الكبره ، ولحظه بطرف المبره ، إما في استعمال يليق بذوى الاحتشام ،
أوسكون تحت رعى واهتمام ، وإعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام ، وهو أحق
الغرضين بالتزام ، وإحالة سيدي في حفظه رسم مثله ، على الله تعالى الذى يحزى
الحسنين بفصله ، ومنه نسال أن يديم أيام المجلس العلى محروساً من النوائب ،
مُبلغ الآمال والمآرب ، والمملوكُ قد قرر شأنه فى إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة
إليكم ، والتمسب فى هذه الأبواب عليكم ، وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذى
يعطى ويمنع ، ويملك الأمر أجمع ، والسلام .

من كلامه إلى
ابن مرزوق فى
شفاعة أيضا

وكتب إليه أيضاً فى الشفاعة بما نصه : سيدي الأعظم ، وملاذى الأعصم ،
وعروة عزى الوثقى التى لا تُفصم^(١) ، أبقاك الله تعالى بقاء آثارك آية للعز تأمر الدهر
فيأتمر ، ويلبى بفنائك الطائف والمعتمر ، بأى لسان أثنى على فواضلك وهى أمّهات
المنن ، وطرف الشام واليمن ، ومقامات بديع الزمن ، والتحف المترفة عن الثمن ؟
فحسبى دعاء أردده وأوليه ، وأرتقب مطلوب الإجابة من مُقدّمه وتاليه ، وإن
تشوّف المنعم للحال الموقوف خيره بمشيئة الله تعالى على جميل سعيه ، الموسّد على
وطاء لطفه المغشى بغطاء رعيه ، قلب خافق ، وقلب مؤمن يحول به وسواس منافق ،
وقد تجاوز موسى مجمع البحرين^(٢) ، وأصبح سرى بابهِ سرى العين ، ولقد كانت
مراحل الرمل قصيرة قبل أن يكسبها زجلي ثقل الحركة ، ويخلط خاصى فى
وظائفها المشتركة ، وليت أمرى برز إلى طَرف ، وأفضى إلى منصرف ، وربما ظفر

(١) العروة الوثقى : الوثيقة المتينة . ولا تفصم : لا تنقض ولا تنحل

(٢) أخذ هذا من قوله تعالى فى قصة موسى - عليه السلام ! - من سورة الكهف :

(وإذ قال موسى لفتهاء لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا)

آيس بما يرجوه ، وبرز المحبوب من المكروه ، والله تعالى لا يَفْضَحُ جاه الكتاب الذى أحيا وأنشر ، وحيا وبشر ، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابكم الحشر ، وموصل كتابي ، ينوب في تقبيل اليد العليا منابى .

وليعلم سيدى أن هذا القطر على شهرته ، وتآلق مشترته وزُهرته^(١) ، إذا انتحل كرامه ، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه ، فهو لبابه المتخير ، وزُلاله الذى لا يتغير ، أصالة معروفة ، وهمة إلى الإيثار مصروفة ، ونبلا على السنِّ والكبره ، ورجولية خليقة بصلة الحرمة والمبره ، والوسيلة لا تطرح ، والمعنى الذى لا يفسر لوضوحه ولا يشرح ، وهواتماؤه^(٢) إلى جناب سيدى حديثاً وقديماً ، واعترافه بنعمه مديراً لها ومديماً ، والله تعالى يوفى من إيثار سيدى حظه ، ويحدد لديه رعيه ولحظه ، حتى يعود خافقاً عَلم إقباله ، مُعلماً برُدِّ اهتباله^(٣) ، مسروراً ببلوغ آماله ، فلعمري إن محلَّ ولايته لكَفَى ، وإنَّ عهد أمانته لوفى ، وإنَّ عامل جدّه لظَّاهِر وخفى ، وما يفعله سيدى من رَعْيِهِ ، وإنجاح سَعْيِهِ ، محسوب من مناقبه ، ومعدود في فضل مذهبِهِ ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

وقد تكررت في كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظماً ونثراً ؛ إذ كان - أعنى ابن مرزوق - رئيس الدولة ، ومعتمد الجِلَّة ، وسبق منا التعريف ببعض أحواله في باب مشايخ لسان الدين مما جرَّته المناسبة ، فليرجع إليه مَنْ أَرَادَهُ ، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة ! ومما اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد بن خلدون ، لما ارتحل من بحر المرية واستقر ببلد بسكرة عند رئيسها أبى العباس بن مرزى ، صحبة رسالة خطبها أخوه أبوزكريا ، وقد تقلد كتابة صاحب تلمسان ،

من كلامه
يخاطب أبا زيد
ابن خلدون

(١) التآلق : شدة الإضاءة ، والزهرة والمشتري : نجمان

(٢) اتماؤه : انتسابه واعتزائه

(٣) اهتبل الفرصة : اغتنمها واقتنصها

ووصل الكتاب عنه من إنشائه ، وهذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى :

بنفسى وما نفسى على بهيئة	فينزلى عنها المكائن بأمان ^(١)
حبيب نأى عنى وصم لأنتى	وراش سهام البين عمدا فأصماني
وقد كان هم الشيب ، لا كان ، كافيا	فقد آذنى لما ترحل هان
شرعت له من دمع عيني موردا	فكدر شربي بالفراق وأظمانى
وأرعيته من حسن عهدي جيمه	فأجذب آمالى وأوحش أزمانى
حلفت على ما عنده لى من رضا	قياسا بما عندى فأخنت أيمانى
وإنى على ما نالنى منه من قلى	لأشتاق من لقياء نغبة ظمآن
سألت جنونى فيه تقريب عرشه	فقسفت بجن الشوق جين سليمان
إذا ما دعا داع من القوم باسمه	وثبت وما استثبت شيمة هيمان
وتا الله ما أضعيت فيه لعاذل	تحاميته حتى ارعوى وتحامانى
ولا استشعرت نفسى برحمة عائد	تظلل يوما مثله عبدر رخن
ولا شعرت من قبله بتشوق	تخل منها بين روح وجثمان

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبر فسل به أية درج ، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله تعالى الأرج ، وأنى بالصبر ، على إبر الدبر ، لا بل الضرب الهبر ، ومطاوله اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ؟ وهل للعين أن تسالوا المقصر ، عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد ، عن سرها الرأى والمشاهد ؟ وفى الجسد مضغة يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ، وإذا كان الفراق هو الحجام

(١) هينة - بسكون الياء - مخفف من هينة - بالتشديد - مثل قول الشاعر :

هينون لينون أيسار ذوو كرم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

الأول ، فعلام المعول ؟ أعيت مرأوضة الفراق ، على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تُقضى إلى السيّاق .

تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أفرغ سنى ندما تارة وأستميح الدمع أحيانا

وربما تعلت بغشيان المعاهد الخالية ، وجددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية ، أسأل نون النوى عن أهليه ، وميم الموقد المهجور عن مُضطليه ، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحّدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملّحين ، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، كلّفتُ لعمر الله بسالٍ عن جفوني المؤرقة ، ونأثم عن همومي المتجمعة المتفرقة ، ظنّ عن ملال ، لا متبرما منى بشر خلال ، وكدر الوصل بعد صفائه ، وضرّج النصل بعد عهد وفائه :

أقلّ اشتياها أيها القلبُ ربما رأيتك تُضفي الود من ليس جازيا
فها أنا أبكى عليه بدم أساله ، وأنهل فيه أسى له ، وأعال بذكره قلبا صدّعه ، وأودعه من الوجد ما أودعه ، لما خدعه ، ثم فلاه وودّعه ، وأنشق رِيّاه أنفَ ارتياح قد جدّعه ، وأستعدي به على ظلم ابتدعه .

خيلى هل أبصرتما أو سمعتما قتيلاً أبكى من حب قاتله قبلى
فلولا عسى الرجاء ولعله ، لا بل شفاعاة الحُل الذى حلّه ، لمزجتُ الحنين بالعتب ، وبثت^(١) كتابه كمناء فى شعاب الكتب ، تهز من الألفات رماحا حذر الأسنه ، وتوتر من النونات أمثال القسيّ المرنة^(٢) ، وتقود من بياض الطرس وسواد النقس بلقا تردى فى الأعنة^(٣) ، ولكنّه أوى إلى الحرم الأمين ، وتقياً^(٤) ظلال الجوار المؤمن من معرة العوار عن الشمال واليمين ، حرم الخلال المزنية ، والظلال اليزنية ،

(١) بثت : نشرت وفرت (٢) المرنة : ذات الرنين وهو الصوت

(٣) البلق : جمع أبلق ، وهى الخيل ، والأعنة : جمع عنان ، وهو ما تقاد به الدابة

(٤) تقياً : استظل

والهم السنية ، وأنشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدَّيَّة ، حيث أنزفد الممنوح ،
والطير اليا من يزجرها السنوح ، والمثوى الذى إليه مهما تقارع الكرام على
الضيفان ، حول جَوَابِي الجفان ، الميل والجنوح .

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ، ومن فلق الصباح عمودا
ومن حل بتلك المثابة فقد اطمان جَنُبُهُ ، وتغمد^(١) بالعفو ذنبه ، والله در القائل حيث
يقول :

فوحقه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حصا داره
بلد متى أذكره تهتج لوعتي وإذا قدحت الزند طار شراره
اللهم غفرا ، لا كفرا ، وأين قرارة النخيل ، من مئوى الأقف البخيل ، ومكذبة
الخليل ؟ وأين ثانية هجر ، من متبوا من الحد وفجر ؟ .

من أنكر غيثا منشؤه فى الأرض وليس بمخلفها
فبنان بنى مزنى مُزْنٌ تنهل بلطف مصرفها^(٢)
شكرت حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها
مزن مدخل يسكرة يوماً نطقت بمصحفها
ضحكت بأبى العباس من الأيام ثنايا زخرفها
وتنكرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرفها

بل نقول : يا محل الولد ، لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ، لقد حلَّ
بينك عرى الجلد ، وخذل الشوق بعدك يا ابن خلدون فى الصميم من الخلد ، فحيا
الله تعالى زمنا شفيت برقى قربك زمانته ، واحتليت فى صدف مجدك مجانته^(٣) ،
ويا من لمشوق لم تقص من طول خلقتك لبانته^(٤) ، وأهلا بروض أظلت أشتات
معارفك بانته ، فحائم بعدك تندب ، فيساعدوها الجندب ، ونواسمه ترق فيتغاشى ،

(١) تغمد : ستر وغطى

(٢) البنان : الأنامل وهى الأصابع ، والمزن - بالضم - المطر ، شبه أصابعهم بالمطر

(٣) الجمانه - بضم الجيم - الدرة (٤) اللبانه - بضم اللام - الحاجة والوطر

وعشياته تتخافت وتتلأشى ، ومزُّهُ بأك ، ودَوْحُهُ في مآتم ذى اشتباك ، كأن
لم تكن قمرَ هالاتِ قِبابه ، ولم يك أنسُك شارعَ بابهِ ، إلى صفوة الظرف ولُبابهِ ،
ولم يسبح إنسانُ عينك في ماء شبابهِ ، فلهفى عليك من ذرة اختلسَها يدُ النوى ،
ومَطلَ برَدِّها الدهرَ ولوَّى ، ونَعَقَ الغرابُ بينها في ربوع الجوى ، ونطق بالزخرف
فما نطق عن الهوى ، وبأى شيء نعتاض منك أيتها الرياض ، بعد أن طعى
نهرُك الفياض ، وفهَقَت الحياض ؟ ولا كان الشائى المشنوء ، والجرب المهنوء ، مِنْ
قِطْع ليلٍ أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك في الذم الفاقَّة والجل ، واستأثر جَنحه
ببدر النادى لما كمل ، نشر الشراعَ فَرَّاع ، وأعمل الإسراع ، كأنما هو تَمَسَّح
النيل ضايق الأحاب في البرهة ، واختطف لهم من الشط نزهة العين وعين النزهة ،
وَجَلَجَ بها والعيون تنظر ، والعمر على الأتباع يخطر ، فلم يقدر إلا على الأسف ،
والأثر المنشف ، والرجوع بملء العيَّة ، من الخيبة ، ووَقَر الجُسرة ، من الحُسرة ،
وإنما أشكو إلى الله البث والحزن ، ونستمطر من عبارتنا المزن ، وبسيف الرجاء
نَصُول ، إذا شُرِعت لليأس النصول :

ما أقدر الله أن يُدنى على شَحَط مَنْ دارُهُ الحَزَنُ مِنْ دارِهِ صَوْلُ
فإن كان كَلَمُ الفراقِ رَغِيبا^(١) ، لما نويت مَغِيبا ، وجللت الوقت الهنىء تشغيبا ،
فلعل الملتقى يكون قريبا ، وحديثه يروى صحيفا غربيا ، إيه ثقة النفس كيف حال
تلك الشمائل ، المزهرة الخائل ؟ والشيم ، الهامية الديم ، هل يمر ببالها مَنْ راعت^(٢)
بالبعد بآله ، وأخذت بعاصف البين^(٣) ذُبَّالَه ، أو ترى لشؤن شأنها سَكْب لا يفتَر ،
وشوق بيت جلال الصبر وبيتر ، وضئى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر ،
والأمر أعظم والله يستر ، وما الذى يضيرك ؟ صِينَ من لَحج السَّموْم نضيرك ! بعد

(١) الكلام - بالفتح - الجرح ، ورغيبا : أى واسعاً .

(٢) راعت : أخافت (٣) أخذت : أطفأت ، والذبال - كغراب - فتيلة السراج

أن أضرمت وأشعلت ، وأوقدت وجعلت ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، أن تترفق
بذماً ، أو ترد بُنْفِيَّةً^(١) ما ، أرماق ظلم ، وتعاهد المعاهد بتحية يشم منها شذا أنفاسك ،
أو تنظر إلينا على البعد بِمُقْلَةٍ حَوْرَاءٍ من سواد أنفاسك ، وبياض قرطاسك ، فربما
قنعت الأنفسُ المحبة بخيال زور ، وتعلت بنوال منزور ، ورضيت لما لم تصدِ
العنقاء بزورور .

يا من ترحّل والنسيم لأجله تشتاق إن هبت شذى رِيَّاهَا
تحي النفوس إذا بعثت تحية فإذا عزمت اقرأ ومن أحيها
ولئن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك ، والله تعالى إلى الخير يهديك ، فنحن
نقول معشر مريدك : ثَنِّ ولا تجعلها بيضة الديك ، وعذراً فإنني لم أجترِ على
خطابك بالفقر الفقير ، وأدلت لدى حجراتك برفع العقير ، لا عن نشاط بعث
مرموسه ، ولا اغتباط بالأدب تغرى بسياسته سوسه ، وانسأط أوحى إلى على
الفترة ناموسه ، وإنما هو اتفاق جرته نفثة المصدور ، وهنأ الجرب المجدور ، وخارق
لا مخارق ، فم قياس فارق ، أو لحن غنى به بعد المات مفارق ، والذي سببه ،
وسوغ منه المكروه وحبيبه ، ما اقتضاه الصنويحي مد الله تعالى حياته ، وحرّس
من الحوادث ذاته ! من خطاب ارتشف به لهذه القريجة بلالتها ، بعد أن رضى
غلاتها ، ورشح إلى الصّهر الحضرمي سلاتها ، فلم يسع إلا إسعافه ، بما أعافه ،
فأملت مجيباً ، مالا يعد في يوم الرهان نجيباً ، وأسمعت وجيباً ، لما ساجلت هذه
الترهات سحراً عجيباً ، حتى ألف القلمُ العريان سبجته ، وجمع برذون الغرارة فلم
أطقُ كبجته^(٢) ، لم أفق من نعمة علوه ، وموقف مثلوّه ، إلا وقد تحيز إلى فتك
معتزابل معترا ، واستقبلها ضاحكاً مُفْتَرّاً ، وهش لها برا ، وإن كان لونه من الوجّل

(١) النغبة — بالفتح ويضم — الجرعة من الماء ، ووقع في ب « بُنْفِيَّة » محرفاً
عما أثبت ، و « ما » أراد ماء ، والأرماق : جمع رمل ، وظما : جمع ظمان ، وأصله
ظماء خذف الهمزة كما حذفها من الكلمة السابقة ، وكما حذفها من قوله « بذماً » وأصله
ذماء ، وهو بزنة السحاب (٢) في ب « وجمع برذون الغرارة فلم أطق كبجته »

مُصْفَرًا ، وليس بأوّل من هجر ، في التماس الوصل ممن هَجَرَ ، أو بعث النمر إلى هَجَرَ^(١) ، وأى نسب بينى اليوم وبين زخرف الكلام ، وإجالة جياذ الأقلام ، في محاوراة الأعلام؟ بعد أن حال الجريز ، دون القريض^(٢) ، وشغل المريض ، عن التعريض ، واستولى السكسل ، ونسلت الشعرات البيض كأنها الأسل ، تروع بمرط الحيات ، سِرْبَ الحياة ، وتطرق بذوات الغرر والشّيات ، عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، وإذا ابيض زرع صبحته المناجل ، والمعتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده ، حكم في الظاهر بإبعاده ، وأسرّه في ملكة عاده ، فأغض أبقاك الله واسمح ، لمن قَصَرَ عن المَطْمَح ، وبالعين الكليّة فالمح ، واغتمم لباس ثوب الثواب ، واشف بعض الجوى بالجواب ، تولاك الله تعالى فيما استضفت وملكت ، ولا بعدت ولا هلكت ، وكان لك أية سلكت ، ووَسَمَكَ من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات ، والسلام الكريم يعتمد جلال ولدى ، وساكن خَلَدِي ، بل أخى وإن عتبه وسيدى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

قلت : هذه الرسالة الرافلة في حلل البلاغة لم أر مثلها ولم أقف عليه ، فرحم الله تعالى لسان الدين ووجه سحائب الرحمة إليه ! فلقد كان آية الله في النظر والنثر وجميع العلوم على اختلافها .

وكما خاطب الولي ابن خلدون خاطب أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال في بعض كتبه : ومما خاطبت به الفقيه أبا زكريا بن خلدون ، لما ولى الكتابة عن السلطان أبي حمو سلطان تلمسان من بنى زيان واقرن بذلك نصر وصنع غبطته به وأشدت به قصد تنفيقه وإنهاضه لديه : نخص الحبيب الذى هو فى الاستظهار به أنخ

(١) هجر : بلد مشهور بكثرة النمر ، ويقولون « كنافل النمر إلى هجر » يريدون كمن ينقل الشيء لمن لا يحتاج إليه لكثرة عنده .

(٢) هذا من قول عبيد بن الأبرص وقدم على الملك النعمان في يوم يؤسه فأراد قتله ، والجريز : الفصة ، والقريض : الشعر .

من إنشائه
إلى أبي زكريا
ابن خلدون

وفي الشفقة عليه وَلَدَ ، والولى الذى ما بعد قرب مثله أمل ولا على بُعْده جَلَدَ ،
والفاضل الذى لا يخالف فى فضله ساكن ولا بلد ، أبقاه الله تعالى وفاز فوزه وعصمته
لها من توفيق الله سبحانه عمد ، ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غُور ولا ثمد ،
ومدى إمداده من خزان إلهام الله تعالى وسداده ليس له أمد ، وَحَمَى فرح قلبه
بمواهب من ربه أن يطرقة كمد .

تحية مُحِلِّه ، من صميم قلبه بمحله ، المنشى رواق الشفقة ، مرفوعا بعمد الحبة
والمَقَّة^(١) ، فوق ظعنه وحله ، مؤثره ومُحِلِّه ، المعتنى بدق أمره^(٢) وجِلِّه ، ابن الخطيب ،
من الحضرة الجهادية غَرْنَاطَة ، صان الله تعالى خلالها ، ووقى هجير هجر الغيوم ظلها !
وعمر بأسود الله تعالى أغياها ، كما أغرى بمن كفر بالله تعالى صياها ! . ولا زائد
إلا ممن من الله تعالى تَصُوب ، وقوة يسترد بها المنصوب ، ويخفف الصليب
المنصوب ، والحمد لله تعالى الذى بحمده ينال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب
ومودتكم المودة التى غذتها بُدْيُ الخلوص بلبانها ، وأحلتها حلائل المحافظة بين أعيانها
وأجفاتها ، ومهدت موات أخواتها الكبرى أساس بنيانها ، واستحقت ميراثها مع
استصحاب حال الحياة إن شاء الله تعالى واتصال زمانيها ، واقتضاء عهد الأيام بيمينها
وأمانها ، والله در القائل^(٣) :

فإن لم يكنْها أو تكُنْه فإنه أخوها غَذَتْه أمُّه بلبانها

وصل الله تعالى ذلك من أجله وفى ذاته ، وجعله وسيلة إلى مرضاته ، وقربة تنفع
عند اعتبار ما روى من سنن الجبار ومفترضاته ، وقد وصل كقابكم الذى فاتح
بالريحان [و] الرُّوح ، وحلَّ من مرسوم الولاء محل البَسْملة من اللوح ، وأذن لنوافح
النَّاء بالبوح ، يشهد عدله بأنَّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دارَ خلود ،

(١) المقة : الحبة ، ومقه يقمه مقة ، مثل وصفه يصفه صفة .

(٢) دقه : أى دقيقه ، وجله : أى جليله ، وأراد قليله وكثيره وصغيره وكبيره .

(٣) البيت لأبي الأسود الدؤلى رضى الله عنه ، وقبله قوله :

دع الحمر يشربها العواة فإننى رأيت أخاها مجزئا بمسكانها

وقدح زندا غير صلود ، واستأثر من محاركم السيالة ، وقُضِبَ أقلامكم الميالة ،
بأبٍ مُنْجِبٍ وأم ولود ، يقفو شانيه غير المشنوّ ، وفصيله غير الجرب ولا المهنوّ ،
من الخطاب السلطاني سفينة مُنَوَّح^(١) ، إن لم نقل سفينة نوح ، ما شئت من آل
أزواج ، وزُمر^(٢) من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تطفو فوق أمواج ، وفنون
بشار ، وإهطاع^(٣) قبائل وعشائر ، وضرب للمسرات أعيا الشائر ، فله هو من قلم
راعى نَسَبِ القنا فوصل الرحم ، وأنجد الوشيح والملتحم ، وساق بعصاه من البيان
الذود المزدهم ، وأخاف من شدّة عن الطاعة مع الاستطاعة فقال : لا عاصم اليوم
من أمر الله إلا من رحم ، ولو لم يوجب الحق برّقه ورعده ، ووعيده ووعدده ، لأوجبه
بمنه وسعده ، فلقد ظهرت تحايل نُجَحِّه ، علاوة على نصحه ، ووضحت محاسن
صُبْحِه ، في وحشة الموقف الصعب وقبحه ، وصل الله تعالى له عوائد منحه ! وجعله
إقايذا كلما استقبل باب أمل وكله الله تعالى بفتّحه !

أماما قرره ولاؤكم من حب زكا على حبة القلب حبه ، وأنبته النبات الحسن
رُبّه ، وساعده من الغمام سَكْبِه ، ومن النسيم اللدن^(٤) مَهَبّه ، فرسم ثبت عند المولى
نظيره ، ومن غير معارض يَضِيره^(٥) ، وربما أُرِجى بتذييل مزيد، وشهادة ثابت ويزيد ،
ولم لا يكون ذلك ، وللقب على القلب شاهد ؟ وكونها أجنادا مُجَنَّدَة^(٦) لا يحتاج
تقريره إلى ماهد ، أو جهّد جاهد ، ومودة الأخوة سبيلها لا حب ، ودليلها
للدعوة الصادقة مصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ، ونظافة سقاء ، واعتقاد ،
لا يُرَاعِ سِرُّهُ بذنب انتقاد ، واجتلاء شهاب وقاد ، لا يحوج إلى إيقاد ، إنما
عاق عن مواصلة ذلك نوى شَطَّ منها الشطن ، وتشذيب لم يتعين معه الوطن ،
فلما تعين ، وكاد الصبح أن يتبين ، عاد الوَمِيزُ دَبْجُورا ، والتماد بحرا مسجورا ،

(١) المنوح : جمع منح ، وهو الإعطاء . (٢) الزمر : الجماعات ، واحدها زمرة

(٣) إهطاع : إسراع . (٤) اللدن - بالفتح - اللين . (٥) يضره : يضره

(٦) إشارة إلى ما في حديث « الأرواح جنود مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف ،

إلى أن أعلق الله تعالى منكم اليَدَ بالسبب الوثيق^(١)، وأحلّكم مَنْجَى نِيق^(٢)، لا يخاف من منجنيق ، وجعل يراعكم لسعادة موسى معجزة تأتي على الخبر بالعيان ، فتخرّ لثعانها سَحَرَةَ البيان :

أيحي سقى حيثُ حُلّت الحيا فنعم الشعاب ونعم الركون
وحيا يراعك من آية فقد حرّك القوم بعد السكون
دعوت لخدمة مُوسى عصاه فجاءت تَلَقَّفُ ما يَأفكون
فأذعن من يدّعى السحر رغماً وأسلم من أجلاها المشركون
وساعدك السعد فيما أردت فكان كما ينبغي أن يكون

فأتم أولى الأصدقاء بصِلّة السبب ، ورعى الوسائل والقرب ، أبقاكم الله تعالى وأيدي الغبطة بكم عالية ، وأحوال تلسم الجهات بدركم المهمات حالية ، وديمّ المسرات من إنعامكم المدرّات على معهود المبرات متوالية !

وأماما تشوّفتم إليه من حال وليكم فأمل متقلص الظل ، وارتقاب لهجوم جيش الأجل المطل ، ومُقام على مساورة الصّل ، وعمل يكذب الدعوى ، وطمأنينة تنتظر الغارة الشّعوا ، ويد بالمدخور تفتح ، وأخرى تجهّد وتمنح ، ومرض يزور فيثقل ، وضعف عن الواجب يعقل^(٣)، إلا أن اللطائف تستروح ، والقلب من باب الرجاء لا يبرح ، وربما ظفر البأس ، ولم تطرد المقاس ، تداركنا الله تعالى بعفوه ! وأوردنا من منهل الرضا والقبول على صفوه ! وأذن لهذا الخرق في رَفْوه !

وأما ما طلبتم من انتساخ ديوان ، وإعمال بنان في الإتحاف ببيان ، فذلك عهود لدى مهجورة ، ومعاهد لا مُتعهدة ولا مزُورة ، شغل عن ذلك خوض يعلو لجبهه ، وحرص يقضى من لفظ المانح عجبه ، وهول جهاد تساوى جُمادَياهُ وَرَجَبُه ، فلولا

(١) السبب الوثيق : القوى المتين الذى لا ينقطع

(٢) منجى : اسم مكان من «نجّينجو» والنيق — بكسر النون — أعلى

موضع فى الجبل (٣) يعقل : يمنع ويحجب ، وسمى العقل عقلا لأنه يمنع صاحبه

التماسُ أجر، وتعلُّل برمج تجر، لقلت : أهلا بذات النحيين^(١) ، فلئن شكت ، وبذلت
المصُون بسبب ما أمسكت ، فلقد ضحكت في الباطن ضعف ما بكت ، ونستغفر
الله تعالى من سوء انتحال ، وإيثار المزاح بكل حال ، وما الذي ينتظر مثلي ممن
عرف المآخذ والمآثر ، وجَرَّب لما بلَّا المبارك ، وخبر مساءة الدنيا الفارك ؟
هذا أيها الحبيبُ ما وسعه الوقت الضيق ، وقد ذهب الشباب الرِّيقُ^(٢) ،
فليسبح فيه معهود كمالك ، جعل الله تعالى مطاوعة آمالك ، مطاوعة يمينك لشمالك !
ووطأ لك موطأ العز بيباب كل مالك ! وقرن النجح بأعمالك ! وحفظك في نفسك
وأهلك ومالك ! والسلام ، انتهى .

من إنشائه
مخاطب
أبا القاسم بن
رضوان

ومن مخاطبات لسان الدين لصاحبه العلامة أبي القاسم بن رضوان :
قد كنت أجهد في التماس صنعة نفساً شهابُ ذكائها وقادُ
وأقول لو كان المخاطب غيركم عند الشدائد تذهب الأحقاد
سیدی - أبقاكم الله تعالى علم فضل وإنصاف ، ومجموع كال أوصاف ! - كلام قصير ،
والله تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير ، وإليه بعد هذا الخطاب كله المرجع
والمصير ، وليس لنا إلا مولی ونصير ، وهذا الرجل سیدی الخطيبُ أبو عبد الله بن
مرزوق - جبره الله تعالى ! - بالأمس كنا نقف بيبابه ، ونتمسك بأسبابه ،
ونتوسل إلى الدنيا به ، فإن كنا قد عرفنا خيراً وجبت المشاركة ، أو كفافاً تعينت
المشاركة ، أو شراً اهتبلت غرة الهدى الأنفس المباركة ، واتصفت بصفة من يعصى
فيسمح ، ويسأل فيمنح ، ويعود إلى القبح بالفعل الجميل ، ويحجب يد التأمل ، ومع
هذا فلم نذر إلا خيراً كَرَّم منه المورد والمصرف ، ومن عرف حجة على من
لا يعرف ، وأنتم في الوقت سراج علم لا يخبو سنّاه ، ومجموع تحف عرفنا منه

(١) ذات النحيين ، امرأة يضرب بها المثل في كثرة العوائق فيقال «أشغل من
ذات النحيين» ولها قصة مشهورة أشار بعبارته إليها
(٢) ريق الشباب — بفتح الراء وتشديد الياء مكسورة — أوله

ما عرفناه ، وهذه هي الشهرة التي تنعم إذا سمرت ، والهنة التي تُبر عليها النفس إذا فترت ، حتى لا تجد بعون الله تعالى عارضاً يعوقها عن الخير ، وسبيل الكمال الأخير ، والأجر في استيفاء كتاب الشفاعة ، وتحرى^(١) المقاصد النفاة ، وتنفيق البضاعة^(٢) ، قد ضمنه مَنْ وَعَدَ بقيام الساعة ، والجزاء على الطاعة وغير الطاعة ، وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قبلي ، وهي في الحقيقة لي ، فكيف والله تعالى يرى عملكم وعلى ، والمترك حقير ، والوجود إلى رحمة من رحمت الله تعالى فقير ، والسلام ، انتهى .

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم رحمه الله تعالى :

من كلامه
مخاطب المبارك
ابن إبراهيم

ساحات دارك للضياف مَبَارِكُ	وبضوء نار قراك يهدي السالك
ونوالك المبذول قد شمل الوري	طرا ، وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذي قال الوجود قد انطوى	والبأس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل	والجود ليس له همام باتك ^(٣)
جمع الشجاعة والرجاحة والندى	والبأس والرأى الأصيل مُبَارِكُ
للدين والدنيا وللشيم العلاء	والجود إن شح الغمام السافك
عند الهياج ربيعة بن مُكَدَّم	في الفضل والتقوى الفضيل ومالك
ورث الجلالة عن أبيه وجده	فكأنهم ما غاب منهم هالك
فجيشاده الآملين مراكب	وخيامه للقاصدين أرائك
فإذا المعالي أصبحت مملوكة	أعناقها بالحق فهو المالك
يا فارس العرب الذي من بيته	حرم لها حجج به ومناسك

(١) تحرى المقاصد : توخىها (٢) تنفيق البضاعة : ترويحها

(٣) همام باتك : قاطع ، يفصل الأمور فلا يبقى . بتك يبتك — من بابي ضرب ونصر — قطع يقطع

يا من يبشر باسمه قصاده فلهم إليه مسارب ومسالك
أنت الذى استأثرت فيك بغبطى وسواك فيه مأخذ ومتارك
لا زلت نوراً يهتدى بضياهه من جَنَّهُ للروع ليل حالك
ويخص مجدك من سلامى عاطر كالمسك صاك به الغوالى صائك

الحمد لله تعالى الذى جعل بيتك شَهِيراً ، وجعلك للعرب أميراً ، وجعل اسمك قالا ،
ووجهك جَمَلاً ، وقربك جاهاً ومالا ، وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم لك آلا ،
أسلم عليك يا أمير العرب وابنَ أمرائها ، وقُطِبَ سيادتها وكبرائها ، وأهنيك بما
منحك الله تعالى من شهرة تبقى ، ومكرمة لا يضلُّ المتصف بها ولا يشقى ، إذ جعل
خيمتك فى هذا المغرب على اتساعه ، واختلاف أشياعه ، مأمناً للخائف ، على
قياس المذاهب والطوائف ، وصَرَفَ الألسنة إلى مدحك ، والقلوبَ إلى حبك ،
وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك ، ولقد كنت أيام تجمعى وإياك المجالس
السلطانية على معرفتك متهاكاً ، وطوع الأمل سالكا ، لما يلوح^(١) لى على وجهك
من سِما المجد^(٢) والحياة ، والشيم^(٣) الدالة على العلياء ، وزكاء الأصول وكرم الآباء ،
وكان والدى - رحمه الله تعالى ! - قد عين للقاء خال السلطان قريبكم لما توجه فى
الرسالة إلى الأندلس نائباً فى تأنيسه عن مخدومه ، ومنوِّها حيث حلَّ بقدمه ،
واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفة ، والوسائل المختلفة ، فعُظِمَ لأجل هذه
الوسائل شوقى إلى التشرف لزيارة ذلك الجنب الذى حُلُوْلُهُ شرف وفخر ،
ومعرفته كنز وذخْر ، فلما ظهر الآن لحل الأُخ الكذا القائد فلان للحاق بك ،
والتعلق بسببك ، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضى والله تعالى ييسر
فى البعض ، عند تقرير الأمن وهدنة الأرض ، وهذا الفاضل بركة حيث حل

(٢) يلوح : يبدو ويظهر (٢) سِما المجد : علامته

(٣) الشيم : جمع شيمة ، وهى الخصلة

لكونه من بيت أصالة وجهاد ، وماجداً وابن أمجاد ، ومثلك لا يوصى بحسن جواره
ولا يُتَبَّه عل إثاره ، وقبيلك في الحديث من العرب والقديم ، وهو الذى أوجب
لها مزية التقديم ، لم يفتخر قط بذهب يجمع ، ولا ذخير يرفع ، ولا قصر يبنى ،
ولا غرس يحنى ، إنما فخرها عدو يُغْلَب ، وثناء يحلب ، وجُزُر (١) تنحر ، وحديث
يذكر ، وجود على الفاقة ، وسماحة بحسب الطاقة ، فلقد ذهب الذهب ، وفنى النشَب ،
وتمزقت الأنواب ، وهلكت الخليل العراب ، وكل الذى فوق التراب تراب ،
وبقيت المحاسن تروى وتنقل ، والأعراض تجلى وتُصْقَل ، والله در الشاعر إذ يقول :
وإنما المرء حديثٌ بعده فكُن حديثاً حسناً لمن وعى (٢)

هذه مقدمة إن يسر الله تعالى بعدها لقاء الأمير ، فيجلى اللسان عما فى الضمير :

ومدحى على الأملاك مدح ، وإنما رأيتك منها فامتدحت على وسمى
وما كنت بالمهدى لغيرك مدحتى ولو أنه قد حل فى مفرق النجم

ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدى أبا عبد الله بن مرزوق ، وهو :

راش زمانى وبرى نبله فكنت لى من وقعها جُنة
ولو قهرت الموت أمتنى منه وأدخلتنى الجنة
فكيف لا أنشرها منة قد عرفتها الإنس والجنّة

بماذا أخاطب به تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدلالة ، أسيدي ويشركنى
فيه ، من قال لا إله إلا الله بفيه ؟ أو بروح حياى ، وماهى ذاتى ، وذخرى الكبير
الكثير ، لابل فلكى الأثير ، وهو تضيق على الولد والأهل ، وتعدى المراتب
المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهى بعض
دلالات الإنسان ، أفدت الإكسير ، وجبرت الكسير ، ورويت يا أبا العـ

من إنشائه
يخاطب شيخه
ابن مرزوق

(١) الجزر : جمع جزور ، وهو ما ينحر من الإبل ، ويقع على الجمل والناقة ، أو قيل :

خاص بالناقة (٢) البيت من مقصورة ابن دريد إمام اللغة

التيسير ، وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الظعن والمسير ، فمن رام شكر بعض أياديك فلقد شد حقائب الرحال ، إلى نيل المحال ، والحق أن نِكَلْ جزاك ، لمن جعل إلى المجد اعتراك^(١) ، ونولى شكرك وثناك ، إلى مَنْ عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق وإقامة الحق إنَّاكَ ، وندعو منك بالبقاء إلى الروض المَجُود^(٢) ، وغمام الجود ، وإمام الركع السجود ، لا بل لنور الله تعالى المشرق على التهاثم والتنجود ، ورحمته المبتوثة أثناء هذا الوجود .

وليعلم سيدى أن النفس طاعة جماعة ، وسراب آمالها بحارُه لماعة ، فلا تفريق من كد^(٣) ، ولا تقف عند حد ، سيما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يَسِرْ منها في عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التى يجذب بها المراد ويشمر لها المريد ، إلى أن يتأتى عما دون الحق المَحِيد ، ويصح التوحيد ، وقد مثلت الآن خصما ، يوسِعُ ظهر استظهارى بالتسليم قَضَا ، ويقول : المال عبدلى عند القيمة ، وطيبى فى الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدِّى عند الأقيسة العقيمة ، ومن استخلصنى على شرفى إذا تفاضلت الجواهر ، وتبينت للحق المظاهر ، وتعينت المراتب التى يقتمدها على رأى البراهمة النور الاصفهندى والنور القاهر ، فخلاصُ المال طَوَّعُ يديه ، وهو كما قال الله تعالى أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، فالأطفها ، حتى تلين معاطفها ، وأخادعها ، حتى تلوى أخادعها ، وأقول قد وقع الوعد ، وأشرق السعد ، ولان الجعد ، وسكن الرعد ، والله تعالى الأمر من قبلُ ومن بعد ، فتجيبنى : العمر المنام ، وأيام الجاه والقدرة قد يحق لها الاعتنام ، وهُمُّ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف ، وإذا لم يغير حائط مثل معروف ، وفى الوقت زبون يرجى به استخلاصُ الحقوق ، ويستبعد وقوع العقوق ، فإن رأى مولاي أن يُشْفِعَ المنَّة ، ويقرع بابا ثانيا من أبواب الجنة ، قبل أن

(١) اعتراك : انتسابك وانتماءك ، وأصله « اعتراؤك » كما أن أصل جزاك « جزاؤك » فحذف الهمزة من كل منها
(٢) المجود : الذى جاده المطر ، أى همل عليه
(٣) الكد : التعب والجهد

يشغل شاغل ، أو يكدر الأكل والشرب واش أو واغل ، أو يثوب للمتعدي
نظر في اللجاج ، أو يدس له ما يحمله على الاحتجاج ، أو متسع مناظها ، فسيح
استنباطها ، كثير هياطها ومياطها ، فهو تمام صنيعة التي لم ينسج على منوالها الأحرار ،
ولا اهتدت إلى حسنها الأبرار ، ولا عرف بدر مجدها السرار ، فإليه كان الفرار ،
ولله تعالى ثم له خلص الاضطرار ، ويستقر تحت دخيله الفرار ، وتطمئن الدار ،
فإن ما ابتدأ به من عز ضرب على الأيدي العادية منه حكم الحكام ، وفارح
الهضاب والآكام ، على ملأ ومجمع ، وبمراى من الخلق ومسّمع ، يقتضى أطراد
قياس العزة القعساء ، وسعادة الإصباح والإمساء ، وظهور درجات الرجال على
النساء ، فهو جاة حارت فيه الأوهام وهذه أذياله ، ومن ركب حقيقة أمرها هان
عليه خياله ، والمال ماله ، والعيال عياله ، والوجود سريع زياته ، والجزاء عند الله
تعالى مكيله ، وعروض المنصوب باقية الأعيان ، مستقلة الشجر قائمة البنيان ، تمنع
عن شراؤها قاعدة الأديان ، وغيرها من مكيل وموزون ، بين ما كول ومخزون ،
والكتب ملقاة بالقاع ، مطروحة بأخبث البقاع ، فإن تآنى الجبر ، وإلا فالصبر ،
على أن وعد عمادى لا يفارق الإنجاز ، ومكرمه التي طوقها قد بلغت الشام
والحجاز ، وحقيقة التزامه تباين الجاز ، وآية مجده تستصحب الإعجاز ، والله در
إبراهيم بن المهدي^(١) يخاطب المأمون ، لما أ كذب في العفو عنه الظنون :

وهبت مالى ولم تبخل علىّ به وقبل ذلك ما إن قد وهبت دمي
وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتها بأختها الكبرى ، وفريدة فجئت بأخرى ،
وشفعت وترّا ، أبقاك الله تعالى لتخليد المناقب ، وإعلاء المراتب ! وجعل أخص
نعلك تاجا للنجم الثاقب ! وتكفل لك في النفس والولد بحسن العواقب .

(١) إبراهيم بن المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي ، عم المأمون أمير المؤمنين ،
كان قد خرج على المأمون وشايه قوم من العباسيين حين جعل المأمون ولي عهده
على بن موسى الرضا فشق ذلك على العباسيين وعظم عندهم أن يخرج الأمر إلى
العلويين ، وتوفى إبراهيم في سنة ٢٢٤ من الهجرة (انظر الترجمة رقم ٨ في وفيات
الأعيان ١٩/١ بتحقيقنا) .

آمين آمين لأرضي بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا
وأما تنبيه سيدى على إنشاء رزق ، وتقرير رفق ورفق ، فلا أنبه حاتما وكعبا ، أن
يملاّ قعبا ، لمن خاض بحرا أو ركب صعبا ، هذا أمر كفانيه النكافى ، وداء لو خز
الأشافي ، أذهب الشافي ، والسلام ، انتهى .

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان السلطان قوله :
هذا ظهير كريم ، مُتَضَمِّنُهُ استجلاء لأُمُور الرعية واستطلاع ، ورعاية كرمت
منها أجناس وأنواع ، وعدل بهر منه شعاع ، ووصايا يجب لها إهطاع ، أصدرناه
للفقيه فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله ، رأينا أنه أَحَقَّ مَنْ نَقْلُهُ الأَمْرَ
الأَكِيدَ ، ونرى به من أغراض البر الغرض البعيد ، ونستكشف به أحوال الرعايا
حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها ، ولا يتطرق إليها طارق من أهوالها ، وينهى
إلينا الحوادث^(١) التي تنشأ فيها لإنهاء يتكفل بحياطة أبنائها وأموالها .
وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس في مساجدهم ،
ويندبهم من مشاهدهم ، ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم ، وإحساب^(٢) أموالهم ،
ومكابدتنا المشقة في مداراة عدوهم الذي نعلم من أحواله ما غاب عنهم دفعه الله
تعالى بقدرته ، ووقى نفوسهم وحریمهم من معرفته ، ولما رأينا من انبئات الأسباب
التي تؤمل^(٣) ، وعجز الخيل التي كانت تعمل ، ويستدعى إنجادهم بالدعاء ، وإخلاصهم
فيه إلى رب السماء ، ويسأل عن سيرة القواد ، وولاة الأحكام بالبلاد ، فمن نالته
مظلمة فليرفعها إليه ، ويقصّها عليه ، ليبلغها إلينا ، ويوفدها مقررة الموجبات لدينا ،
ويختبر ما افترض صدقة للجبيل ، وما فضل عن كريم ذلك العمل ، ليعين إلى بناء
الحصن بجبل فارة يسر الله تعالى لهم في إتمامه ، وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه ،

(١) ينهى إلينا الحوادث : يبلغها لنا ، وكأنه جعله نهاية ينتهى عندها خبر الحوادث

(٢) إحساب أموالهم : إنمائها وزيادتها وتكثيرها

(٣) انبئات الأسباب : انقطاع الوسائل

وغيره مما افترض إعانةً للمسافرين ، وإنجاداً للكهافرين ، فيعلم مقداره ، ويتولى اختباره ، حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف ، ولا يعدل به لمشروف عن شريف ، ولا تقع فيه مضايقة ذى الجاه ، ولا مُحَادعة غير المراقب لله ، ومتى تَحَقَّق أن غنيا قَصَّر به عن حقه ، أو ضعيفاً كلف منه فوق طَوْقه ، فيجبر الفقير من الغنى ، ويجرى من العدل على السنن السَّوَّى ^(١) ، ويعلم الناس أن هذه المعونة وإن كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يسيرة ، وأن الله تعالى يضاعفها لهم أضعافاً كثيرة ، فليست مما يلزم ، ولا من معاون التى بتكريرها يجزم ، وينظر فى عهود التوفيق فيصرفها فى مصارفها المتبينة ، وطرقها الواضحة البينة .

ويتفقد المساجد تفقداً يكسوعاريها ، ويتم منها المآرب تكميلاً يُرْضى باريها ، وينتدب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم ، ويحذرهم المغيب على كل شيء من أعشارهم ، فالزكاة أخت الصلاة وهما من قواعد الإسلام ، وقد اخترنا لهم بأقصى الجِد والاعتزام ، ورفعنا عنهم رسم التعريف نظراً إليهم بعين الاهتمام ، وقد منّا الثقات لهذه الأحكام ، وجعلنا الخوض شرعياً فى هذا العام ، وفيما بعده إن شاء الله تعالى من الأعوام .

ومن أهم ما أسندناه إليه ، وعولنا فيه عليه ، البحث بتلك الأحواز عن أهل البدع والأهواء ، والسائرين من السبيل على غير السَّوَاء ، ومن ينبز ^(٢) بفساد العقيد ، وتحريف القصد ، والتلبس بالصوفية وهو فى الباطن من أهل الفساد ، والذاهبين إلى الإباحة وتأويل المعاد ، والمؤلفين بين النساء والرجال ، والمتبعين لمذاهب الضلال ، فهماعثر على مُطَوَّق بالتهمة ^(٣) ، منزبشئ من ذلك من هذه الأمة ، فليشد ثقافه شداً ، ويسد عنه سبيل الخلاص سداً ، ويسترع فى شأنه الموجبات ، ويستوعب

(١) السنن السوى - بفتح السين والنون جميعاً - الطريق الذى لا عوج فيه

(٢) ينبز : يلقب ، وذلك كان يقال له «ملحد» أو «زنديق»

(٣) مطوق بالتهمة : حرفيته أن التهمة صارت له كالطوق فى عنقه : والمراد من

لزمته التهمة وثبتت عليه

الشهادات ، حتى ينظر في حَسَمِ دأئه ^(١) ، ويعاجل المرض بدوائه ، فليقول ما ذكرنا نائباً بأحسن المناب ، ويقصد وجه الله تعالى راجياً منه جزيل الثواب ، ويعمل عمل مَنْ لا يخاف في الله لومة لائم ليجد ذلك في موقف الحساب .

وعلى من يقف عليه من القواد والأشياخ والحكام أن يكونوا معه يداً واحدة على ما حررنا في هذه الفصول ، من العمل المقبول ، والعدل المبذول ، ومن قصر عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصى أمر الله وأمرنا فلا يلم إلا نفسه التي غرّته ، وإلى مضرع النكير جرّته ، والله تعالى المستعان ، انتهى .

ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني لما قصدتها من إنشائه عند قبر السلطان أبي الحسن المريني عقب ما شرع في جواره وتوسل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم الله تعالى الجميع : السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذي عرف فضله الإسلام ، وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وخفقت بعز نصره الأعلام ، وتنافست في إنفاذ أمره ونهيه السيوفُ والأفلام . والسلام عليك أيها المولى الذي قسم زمانه بين حكم فضل ، وإمضاء نَصْل ، وإحراز خَصْل ، وعبادة قامت من اليقين على أصل . السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومُشَبِّم البطون الجائعة وكاسي الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية ^(٢) ، ومُكْتَتِب الكُتائب ^(٣) الغازية ، في سبيل الله تعالى والسرايا السارية . السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم ، وملتقى أمر الله تعالى باخلق المرضي والقلب السليم ، ومُقَوِّض الأمر في الشدائد إلى السميع العليم ، ومُعَمِّل البنان الطاهر في اكتباب الذكر الحكيم . كَرَّمَ الله تعالى تربتك وقدمها . وطيب روحك الزكية وآنسها . فلقد كنت للدهر جمالا ، وللإسلام ثملا ، وللمستجير

(١) حَسَمِ دأئه : استئصاله

(٢) قَدَح الزند : ضربه ليخرج منه النار ، ورى الزند يرى - مثل وقى يقى ، ومثل ولى يلى - أى أخرج النار

(٣) مكتب : مجمع ، والكتائب : جمع كتيبة ، وهى الجيش أو الفصيلة منه

مجيراً ، وللمظلوم ولياً ونصيراً ، لقد كنت للمحارب صدراً ، وفي المواكب بدرأ ،
 وللمواهب مجراً ، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلاً وستراً ، لقد فرغت أعلام عزك
 الثنايا^(١) ، وأجزلت هممتك للملوك الأرض الهدايا ، كأنك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر
 البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، ولم توجد الجود ، ولم تزين الزرع السجود ،
 فتوسدت الثرى ، وأطلت السكرى ، وشربت الكأس التي يشربها الورى ،
 وأصبحت ضارع الخد^(٢) ، كليل الحد ، سالكا سنن الأب والجد ، لم تجد بعد
 انصرام أجلك ، إلا صالح عملك ، ولا أصبحت لقبرك ، إلا رايح تجرك ، وما أسلفت
 من رضاك وصبرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويَجُودَ بسحاب الرحمة
 ترابك ! وينفكك بصدق اليقين ! ويجعلك من الأئمة المتقين ! ويعلى درجتك في
 عليين ! ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين .

وليَهْنِكَ أن صَيَّرَ الله تعالى ملكك من بعدك ، إلى نير سعدك ، وبارق
 رَعْدِكَ ، ومنجز وعدك ، أَرْضَى وَلَدَكَ ، وريحانة خَلْدِكَ ، وشقة نفسك ، والسَّرْحَةُ
 المباركة من غَرْسِكَ ، ونور شمسك ، وموصل عملك البر إلى رمسك ، فقد ظهر
 عليه أثر دعواتك ، في خلواتك وأعقاب صلواتك ، فكلمتك والمنة لله تعالى باقية ،
 وحسنتك إلى محل القبول راقية ، يرعى بك الوسيلة ، ويتمم مقاصدك الجميلة ،
 أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قلده ، وعمر بتقواه يومه وغده ، وأبعد في السعد
 أمدّه ، وأطلق بالخير يده ، وجعل الملائكة أنصاره والأفئدة عُدَدَه .

وإنتى أيها المولى الكريم ، البر الرحيم ، لما اشترائى ، وراشنى وبرانى^(٣) ،
 وتعبدنى بإحسانه ، واستعمل فى استخلاصى خط بنانه ، ووصية لسانه ، لم أجد
 مكافأة إلا التقرب إليك وإليه برثائك ، وإغراء لسانى بتخليد عليائك ، وتعفير

(١) فرغت الثنايا : علتها وارتفعت فوقها ، والأعلام : الرايات ، والثنايا : جمع
 ثنية ، وهى الطريق الصاعد فى الجبل (٢) ضارع الخد : ذليل
 (٣) أصل راش من قولهم « راش السهم » إذا ألزق به الريش ، ويراد منه قواه

الوَجَنَة في حرمك ، والإشادة بعد المات بمجدك وكرمك ، ففتحت الباب في هذا الغرض ، إلى القيام بحقك المفترض ، الذي لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادت (١) ، فما يبست الألسن ولا كادت ، متحيزا بالسبق ، إلى أداء هذا الحق ، بادئا بزيارة قبرك الذي هو رحلة الغرب مانويته (٢) من رحلة الشرق ، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان ، وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان ، والله سبحانه يجعله عملا مقبولا ، ويبلغ فيه من القبول مأمولا ، ويتغمد من ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصَّيِّبَة (٣) ، والتحيات الطيبة ، فنعم الملوك الكبار ، والخلفاء الأبرار ، والأئمة الأخيار ، الذين كرمت منهم السير وحسنت الأخبار ، وسعد بعزماهم الجهادية المؤمنون وشقى الكفار ، وصلوات الله تعالى عوداً وبدأ على الرسول الذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار ، وعلى آله وأصحابه الذين هم السادة الأبرار ، وسلم تسليما ، انتهى .

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ومما خاطبت به الوزير المتغلب على الملك بالمغرب ما نصه .

لا ترجُ إلا الله في شدة وثِيق به فهو الذي أيدك
حاشاك أن ترجو إلا الذي في ظلمة الأحشاء قد أوجدك
فاشكره بالرحمة في خلقه ووجهك أبسط بالرضا وأيدك
والله لا تهمل الطافه قلادة الحق الذي قلدك
ما أسعد الملك الذي سُسْتُهُ ياعمر العدل ، وما أسعدك !

نخص الوزير الذي بهر سعيه ، وحده في المضاء قصده ، وعول على الشيم التي اقتضاها مجده ، وأورثه إياها أبوه وجدّه ، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا ، أبقاه

(١) تمادت : يريد استمرت ولم تنقطع (٢) « مانويته » هو مفعول بادئا

(٣) صاب المطر يصوب فهو صيب ، إذا نزل وهطل ، وسموا المطر نفسه صيبا ، وفي التنزيل (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق)

الله تعالى ثابت القدم ، خافق العلم ، شهيرا حديث سعدة في الأمم ، مثلاً خَيْرُ بسالته وجلالته في العرب والعجم .

تحية معظم مجده الكبير ، المستند إلى عهده الوثيق وحسبه الشهير ، السرور بماسنائه^(١) الله تعالى له من نُجْح التدبير ، والنصر العديم النظير ، وإنجاده إياه عند إسلام النصير^(٢) ، وفراق القبيل والعشير ، ابن الخطيب ، واليدُ ممدودة إلى الله تعالى في صِلَة سعد الوزير - أبقاه الله تعالى ! - ودوام عصمته ، واللسان يطنب ويسهب في شكر نعمته ، والأمل متعلق بأسبابه الكريمة وأذمته ، وقد كان شيعه مع الشفقة التي أذابت الفؤاد ، وألزمت الأرق والسهاد ، على علم بأن عناية الله تعالى عليه عاكفة ، وديم آلائه لديه واكفة^(٣) ، فإن الذي أقدره وأيده ونصره ، وأنفذت مشيئته ما دبره ، كفيل بإمداده ، ومَلِيّ بإسعاده ، ومَرْجُوّ لإصلاح دنياه ومعاده ، وفي أثناء هذه الأراجيف استولى على معظم وزارته الجزع ، وتعاورته الأفكار تأخذ وتدفع ، فإني كما يعلم الوزير أعزه الله تعالى منقطع الأسباب ، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعد الجَناب ، ومستعدّي على بكوني من المعدودين فيمن له من الخلق والأحباب ، فشرعت في نظر أخضّل منه على زوال اللبس ، وأمان النفس ، واللاحق بآمن يرعاني برعى الوزير ، بخلال ما يدبر الأمر منّ له التدبير ، ففي أثنائه ، وتمهيد أساس بفائه ، وَرَدَ البشير بماسنائه^(١) الله تعالى لاسيدى وجابر كسرى ، ومنصفي بفضل الله تعالى من دهرى ، من الصنع الذي ظهر ، وراق نوره وبهر ، فأمنت وإن لم أكن ممن جَنَى ، وحفتني المسرات بين فرادى وثنى ، وانشرح بفضل الله تعالى صدرى ، وزارتنى النعم والتباني من حيث أدري ولا أدري ، ووجهت الولد الذي شملته نعمة الوزير وإحسانه ، وسبق إليه امتنانه ، نائبا عنى في تقبيل يده ، وشكر

(١) سناء الله - بتشديد النون - يسره وسهله

(٢) تقول « أسلم فلانا أنصاره وقومه » تريد أنهم خذلوه وتركوه للعدو

(٣) الديم : جمع ديمة - بكسر الدال - وهى المطر الدائم ، وواكفه : منهلة ، وكف المطر يكف - بوزن وصف يصف - انهل وانسكب

يده ، والوقوف ببابه ، والتمسك بأسبابه ، آثرته بذلك لأمر : منها المزاولة فيما كان يلزمه من إخوته الأصغر ، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر ، وإفراد له بالبركة ، ولعائق ضعف عن الحركة ، وبعد ذلك أشرع بفضل الله تعالى في العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية ، عارضاً من ثنائها ما يكون وفق الأمنية ، ورب عمل أغنى عنه فضل نية ، والسلام الكريم على سيدى ورحمة الله تعالى وبركاته .

قال : وكتبت إليه أيضاً على أثر الفتح الذى تكيف له :

من إنشائه
إلى وزير
المغرب أيضاً

سيدى الذى أثمر بسعاده ، وظهور عناية الله تعالى به فى إبدائه وإعادته ، وأعلم كرم تجادته ، وأعترف بسيادته ، الوزير الميمون الطائر ، الجارى حديثه سعدته ومضاته مجرى المثل السائر ، أبقاه الله تعالى عزيز الأنصار ! جارية يمين نقيته حركة الفلك الدوار ، معصوماً من المكاره بعصمة الواحد القهار ، معظم سيادته الرفيعة الجانب ، وموقر وزارته الشهيرة المناسب ، الداعى إلى الله تعالى بطول بقائه فى عز واضح المذهب ، وصنع واكف السحاب ، ابن الخطيب ، عن الذى يعلم سيدى من لسان طلق بالثناء ، ويد ممدودة إلى الله تعالى بالدعاء ، والتماس لما يعد من جزيل النعماء ، والفتح الذى تفتح له أبواب السماء ، وقد انصل ما سناه الله تعالى له من النصر والظهور ، والصنع البادى السفور ، لما التقى الجمعان ، وتهودت أكوؤس الطعان ، وتبين الشجاع من الجبان ، وظهر من كرات سيدى وبسالته ما تحدث به ألسنة الركبان ، حتى كانت الطائفة^(١) لحزبه ، وظهرت عليه عناية ربه ، فقلت : الحمد لله الذى جعل سعد عمادى متصل الآيات ، واضح الفرر والشيات^(٢) ، وقد كنت بعثت أهنئه بما قدم من صنع جميل ، وبلوغ تأميل ، فقلت : اللهم أهد علينا التهانى تترى ، واجعل الكبرى من نعمتك السالقة بنعمتك

(١) الطائفة : النصر والإدالة

(٢) الفرر : جمع غرة ، وأصلها بياض فى جبهة الفرس ، والشيات : جمع شية - بوزن عدة وعدات وصفة وصفات - الشية : العلامة ، وشى اللوب يشبه وشيا وشية ، إذا طرزه وحسنه

الرادفة الخالقة هي الصغرى ، وأنجم له بين نعم الدنيا والأخرى ، والناس - أبقى الله تعالى سيدى ! - لهم مع الاستناد إليك جهات ، وأمور مشتهات ، إلا الحب المتشيع فجهتك هي التي آنت الغربية ، وفرجت الكربة ، ووعدت بالخير ، وضمنت عاقبة الضير^(١) ، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوى على عبيده بهذه المدينة واصل الله تعالى لمباشرتها الهناء ! وقرت العين بمشاهدة الآلاء^(٢) ! والله عز وجل يديم سعادة سيدى ويطول بقاءه ! ويرادف قبله نعمه وآلاءه ، بفضلته ، انتهى .

وقال : وبما خاطبت به المذكور وأنا ساكن بسلا :

من إنشائه إلى
وزير المغرب
أيضا

أيا عمر العدل الذى مَطَلَ المدى بوعد الهدى حتى وفيت بدينه
ويا صارم الملك الذى يستعده لدفع عداه أو لجلس زينه
هَنَّتْ عينك اليقظى من الله عصمة كفت وجه دين الله موقع شينه
وهل أنت إلا الملك والدين والدنا ولا يلبس الحق المبين بمينه
إذا نال منك العين طرفا فإنما أصيب به الإسلام فى عين عينه

الوزير الذى هو للدين الوزر الواقى ، والعلم السامى المراقب والمراقى ، والخلق المقلد فوق الترائب والتراقى ، والكز المؤمل والذخر الباقي ، حجب الله تعالى العيون عن عين كمالك ! وصيرَ الفلك الدوار مطية آمالك ! وجعل اتفاق اليمين مقرونا بيمينك ، وانتظام الشمل معقودا بشمالك !.

اعلم أن مطلق لسان الثناء على مجدك ، والمستضىء على البعد بنور سعدك ، ومعقود الرجاء بعروة وعدك ، لا يزال فى كل ساعة يسحب الفلك فيه ذيلها ، ويعاقب يومها وليلها ، مُصْنَعُ الأذن إلى نبأ يهذى عنك لله تعالى دفاعا ، أو يمد فى ميدان سعدك باعا ، وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم ، وآسى السكُوم^(٣) ،

(١) الضير - بالفتح - الضرر ، يريد ما لحقه من حساده حتى فر من الأندلس

(٢) الآلاء : النعم ، واحدها إلى - بزنة رضا - (٣) آسى السكُوم ؟ مداوى الجروح

وذو المقام المعلوم ، ففكرت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام ، وتنسكه به المثاقفة والأفدام ، من كرة مرسلّة الشهاب ، أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب ، حومت^(١) حول عينك لا كدّر صفاؤها ، ولا هدم فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها ، فرعت حول حماها ، ورامت أن تعيب فحيب الله تعالى مرماها :

نرى السوء مما تنقى فنهايه وما لانرى مما يقى الله أ كثر

فقلت : مكروه أخطأ سبهم ، وتنبيه من الله تعالى لمن نبيل عقله وفهمه ، ودفاع قام دليله ، وسعد أشرق جليله ، وأيام أعربت عن إقبالها ، وعصمة غطت بسر بالها ، وجوارح جعل الله تعالى الملائكة تحرسها ، فلا تغتالها الحوادث ولا تفترسها ، والنفط ينشعر بالشيء وإن جهل أسبابه ، والصوفى يسمع من الكون جوابه ، فبادرت أهنته تهنته من يرى تلك الجوارح الكريمة أعز عليه من جوارحه ، ويرسل طير الشكر لله تعالى في مساقط اللطف الخفى ومسارحه ، وسألته سبجانه أن يجعلك عن النوائب حجراً^(٢) لا يقرب ، وربك ربعا لا يخرب ، ما سبّح الحوت ودبّ العقرب^(٣) ، ثم إننى شفعت الهناء ووترته ، وأظهرت السرور فماسترته ، بما سنّاه لتديريك من مسألة تكذب الإرجاف ، وتقنى عن الإيجاف ، وتخصب للإبل العجاف ، وترج من كيد ، وتفرغ إلى مجادلة عمرو وزيد ، وكأنى بسعدك قد سدّل الأمان ، وعدل الزمان ، وأصلح القاسد ، ونفق الكاسد ، وقهر الروع المستاسد ، وسر الحبيب وماء الحاسد ، والسلام . انتهى .

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر بن محمد ابن على الهنتانى معزياً له عن أخيه عبد العزيز :

(١) حومت : دارت ، ووقع فى ب « حرمت » بالراء - تحريف

(٢) أراد بحجر هنا معنى ممنوع

(٣) الحوت لا يزال يسيح فى الماء مادام حيا ، والعقرب لاتزال تدب على الأرض مادامت حية ، فهو يريد مادامت السموات والأرض

من إنشائه
مزيّا الرئيس
عامر بن محمد
الهمتاني

أبا ثابت كن في الشدائد ثابتا أعيدك أن يُلْفَى حسودك شامتا
عزاؤك عن عبد العزيز هو الذي يليق بعز منك أعجز ناعتا
فدوحتك الغناء طالت ذوائبا وسرحتك السماء طابت منابتا
لقد هدّ أركان الوجود مصابه وأنطق منه الشجوم من كان صامتا
فمن نفّس حرا وثق الحزن كظمها ومن نفّس بالوجد أصبح خافتا
هو الموت للانسان فصل لحده وكيف ترجّى أن تصاحب مائتا
وللصبر أولى أن يكون رجوعنا إذا لم نكن بالحزن ترّجّع فائتا

اتصل بي أيها الهمام ، وبدرُ المجد الذي لا يفارقه التّمام ، ماجنته على عليانك
الأيام ، واقتنصه مُخلّق الردى بعد أن طال انخيام ، وما استأثر به الحِمَام ، فلم يغن
الدفاع ولا نفع الدّمَام ، من وفاة صنوك الكريم الصفات ، وهلاك وُسْطى
الأسلاك ، وبدرالأحلاك ، ومجير الأملاك ، وذهاب السّمح الوهاب ، وأنا لديغ^(١)
صِلّ الفراق ، الذي لا يفيق بألف راق ، وجريح سَهْم التّبين ، ومجارى العيون
الجارية بدمع العين ، لفقد أنيس سَهْل على مَضض النّكبة ، ومَحَى لَيْث^(٢) الخطب
عن فريستى بعد صدق الوثبة ، وآسنى فى الاغتراب ، وصحبى إلى منقطع التراب ،
وكفل أصاغرى خير السكفالة ، وعاملنى من حسن العشرة بما سجل عقد الوكالة ،
انتزعته الدهر من يدى حيث لا أهل ولا وطن ، والاغتراب قد ألقى بَعْطَن ، وذات
اليَد يعلم حالها مَنْ يعلم ما ظهر وما بطن ، ورأيت من تطارح الأصاغر على شِلُو
الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ، ما حملنى على أن جعلت البيت له
ضريحاً ، ومدفناً صريحاً ، لأخدع من يرى أنه لم يزل مقيماً لديه ، وأن ظل شففته
منسحبٌ عليه ، فأعنيا مصابى عند ذلك الفرح ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكأ

(١) اللديغ : المدوغ ، أى الذى لدغته جية أو عقرب ، والصل - بكسر الصاد -
الحية ، وإضافة الصل إلى الفراق من إضافة المشبه به إلى المشبه مثل « لجين الماء »
و « ذهب الأصيل » (٢) نحى : أبعد

القرح القرح ، إذ كان ركنا قد بنته لى يد معرفتك ، ومتصفا فى البربى والرعى
لصاغيتى بكريم صفتك ، فوالهفا عليه من حسام ، وعز سام ، وأياد جسام ،
وشهرة بين بنى حام وسام ، أى جمال خلق ، ووجه للقاصد طلق ، وشيم تطمح
للمعالى بحق ؟ وأى عضد لك ياسيدى لا يهين^(١) إذا سطا ، ولا يقهر إذا خطا ، يوجب
لك على تحليه بالشيبة ، ما توجهه البُنوة من الهيبة ، ويرد ضيفك آمنا من الخيبة ،
ويسد ثغرك عند الغيبة ، ذهبت إلى الجزع^(٢) فرأيت مُصابه أكبر ، ودعوت بالصبر
فولى وأدبر ، واستنجدت الدمع فنضب^(٣) ، واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى
واقترض ، وبأى حزن يلنى عبد العزيز وقد جل فقده ، أو يطفى لا عجه وقد عظم
وقده ، اللهم لوبكى بندى أياديه ، أو بغائم غواديه ، أو ببُباب واديه^(٤) ، وهى الأيام
أى شامخ لم تهده ، أو جديد لم تبله وإن طالت المدة ؟ فرقت بين التيجان والمفارق ،
والخود والتمارق^(٥) ، والطلى والعقود ، والكأس وابنة العنقود ، فما التعلل بالفان ،
وإنما هى إغفاءة أجفان ، والتشبث بالخبائل ، وإنما هى ظل زائل ؟ والصبر على
المصائب ، ووقوع سهمها الصائب ، أولى ما اعتمد طلابا ، ورجع إليه طوعا
أو غلابة ، فأنا ياسيدى أقيمُ رسم التعزية ، وإن بوئت بمضاعف المرزية ، ولا عتب
على القدر ، فى الورد من الأمر والصدّر ، ولولا أن هذا الواقع مما لا يجدى فيه
الخلصان ، ولا يغنى فيه البراع ولا الخرصان ، لأبلى جده من اقترضتموه معروفا ،
وكان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفا ، لسكنها سوق لا ينفق فيها إلا سلعة
التسليم ، للحكيم العليم ، وطىّ الجوانح على المضض الأليم ، ولعمرى لقد خلدت
لهذا الفقيد وإن طمس الحمام محاسنه الوضاحة ، لما كبس منه الساحة ، صحفا
منشرة ، وشغورا بالحمد موشرة ، يفخر بها بُنوه ، ويستكثر بها مكتسبو الحمد

(١) لا يهين : لا يضعف ، ووقع فى ب « لا يهين » تحريف

(٢) الجزع : إظهار الألم والحسرة ، ووقع فى ب « الجزع » بالذال المعجمة -

وهو تحريف (٣) نضب : غاض ولم يجز (٤) العباب - بالضم بزة غراب -

موج البحر أو معظم مائه (٥) التمارق : جمع تمرقة ، وهى الوسادة

وَمُقْتَنُوهُ ، وَأَتَمَّ عِمَادَ الْبَازَةِ ، وَعَلَّمَ الْمَفَازَةَ ، وَقَطَّبَ الْمَدَارَ ، وَعَامَرَ الدَّارَ ، وَأَسَدَ
 الْأَنْجَمَةِ ، وَبَطَلَ السَّكْتِيَةِ الْمَلْجَمَةِ ، وَكَافَلَ الْبَيْتَ ، وَالسَّيْرَ عَلَى الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ ،
 وَمِثْلَكَ لَا يُهْدَى إِلَى نَهْجٍ لَّا حَبٍّ (١) ، وَلَا تَرشده نَارُ الْحَبَّاحِبِ ، وَلَا يَنْبَه عَلَى سَنَنِ
 نَبِيِّ كَرِيمٍ أَوْ صَاحِبٍ ، قَدْرُكَ أَعْلَى ، وَفَضْلُكَ أَجْلَى ، وَأَنْتَ صَدْرُ الزَّمَانِ بِلَا مَدَافِعٍ ،
 وَخَيْرُ مُؤَلِّ لَأَعْلَامِ الْفَضْلِ وَرَافِعٍ ، وَأَنَا وَإِنْ أَخَرْتَ فَرَضَ بَيْعَتِكَ لَمَّا خَصَّنِي مِنَ
 الْمَصَابِ ، وَنَالَنِي مِنَ الْأَوْصَابِ (٢) ، وَنَزَلَ بِي مِنْ جَوْرِ الزَّمَانِ الْقَصَّابِ ، مِمَّنْ يَقْبَلُ
 عُذْرَهُ الْكَرَمُ ، وَيَسْعَى الْحَرَمُ الْمُحْتَرَمُ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ السَّكْفِيلُ لِسَيِّدِي وَعِمَادِي
 بِيَقَاءِ يَكْمُلُ بِهِ الْأَبْنَاءُ وَأَبْنَاءُ الْأَبْنَاءِ ، وَيَعْلَى لِقَوْمِهِ رَتَبُ الْعِزِّ سَامِيَةِ الْبِنَاءِ ، حَتَّى
 لَا يُوَحِّشَ مَكَانَ فَقِيدٍ مَعَ وَجُودِهِ ، وَلَا يَحْسُ بَعْضُ زَمَانٍ مَعَ جُودِهِ ، وَيَقْرَ عَيْنُهُ
 فِي وَلَدِهِ وَوَلَدَ وَلَدِهِ ، وَيَجْمَلُ أَيْدِي مُنَاوِيهِ تَحْتَ يَدِهِ ، وَالسَّلَامُ .

وخاطبه لسانُ الدين أيضا بما نصه :

سَيِّدِي الَّذِي هُوَ رَجُلُ الْغَرْبِ كُلِّهِ ، وَالْجَمْعُ عَلَى طَهَارَةِ بَيْتِهِ وَزَكَاءِ أَصْلِهِ ،
 عِلْمُ أَهْلِ الْمَجْدِ وَالِدِينِ ، وَبَقِيَّةُ كِبَارِ الْمُوَحِّدِينَ .

من إنشائه
 مخاطب الرئيس
 عامر بن محمد
 الهنتاني
 أيضا

بَعْدَ السَّلَامِ الَّذِي لَتَلِكِ الْجَلَالَةِ الرَّاسِخَةِ الْقَوَاعِدِ ، السَّامِيَةِ الْمَصَاعِدِ (٣) ، وَالِدَعَاءِ لِلَّهِ
 أَنْ يَفْتَحَ لَكَ فِي مَضِيَّاتِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مَسَالِكَ التَّوْفِيقِ ، وَيَمْسُكَ مِنْ عَصَمَتِهِ
 بِالسَّبَبِ الْوَثِيقِ ، أَعْرَفَكَ أَنْ جَبَلَكَ الْيَوْمَ وَقَدْ عَظُمَ الرَّجْفَانُ ، وَفَاضَ التَّنَوُّرُ وَطَغَى
 الطُّوفَانُ ، تَوَمَّلِ النُّفُوسُ الْغَرَقَى جُودِيَّ جُودِهِ ، وَتَغْتَبِطْ غَايَةَ الْإِغْتِبَاطِ بِوُجُودِهِ ،
 وَوَاللَّهِ لَوْلَا الْعِلَاقُ الَّتِي يَجِبُ لَهَا الْإِلْتِمَامُ ، مَا وَقَعَ عَلَى غَيْرِ قَصْدِكَ الْإِعْتِرَافُ ،
 وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْدُكَ بِإِعَانَتِهِ عَلَى تَحْمِلِ الْقُصَادِ ، وَيَبْقَى مَحَلُّكَ رَفِيعَ الْعِمَادِ كَثِيرَ الرَّمَادِ ،
 وَيَجْمَلُ أَبَا يَحْيَى خَلْفًا مِنْكَ بَعْدَ عَمْرِ النَّهْيَةِ الْبَعِيدِ الْآمَادِ ، وَيَبْقَى كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ

(١) النهج : الطريق ، واللاحب : المستقيم الواضح

(٢) الأوصاب : جمع وصب ، بالتحريك ، وهو الوجع

(٣) السامية : أراد المرتفعة ، والمصاعد : جمع مصعد ، وهو في المحس نحو السلم
 مما يصعد عليه من أسفل إلى أعلى

فيكم إلى يوم التناد^(١) ، وحامله القائد الكذامعروف النباهة والجهاد ، ومحله لا ينكر في القواد ، لما استبهمت السبل^(٢) ، والتبس القول والعمل ، لم يجد أنجي من الركون إلى جنابك ، والتمسك بأسبابك ، والانتظام في جملة خواصك وأحبائك ، حتى ينبليج الصبح^(٣) ، ويظهر النجح ، ويعظم المنح ، ويكون بعد هجرته الفتح ، ومثلكم من قصِد وأمل ، وأنضى إليه المطأ وأعمل^(٤) ، وأما الذي عندى من القيام بحق تلك الذات الشريفة ، والقول بمناقبها المنيفة ، فهو شيء لا تنفى به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ، والله تعالى المسؤول في صلة عز سيدى ودوام سعده ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

من إنشائه
مخاطب شيخ
الدولة

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وما خاطبتُ به شيخ الدولة - وقد استقل من مرض - ما نصه :

لا أعدم الله دار الملك منك سَمًا يحلى به الحالـ كان الظلم والظلم
وأشدتلك الليالى وهى صادقة (المجد عوفى إذ عوفيت والكرم)^(٥)
مَنْ علم - أعلى الله تعالى قدرك ! - أن المجد جواد حُلَاك شِيائنه ، لا بل الملك
بدر أنت آياته ، لا بل الإسلام جسم أنت حيانه ، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك
جبيئنه ، ومُلْك تنيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى بإعزازهِ وتَدِينه ، فلقد أملت
نفوس المؤمنين لآلامك ، ووجع الإسلام لتوقع إسلامك ، وتأخرت الأعلام
لتأخر أطرافك بمصالح الملك وأعلامك ، فإنما أنا مل الدين والدنيا متشبثة بأذيال
أيامك ، ورحال الأمل مخيمة بين حلالك وخيامك ، فإذا قابلت الأشراف
نعم الله تعالى بشكر ، ورمت الغفلة عن ذلك بنكر ، فاشكره جل وعلا بملء
لسانك وجنانك ، وأجر في ميدان حمده مطلقاً من عنانك ، على ما طوّقتك من

(١) يوم التناد : يوم القيامة ، وقد سمي به في القرآن الكريم
(٢) استبهمت السبل : خفيت الطرق ولم تنضح لساالكها (٣) ينبليج الصبح : يظهر
(٤) أنضى : أجهد ، والمطأ : الظهر ، وأراد المطايا (٥) عجز هذا البيت
صدر مطلع قصيدة للمتنبي ، وعجزه : * وزال عنك إلى أعدائك الألم *

استرقاق حر ، وإفاضة أيادٍ غُرٍّ ، واقتناء عسجد من الحمد ودر ، وإتاحة نفع ودفع ضرر ، وإدالة حلو من مر ، وكن على ثقة من مدافعة الله تعالى عن حِمَاكَ ، وعز تبليغ ذوابه السَّمَكَ ، ورزق يحجره فال منمأك ، ودونك مجلس الإمامة فقد تديره بزمامك ، وحُظوة الخلافة فاستحقها بوسائلك القديمة وذمامك ، ومحاسن الدولة فأجلها على منصة إمامك^(١) ، ورسوم البر فأغر بها عين اهتمامك ، وذروة المنبر فأمض بها طُبَّةَ حسامك ، وأجز الآملين زهرا الأيادي البيض من كَأْمٍ أكملك ، فيا عز دولة بك يا جملة السكال قد استظهرت ، وأذلت المعاند وقهرت ، وبأعمال آرائك اشتهرت ، فراقت فضائلها وبهرت ، جزالة كما شق الجوَّ جارح ، ولطافة كما طارح بفن التأليف مطارح ، وفسكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم والعدل شارح ، ومكارم تحت آثار الكرماء ونسخت ، وحلت عقود أخبار الأجواد في الأعصار وفستخت ، فلم تدع لفضل الفضل ذكراً ، وتركت معروف يحيى بن خالد نكراً ، لابل لم يبق لكعب ، من علو كعب ، وأنست دعوة حاتم ، بأى ماح وحاتم ، فصارت سبي جوار ، ومنع جوار ، وعقر ناب ، عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبر قدر ترفع عن الكبر ، وجود خضب الأيدي بمحاء التبر ، وعز استخدم الأسل الطوال بيراع أقل من الشبر ، وحقن الدماء المراقبة بإراقة نجيع الخبر ، وفك العقال ، ورفع النوب الثقال ، وراعى الذرة والمثقال ، وعثر الزمان فأقال ، ووجد لسان الصدق فقال .

أقسم ببارئ النسم ، وهو أبر القسم ، ما فازت بمثلك الدول ، ولا ظفرت بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدمت لم يضرب إلا بك المثل ، ولم يقع إلا على سنتك وكتابك والإجماع المنعقد على آدابك العمل ، والمملوك لما شام

(١) شبه محاسن الدولة بالعروس ، والمنصة — بكسر الميم وفتح النون وتشديد الصاد — مكان مرتفع تجلس عليه العروس لتكون ظاهرة لسكل راء ، وجلاها أهلها يحلونها : زينوها وأظهروها للناس بإجلالها على المنصة ونحوها

مالكه بَرَقَ العافية ، وتَدَرَّعَ بِالْأَلطاف الخافية ، كتب مبشراً بالهناء ، ومذيعاً ما يجب من الحمد والثناء ، وشاكراً ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستروالمنة على الآباء والأبناء ، فנסأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك^(١) ، ووسطى السلوك^(٢) ، وسلالة أرباب المقامات والسلوك ، ويبيقك وحصاة الصحة وافرة ، وغرة العزة القعساء سافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة ، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، ما زحفت للصباح شهبُ الموابك ، وتفتحت بشط نهر الحجر أزهار الكواكب ، والسلام . انتهى

ومن ذلك ما خاطب به سيدى أبا عبد الله بن مرزوق ، جواباً عن كتابه ، وقد استقر خطيب السلطان بتونس :

ولما أن نأت منكم ديار وحال البعد بينكم وبينى

بعثت لكم سوادى بياض لأنظركم بشىء مثل عينى

بم أفاتحك يا سيدى ، وأجلَّ عُددى ؟ كيف أهدى سلاماً ، فلا أحذر ملاماً ؟ أو أنتخب لك كلاماً ، فلا أجد لتبعية التقصير فى حقك الكبير إيلاماً ؟ إن قلت تحية كسرى فى الثناء وتبَّع ، فكلمة فى مربع العجمة تربع ، ولها المصيف فيه والربع ، والجليم والمنبع ، فتروى متى شاءت وتشبع ، وإن قلت إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يامطر ، فهو فى الشريعة بَطَر ، وركبه خطر ، ولا يرعى به وطن ولا يقضى به وطر ، وإنما العرق الأوشج ، ولا يستوى البان والبنفسج ، والعوسج والعرفج .

سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سحسج

وما كان فضلك ليمعنى الكفران أن أشكره ، ولا لينسبني الشيطان أن أذكره ،

(١) أثير الملوك : المختص عندهم بالمسكنة السامية ، والذي يؤثره ويقدمونه

على من عداه (٢) السلوك : جمع سلك — بالكسر — وهو ما تنظم فيه الجواهر ووسطاه : الجوهرة التى تكون فى وسط ما ينظم فيه ، وإنما تكون الوسطى خير الجواهر وكبرها

من إنشاءه
يخاطب شيخه
ابن مرزوق

فأتحذ في البحر سبباً ، أو أسلك غير الوفاء مذهبا ، تأبى ذلك - والمنة لله تعالى - طباع ، لها في مجال الرّغى باع ، وتحقيق وإشباع ، وسوائم^(١) من الإنصاف ، ترعى في رياض الاعتراف ، فلا يطرّقا ارتياح ، ولا تخيفها سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمسٌ ظهيره ، وأذان عقيرة جهيرة^(٢) ، فوق مثندة شهيرة ، أدت الأكتاد^(٣) لها ديون تستغرق الدم ، وتسترق حتى الرّم ، فإن قضيت في الحياة فهي الخطة التي نرتضيها ، ولا تنقع من عامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويُمضيها ، وإن قطع الأجل فالغنى الحميد ، من خزائنه التي لا تبديد ، يقضيها ، ويرضى من يقتضيها ، وحيّا الله تعالى أيها العلم السامى الجلال ، زمنا بمعرفتكم المبرة على الآمال ، بر وأتحف ، وإن أساء بفراقك وأجحف ، وأعرى بعد ما ألحف ، وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزائن ، ثم أوحش منها أصونة هذه الخزائن ، فأب حنين الأمل بحقه ، وأصبح المغرب غريبا بقلب كفيه ، ونستغفر الله تعالى من هذه الغفلات ، ونستهديه دليلا في مثل هذه الفلوات ، وأى ذنب في الفراق للزمن ، أو لعرباب الدّمن ، أو للرواحل المدجلة ما بين الشام إلى اليمن ، وما منها إلا عبد مقهور ، وفي رمة القدر مبهور ، عقد والحمد لله مشهور ، وحنة لها على النفس اللوامة ظهور ، جعلنا الله تعالى بمن ذكر المسبب في الأسباب ! وتذكر وما يذكر إلا أولو الأبواب ، قبل غلق الرّهن وسد الباب ، وبالجملة فالفراق ذاتي ، ووعدته ماتي ، فإن لم يكن فكان قد ، ما أقرب اليوم من الغد ، والمرء في الوجود غريب ، وكل آت قريب ، وما من مقام إلا لزيال ، من غير احتيال ، والأعمار مراحل والأيام أميال .

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال
جعل الله تعالى الأدب مع الحق شأننا ! وأبعد عنا الفراق الذي شأننا ! وإني لأسر لسيدى

(١) السوائم : جمع سائمة ، وأصلها ما يترك من الدواب يرعى ما شاء .

(٢) العقيرة - ففتح العين - الصوت ، والجهيرة - بفتح الجيم - المرتفعة العالية ، يقول : إنه أذان صادر عن صوت عال

(٣) أدت : أوجعت ، والأكتاد : جمع كتد ، وهو ما بين الكتفين

بأن رعى الله تعالى صالح سَلَفِهِ ، وتداركه بالتلاقي في تَلَفِهِ ، وخلص سعادته من كلفه ، وأَحَلَّهُ من الأمن في كَنَفِهِ ، وعلى قدرها تصاب العلياء ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء .

هذا ، والخير والشر في هذه الدار ، المؤسسة على الأُكدار ، ظلان ، مضمحلان^(١) ، فقد ارتفع ، ماضر أو نفع ، وفارق المكان ، فكأنه ما كان ، ومن كلمات الملوك ، البعيدة عن الشكوك ، إلى أن يشاء ملك الملوك :

خذ من زمانك ما تيسر وأترك بجهدك ما تعسر
ولرب مجمل حالة ترضى به مالم يُفسَّر
والدهر ليس بدائم لا بد أن سيسوء إن سر
واكتم حديثك جاهدا شمتَ المحَدثُ أو تحسر
والناس آتية الزجا ج إذا عثرت به تكسر
لا تعدم التَّقْوَى فمن عدم التقى في الناس أعسر
وإذا امرؤ خسر الإلهة فليس خلق منه أخسر

وإن لله تعالى في رَعْيِكَ لسرا ، ولطفاً مستمرا مستقرا ، إذ ألقاك اليم إلى^(٢) الساحل ، فأخذ بيدك من ورطة الواحل ، وحرك منك عزيمة الراحل ، إلى الملك الحلال^(٣) ، فأدالك من إبراهيمك سميا ، وعرفك بعد الولي وسميما ، ونقلك من عناية إلى عناية ، وهو الذي يقول وقوله الحق (ما ننسخ من آية - الآية) .

وقد وصل كتاب سيدى محمد - والله الحمد - العواقب ، ويصف المراقى التي

(١) مضمحلان : ضعيفان سريعا الذهاب .

(٢) أخذ هذا من قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام وقد أمر أمه بأن تلقية في اليم (فليقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدوله) .

(٣) الملك الحلال - بضم الحاء الأولى - العظيم ، ووقع في شعر امرئ القيس :

والله لا يذهب شيخي باطلا حتى أير مالكا وكاهلا
القاتلين الملك الحلال خير معد حسبا ونائلا

حلَّها والمراقب ، وينشر الفاخر الحَفْصِيَّة والمناقب ، ويذكر ما هياه الله تعالى لديها من إقبال ، ورَخَاء بال ، خصيصي اشتال ، ونشوة آمال ، وأنه اغتبط وارتبط ، وألقى العصا بعد ما خبط ، ومثل تلك الخلافة العلية مَنْ تَزَنُ الذوات ، المخصوصة من الله تعالى بتشريف الأدوات ، بميزان تمييزها ، وتفرق بين شَبَه المعادن وإبريزها ، وشَبَه الشيء مَثَلٌ معروف ^(١) ، ولقد أخطأ من قال : الناس ظروف ، إنهم شَجَرَات مربع في بقعة ماحلة ، وإبل مائة لا تجد فيها راحلة ^(٢) ، وما هو إلا اتفاق ، ونجح للملك وإحقاق ، وقلمًا كَذَب إجماع وإصفاق ، والجليس الصالح لرب سياسة أَمَلٌ مطلوب ، وحظ إليه تجلُّوب ، وإن سئل أطرف ، وعمر الوقت ببضاعة أشرف ، وسَرَقَ الطبايع ، ومَدَّ في الحسنات الباع ، وسَلَّى في الخطوب ، وأضحك في اليوم القَطُوب ، وهدى إلى أفوم الطرق ، وأعان على نوائب الحق ، وزرع له المودة في قلوب الخلق ، زاد الله تعالى سیدی لديها قُرْبًا أثيرا ، وجعل فيه للجميع خيرا كثيرا ، بفضله وكرمه .
ولعلمي بأنه - أبقاه الله تعالى ! - يقبل نصحي ، ولا يرتاب في صدق صبحي ، أغبطه بمثواه ، وأنشده ما حضر من البديهة في مسارة هداة ونجواه :

بمقام إبراهيم عُذُوْا صرف به فكرا تورق عن بواعث تنبرى
خواره حَرَّمَ وَأَنْتَ حَمَامَةٌ ورقاء والأغصان عود المنبر
فلقد أمنت من الزمان ورِيَّيه وهو المروع للمسيء وللبرى
وإن تشوَّف سیدی فلعمر وليه لو كَانِ المطلوب دينا لوجب وقوع الاجتزاء ، ولا غتبط بما تحصل في هذه الجزور ، المبيعة في حانوت الزور ، من السهام الوافرة الأجزاء ، فالسلطان - رعا الله تعالى ! - يوجب مافوق مزية التعليم ، والولد - هدام الله تعالى ! - قد أخذوا يحظ قل أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصة والعامة تعامل بحسب ما بلته من نصيح سليم ، وترك لما بالأيدي وتسليم ، وتدير عاد على عدوها بالعذاب الأليم ، إلا مَنْ أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد بحال السليم ، ولا يفكر ذلك

(١) أشار إلى قولهم في مثل «شبه الشيء منجذب إليه»

(٢) هذا من حديث ، وهو «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»

في الحديث ولا في القديم ، ولكن النفس منصرفة عن هذا الغرض ، نافضة
يَدَهَا من العرض ، قد فوّتت الحاصل ، ووصلت في الله تعالى القاطع وقطعت
الواصل ، وصدقت لما نصّح الفؤدّ الناصل^(١) ، وتأهبت للقاء الحمام الواصل ، وقلت :
انظر خضابَ الشباب قد نَصَلَا وزائرَ الأنس بعده انفصلا^(٢)
ومطلبي والذي كَلَفْتُ به حاولتُ تحصيله فما حصلا
لا أمل مُسَمَف ولا عمل ونحن في ذا والموت قد وصلا
والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء في الأصائل والأسحار ، إلى مُقِيل العِثار ، شديدُ
الافتقار ، والله عز وجل يَصِلُ لسيدى رَغَى جوانبه ، ويتولى تيسير آماله من فضله
العيم ومآربه ، وأقرأ عليه من التحيات ، الحملة من فوق رحال الأريحيات ،
أزكاهما ، ما أوحع البرقُ الغائم فأبكاهما ، وحسد الروض جمال النجوم الزواهر
فقسامها بمباسم الأزهار وحكاهما ، واضطبرهرم الليل عند الميل عصا الجوزاء وتوكاهما ،
ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

ومما خاطب به لسان الدين - رحمه الله تعالى ! - ابنَ مرزوق المذكور قوله :

سيدى ، وعمادى ، كَشَفُ قناع النصيحة من وظائف صديق ، أو خديم
لصيق ، وأنا بكلتا الجهتين حقيق ، ويتلجلج في صدرى كلام أنا إلى نَفْسَه ذوا احتياج ،
ولو في سبيل هياج ، وخرق سياج ، وخوض دَيَاج^(٢) ، وقد أصبحت سعادتى عن
أصل سعادتك فرعا ، فوجب النصح طبعاً وشرعاً ، فليعلم سيدى أن الجاه ورطة ،
والاستغراق في تيار الدول غلطة ، وبمقدار العلو إلا أن يقي الله تعالى تكون^(٣) السقطة
وأنه - والله تعالى يعصمه من الحوادث ، ويقيه من الخطوب الكوارث ! - وإن
تبعه الجمع فهو مفرد ، وبسهام الحسدة مُقَصَّد ، وأن الذى يقبل يده ، يُضْمَر حسده ،

(١) نصل الخضاب : ذهب وخضاب الشباب : هو سواد الشعر ، وذهابه :
ظهور الشيب فيه (٢) الدياجى : جمع دجاجة ، وهى الظلام الشديد
(٣) هذا من قول الشاعر * بقدر الصعود يكون الهبوط *

وما من يوم إلا والعِلل تستشري^(١) ، والحيل تريش وتَبْرى ، وسموم المسكايد تسرى ، والعين الساهرة تطرق العين النائمة من حيث تدرى ولا تدرى ، وهذا الباب الكريم مخصوص بالزيارة والبركة ، وخصوصا في مثل هذه الحركة ، فثم ظواهر تُخالف السرائر ، وحيل تصيب في الجوّ الطائر ، وما عسى أن يتحفظ الحسود ، وقد عَوّت الكلابُ وزارت الأسود ، وإن ظن سيدى أن الخطة الدينية تذب^(٢) عن نفسها ، أو تنفع مع غير جنسها ، قياسٌ غير صحيح ، وهبوب ربح ، وإنما هي درجة فوق الوزارة والحجابه ، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة ، وجاء يجر على القليل الأذيل ، ويفيد العز والمال ، ويجر هال ، وصدور تحمل الجبال ، وإن قطع بالأمان ، من جهة السلطان ، لم يؤمن أن يقع فيه ، والله سبحانه يقيّه ، ويمتّع به ويُبقّيه ، ما البشر بصدّده ، والحقى يجرى إلى أمده ، فيستظهر الغير بقبيل ، ويجرى من التغلب على سبيل ، ويبقى سيدى - والله تعالى يعصمه ! - طائرا بلا جناح ، ومحاربا دون سلاح ، ينادى من كان يثق بوده في طَلَل ، ويقرع سن النادم والأمرجَل^(٣) ، ومثله بين غير صنفه ممن لا يتصف بظَرْف ، ولا يلتفت إلى الإنسانية بظَرْف ، ولا يعبد الله تعالى ولو على حَرْف ، محمول عليه من حيث الصنفية ، متعمد بالعداوة الخفية ، وإن ظن غير هذا فهو مخدوع مسحور ، ومفتون مغرور ، وبالفكر في الخلاص تفاضلت النفوس ، واستُدْفِعَ البوس ، وله وجوه كلها متعذر الحصول ، دونه بيضُ النصول^(٤) ، وإلا ما كان من الغرض الذى بان فيه بعد الجَدِّ القُتور ، وعدل عنه وقد أخذ الدستور ، وتيسرت الأمور ، وتقررت الأيمان والنذور ، فإنه عَرَضَ قريب وسفر قاصد^(٥) ، ومَسَعَى لا ينفق فيه سيدى من المال درهم واحد ، ووطن لحركته راصد ، لا يمتنع عليه أهله ، ولا يستصعب سَهْلُه ، وأميره جبره الله

(١) تستشري : يستفحل داؤها ويعز علاجها (٢) تذب عن نفسها : تدفع

(٣) جلال ، هنا : عظيم ، ويأتى بمعنى هين يسير ؛ فهو من الأضداد

(٤) بيض النصول : أراد السيوف ، والإضافة من إضافة الصفة للموصوف

(٥) هذه العبارة من قوله تعالى : (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ،

ولكن بعدت عليهم الشقة) من سورة التوبة ، الآية ٤٢

تعالى يتطارح في تعيينكم لاقتضائه ، وإحكام آرائه ، وتأمين خائفه ، واستقدام أصنافه وطوائفه ، ويتحركون حركة العز والتَّوَيُّه ، والقدر النبیه ، لا يُعْوزُكم من وراءكم مطلب ، ولا يُلْفَى عن مخالفتكم مذهب ، ولا يكدر لكم مشرب ، وتمر أيام وشهور ، وتظهر بطون للدهر وظهور ، وتفتح أبواب ، وتسبب أسباب ، من رجوع يتأتى بعد السكون والفتور ، وقد سكنت الخواطر وتنوعت الأمور ، أومقام تمهد به البلاد ، ويعمل في ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد ، وتستغرق في هذا الغرض الآماد ، ويتأتى أن حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد ، تنهأت^(١) الأعمار ، ويكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار ، أو التحكم في ذخيرة سما منها المقدار ، وذُهل عند مشاهدتها الاعتبار ، وخزانة الكتب بجملتها وفيها الأهميات الكبار ، قد نجافت عنها الحاجة وعُدم إليها الاضطرار ، والربع الذي يسوغ بالشرع والعقار ، فهذا كله حاصل ، وثم ضامن لا يتهم وكافل ، وعهود صَبَّغُها غير ناصل^(٢) ، وبالجملة فالوطن لأغراض الملك جامع ، ولما قصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع ، وإن توقع إثارة فتنة ، أو ارتكاب إحنة ، فالأمر أقرب ، وحالة التيسير أغرب ، وهذه الحجة في تلمسان غير معتبرة ، وأجوبتها مقررة ، وقدم رسول الطاغية وإعانتته تحصل في الغالب ، على هذه المطالب ، وبالجملة فالدنيا قد اختلت ، والأقدام قد زلت ، والأموال قد قلت ، وشيبة الدهر ولت ، وذلك القطر على علاته أحكم لمن يروم الجاه وأمنع ، وأجدى بكل اعتبار وأنفع ، وقد حضرت لاستخلاصكم إياه الآلة التي لا تتأني في كل زمان ، وتبها إمكانه أي إمكان ، واقتضيت أيمان ، وعرضت سلع تقل لها أثمان ، وارتهنت الوفاء مروآت وأديان ، وتحقق بذلك القطر الفساد الذي اشتهر به مأموره وأميره ، والمنسكر الذي يجب على كل مسلم تغييره ، فإن شئت

(١) في أصل ب « تنهأت فيه » تحريف

(٢) تقول « نصل الخضاب » تريد أنه ذهب وظهر الشعر أبيض كما كان ، وذكره

هنا مجاز

شرعا فالحكم ظاهر ، أو طبعاً فالطبع حاضر ، وما ثمَّ عاذل بل عاذر ، والمؤنة التي تلزم أقل من أن تكون ثمن بعض الحصون ، فضلاً عن الشجرة ذات الغصون ، وما يستهلك في هذا الغرض شيء له خطر ، ولا يستنقذ من الصحيفة سطر ، واليد محكمة بكل أو شطر ، وما يخص المملوك من هذا الأمر إلا استنقاذ نسب ، واستخلاص مؤمل بين موروث ومكتسب ، وبعيد أن لا ينفر له في زمن من الأزمان ، ملوك في كل وقت وأعيان ، ومروآت وأحساب وأديان ، والله سبحانه كل يوم هو في شأن ، وأما خدمة دولة فهي على حرام ، لا ينجح لى فيها أن أعتمدها مرام ، وكأني بالمشرق لاحق ، ولأنفاسه الذكية ناشق ، فما هي إلا أطاع ، سرابها لماع ، فإذا انقطعت ، انفسحت الدنيا واتسعت ، ومعاش في غمار ، أو عكوف في كسر دار ، لمدومة استقالة واستغفار ، والله ما توهم أن من بتلك البلاد يستنسر بغائه عليكم ، أو يحتقر ما لديكم ، فقد ظهر السكائن ، وتطابق الخبر والمعائن ، فسبحان من يقوى الضعيف ويهين الخفيف ، ويجرى يد المشروف والشريف ، والهم بيد الله تعالى يُنجدُها ويخذلها ، والأرض في قبضته يرعاها ويهملها

هذا بث لا يسع إشاؤه ، وسر إن لم يُطوسقط به على السرحان شاؤه^(١) ، وفيه ما ينكره الأمر ، وتعلق به الظنون وتعمل الخواطر ، فتدبروه واعتبروه ، وبعقلكم فاسبروه ، ثم غطوه بالإحراق واستروه ، والله تعالى يرشدكم للتي هي أسعد ، ويحكمكم على ما فيه لكم العز السرممد ، والفخر الذي لا ينفد ، والسلام . انتهى

وقال رحمه الله تعالى : ومما صدر عني ما أحببت به عن كتاب بعث به إلى
الفتية الكاتب عن سلطان تلمسان أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري :

حيّا تلمسان الحيا فربوعها صدق يجود بדרه المكنون

من إنشائه
جواب عن
كتاب من
محمد بن قيس
الثغري

(١) هذا من مثل ، وهو قولهم «سقط العشاء به على سرحان» ووقع في كل الأصول «شاؤه»

ماشئت من فضل عميم إن سقى أروى ومنّ ليس بالمنوف
أوشئت من دينٍ إذا قدح الهدى أورى ودُنْيَا لم تكن بالدون
ورد النسيم لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنوف
وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت فلها الشفوف على عيون العين

ما هذا النثر ، والصف والحشر ، واللف والنشر ، والفجر والليالي العشر ، شذاً
كما تنفست دَارِينَ ، وسطور رقم خللها التزيين ، وبيّان قام على إبداعه البرهان
المبين ، ونفس ، وشى به طرس ، لجاء كأنه العيون العين ، لا بل ما هذه
الكتائب الكتبية التي أطلقت علينا الأعنة ، وأشرعت إلينا الأسنة ، وراعت
الإنس والجنة ، فأقسم بالرحمن ، لولا أنها رفعت شعار الأمان ، وحيت بتحية
الإيمان ، لراعت السرّرب ، وعافت الذود أن يرد الشرب ، أظهرها مدد الجهاد قدّم ،
وشارد العرب استعمل في سبيل الله واستخدم ، والمتأخر على ما فانه ندم ، والعزم
وجد بعد ما عدم ، نستغفر الله ! إنما هي رقاع الرقاع ، وصلات صلاة ليس فيها
سبق ولا إرقاع ، وبقع لها بطلّ الطباع الكريمة انتفاع ، وألحان بيان يعضدها
إيقاع ، ودر منسوق ، ورطب لنخلها بسوق ، والله در القائل : الملك سوق ، ومن
نصر الشيخ على كتيبة تعقبها كتيبة ، واقتضاء وجيبة من ذى غلة غير نجبية ،
بينما هو يكابد من مراجعة الحى من حضر موت الموت ، ولا يكاد يرجع الصوت ،
إذ صبحته قيس وهى التي شدّت عن القياس ، وأحجمت عن مبارزتها أسود
الأخياس ، فلولا امتثال أمر ، وصبر على جمر ، لأعاد ما حكى في مبارزة الوصى
عن عمرو^(١) ، فتخرج من الخطل ، وبين عذر المكروه عن مناجزة البطل ، ألم يدر

(١) يروى أن أبا الحسين أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بارز
عمرو بن العاص (ويقال عمرو بن ود) فلما أيقن عمرو بأنه هالك كشف عن سوءته
فتركه على رضى الله عنه ، وفيه قيل « مكروه أخاك لا بطل » وقال أبو فراس
الحمداني مشيراً إلى هذه القصة :

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوآته عمرو

قائدُ رَعِيْلِهَا ، وزائرُ غِيْلِهَا ، أنى أُمّتْ بذمة من عَمِيْدِهِ لا تحقر ، وأن ذنب إضافتي إليه لا يغفر ، وحقه الحق الذى لا يجحد ولا يكفر .

لما رأت راية القيسى زاحفة إلى ريعت وقالت لى وما العَمَلُ
قلت الوغى ليس من رأيى ولا عملى لا ناقة لى فى هذا ولا جمل^(١)
قد كان ذاكورنات الصهيل ضحى تهز عطفي كأنى شارب ثمل
والآن قد صوح المرعى وقبضت السخيات والركب بعد اللبث محتمل
قالت ألسنت شهاب الدين تضرعها حاشى العلاء أن يقال : استنوق الجمل
وإن أحسن من هذا وذا وزر بتمله فى الدواهى يبلغ الأمل
هو الحمى لأبى حمو استبحره فقيه الأمن منسدل والفضل مكتمل
والله لو أعمل الراعى النقاد به ما خاف من أسد خفان به همل
تكون من قوم موسى إن قضا وعدلوا وإن تقاعد دهر جأر حملوا
هم الجبال الرواسى كلما حكموا هم البحار الطوامى كلما جملوا
فقلت : كان لك الرحمن بعدى ما سواه معتمد والرأى معتمل
فها أنا تحت ظل منه يلحفنى والشمل منى بستر العز يشتمل
فقل لقيس لقد خاب القياس فلا تذكروا المصاع وتحت الليل فاحتملوا
دامت له ديم النعمى مساجلة يمناه تهمل باليمنى فتنهمل
وآمنت شمس عليها الأقول إلى طى الوجود فلا شمس ولا حمل

ولو خوى - والعود بالله - نجم هذا المتات ، ولم يتصف السبب - وحاشاه -
بالاتصال ولا بالانبتات ، فرعى العدل مكفول ، وسبب الرفق موصول ، وإن
اشتجرت نصول ، والهرم تأبى الأبطال التنزل إلى نزاله ، والناسك التائب يدين
ضرب الغارات باعتزاله ، إلا من أعرق فى مذهب الخارجى الأخرق ، نافع بن

(١) عجز هذا البيت جرى مجرى المثل ، وأصله من قوله الحارث بن عباد فارس
النعامة ، يقوله وقد قعد عن حرب البسوس التى شجرت بين بكر وتغلب بسبب قتل
كليب وائل

الأزرق ، وحسبي ، وقد ساء كسبي ، أن أترك الخطر لراكبه ، وأخلّي الطريق لمن
يَبْنِي المنارَبه^(١) ، ونسير بسير أمثالي من الضعفاء ، ونكف فهو زمان الانكفاء ،
ونسلم مخطوبة هذا الفن إلى الأكفاء ، ونقول : بالبنين والرفاء ، فقد ذهب الزمن
المذهب ، وتبين المذهب ، وشاخ البازي الأشهب ، وعتادُ العمر ينهب ، ومرهَب
القوت من فوق القود يرهب ، اللهم ألم هذه الأنفس رُشدها ، وأذكرها
السكرات^(٢) وما بعدها ، إيه أخى والفضل وَصَفك ونعتك ، والزَّيفُ يُبْهَرُجه بحتك ،
وسهام البراعة انفرد بها بَرُّيك وَنَحْتُك ، وصلتنى رسالتك البرة ، بل غمامتك الثرة ،
وحيتنى تُغور فضلك المُفْتَرَّة ، فعمظمت بورودها المسرة ، جددت العهد بمحبوب
لقائك ، وأنهلت ظامى الاستطلاع من سقائك ، واقتضت تجديداً الدعاء ببقائك ،
إلا أنهار بما ذهلت عند وداعك ، وأبهر عقلها نور إبداعك ، فلم تلقن الوصية ،
وسلكت المسالك القصِيَّة ، وأبعدت من التطوّف ، وجاءت بتبغى من أسرار
التصوّف ، ومتى تقرن هيبة السبع الشداد ، بحانوت الحدّاد ، أو تنظر أحكام
الاعتكاف ، بـدكان الإسكاف ، أو يتعلم طبع المثقال ، بحانوت البقال ، والظن
للغالب ، وقد تلبس المطالب ، إنكم أمرتموها ، لما أصدرتموها ، بإعمال التشوّف ،
فطردت حكم الأبدال ، غائبة عما يلزم من الجدال ، وسمت الشين صاداً ، وعينت
لزرع الوصية حصّاداً ، والله تعالى يجعل الحب عند ظن من نظر بمرآته ، أو وصفه
ببعض صفاته ، وهى تزلق عن صفاته ، فالتصوّف أشرف ، وظلاله أَوْرف ،
من أن ينال كلف بباطل ، ومغرور بسرّاب ما طل ، لا بَرَبَاب هاطل ، ومفتون
بحال حالٍ أو عاطل ، ومن قال ولم يتصف بمقاله ، فعقله لم يَرِم عن عقله ، وجبال
أفقاله ، مانعة له عن انتقاله ، وعلى ذلك ، وبعد تقرير هذه المسالك ، فقد عمرت يدها

(١) هذا من قول الشاعر :

خل الطريق لمن يبني المناربه وبرز بيرزة حيث اضطرك القدر

(٢) يريد سكرات الموت

كيلا تعود بها صِفراً^(١) بعد إعمال السفر ، أو ترى أنها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر ، وأصبحت المراجعة بمجلس وعظ فتحت به باب الحرج ، إلى إنكار الإمام أبي الفرج^(٢) وفن الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد ، والمُبْرَق قبل غمام رحمته والمُرْعِد ، والله در القائل : لست به ولم تبع ، والاعتراض بعد ملازم ، لكن الإسعاف لقصده لازم ، وعامله عند الاعتلال بالعذر جازم ، وإغضاؤه ملتزم ، وفضله لا يخبو^(٣) منه قَبَس ، وعذرا أيها الفاضل ، وبعد الاعتذار ، عن القلم المُنْهَذَر ، وإغفال الحذار ، اقرأ عليهم من طيب السلام ، ما ينجل أزهار السكام عقب الغمام ، ورحمة الله تعالى ممن يمليه على السكاتب ، ولعما تفتؤ من عتب العاتب ، ابن الخطيب ، فإني كتبت له والليل داس^(٤) ، وبحر الظلام طامس ، وعادة الكسل طبع خامس ، والنافخ بشكوى البرد هامس ، والذبال المُنَادِم خافت ، لا يهتدى إليه القَرَّاش^(٥) المتهاف ، يقوم ويقعد ، ويفيق ثم يرعد ، ويزفر ثم يخمد ، وربما صار ورقة آس ، أو مبضع آس ، وربما أشبه العاشق في البَوْح بما يحفيه ، وظهوره من فيه ، فتميله الآمال وتلويه ، وتميته النواسم الهفافة بعد ما تحييه ، والمطر ، قد تعذر معه الوطر ، وساقه الخطر ، وفعل في البيوت المتداعية ما لا تفعل الترك والطر ، والنشاط ، قد طوى منه البساط ، والجوارح بالكلال تعتذر ، ووظائف الغد تنتظر ، والفكر في الأمور السلطانية جائل ، وهي بحر هائل ، ومثلي مقنوع منه باليسير ، ومعدور في قصر الباع وضعف المسير ، والسلام ، انتهى وهي من البلاغة في الذروة .

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله : ومما صدر عني في السياسة حديث من امتاز بأعتبار الأخبار ، وحاز درجة الاشتهار ، بنقل حوادث الليل والنهار ، وولج بين السكائم والأزهار ، وتلطف لخلج الورد من تبسم النهار .

(١) تعود صفرا : خالية

(٢) يريد الإمام أبا الفرج بن الجوزي الواعظ الذي لا يشق له غبار

(٣) خبت النار تخبو : خمدت (٤) داس : مظلم

(٥) القَرَّاش : حشرة تلقي بنفسها على النار ، ويقال « فلان يتهافت تهافت الذباب

على الشراب ، والقَرَّاش على الشهاب »

قال : سهر الرشيد ليله ، وقد مال في حجر النبيذ ميله ، وجهد ندماؤه في جلب راحته ، وإلزام النوم بساحته ، فشحت عهادهم^(١) ، ولم يغن اجتهدهم ، فقال : اذهبوا إلى طرق سماها ورسمها ، وأمهات قسمها ، فمن عثرتم عليه من طارق ليل ، أو غشاء سيل ، أو صاحب ذيل ، فبلغوه ، والأمنّة سوّغوه ، واستدعوه ، ولا تدّعوه^(٢) ، فطاروا وتجّلى ، وتفرقوا ركبانا ورجالا ، فلم يكن إلا ارتداد طرف ، أو فواق^(٣) حرف ، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها ، والبضاعة التي ربحوها ، يتوسطهم الأشعث الأغبر ، واللج الذي لا يُعبر ، شيخ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سبّلته مُشَمّطة ، وعلى أنفه من القبع مطّة ، وعليه ثوب مرقوع ، لطير الحرق عليه وقوع ، يهيم بذكر مسموع ، وينبئ عن وقت مجموع ، فلما مثل سلم ، وما نبس بعدها ولا تكلم ، فأشار إليه الملك فقم ، بعد أن انشمر وابتعد ، وجلس ، فما استرق النظر ولا اختلس ، إنما حركة فكره ، معقودة بزمام ذكره ، ولحظات اعتباره ، في تفاصيل أخباره ، فابتدره الرشيد سائلا ، واحرف إليه مائلا ، وقال : ممن الرجل ؟ فقال : فارسي الأصل ، أعجمي الجنس عربي الفصل ، قال : بلدك وأهلك وولدتك ؟ قال : أما الولد فولد الديوان ، وأما البلد فمدينة الإيوان ، قال : النحلة ، وما أعملت إليه الرحلة ؟ قال : أما الرحلة فالاعتبار ، وأما النحلة فالأمر الكبير ، قال : فنك ، الذي اشتمل عليه ذلك ؟ فقال : الحكمة فني الذي جعلته أثيرا ، وأضجعت فيه فراشا وثيرا ، وسبحان الذي يقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) وما سوى ذلك فتبع ، ولي فيه مُصْطَافٍ ومرْتَبِع ، قال : فتعاضد جدل الرشيد وتوفر ، كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر ، وقال : مارأيت كالليلة أجمع لأمل شارد ، وأنعم بمؤانسة وارد ، يا هذا إني سائلك ، ولن تخيب بعدُ وسائلك ،

(١) العهاد ، في الأصل : الأمطار ، وشحت : بخلت ولم تنزل ، والعبارة مجاز عن أنهم لم يبلغوا بجهدهم ما أردوه . (٢) لا ندعوه : لا نتركوه . (٣) الفواق - كغراب - ما بين الحلبتين من الوقت ، وقيل : ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع ، ويجعل كالمثل في السرعة وضيق الوقت ، يقولون « أمهلني قدر فواق حالب » والحرف - بالفتح - الناقاة

من إنشائه في
السياسة قصة
عن الرشيد

فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بلىنا بحمل أعبائه ، ومُنينا بمراوضة إباطه ^(١) ، فقال هذا الأمر قلادة ثقيلة ، ومن خطة العجز مستقيمة ، ومفتقرة لسعة الذرع ، وربط السياسة المدنية بالشرع ، يفسده الحكم في غير محله ، ويكون ذريعة إلى حله ، ويُصلحه مقابلة الشكل بشكله ، ومن لم يكن سبعا آكلا تداعت سباع إلى أكله فقال الملك : أجملت ففصل ، وبرّيت فنصل ، وكلت فأوصل ، وانثر الحب لمن يُحوّل ، واقسم السياسة فنونا ، واجعل لكل لقب قانونا ، وابدأ بالزعية ، وشروطها المرعية .

فقال : رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ، ومراة العدل الذي عليه جَبَلَك ، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التي وهب لك ، وأفضل ما استدعيت به عونَه فيهم ، وكمايته التي تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتقويمهم ، وحراسة كهلمهم ورضيعهم ، والترفع عن تضيعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها ومالها ، أخذًا يحوط مالها ، ويحفظ عليها كمالها ، ويقصر عن غير الواجبات آمالها ، حتى تستشعر عليتها رأفتك وحنانك ، وتعرف أوساطها في النصب امتنانك ، وتحذر سفلتها سنانك ، وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها ، وسد فيها سبل الذريعة ، وأقصر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة ، وأمنع أغنيائها من البطر والبطالة ، والنظر في شبهات الدين بالتمشّدق والإطالة ، وليقل فيما شجر بين الناس كلامها ، ويرفض مما تنبذ به أعلامها ، فإن ذلك يسقط الحقوق ، ويرتب العقوق ، وأمنعهم من فحش الحرص والشره ، وتعاهد بهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المره ، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب ، وانهمهم عن التحاسد على المواهب ، ورضهم على

(١) الأعباء : جمع عبء ، وهو ما يتحمل حمله ، ومُنينا — بالبناء للمجهول — أصله بمعنى دفعنا إليه ووفقناه وكان من أمانينا ، ومراوضة الشيء : رياضته وتذليله وتسهيله ، والإباء : الامتناع ، ومعنى العبارة دفعنا إلى تذليل صعبه وتيسير مشقاته

الإففاق بقدر الحال ، والتعزى عن الفائت قَرَدُهُ من الحال ، وحدد البخل عن أهل اليسار ، والسخاء على أولى الإيسار ، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأويلها مَنَعَ القاهر ، ولا تطلق لهم التجمع على من أنكروا أمرُهُ في نواديهم ، وكف عنهم أكف تعدّيهم ، ولا تبيح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم ، ولتكن غايتهم ، فيما توجّهت إليه إبايتهم ، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم ، إنهاء إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك ، المحافظين على أوقاتك ، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره ، وحدثت على الإنصاف شكره ، ومن كثر حياؤه من التائب ، وقابل الهفوة باستجابة المنيب ، ومن لا يتخطى عن محله الذى حله ، فر بما عمد إلى المبرم فله ، وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة ، واغفر المكاره فى جنب حسن الطاعة ، وإن ثار جوادهم ، واختلف فى طاعتك مرّادهم ، فتحصن ثورتهم ، واثبت لغورتهم ، فإذا سالوا وسلوا ، وتفرقوا وانسلوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تُقلّ عثرتهم ، واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا ، ولا تترك لهم على حلك اتكالا .

ثم قال : والوزير الصالح أفضل عددك ، وأوصل مددك ، فهو الذى يصونك عن الابتذال ، ومباشرة الأندال ، ويثب لك على الفرصة ، وينوب فى تَجْرِع الغصّة ، واستجلاء القصة ، ويستحضر مانسيته من أمورك ، ويفلب فيه الرأى بموافقة مأمورك ، ولا يسمه ما تمكّنك المسامحة فيه ، حتى يستوفيه ، واحذر مصادمة تياره ، والتجوز فى اختياره ، وقدم استخارة الله تعالى فى إثارة ، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره ، وليكن معروفا بالإخلاص لدولتك ، معقود الرضا والغضب برضاك وصوّلتك ، زاهداً عما فى يديك ، مؤثراً لكل ما يُزْلِفُ لَدَيْكَ^(١) ، بعيد المهمة ، راعيا للأذمة^(٢) ، كامل الآلة ، محيط بالآيالة ، رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبه الحى والميت ، مؤثراً للعدل والإصلاح ، دريا بحمل السلاح ، ذا خبرة بدخل

(١) يزلف لَدَيْكَ : يَسْرِب مِنْكَ

(٢) الأذمة : جمع ذمام ، وهو العهد

المملكة وخزجها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرز أمن النقد، جاداً عند لهوك، متيقظاً في حال سهوك، يلين عند غضبك، ويصل الإسهاب بمقتضبك^(١)، قلقاً من شكره دونك وحده، ناسباً لك الإصابة بعمده، وإن أعياعليك وجود أكثر هذه الخلال، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال، فاطلب منه سكون النفس وهدونها^(٢) وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى قدره دونها، وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانساب، وهي للفضائل فذلك الحساب، وساوى في حفظ عيبيه بين قربه ونأيه، واجعل حظه من نعمتك موازياً لحظك من حسن رأيه، واجتنب منهم من يرى في نفسه إلى الملك سبيلاً، أو يقود من عيصه للاستظهار عليك قبلاً، أو من كثر مالك ماله، أو من تقدم لعدوك استعماله، أو من سمى لسواك أماله، أو من يعظم عليه إعراض وجهك، ويهمسه نادر تجنحك، أو من يداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحداً ببابك.

وأما الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة، والمسايدة والمخاتلة، واستوف عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، ووف ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة، وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب في الذب عن ظنك ثناؤه، وول عليهم النباه من خيارهم، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم، ولا توطئهم الدعة مهاداً، وقدمهم على حصصك وبعوثك سهما أردت جهاداً، ولا تلين لهم في الإنحاض عن حسن طاعتك قياداً، وعودهم حسن المواساة بأنفسهم اعتياداً، ولا تسمح لأحد منهم في إغفال شيء من سلاح استظله، أو عدة اشتهاره، وليكن مفضل من شعبهم وريهم، مصر وفا إلى سلاحهم وزيتهم، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم، من غير اعتبار لأثمانهم،

(١) المقتضب - بزنة المفعول - الموجز المختصر

(٢) هدى فلان يهدن - من باب جلس - هدونا : أى سكن

وامنعهم من المشغلات والمتاجر ، وما يتكسب به غير المشاجر ، وليسكن من الغزو اكتسابهم ، وعلى المغانم حسابهم ، كالجوارح التي تفسد بأعتيادها ، أن تطعم من غير اصطيدائها .

واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ، ويملك حركاتها بالتقويم ، ورُبَّتْهَا بالميزان القويم ، ومن تثق بإشفاقه على أولادها ، ويشترى رضا الله تعالى بصبره على طاعته وجِلادها ، فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك إلى مواقف التلف ، مطيعة دواعي الكلف ، واثقة منك بحسن الخلف ، واستَبِيَّةٌ إلى تمييزهم استبقا ، وطبقهم طبانا ، أعلاها من تأملت منه في الحاربة عنك أخطاراً ، وأبعدهم في مرضاتك مَطَاراً^(١) ، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزماً ووقاراً ، واستهانته بالعظام واحتقاراً ، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جِواراً ، إذا أجدت اختباراً ، وأشدَّهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطباراً ، ومن بَلَا^(٢) في الذي عن لك إحلاه وأمراراً ، ولحقه الضر في معارض الدفاع عنك مراراً ، وبعده من كانت محبته لك أزيد من نَجْدَتِهِ وموقع رأيه أنفع من موقع صَعْدَتِهِ^(٣) ، وبعدها من حسن انقياده لأمرائك ، وإحماده لأرائك ، ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعله ، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله . واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع ، ولم يَسْتَحْيِ من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك ، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

وأما العمال فإنهم ينبئون عن مذهبك ، وحالم في الغالب شديدة الشبه بك ،

(١) تقول « طار فلان بأمر فلان » تريد أنه أسرع في إنجازها غاية السرعة

(٢) بلا : اختبر وجرب (٣) الصعدة ، هنا : الرمح

(٤) العوائد : جمع عائدة ، وهي الأمر النافع

فعرفهم في أمانتك السعادة ، وألزمهم في رعيته العادة ، وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم في الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، وأحلَّهم من الخفاية ، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية ، وقفهم عند تقليد الأجراء^(١) ، مواقف الخوف والرجاء ، وقرر في نفوسهم أن أعظم مابه إليك تقرُّبوا ، وفيه تدرُّبوا ، وفي سبيله أعجموا وأعرِّبوا ، إقامة حق ودخض باطل^(٢) ، حتى لا يشكو غريم مظلَّ ماطل ، وهو أثر لديك من كل رباب^(٣) هاطل ، وكفهم من الرزق الموافق ، عن التصدى لدنى المرافق ، واصطنع منهم من تيسرت كلفته ، وقويت للرعايا ألقته ، ومن زاد على تأميلة صبره ، وأربى على خبره خبره ، وكانت رغبته في حسن الذكر ، تشف على بنات الفكر ، واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق في الإنفاق ، وعدم الإشفاق ، والتنافس في الاكتساب ، وسهل عليه سوء الحساب ، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية ، دون التقصى والكفاية ، ومن كان منشؤه خاملا ، ولأعباء الدناءة حاملا ، وأبغ من يكون الاعتذار في أعماله ، أوضح من الاعتذار في أقواله ، ولا يفتنك ممن قلده اجتلاب الحظ المقنع ، والتنفق بالسعى المسمع ، ومخالفة السنن المرعية ، واتباعه رضاك بسخط الرعية ، فإنه قد غشَّك ، من حيث بَلَكَ ورشَّك ، وجعل من يمينك في شمالك ، حاضر مالك ، ولا تضمن عاملا مال عمله ، وحلَّ بينه فيه وبين أمله ، فإنك تميمت رسومك بمحياه ، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه ، ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد ، والاحتجاج على والد بولد ، واحرص على أن يكون في الولاية غريبا ، ومنتقله منك قريبا ، ورهينة لا يزال معها مرييا ، ولا تقبل مصالحته على شيء اختانه ، ولو برغبة فتَّانه ، فتقبل المصانعة في أمانتك ، وتكون مشاركا له في

(١) الأجراء : النواحي ، وحدها رجا - بزة فتي وعصا -

١ دحض الباطل يدحضه - من باب فتح - أزقه وأزاله

الرباب : السحاب ، وزنا ومعنى

خيانتك ، ولا تُطِلْ مدة العمل ، وتعاهد كشف الأمور ممن يَرَعَى الهمل ،
ويبلغ الأمل .

وأما الولد فأحسن آدابهم ، واجعل الخير دأبهم ^(١) ، وخَفْ عليهم من إشفاقك
وحَنَانِكَ ، أكثر من غلظة جنانك ، واكتم عنهم ميلك ، وأفضْ فيهم جودك
ونَيْلِكَ ، ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا لَيْلِكَ ، وأنبهم على حسن الجواب ،
وسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم الصبر على الضرائر ، والمهلة عند
استخفاف الجرائر ، وخذهم بحسن السرائر ، وحبب إليهم مراس الأمور ^(٢) الصعبة
المراس ، وحسن الاصطناع والاحتراس ، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم ،
والسياسات والحلوم ، والمقام المعلوم ، وكرهْ إليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة
الساھين ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ، وحذر الكذب على مَقُولهم ، ورشعهم
إذا آنست منهم رُشداً أو هَدْياً ، وأرضعهم من الموازنة والمشاورة ثدياً ، لترَبُّهم
على الاعتیاد ، وتحملهم على الازدياد ، ورُضُّهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم
الشهوات فهي دأؤهم ، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ، وتدارك الخلق الذميمة
كلما بَجَمَتْ ، واقدعها إذا هجمت ، قبل أن يظهر تضعيفها ، ويقوى ضعيفها ،
فإن أعجزتك في الصغر الحيل ، عظم الميل :

إن الغصُون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

وإذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، إياك أن توطنهم في مكانك ،
جهد إمكانك ، وفرقهم في بلدانك ، تفرق عبْدَانِكَ ، واستعملهم في بَعوث

(١) اجعل الخير دأبهم : أي عاداتهم وديندهم ، وأصله بالهمز .

(٢) تقول « مارس فلان الأمر ممارسة ومراسا » تريد أنه عاجله وزاوله وعاناه

وشرع فيه ، وقال الشاعر ، وهو يزيد بن الطثرية :

إذا أرسلوني عند تعذير حاجة أمارس فيها كنت نعم المارس

جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فإن حَضَرَكَ تشغلهم بالتحاسد ، والتبارى والتفاسد ، وانظر إليهم بأعين الثقات ، فإن عين الثقة تُبَصِّرُ ما لا تبصر عين المحبة والمقة .

وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع ، وتبصر وتسمع ، فَرَضَهُمْ^(١) بالصدق والأمانة ، وصنهم صَوْنُ الْجَمَانَةِ^(٢) ، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما آتته ، والتقليل مما استكثرته ، واحذر منهم من قويت شهواته ، وضاعت عن هواه لهواته ، فإن الشهوات تنازعُكَ في استرقاقه ، وتشاركك في استحقاقه ، وخيرهم من ستر ذلك عنه بلطف الحيلة ، وأدأب للفساد محيله ، وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستنزته ، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته ، وأن مَنْ تصفح منهم أموركَ فقد أذنب ، وباين الأدب وتجنب ، وأعطى من أكددته ، وأضقت منه ملكه وشددته ، رَوْحَةٌ يشتغل فيها بما يعنيه ، على حسب صعوبة ما يُعَانِيهِ ، تغبطهم فيها بمسارحهم ، ونجم كائلة جوارحهم ، ولتكن عطايك فيهم بالمقدار الذي لا يبطر أعلامهم ، ولا يؤسف الأصاغر فيفسد أحلامهم ، ولا تَرَمَ محسنهم بالغاية من إحسانك ، وأترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك ، وحذر عليهم مخافتك ولو في صلاحك ، بحدِّ سلاحك ، وامنعهم من التواثب والتشاجر ، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والنهاجر ، واستخلص منهم لسرك من قلت في الإفشاء ذنوبه ، وكان أصبر على ما ينوبه ، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك ، أكثر من رغبته في إحسانك ، وضبطه لما تقلد من وديعتك ، أحب إليه من حسن صنيعتك ، وللسفارة عنك مَنْ حلا الصدق في فمه ، وآثره ولو باختطار دمه ، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله ، وعنى بلفظه حتى لا يهمله ، ولمن تودعه أعداء دولتك مَنْ كان مقصور الأمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت قسوته زائدة على

(١) رضهم : أمر من الرياضة ، والمراد عودهم ذلك واعمل على أن يكون من خلقهم

(٢) صنهم : احفظهم ، والجمانة - بالضم - الدرة

رحمته ، وعظمه في مرضاتك آثر من شحمته ، ورأيه في الحذر سديد ، وتحززه من الحيل شديد ، وخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه ، وامتد في حسن السجية باؤه ، وأمن كيده وغدره ، وسلم من الحقد صدره ، ورأى المطامع فما طمع ، واستنقل إعادة ماسمع ، وكان بريئا من اللال ، والبشر عليه أغلب الخلال ، ولا تؤنسهم منك بقبیح فعل ولا قول ، ولا تؤيسهم من طول^(١) ، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعايمهم ، وأقرب إلى الإجابة من دعايمهم ، إصابة الغرض فيأبه وكلوا ، وعليه شكلوا ، فإنك لا تعدم بهم انتفاعا ، ولا يعدمون لديك ارتفاعا .

وأما الحرم فهن مغارس الولد ، ورياحين الخلد ، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار ، والنفس التي تقسمها الإجماد إلى المساعي والإفكار ، فاطلب منهمين من غلب عليهن من حسن الشيم ، المترفة عن القيم ، مالا يسوءك في خلدك ، أن يكون في ولدك ، واحذر أن نجعل لفكر بشر دون بصر إلهين سبيلا ، وانصب دون ذلك عذابا وبيلا^(٢) ، وأرعيهن من النساء العجز من بانت في الديانة والأمانة سبله ، وقويت غيرته ونبله ، وخذهن بسلامة النيات ، والشيم السنيات ، وحسن الاسترسال ، وانخلق السالسال ، وحذر عليهن التغامز والتغاير ، والتنافس والتخاير ، وآس بينهن^(٣) في الأغراض ، والتصام عن الإعراض ، والمحابة بالأعراض ، وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك ، وأسبل لحرمتك ، ولتكن عشرتك لمن عند الكلال والملال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأعمال ، وعند الغضب والنوم ، والفراغ من نصيب اليوم ، واجعل ميمتك بينهن تنم بركاتك ، وتستتر وحرركاتك ، وافصل من ولدت منهمين إلى مسكن يختبر به استقلالها ، ويعتبر بالنفرد خلاها ، ولا تطلق حرمة شفاعة ولا تدبيرا ، ولا تنط بها من الأمر صغيرا ولا كبيرا ، واحذر أن يظهر

(١) الطول - بالفتح - الفضل والنعمة

(٢) عذاب وبيل : شديد وخيم العاقبة

(٣) آس بينهن : سو

على خدمهن في خروجهن عن القصور ، وبرزهن من أجمة^(١) الأسد الهصور ، زى
بارع ، ولا طيب للأنوف مسارع ، واخصص بذلك مَنْ طعن في السن ، ويئس من
الإنس والجن ، ومن توفر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقصر عن جمال الصورة ورسم بالبله^(٢)
ثم لما بلغ إلى هذا الحد حمى وطيس استجفاره ، وختم حزبه باستغفاره ، ثم صمت
ملياً ، واستعاد كلاماً أولياً .

ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين - سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته !
وعصمك من الزمان وآفته ! - أنك في مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك
والأصل ، في طائفة من عز الله تعالى تذبُّ عنك حُماها ، وتدافع عن حوزتك
كلماتها ، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل ترضى منه بضاعة ، أو يهجم بك
رضاك على بضاعة ، ولتكن قدرتك وقفا على الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ،
واحكم بالسوية^(٣) ، واجنح بتديرك إلى حسن الروية^(٤) ، وخف أن تعبد بك أناتك
عن حزم تعين ، أو تستفزك العجلة في أمر لم يقين ، وأطع الحجة ما توجهت إليك ،
ولا تخفل بها إذا كانت عليك ، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك ، والحق أجدى
من نفرك ، ولا تردن النصيحة في وجه ، ولا تقابل عليها بنجّه ، فتمنعها إذا استدعيتها ،
وتحجب عنك إن استوعبتها ، ولا تستدعها من غير أهلها ، فيشغبك أولو الأغراض
بجهلها ، واحرص على أن لا ينقضى مجلس جلسته ، أو زمن اختلسته ، إلا وقد
أحرزت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه في معادك بفائدة ، ولا يزهذك في المال
كثرته ، فتقل في نفسك أثرته ، وقس الشاهد بالغائب ، واذكر وقوع ما لا يحتسب
من النوائب ، فالمال المصون ، أمنع الحصون ، ومن قل ماله ، قصرت آماله ،
وتهاون بيمينه شماله ، والملك إذ فقد خزينه ، أخنى على أهل الجدة التي تزينه ،

(١) الأجمة - بالتحريك - مسكن السباع ، والأسد الهصور : الشديد الوثبة
الذى يكسر فريسته .

(٢) هكذا ، ولها وجه وجيه ، ولو كانت « ووسم بالبله » لكان أظرف .

(٣) احكم بالسوية : بالعدل (٤) الروية : التروى في الأمر والثبات .

وعاد على رعيته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساء معتاد عيشه ، وصغر في عيون جيشه ، ومثّوا عليه بنصره ، وأنفوا من الاقتصار على قصره ، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه ، وتربط آمال أهل السلاح به ، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة^(١) إلى خلافه ، فتجتمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه ، واستأنس بحسن جوارها ، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها ، فإن فَضَلَ المَالُ عن الأجل فَأَجَلَ^(٢) ، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عز وجل ، وما ينفق في سبيل الشريعة ، وسد الذريعة ، مأمول خَلْفَهُ ، وما سواه فتمتّع به ، واستخلص لنواديك الغاصة ، ومجاسك العامة والخاصة ، من يليق بولوج عَتَبِهَا ، والعروج^(٣) لرتبها ، أما العامية فمن عظم عند الناس قدره ، وانشرح بالعلم صدره ، أوظهر يساره ، وكان لله تعالى إخبائته وانكساره ، ومن كان للفتيا منتصبا ، وبتاج المشورة معتصبا ، وأما الخاصة فمن رَقَّتْ طباعه ، وامتمد فيما يليق بتلك المجالس باعه ، ومن تبحر في سير الحكماء ، وأخلاق الكرماء ، ومن له فضل سافر ، وطبع للدنية منافر ، ولديه من كل ما تستتر به الملوكة من العوام حظ وافر ، وصف ألبابهم بمحصول خيرك ، وسكن قلوبهم بئمن طيرك ، وأغْنِيَهُمْ ما قدرت عن غيرك .

واعلم بأن مواقع العلماء من ملسكك مواقع المشاغل المتألفة^(٤) ، والمصاييح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الأشياء ، وفرغها لتعجير ما يزين مدتك ، ويحسن من بعد البلاء جدتك ، وبعناية الأواخر ذكرت الأول ، وإذا محيت المغاخر خربت الدول .

واعلم أن بقاء الذكر مشروط بعارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان ، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلَكَ ، ويحجز المزية على من قبلك ،

(١) الذريعة : الوسيلة . (٢) أجل : أعظم ، أفعّل تفضيل من الجلالة .

(٣) العروج : الصعود . (٤) المتألفة : المضيفة .

وأن خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهر ، ويبدل الإنصاف في السر والجر ، مع المنسكن من المال والظَّهر ، ويسار الرعية جمال الملك وشرف ، وفاقهم من ذلك طرف ، فغلب أليق الحالين بمحكك ، وأولاهما بظمنك وحلك^(١) .

واعلم أن كرامة الجور دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة ، والعلبة بالخير سيادة ، وبالشر هَوَاة ، واعلم أن حسن القيام بالشرعية يحسم عنك نكاية الخوارج ، ويسمو بك إلى المعارج ، فإنها تقصد أنواع الخدع ، وتورى بتغيير البدع ، وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء ، وأسنة اللفيف من الضعفاء ، وأستشعر عند نكته شعار الوفاء .

ولتكن ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تنجدها ، فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تكتسب ، ويمهد لك مع الأوقات نصرا لا يحتسب وألتمس أبداً سلم من سالمك بنفس ما في يدك ، وفَضْل حاصل يومك على مُنتظر غذك ، فإن أبى وضحت محجتك ، وقامت عليه للناس بذلك حججتك ، فللنفوس على الباغين ميل ، ولها من جانبه نيل ، واستهدف في كل يوم سيرة^(٢) من يناويك ، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك ، وأكذب بالخير ما يشيعه من من مساويك ، ولا تقبل من الإطراء^(٣) إلا ما كان فيك فضل عن إطائته ، وجد يزري على بطالته ، ولا تلق المذنب بحميتك وسببك ، واذكر عند حركة الغضب ذنوبك إلى ربك ، ولا تنس أن رب المذنب أجلسك مجلس الفصل ، وجعل في قبضتك ريش النصل ، وتشاغل في هدنة الأيام بالاستعداد ، واعلم أن التراخي منذر بالاستعداد ، ولا تهمل عرض ديوانك ، واختبار أعوانك ، وتحصين معاقلك وقلاعك ، وعمَّ إياتك^(٤) بحسن اطلاعك ، ولا تشغل زمن الهدنة بلذاتك ،

(١) ظعنك : ارتحالك ، وحلك : إقامتك .

(٢) يناويك : يعاديك ، واستهدف سيرته : تعرف أخباره .

(٣) الإطراء : المديح . (٤) الإيالة : السياسة ، وأراد هنا البلاد التي تسوسها

فتجنى في الشدة على ذاتك ، ولا تطلق في دوائك السنة الكهانة والإرجاف ، ومطاردة الآمال العجاف^(١) ، فإنه يبعث سوء القول ، ويفتح باب العول ، وحذر على المدرسين والمتعلمين ، والعلماء والمتكلمين ، تحمل الأحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الواجبة ، فإنه يفسد طباعهم ، ويفرى سباعهم ، ويمد في مخالفة الملة باعهم ، وسد سبيل الشفاعات فإنها تفسد عليك حسن الاختيار ، ونفوس الخيار ، وابدل في الأسرى من حسن ملكتك ما يرضى من ملكك رقابها ، وقلدك ثوابها وعقابها ، وتأنق بدء نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتذالك ، واختم اليوم بمثل ذلك .

واعلم أنك مع كثرة حجابك ، وكثافة^(٢) حجابك ، بمنزلة الظاهر للعيون ، المطالب بالديون ، لشدة البحث عن أمورك ، وتعرف السر الخفي بين أسرك ومأمورك ، فاعمل في سررك مالا تستقبح أن يكون ظاهرا ، ولا تأنف أن تكون به مجاهرا ، وأحكيم برّيك في الله وتحتك ، وخف من فوقك يخف من تحتك ، واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسن قرّضه ، أوزادت مؤنته على نصيبه منك وفرّضه ، فأصمت اللجج ، وتوقّ اللجج^(٣) ، واسترب بالأمل ، ولا يحملنك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل ، ولا تحقرن صغير الفساد ، فيأخذ في الاستئساد ، واحبس الألسنة عن التخالي باغتيالك ، والنشبت بأذيال ثيابك ، فإن سوء الطاعة ينتقل من الأعين الباصرة ، إلى الألسن القاصرة ، ثم إلى الأيدي المتناصرة ، ولا تثق بنفسك في قتال عدو ناواك ، حتى تظفر بمدو غضبك وهواك ، وليكن خوفك من سوء تدبيرك ، أكثر من عدوك الساعى في تبيرك^(٤) ، وإذا استنزلت ناجما ، أوأمنت نائرا هاجما ، فلا تقلده البلد الذي فيه نجم^(٥) ، وهى عارضه فيه

(١) العجاف : الهزيمة الضعيفة . (٢) كثافة حجابك : غلظه .

(٣) توق اللجج : تحفظ من الاسترسال في الجدل .

(٤) تبيرك : إهلاكك . (٥) نجم : ظهر .

وانسجم^(١)، يعظم عليك القدح في اختيارك ، والغض^(٢) من إشارك ، واحترز من كيده في حوارك ومأمك ، فإنك أ كبرهمه وليس بأ كبر همك ، وجَلِّ الملكة بنأمين الفلوات^(٣) ، وتسهيل الأقوات ، وتجديد ما يتعامل من الصرف في البياعات ، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات ، ولا تبخس عِيار قيم البضاعات ، ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة^(٤) ، وفي احترامها إلا عن الثلاثة مأجورة : مال مَنْ عدا طوره طورَ أهله ، وتخارق في الملابس والزينة ، وفضول المدينة ، يروم معارضتك بحمله ، وَمَنْ باطنَ أعداك ، وأمنَ اعتدَاك ؛ وَمَنْ أساء جوار رعيتك بإحساره ، وبذل الأذية فيهم بيمينه ويساره ، وأضرَّ مأمْنيتَ به التعادى بين عبدانك ، أو في بلد من بلدانك ، فسُدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسباب ، وانقلهم بوساطة أولى الألباب ، إلى حالة الأخباب ، ولا تطوق الأعلام أطواق المنون ، بهواجس الظنون ، فهو أمر لا يقف عند حد ، ولا ينتهى إلى عد ، واجمل ولدك في احتراستك ، حتى لا يطمع في افتراستك .

ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف ، وعموده يريد أن ينتصف ، ومجال الوصايا أكثر مما يصف ، قال : يا أُمير المؤمنين ، بحر السياسة زاخر ، وعمر الممتع بناديك مستأخر ، فإن أذنتَ في فن من فنون الأنس يجذب بالثقَاد ، إلى راحة الرقاد ، ويعتق النفس بقدرة ذى الجلال ، من ملكة السكَّال^(٥) .

فقال : أما والله قد استحسنا ما سردت ، فشأنك وما أردت .

فاستدعى عودا فأصلحه حتى حمده ، وأبعد في اختباره أمدّه ، ثم حركَ به ، وأطال المجلس ثمه ، ثم تنهى بصوت يستدعى الإنصات ، ويصدع الحصاة^(٦) ، ويستفز

(١) العارض : أصله السحاب ، وأراد ههنا المطر ، وهمى وانسجم : معنى كل منهما انصب ماؤه وتوالى سيلانه . (٢) الغض : الانتقاص (٣) الفلوات : الصحارى (٤) محجورة : ممنوعة (٥) السكَّال : التعب والإعياء (٦) الحصاة ، هنا : القلب

الحليم عن وقاره ، ويستوقف الطير ورزقُ بنيه في منقاره ، وقال :

صاح ما أعطرَ القبولَ بِنَمَةٍ أتراها أطالت اللبثَ نَمَهُ (١)

هي دار الهوى مُنَى النفس فيها أبد الدهر والأمانى جَمَهُ (٢)

إن يكن ما تأرجج الجوّ منها وأستفاد الشذا وإلا فَمَمَهُ (٣)

مَنْ لطرفي بنظرة ولا نفى في رباها وفي ثراها بشَمَهُ

ذكر العهد فانتفضت كأني طرقتني من الملائك لمهُ

وطن قد نصّيتُ فيه شبابا لم تُدَنِّسْ منه البرودَ مَدَمَهُ

بِنَتْ عنه والنفس من أجل من قد خلفته خِلاله مغتَمَهُ

كان حلما فويح من أمل الدهر وأعماء جَهْلُهُ وأصمَهُ

تأملُ العيش بعد أن خلق الجسم وبنائه عسير المَرَمَهُ ؟

وغدت وَفَرَةُ الشبيبة بالشيب على رغم أنفها مغتَمَهُ

فقد فاز سالك جعل الله إلى الله قصده ومأمَهُ

من يَبِتْ من غرور دنيا بهمٍ يلدغ القلب أ كَثَرَ الله همَهُ

ثم أحال اللحن إلى لون التنويم ، فأخذ كل في النعاس والتهويم ، وأطال الجس

في الثقل ، عاكفا عكوف الضاحي في المقيّل ، فخط عيون القوم ، بخيوط النوم ،

وعمر بهم المراقد ، كأنما أدار عليهم الفراقد ، ثم انصرف ، فاعلم به أحد

ولا عرف ، ولما أفاق الرشيد جدّ في طلبه ، فلم يعلم بمُنْقَلَبِهِ ، فأسف للفراق ، وأمر

بتخليد حِكْمِهِ في بطوق الأوراق ، فهي إلى اليوم تتلى وتنقل ، وتجلّي القلوب بها

وتصقل ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

وقال في « الإحاطة » بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته : فهذا ما حضر من

(١) اللبث : الإقامة ، وثمة : أي هناك . (٢) جمّة : كثيرة .

(٣) تأرجج : تعطر ، والشذا : طيب الرائحة ، وممّه : أي من أي شيء يكون

إن لم يكن منها .

المنثور وحظه عندى من الإجابة ضعيف ، وغرضه كما شاء الله تعالى سخي ،
لكن الله سبحانه بعباده لطيف ، انتهى .

نماذج قصار من نثر لسان الدين وما علق بحفظى من نثره قوله فى تحليته لبعض أهل زمانه : هو إمام الفقه ،
وعين أعيان هذه المائة .

وقوله فى وصف فاس : نعم العرين^(١) ، لأسود بنى مَرَيْن ، ذات المشاهد التى
منها مطرح الجنة ومسجد الصابرين :

بلد أعارته الحمامة طَوْقَهَا وكساه ريشَ جناحه الطاوسُ

فكأُتَمَّ الأُشْهُارُ فيه مدامه وكأُنْ سَاحَاتِ الدِّيارِ كُؤُسُ

جمعت ما ولد سام وحام ، وكثرة الالتئام والالتحام ، واشتد الزحام ، إلى أن قال :
يلقى الرجل أبا مثواه^(٢) فلا يدعوه لبيته ، ولا يُطْعِمُهُ من بَقْلِهِ وزيته ، ولا يطرق
الضيف حَمَامَ ، ولا يعرف اسمهم ولا مساهم ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وقليل مأم .

وقوله فى وصف مرا كش المحروسة : ذات المقاصر والقصور ، ومأوى الليث
المَهْصُور^(٣) ، ومسكن الناصر والمنصور ، إلى أن قال : ومنارها فى الفَلَاةِ ، بمنزلة وَالِيِ
الولاية . ثم قال بعد كلام : إلا أن خرابها هائل ، وزحامها حرب وائل ،
وعقاربها كثيرة الديب ، منفصة لمضاجعة الحبيب ، انتهى ما كتبت من حفظى
لطول العهد .

وقال رحمه الله تعالى فى وصف مدينة بَسْطَةَ من كلام لم يحضرنى جميعه
الآن : محل خصيب ، ومنزل رحيب ، وكفأها مسجد الجنة دليلا على البركة وباب

(١) العرين : مسكن الأسود .

(٢) أبا مثواه : مضيفه ، وحرفيته صاحب محل إقامته .

(٣) الليث المهصور : السبع الشديد الوثبة على فريسته .

المسك دليلاً على الطيب ، ولها من اسمها نصيب ، إذ هي بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام ، انتهى .

وصف بسطة
للقصادي

ولما أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القلصادي في رحلته قال : سقى الله تعالى أرجاءها المشرقة ، وأغصانها المورقة ، شأيب^(١) الإحسان ، ومهداها بالهدنة والأمان ، دار تحجل منها الدور ، وتتقاصر عنها القصور ، وتقر لها بالقصور ، مع ما حوته من المحاسن والفضائل ، من صحة أجسام أهلها وما طبعوا عليه من كرم الشئائل ، وحسبك فيها من عدم الحرج ، أن داخلها باب الفرج ، ثم قال : والله در القائل :

دار مشى الإتقان في تنجيدها حتى تناسب روضها و بناؤه

مرقومة الجنبات ذات قرارة يمتد قدام العيون فضاؤها

مازال يضحك دائماً نوارها في وجه ساحته ويلعب ماؤها

لابن الأزرق
في وصف
بسطة

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله بن الأزرق :

في بسطة حيث الأباطح مُشرِّقه أضحت جفوني بالحاسن مغلقه

وله أيضاً في تورية :

قل لمن رام النوى عن وطن قوله ليس بها من حرج

فرج هم بسكنى بسطة إن في بسطة باب الفرج

رجع

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان

من نثر
لسان الدين إلى
السلطان على
لسان جدته

جدته ، وهو :

إلى قرة أعيننا وأعين المؤمنين ، وفلذة^(٢) كبدنا الذي نصل للقائه الحنين بالحنين ،

(١) الشأيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من ماء المطر .

(٢) الفلذة — بالكسر — القطعة .

وعزنا الذى حللنا من كنفه بالحرم الأمين ، وسترنا الذى خلفنا رضاه من أفقده
 الدهر من كرم البنين ، ووارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين ، أمير المسلمين الأسعد
 المؤيد الموفق الطاهر البر الرحيم الأرضى الكافل الفاضل حفيدنا محمد بن ولدنا
 الرضى وواحدنا الكريم الحفى السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الظاهر
 المقدس ، جعل الله تعالى من عصمته لزيما يرافقه ! وأجرى القدر بما يوافقه ! وحفظ
 عليه الكمال الذى تناسب فيه خلقه وخلاته ! والبر الذى حسنت فيه طرقه
 وطرائقه !

من المستظلة بظلال رضاه وبره ، المبتهلة إلى الله تعالى فى عز نصره وسعادة
 أمره ، الداعية إلى الله تعالى أن يسترها فى الحياة وما بعدها بستره ، وما يفضل عمرها
 من عمره ، جدته الثاقبة إليه ، كتبته من كنفه العزيز بحمرائه العلية عن الخير
 الدائم بدوامه ، واليسر الملائم ببركة أيامه ، ولا زائد بفضل الله تعالى إلا الشوق
 إليه ، وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه ، وتجهيز مواكب الدعاء المقبول
 من خلفه ومن بين يديه .

وقد وصل كتابه العزيز الوفاة والوصول ، الكريم الجمل والفصول ،
 مطلع وجه السرور والجلد^(١) ، ومُهدى قصي الأمل^(٢) ، ومجدد العهد بحديثه الذى
 فى ضمنه شفاء الغلل وبرء العلل ، مُهديا تحفة عافيته وهى الهدية التى جَلَّتْ عن
 المكافاة ، وترفعت عن المجازاة ، إنما يجازى عليها مَنْ يصل بفضلها عادتها ، ويؤالى
 بعد الإبداء بإعادتها ، ووصفتم يا ولدى ما عرفتم من نعم الله تعالى التى انثالت عليكم
 سَحَابُهَا ، وعنايته التى يلقى ركابكم تسهالها وترحابها ، واستبشار الجهات بقدمكم
 الميمون ، واجتلاء وجهكم الذى فيه للاسلام قرة العيون ، وكيف لا يكون ذلك

(١) الجلد — بالتحريك — السرور .

(٢) قصي الأمل : بعيدة .

وأتم ذخرم العزيز ، وحرزهم الحريز^(١) ، والنذرة التي خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز ، في أيامكم والحمد لله نامت أجفانهم ، وتكيف أمانهم ، نسأل الله تعالى أن يديم لنا ولهم نعمة بقائكم ، ويُعلي الدين بعلوكم في معارج العز وارتقائكم ، فقابلنا ما قرره سلطانكم بالحمد والثناء ، والشكر المتصل على الآناء ، ومحضتكم من خالص الدعاء ، ما يتكفل لكم بالحسن وما وعد الله تعالى من نيل الرجاء ، وتمهيد الأرجاء ، وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء ، بنعم الله تعالى المُؤدِّقة والآلاء ، ونسأل من فضلكم وبركم صلة التعريف بمثل هذه الأخبار السارة والأنباء ، وإتحافنا بمثلها مع الصباح والمساء ، وإن كان مجدكم غنيا عن الشبه لمثل هذه الأشياء ، أدام الله تعالى لكم أسباب البقاء ، وكان لكم في كل حال ، من إقامة وارتحال ، بعزة وجهه وقدرته ، انتهى .

ويرحم الله تعالى لسان الدين بن الخطيب ، فإنه يمر في كل مقام بما يليق ، فتارة يترقى في أدراج البراعة ، وطوراً يهتك عنان البراعة .

وأما شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية في الحسن ، وقد قدمنا في هذا الكتاب منه نبذة في أثناء نثره وكلامه الذي جلبناه ، وفي مواضع غيرها ، جملة مفيدة من شعره رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصه : الشعر - ولنثبت جملة من مطولانه ، ونقله^(٢) بشيء من مقتوعاته ، ونقدم من المطولات أمداح رسول الله صلى الله عليه وسلم تبركا بها ، فمن ذلك قولي :

هل كنت تعلم في هبوب الريح نفساً يُوجِّجُ لاعج التبريح^(٣)
أهدتك من شيخ الحجاز تحية فاحت لها عَرْضَ الفجاج الفيح^(٤)

من شعر
لسان الدين في
مدح الرسول
صلى الله عليه
وسلم

(١) الحريز : المنيع الذي لا يستطيع الوصول إليه

(٢) نثله : نتبعه (٣) يُوجِّجُ : يوقد ويشعل ويلهب

(٤) الفيح : الواسعة ، واحدها أفيح ، أو فيحاء

بالله قل لى كيف نيران الهوى ما بين ريح فى القلاة وشيح^(١)
 وخضبية المنقار تحسب أنها نهات بمورد دمعى المسفوح^(٢)
 باحت بما تخفى وناحت فى الدجى فرأيت فى الآماق دَعْوَةَ نوح
 نطقت بما يخفيه قلبى أدمعى ولطالما صمتت عن التصريح
 عجباً لأجفانى حمان شهادة عن خافت بين الضلوع جريح
 ولعلها كتبت رُؤاة مدامعى فى صفحتها حلية التجريح
 جاد الحمى بعدى وأجراع الحمى جَوْدٌ تكلُّ به متون الريح^(٣)
 هن المنازل ، ما فؤادى بعدها سالٍ ، ولا وجدى بها بمرج
 حسبى ولوعاً أن أزور بفسكرتى زوارها والجسم رهن نزوح
 فأبث فيها من حديث صباقتى وأحث فيها من جناح جنوحى
 ودُجْنَةٌ كادت تضل بها السرى لولا وَمِيضاً بارقٍ وصفيح^(٤)
 رعشت كواكب جوها فكأنها وَرِقٌ تقلبها بنانٌ شَجِيح
 صابرت منها لجة مهما ارتمت وطمت رميت عُبابها بسُبُوح
 حتى إذا الكف الخضيب بأفقها مسحت بوجه للصباح صَبِيح
 شمت المنى وحمدت إدلاج السرى وزجرت للأمال كل سَنِيح
 فكأنما لبللى نسيبٌ قصيدتى والصبح فيه تخلصى لمديح
 لما حَطَطْتُ لخير من وطىء النرى بعنان كل مولدٍ وصريح
 رحى إله العرش بين عباده وأمينه الأرضى على ما يوحى
 والآية الكبرى التى أنوارها ضاءت أشعتها بصفحة يُوح
 رب المقال الصدق والآى التى راقت بها أوراق كل صحیح

(١) الشيخ - بكسر الشين - من نبات البادية

(٢) الدمع المسفوح : المنصب المنسكب ، وجعله أحمر كالدم

(٣) الجود - بالفتح - المطر الكثير ، وتكل به متون الريح : تضعف عن حملها

(٤) الوميض : الدعان ، والبارق : البرق ، والصفيح : السيوف

كهف الأنام إذا تفاقم مُفضِل
يردون منه على مثابة راحم
لهفى على عُمر مضى أنضيته
يا زاجرَ الوجناء يعتسف الفلا
يَصِلُ السرى سبقا إلى خير الورى
لى فى حى ذاك الضريح لبانة
وبمهبط الروح الأمين أمانة
يا صفوة الله المسكين مكانه
أقرضت فيك الله صدق محبى
حاشا وكلا أن تخيب وسائلى
إن عاق عنك قبيحُ ما كسبت يدى
واخجأتى من حلبة الفكر التى
قصرت خطاها بعد ما ضمرتها
مدَحَّتْكَ آيات الكتاب فمأسى
وإذا كتابُ الله أثنى مفصحا
صلى عليك الله ما هبت صبا
واستأثر الرحمن جل جلاله
عن خلقه بخفى سر الروح

مَثَلُوا بِسَاحَةِ بَابِهِ الْمَفْتُوحِ (١)
جَمَّ الْهَبَاتِ عَنِ الذُّنُوبِ صَفُوحِ
فِي مَلْعَبٍ لِلتَّرَهَاتِ فَسِيحِ (٢)
وَاللَّيْلِ يَعْتَرِ فِي فَضُولِ مُسُوحِ
وَالرَّكْبِ بَيْنَ مُوسَّدِ وَطَرِيحِ
إِنْ أَصْبَحْتَ لُبْنَى أَنَا ابْنُ ذَرِيحِ (٣)
الْيَمِينِ فِيهَا وَالْأَمَانِ لِرُوحِ
يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ وَخَيْرَ نَصِيحِ
أَيَكُونُ تَجَرَّى فِيكَ غَيْرَ رِيحِ
أَوْ أَنْ أَرَى مَسْعَاىَ غَيْرَ نَجِيحِ
يَوْمَا فُوجَهُ الْعَفْوُ غَيْرَ قَبِيحِ
أَغْرَيْتَهَا بِغَرَامَى الْمَشْرُوحِ
مِنْ كُلِّ مَوْفُورِ الْجَامِ جُحُوحِ
يُثْنِ عَلَى عَلَيْكَ نَظْمَ مَدِيحِ
كَانَ الْقُصُورُ قِصَارَ كُلِّ فَصِيحِ
فَهَفْتُ بَغْضَنَ فِي الرِّيَاضِ مَرُوحِ
عَنْ خَلْقِهِ بِخَفَى سِرِّ الرُّوحِ

وأنشدت السلطان مَلِكَ المغرب ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبع مائة قصيدة له فى هذه القصيدة :

تَأْتِى تَجْدِيًّا فَأَذْكَرْنِي نَجْدًا وَهَاجَ بَى الشَّوْقِ الْمَبْرَحَ وَالْوَجْدَا

(١) كهف الأنام : ملجؤهم الذى يأوون إليه ، والمفضل : الأمر الذى يصعب احتماله

(٢) أنضيته : أبليته ، والترهات : الأباطيل

(٣) لبنى - بضم اللام وسكون الباء - اسم معشوقة قيس بن ذريح

وَمِضُ رَأْيٍ بُرْدُ الْغَمَامَةِ مُغْفَلًا فَمَدَّ يَدَا بَالْتَبَرِ أَعْلَمْتَ الْبَرْدَا
تَبَسَّمَ فِي بَحْرِيَّةٍ قَدْ تَجَهَّمَتْ فَمَا بَذَلَتْ وَصَلَا وَلَا ضَرَبَتْ وَعَدَا
وَرَاوَدَ مِنْهَا فَارِكًا قَدْ تَنَعَّمَتْ فَأَهْوَى لَهَا نَصْلًا وَهَدَّهَا رَعْدَا
وَأَغْرَى بِهَا كَفَ الْغَلَابِ فَأَصْبَحَتْ ذُلُولًا وَلَمْ تَسْطِعْ لِأَمْرِهِ رَدَا
فَحَلَّتْهَا الْحَمَاءُ مِنْ شَفَقِ الضَّحَى نَضَّاهَا وَحَلَّ الْمَزْنُ مِنْ جِيدِهَا عَقْدَا
لَكَ اللَّهُ مِنْ بَرْقٍ كَأَنَّ وَمِضْهُ يَدُ السَّاهِرِ الْمَقْرُورِ قَدْ قَدَحَتْ زَنْدَا
تَعْلَمُ مِنْ سَكَانِهِ شَيْمِ الْوَدَى فَغَادِرَ أَجْرَاعِ الْحَمَى رَوْضَةَ تَنْدَى
وَتَوَجَّ مِنْ نَوَارِهَا قَنَنِ الرَّبَا وَخَتَّمَ مِنْ أَزْهَارِهَا الْقُضْبَ الْمُلْدَا^(١)
لِسُرْعَانِ مَا كَانَتْ مَنَاسِفَ لِلصَّبَا فَقَدْ ضَحَكَتْ زَهْرًا وَقَدْ خَجَلَتْ وَرَدَا
بِلَادِ عَهْدِنَا فِي قَرَارَتِهَا الصَّبَا يَقُولُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَنْ يَأْلَفَ الْعَهْدَا
إِذَا مَا النَّسِيمُ اعْتَلَّ فِي عَرَصَاتِهَا تَنَاولَ فِيهَا الْبَانُ وَالشَّيْخُ وَالزَّنْدَا
فَكَمْ فِي مَجَانِي وَرَدِهَا مِنْ عِلَاقَةٍ إِذَا مَا اسْتَشِيرَتْ أَرْضَهَا أَنْبَتَتْ وَجَدَا
إِذَا اسْتَشَعَرَتْهَا النَّفْسُ عَاهَدَتْ الْجَوَى إِذَا التَّمَحَّتْهَا الْعَيْنُ عَاقَدَتْ السَّهْدَا
وَمَنْ عَاشَقَ حَرَّ إِذَا مَا اسْتَمَالَه حَدِيثُ الْهَوَى الْعَذْرَى صِيرَهُ عَبْدَا
وَمَنْ ذَابَلَ يَحْكِي الْحَبِينِ رَقَّةً فَيُثْنِي إِذَا مَا هَبَّ عَرَفُ الصَّبَا قَدَا
سَقَى اللَّهُ نَجْدًا مَا نَضَحَتْ بِذِكْرِهَا عَلَى كَبْدَى إِلَّا وَجَدَتْ لَهَا بَرْدَا
وَأَنَسَ قَلْبِي فَهُوَ لِلْعَهْدِ حَافِظُ وَقَوْلًا عَلَى الْأَيَّامِ مَنْ يَحْفَظُ الْعَهْدَا
صَبُورٍ وَإِنْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا ذِبَالَةٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْ مَسْرَى الصَّبَا اسْتَعْلَتْ وَقَدَا
صَبُورٍ إِذَا الشُّوقُ اسْتَجَادَ كَتِيبَةً تَجْوَسُ خِلَالَ الصَّبْرِ كَانَ لَهَا بَنْدَا
وَقَدْ كُنْتُ جَلْدًا أَقْبَلَ أَنْ يُذْهَبَ النَّوَى ذِمَّائِي وَأَنْ يَسْتَأْصِلَ الْعِظْمُ وَالْجُلْدَا

(١) القنن ، جمع قنة ، وهى فى الأصل أعلى مكان فى الجبل ، كالقلفة ، وأراد هنا المرتفعات ، والقضب : جمع قضيب ، وهو الغصن ، والملد : جمع أملد ، وهو الناعم الغض

أأجحد حق الحب والدمع شاهد
تسائر في إثر الحُمُول فريده
جری يَقَقًا في ملعب الخلد أشهبها
ومرتحل أجريت دمعى خلفه
وقلت لقلبي طِرْ إليه برقمتي
سُرقت صُواع الزم يوم فراقه
وكَلْتُ عيني من غبار طريقه
إلى الله كم أهدى بنجد وحاجر
وما هو إلا الشوق ثار كينئه
وما بى إلا أن سرى الركب موهناً
وجاشت جنود الصبر والبين والأسى
ورُمْتُ نهوضاً واعتزمت مودعا
رقيق بدت للمشترين عيوبه
تخلف عني ركب طيبة عانيا
مخلف سربى قد أصيب جناحه
نشدتك يا ركب الحجاز تضاءلت
وجمَّ لك المرعى وأذعنت الصَّوَى
إذا أنت شافهت الديار بطيبة
وآنست نورا من جناب محمد
فَنَبُّ عن بعيد الدار في ذلك الحمى

وقد وقع التسجيل من بعد ما أدى
فَلله عينا من رأى الجوهر القردا^(١)
وأجهد رخص الأسى فجری وَرَدًا^(٢)
ليرجعه فاستنَّ في إثره قصدا
فكان حماما في المسير بها هدا
فلج ولم يرقب سَوَاعا ولا وُدًا
فأعقبها دمعاً وأورثها سهدا
وأكنى بدعد في غرامى أوسعدي
فأذهل نفسا لم تبين عنده قصدا
وأعمل في رمل الحمى النصَّ والوَخْدَا
لدى فكان الصبر أضعفها جندا
فصدنى المقدور عن وجهتى صدًا
ولم تلتفت دعواه فاستوجب الردا
أما آن للعانى المعنى بأن يُفدى
وطرن فلم يسطع مَرَّاحا ولا مغدى
لك الأرض مهما استعرض السهب وامتدا
ولم تفتقد ظلا ظليلا ولا وردا
وجئت بها القبر المقدس واللحدا
يحلى القلوب الغاف والأعين الرمدا
وأذريه دمعاً وغفرَّ به خـدا

(١) الحمول : أراد أحبابه الذين شدوا رحالهم للظعن ، والفريد أصله الدر ، استعاره
لنعمه ، وأكد هذه الاستعارة بما ذكره في عجز البيت
(٢) يققا : يريد أبيض ، وجرى وردا : يريد أحمر

وقل يا رسول الله عبد تقاصرت
 ولم يستطع من بعد ما بعد المدى
 تداركُهُ يا غوث العباد برحمة
 أجاز بك الله العباد من الردى
 حمى دينك الدنيا وأقطعك الرضا
 وطهر منك القلب لما استخصه
 دعاه فما ولى ، هداه فما غوى
 تقدمت مختاراً تأخرت مبعثاً
 وعلة هذا الكون أنت ، وكل ما
 وهل هو إلا مظهر أنت سره
 ففي عالم الأسرار ذاتك تجتلى
 وفي عالم الحس اغتديت مبوأ
 فما كنت لولا أن ثبت هداية
 فماذا عسى يثنى عليك مُقَصِّر
 بماذا عسى يميز بك هاوٍ على شفى
 عليك صلاة الله يا كاشف العمى
 إلى كم أرانى فى البطالة كانعا
 تقضى زمانى فى لعل وفى عسى
 حسام جبان كلما شيم نصله
 ألا ليت شعرى هل أرانى ناهداً

خطاه وأضحى من أحبته فرداً
 سوى لوعة تعتاد أو مدحة تهذى
 فجودك ما أجدى وكفك ما أندى^(١)
 وبوأهم ظلاً من الأمن ممتداً
 وتوجك العليا وأبسك الحمداً
 فجعله نوراً وأوسع رشداً
 سقاها فما يظلم ، جلاه فما يصدأ
 فقد شملت علياؤك القبل والبعداً
 أعاد فأنت القصد فيه وما أبداً
 ليمتاز فى الخلق المسكب من الأهدى
 ملامح نور لاح للطور فاهداً
 لتشفى من استشفى وتهدى من استهدى
 من الله مثل الخلق رسماً ولا حداً
 ولم يأل فيك الذكر مدحاً ولا حمداً
 من النار قد أوردته بعدها الخلدأ
 ومذهب ليل الروح وهو قد أربداً
 وعمرى قد ولى ، ووزرى قد عدأ
 فلا عزمة تمضى ولا لوعة تهداً
 تراجع بعد العزم والنزم الغمداً
 أقود القلاص البدن والضامر النهداً

(١) « ما » فى قوله « ما أجدى » وفى قوله « ما أندى » تعجبية ، وكأنه قال :
 جودك ما أشد نفعه ، وكفك ما أكثر نداها ! وجملة التعجب إنشائية ، ووقوع الجملة
 الإنشائية خبراً عن المبتدأ مما جوزه جمهور النحاة ، وخالف فيه ابن الأنبارى ، وهو محجوج

رضيع لبان الصدق فوق شِمْلَةٍ مُضْمَرَةٌ وَسَدَّتْ من كورها مهدياً^(١)
 فتهدى بأشواق السراة إذا سرت وتحدى بأشعارى الركاب إذا تُحْدَى
 إلى أن أخطأ الرجل في تربك الذى تَضَوَّعَ نَدَا ما رأينا له نَدَا
 وأطفئ في تلك الموارد غُلَّتْ وأخسبَ قَرَبًا مهجَةً شَكَتِ البعدا^(٢)
 لمولئك اهتز الوجود فأشرق قصور بيضرى ضاءت الهضب والوهدا
 ومن رعبه الأوثان خرَّت مهابة ومن هوله إيوان كسرى قد انهدا
 وغاض له الوادى وصبح عزه بيوتاً لنار القرس أعدمها الوقدا
 رعى الله منها ليلةً أطلع الهدى على الأرض من آفاقها القمر السعدا
 وأقرض ملكاً قام فينا بحتمها لقد أحرز الفخر المؤئل والمجدا
 وحياً على شط الخليج محلة يخالف من ينتابها العيشة الرغدا
 وجاد الغمام العِدُّ فيها خلائفاً ما تُرهم لا تعرف الحصر والعدا
 عليا وعثماناً ويعقوب ، لاعددا رضا الله ذاك النجل والأب والجددا
 حَمَوْا وَهُمْ في حومة البأس والندى فكانوا الغيوث المستهلة والأسدا
 والله ما قد خلفوا من خليفة حوى الإرث عنهم والوصية والعهدا
 إذا ما أراد الصعب أغرى بنيله صدور العوالى والمطمَّمة الجردا
 وكم معتدٍ أردى وكم تائه هدى وكم حكمة أخفى وكم نعمة أبدى
 أباسالم دينُ الإله بك اعتلى أباسالم ظلُّ الإله بك امتدا
 فدُم من دفاع الله تحت وقاية كفاك بها أن تسحب الخلق السردا
 ودونكها منى نتيجة فكرة إذا استرشت للنظم كانت صفأ صلا
 ولو تركت منى الليالى صباية لأجهدتها ركضاً وأرهقتها شدا

(١) شِمْلَةٌ - بكسر الشين والميم وتشديد اللام مفتوحة - الناقة السريعة ، والكور - بضم الكاف - الرجل ، يريد أنه جعل كورها مهدياً ينام عليه ، كنى بذلك عن أنه دائم السفر (٢) أحسب : أزيد ، من قولهم « أحسب فلان ماله » يريدون زاده ، وكثره ، و « قربا » مفعول ثانٍ مقدم ، و « مهجة » مفعول أول ، و « شكت البعدا » جملة في محل نصب صفة لمهجة ، يريد أزيد مهجتي التي تشكو البعاد قربا منك

ولكنه جَهْدُ المقل بلغتْهُ وقد أوضح الأعذار من بلغ الجهدا
وقلت أخطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عنان على أثر انصرافى من بابهِ
رحمه الله تعالى :

من
نظمه يخاطب
السلطان
أبا عنان

أَبْدَى لِدَاعِي التَّوَزَّ وَجْهَ مُنِيبٍ وَأَفَاقٍ مِنْ عَذَلٍ وَمِنْ تَأْنِيْبٍ^(١)
كَفِّ الْجَنَانِ إِذَا جَرَى ذِكْرُ الْحَى وَالْبَانِ حَنْ لَهُ حَنِينَ النَّيْبِ^(٢)
وَالنَّفْسُ لَا تَنْفِكُ تَكْلَفَ بَالِهَى وَالشَّيْبُ يَلْحَظُهَا بَعِينَ رَقِيبٍ
رَحَلَ الصَّبَا فَطَرَحَتْ فِي أَعْقَابِهِ مَا كَانَ مِنْ غَزَلٍ وَمِنْ تَشْيِيبِ
أَتَرَى التَّغَزَّلَ بَعْدَ أَنْ ظَنَّ الصَّبَا شَأْنِي الْغَدَاةَ أَوْ النَّسِيبَ نَسِيبِي
أَنْ لِمَثَلِي بِبَالِهَى مِنْ بَعْدِهَا لِلْوَحْطِ فِي الْفَوْدَيْنِ أَيْ دَيْبِ
لَبَسَ الْبِيَاضَ وَحَلَّ ذُرَّةَ مَنْبَرٍ مَنِ وَوَالِي الْوَعْظِ فِعْلَ خَطِيبِ
قَدْ كَانَ يَسْتَرْنِي ظِلَامُ شَيْبَتِي وَالْآنَ يَفْضَحْنِي صَبَاحُ مَشْيِي
وَإِذَا الْجَدِيدَانِ اسْتَجَدَّأ أَبْلِيَا مِنْ لِبْسَةِ الْأَعْمَارِ كُلِّ قَشِيبِ^(٣)
سَلَنِي عَنِ الدَّهْرِ اخْوَنَ وَأَهْلِهِ تَسَلَّ الْمَهْلَبَ عَنْ حُرُوبِ شَيْبِ^(٤)
مَتَقَلَّبَ الْحَالَاتِ فَاخْبُرْتُ قَلْبَهُ مَهْمَا أَعَدَتْ يَدَا إِلَى تَقْلِيْبِ
فَكُلَّ الْأُمُورِ إِذَا اعْتَرَتْكَ لَرْبَهَا مَاضِقَ لُطْفِ الرَّبِّ عَنْ مَرْبُوبِ
قَدْ يَنْجِبُ الْمَحْبُوبَ فِي مَكْرُوهِهَا مِنْ يَنْجِبُ الْمَكْرُوهَ فِي الْمَحْبُوبِ
وَاصْبِرْ عَلَى مَضَضِ اللَّيَالِي إِنْهَا لِحَوَامِلِ سِيلِدُنْ كُلِّ عَجِيبِ
وَاقْنَعْ بِحِظِّ لَمْ تَنْلَهُ بِحِمْلَةٍ مَا كُلَّ رَامٍ سَهْمُهُ بِمَصِيبِ
يَقَعُ الْحَرِيصُ عَلَى الرَّدَى وَلَسْكَمَ غَدَا تَرَكْ الْقَسْبَ أَنْفَعُ النَّسِيبِ
مَنْ رَامَ نَيْلَ الشَّيْءِ قَبْلَ أَوَانِهِ رَامَ انْتِقَالَ يَلْمُ وَعَسِيبِ

(١) وجه منيب : راجع عما كان عليه تائب من هفواته وذنوبه
(٢) النيب : جمع ناب ، وهو الناقة المسنة ، والإبل مضرب الأمثال في الحنين
إلى معاطنها ، وهم يقولون « فلان يحن إلى وطنه ، حنين الناب إلى عطنه »
(٣) القشيب : الجديد (٤) المهلب : أراد به ابن أبي صفرة الذي اشتهر بقتال
الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان ، وشيب : زعيم من زعماء الخوارج تسمى
بأمير المؤمنين

فإذا جعلت الصبر مفزعاً مُعْضِلٍ
وإذا استعنت على الزمان بفارس
بخليفة الله الذي في كفه
المنتقى من طينة المجد الذي
يرى الصعاب بصعبه فيقودها
ويرى الحقائق من وراء حجابها
من آل عبد الحق حيث توشحت
أسد الشرى سُرجُ الورى فقامهم
إمّا دعى الداعى وثوب صارخا
شهب ثواقب في سماء عجاجة
ما شئت في آفاقها من راح
عجت سيوفهم لشدة بأسهم
نظموا بلبّات العلا واستوسقوا
تروى العوالى والمعالي عنهم
من كل موثق به إسنادُه
فأبو عنان عن على نصّه
جاؤا كما انسَقَ الحساب أصالة
متجسداً من جوهر النور الذى
متألقا من مطاع الحق الذى
قل للزمان وقد تبسم ضاحكا

عاجلت علقته بطب طيب
لبي نداءك منه خير محجب
غيث يروض ساح كل جديب
ما كان يوما صِرْفُهُ بِمَشُوب^(١)
دُلّلاً على حسب الهوى المرغوب
لا فرق بين شهادة ومغيّب
شعبُ العلا وربّت بأى كتيب
لله بين محارب وحروب
ثابوا وأموا حَوَمَةَ التشوب
مأثورها قد صح بالتجريب
يبدو وكف بالنجيع خَضِيب^(٢)
فتبسمت والجو في تقطيب
كالرمح أنبوبا على أنبوب
أثر الندى المولود والمكسوب^(٣)
بالقطع أو بالوضع غير معيب
لنقل عن عثمان عن يعقوب
وغدوا فذالك ذلك المكتوب
لم تُرْمَ يوما شمسُه بغروب
هو نور أبصار وسر قلوب
من بعد طول تجهّم وقطوب

(١) الصرف - بالكسر - الخالص من كل شيء ، والمشوب : اسم المفعول من « شاب الشيء يشوبه شوبا » أى خلطه

(٢) النجيع : الدم (٣) فى ب « المولود والمكسوب » بتقديم السين - تحريف

هى دعوة الحق التى أوضاعها
 هى دعوة العدل الذى شمل الورى
 لو أن كسرى القُرس أدرك فارساً
 لما حلت بأرضه مستملياً
 شمل الرضا فكان كل أفاحة
 وأتيت فى بحر القرى أم القرى
 فرأيت أمن الله فى ظل التقى
 ورأيت سيف الله مطرور الشبا
 وشهدت نور الحق ليس بأقل
 ووردت بحر العلم يقذف موجه
 لله من شيم كأزهار الربا
 وجمال مرأى فى رداء مهابة
 يا جنة فارقت من غرفاتها
 أسفى على ما ضاع من حظى بها
 إن أشرقت شمس شرقت بعبرى
 حتى لقد علمت ساجدة الضحى
 وشهادة الإخلاص توجب رجعتى
 يا ناصر الدين الحنيف وأهله
 حقق ظنون بنيه فيك فإنهم
 ضاقت مذاهب نصرهم فتملقوا
 جمعت من الآثار كل غريب
 فالشاة لا تحشى اعتداء الذيب
 ألقى إليه بتاجه المعصوب^(١)
 ماشئت من بر ومن ترحيب
 تومى بثغر للسلام شَنِيب^(٢)
 حتى حططت بمرفأ التقريب
 والعدل تحت سرادق مضروب
 يمضى القضاء بحده المرهوب^(٣)
 والدين والدينى على ترتيب
 للناس من درر الهدى بضروب
 غبّ انثيال العارض المسكوب
 كالسيف مصقول القرندهيب
 دار القرار بما اقتضته ذوى
 لا تنقضى ترخاته ونحيمي
 وتفيض فى وقت الغروب غروى
 شجوى وجائحة الأصيل شحوى
 لنعيمها من غير مس لغوب
 إنضاء مسغبة وفلّ خطوب
 يتمللون بوعدك المرقوب
 بجناب عز من علاك رحيب

(١) فارس : هو أبوعنان

(٢) تومى : تشير ، وأصلها «تومى» بالهمز ، وشَنِيب : وصف من الشنب ، وهو

طيب رائحة القم (٣) المطرور : المحدد

وَدَجَا ظِلَامُ الْكَفْرِ فِي آفَاقِهِمْ أَوْلَيْسَ صَبْحُكَ مِنْهُمْ بِقَرِيبٍ؟^(١)
فَانْظُرْ بَعِينَ الْعِزِّ مِنْ ثَغْرِ غَدَا حَذَرَ الْعَدَا يَرْنُو بِطَرْفِ مُرِيبٍ
نَادَتْكَ أُنْدَلُسُ وَمَجْدُكَ ضَامِنٌ أَنْ لَا يَحْجِبَ لَدَيْكَ ذُو مَطْلُوبٍ
غَصَبَ الْعَدُوِّ بِلَادَهَا وَحَسَامِكَ الْمَاضِي الشَّبَا مُسْتَرْجِعُ الْمَقْصُوبِ
أَرْضُ السَّوَابِجِ فِي الْحِزْزِ حَقِيقَةٌ مِنْ كُلِّ قَعْدَةٍ مُحَرَّبٍ وَجَنِيبِ
يَتَأَوَّدُ الْأَسْلُ الْمُتَقَفُّ فَوْقَهَا وَتَحِيبُ صَاهِلَةٌ رِغَاءُ نَحِيبِ^(٢)
وَالنَّصْرُ يَضْحَكُ كُلَّ مَبْسَمِ غَرَّةٍ وَالْيَمِينُ مَعْقُودٌ بِكُلِّ سَبِيبِ
وَالرُّومُ فَارِضٌ بِكُلِّ نَجْمٍ ثَقَبَ يَذْكِي بَارُبُهُمْ أَشْوَاطَ لَهِيْبِ
بِذَوَابِلِ السَّلْبِ الَّتِي تَرَكْتَ بَنَى زِيَانُ بَيْنِ مَجْدَلٍ وَسَلِيبِ
وَأَضَفَ إِلَى لَامِ الْوَعْيِ أَلْفَ الْقَنَا تَظْهَرُ لَدَيْكَ عَلَامَةُ التَّغْلِيْبِ
إِنْ كُنْتَ تَعْجَمُ الْعِزَّائِمَ عَوْدَهَا عَوْدُ الصَّلِيبِ الْيَوْمَ غَيْرَ صَالِبِ
وَلَكِ السَّكَنَاتُ كَالْخِثَالِ أَطْلَعَتْ زَهْرُ الْأُسْنَةِ فَوْقَ كُلِّ قَضِيبِ
فَرَجَّحُ الْعُطْفَيْنِ لَا مِنْ نَشْوَةٍ وَمُورِدُ الْخُلْدَيْنِ غَيْرَ مُرِيبِ
يَبْدُو سِدَادُ الرَّأْيِ فِي رَايَاتِهَا وَأُمُورُهَا تَجْرِي عَلَى تَجْرِيْبِ
وَتَرَى الطُّيُورَ عَصَائِبًا مِنْ فَوْقِهَا لِحُلُولِ يَوْمٍ فِي الضَّلَالِ عَصِيبِ
هَذَبَتْهَا بِالْعَرَضِ يَذْكُرُ يَوْمَهُ عَرَضُ الْوَرَى لِلْمَوْعِدِ الْمَكْتُوبِ
وَهِيَ السَّكَنَاتُ إِنْ تَنَوَّسَى عَرْضَهَا كَانَتْ مَدُونَةٌ بِلَا تَهْذِيبِ
قَدَّمَتْ سَابِغَةَ الْعَدُوِّ وَبَعْدَهَا أُخْرَى بَعْزِ النَّصْرِ ذَاتَ وَجُوبِ
حَتَّى إِذَا فَرَضَ الْجَلَادُ جِدَالَهُ وَرَأَيْتَ رِيحَ النَّصْرِ ذَاتَ هُبُوبِ
وَإِنَّا تَوَسَّطَ وَصَلَ سَيْفُكَ عِنْدَهَا جُزْأَيَّ قِيَاسِكَ فَزَتْ بِالْمَطْلُوبِ

(١) أَخَذَ عَجَزَ هَذَا الْبَيْتِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصَّبْحُ، أَلَيْسَ الصَّبْحُ قَرِيبًا)

(٢) يَتَأَوَّدُ : يَتَشَّى ، وَالْأَسْلُ : أَرَادَ الرِّمَاحَ ، وَالْمُتَقَفُّ : الْمَقْصُومُ الْمَعْدِلُ ،
وَالصَّاهِلَةُ : الْحَيْلُ

وتبرأ الشيطان لما أن علا
الأرض إرث والمطامع جمّة
وخلائف التقوى هم ورائها
لكأنتى بك قد تركت ربوعها
واقمتَ فيها مأتما لكنه
وتركتَ مفلتها بقلب واجب
تبكى نوادبها وينقلن الخطا
جعل الإله البيت منك مثابة
فإذا ذكرت كأن هبات الصبا
لولا ارتباط الكون بالمعنى الذى
قلنا لعالمك الذى شرفته
ولأجل قطرك شمسها ونجومها
تبـدو بمطلع ألقها فضية
مولاي أشواق إليك تهزنى
بحلى علاك أطلنتها وأطبنتها
طالبت أفكارى بفرض بديها
متنبئ أنا فى حُلّى تلك العلا
والطبع فحل ، والقريحة حرة
هابت مقامك فاطنيت صعابها
لكننى سهلتها وأدلتها

حزب الهدى من حزبه المغلوب
كل يهش إلى التماس نصيب
فإليكها بالحظ والتعصيب
قفرأ بكر الفـزو والتعقيب
عرس لنسر بالقلاة وذيب
رهباً وخذ بالأسى مندوب^(١)
من شلو طاغية لشلو سليب
لعا كفين وأنت خير مثيب
فضت بمدرجها لطيمة طيب^(٢)
قصرَ الحجا عن سره المحجوب
حسد البسيط مزية التركيب
عدلت من التشريق للأغريب
وتغيب عندك وهى فى تذهيب
والنار تفضح عرّف عود الطيب
ولكم مطيل وهو غير مُطيب
فوفت بشرط الفور والترتيب
لكن شعرى فيك شعر حبيب^(٣)
فاقبله بين نجبية ونجيب
حتى غدت ذُللاً على التدريب
من كل وحشى بكل ريب

(١) قلب واجب : خافق مضطرب ، ومندوب : مجروح

(٢) فضت : فحنت ، ولطيمة الطيب : وعاؤه الذى يحفظ فيه

(٣) ورى بأبى الطيب المتنبي ، وبجيب بن أوس أبى تمام

إن كنت قد قاربت في تعديلها لا بد في التعديل من تقريب
عذرى لتقصيري وعجزى ناسخ ويحل منك العفو عن تثريب
من لم يدرك الله فيك بقربة هو من جناب الله غير قريب

ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب ، من نظمه وقد أعد السلطان أولاده
وتشتمل على أوصاف من ذكر الحلبة التي أرسلها ، والطلبة التي نصبها في الهواء
للفرسان يرسلون العصي إليها ، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها
في صورة القرط من آذانها ، وهي آخر النظم في الأغراض السلطانية ، قصر الله تعالى
السنتنا على ذكره ، وشغلها به عن غيره ! .

شَحَطْتُ وَفَوَّذُ اللَّيْلُ أَنَّ بِهِ الْوَحْطُ وَعَسَّكَرَهُ الزَّنْجِيُّ هَمَّ بِهِ الْقَبْطُ^(١)
أَنَاهُ وَلِيدُ الصَّبِيحِ مِنْ بَعْدِ كِبَرَةٍ أَيُولَدُ أَجْنَى نَاحِلُ الْجِسْمِ مَشْمُطُ^(٢)
كَأَنَّ النُّجُومَ الزَّهْرَ أَعْشَارَ سُورَةٍ وَمِنْ خَطَرَاتِ الرَّجْمِ أَثْنَاءَهَا مَطُ
وَقَدْ وَرَدَتْ نَهْرُ الْحَجَرَةِ سَحَرَةٍ غَوَائِصُ فِيهِ مِثْلُ مَا تَفْعَلُ الْبَطُ
وَقَدْ جَعَلَتْ تَنْتَلِي بِأَمْلِهَا الْفَلَا وَيُرْسِلُ مِنْهَا فِي غَدَائِرِهِ مَشْطُ
يَشْفُ عَابَابُ اللَّيْلِ عَنْهَا جَوَاهِرُ فَيَكْثُرُ فِيهَا النَّهْبُ لِلْحَيْنِ وَاللَّقَطُ
فَسَارَتْ خَيَالًا مِثْلَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ الْبَثِّ وَالشُّكُوى يَبِينُ لَهُ لَغَطُ
سَرَّتْ سَلَاخُ شَهْرِ فِي تَلَقَّتْ مَقَلَةً عَلَى قَتَبِ الْأَحْلَامِ تَسْمُو وَتَنْحَطُ
لِي اللَّهِ مِنْ نَفْسِ شَعَاعٍ وَمَهْجَةٍ إِذَا قَدَحَتْ لَمْ يَخْبُ مِنْ زَنْدِهَا سَقَطُ
وَنَقْطَةُ قَلْبٍ أَصْبَحَتْ مَنْشَأَ الْهَوَى وَعَنْ نَقْطَةِ مَفْرُوضَةٍ يَنْشَأُ الْخَطُ
فَأَقْسَمُ لَوْلَا زَاكِرُ الشَّيْبِ وَالنَّهْيِ وَنَفْسٌ لَغَيْرِ اللَّهِ مَا خَضَعَتْ قَطُ
لِرَبْعِهَا الْأَحْرَاسُ مَنِ بَطَارِقُ مَفَارِقُهُ شُمُطُ وَأَسْيَافُهُ شُمُطُ

(١) شحطت : بعدت ونأيت ، وأصل الفود - بالفتح - معظم شعر الرأس مما يلي الأذن ، والوخط : الشيب

(٢) الأجنى : الأحذب ، وأصله « أجناً » بالهمز

تفاقله كَوْماء سامية الذرا
ولولا النهى لم تستهن سُبُل الهدى
ولولا عَوَادى الشيب لم يبرح الهوى
ولولا أمير المسلمين محمد
ينوب عن الإصباح إن مظل الدجى
تقر له الأملاك بالشيم العلا
أرادوه فارتدوا وجاروه فانشوا
تبر على المداح غُرُ خلاله
تعلم منه الدهر حاله في الورى
ويجمع بين القبض والبسط كفه
خلاتق قد طابت مَذَافاً وتَفَحَّة
أسبط الإمام الغالبى محمد
وقتك أواق الله من كل غائل
لقد زلزلت منك العزائم دولة
إيالة غدر ضيع الله ركنها
على قدر جلّى بك الله يؤسها
وكانوا نعيم الجنّتين تفيثوا
فقد عَوَّضوا بالأثل والخط بعدها
فمن طامح فوق العراء مجدل
وأتحف منك الله أمة أحمد

ويقذفه شهم من النيق منحط^(١)
وكاد وزان الحق يدركه الغمط
يهيجه نوء على الرمل مختط
لهالت بحار الروح واحتجب الشط
ويضمن سقى السرح إن عظم القحط
إذا بذل المعروف أو نصب القسط
وساموه فى مرقى الجلالة فأنحطوا
وما رسموا فوق الطروس وماخطوا
فَأَوْنَةً يسخو وأَوْنَةً يسطو
بحكمة مَنْ فى كفه القبض والبسط
كما مزجت بالبارد العذب إسفنط^(٢)
ويا فخر ملك كنت أنت له سبط
فأى سلاح ما الجنُّ وما اللمط^(٣)
أناخت على الإسلام تجنى وتشتط
ونادى بأهلها التّبار فلم يبطوا
ولا يكمل البحرين أو ينضج الخلط
ولما يقع منها النزول ولا الهبط
وهيهات أين الأثل منها أو الخط
ومن راسف فى القيد أرققه الضغط
أمانا كما يصفو على الغادة الرط

(١) الكوماء : الناقة العالية السنام (٢) الإسفنط : اسم من أسماء الحجر

(٣) الجن : الترس والدرع ونحوهما ، واللمط : الدرق ، منسوبة إلى قبيلة من البربر ، كانوا يتقعون الجلود فى الحليب سنة فيعملونها درقا ، فينبو عنها السيف القاطع

أَتَمَّتْ عَلَى مَهْدِ الْأَمَانِ عِيُونَهَا فَيَسْمَعُ مِنْ بَعْدِ السَّهَادِ لَهَا غُطْ
وَصَمَّ صَدَى الدُّنْيَا فَلَمَّا رَحِمَتْهَا تَزَاحِمُ مَرْتَادَ عَلَيْهَا وَمَحْتَطْ
وَأَحْكَمْتَ عَقْدَ السَّلَامِ لَمْ تَأَلُ بَعْدَهُ وَجَاءَ فَصَحَّ الْعَقْدُ وَاسْتَوْثِقَ الرِّبْطْ
وَأَيَقُنُ مَرْتَابَ ، وَأَحْسِبُ نَافِرَ وَأُذْعِنُ مَعْتَصَصَ ، وَأَقْصِرُ مَشْتَطْ
وَلِلَّهِ مَبْنَاكَ الَّذِي مَعْجَزَاتُهُ سَمِعْتُ أَنْ تَوَافِيهَا الشِّفَاءُ أَوْ الْخَطْ
وَأَنْتَ غَرِيبُ الدَّارِ مَسْقُطُ رَأْسِهِ وَمِنْ دُونِ فَرْخِيهِ الْقِتَادَةُ وَالْخَرْطُ^(١)
تَنَاسَبَتِ الْأَوْضَاعُ فِيكَ وَأَحْكَمْتَ عَلَى قَدَرِ حَتَّى الْأَرَانِكِ وَالْبَسْطِ
نَجَاءَ عَلَى وَفْقِ الْعَلَارَاتِ الْخَلِي كَمَا سَمَطَ الْمَنْظُومِ أَوْ نَظْمِ السَّمَطِ
وَلِلَّهِ إِعْذَارُ دَعْوَتِهِ لَهُ الْوَرَى فَهَبُوا الدَّاعِيَةَ الْمُهَيْبَ وَإِنْ شَطُوا
تَقُودُهُمُ الزَّلْفَى ، وَيَدْعُوهُمْ الرِّضَا وَيَحْدُوهُمْ الْخَصْبُ الْمَضَاعِفُ وَالْغَبْطُ
وَأَغْرَبْتُ بِالْبَهْمِ الْمَلَاجَ تَخْفِيَا فَلَمْ يَدْخُرْ الشَّيْءُ الْغَرِيبَ وَلَا السَّمَطُ
أَنْتَ صُورَةٌ مَعْلُومَةٌ عَنْ مَزَاجِهَا وَأَصْلُ اخْتِلَافِ الصُّورَةِ لِلزَّجِّ وَالْخِلَاطِ
قَضَيْتَ بِهَادِينَ الزَّمَانِ ، وَلَمْ يَزَلْ أَوْ كَذُوبِ الْوَعْدِ يَلْوِي وَيَشْتَطْ
وَأَرْسَلْتَ يَوْمَ السَّبْقِ كُلَّ طَيْرَةٍ كَمَا قَذَفَ الْمَعُومَةُ النَّارَ وَالنَّفْطَ
رَنْتَ عَنْ كَيْلٍ كَالْفِرَالِ إِذَا رَنَا وَأَوْفَتْ بِهَادٍ كَالظَّلِيمِ إِذَا يَعْطُو
وَقَامَتْ عَلَى مَنْحَوْتَةٍ مِنْ زَرْجَدٍ تَخْطُ عَلَى الصَّمِّ الصَّلَابِ إِذَا تَخْطُو
وَكُلَّ عَتِيقٍ مِنْ تَمَائِلِ رُومَةٍ تَأْنِقُ فِي أَسْتَخْطَاطِهِ الْقَسِّ وَالْقَمَطِ
وَطَاعَتِهِ نَحْرُ السَّكَاكِ أَعَانَهَا عَلَى السَّكُونِ عَرَقُ وَاشْجِ وَلِحَى سَبْطِ
تَلَقَّفَ حَيَاتِ الْعَصَى إِذَا هَوَتْ فَتُعْبَانَهَا لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ سَرْطِ
أَزْرَتْ بِهَا بَحْرُ الْهَوَاءِ سَفِينَةٌ عَلَى الْجَوْلَانِ الْجُودَى كَانَ لَهَا حَطْ

(١) هذا من قولهم « دون هذا خطر القِتَادِ » والقِتَادُ : الشوك ، وخرطه : أن تمرطه بيدك من الغصن ، وهذا من أشق شيء .

وطاردت مقدم الصُّوار بجراح
متين الشَّوى في رأسه سَمَّهَرِيَّة
وقد كان ذاتاج فلما تعلقا
وحىء بشبل الملك ينجد عزمه
سمحت به لم ترع فرط ضنانه
فأقدم مختارا وحكم عاذرا
ولو غير ذات الله رامتة نضنضت
وأسد نزال من ذؤابة خزرخ
جلادهم مثنى إذا اشتجر الوغى
كقائب أمثال الكتاب تنالها
دليلهم القرآن يا حبذا الهدى
وبيض كأمثال البروق غمامها
ولكنه حكم يطاع وسنة
وربة نقص للكمال مآله
فهنيته صنعنا ودمت مملكا
ودون الذى يهدى ثناؤك فى الورى
رضيت ومن لم يرض بالله حاكما
حياتك للإسلام شرط حياته

يصاب به منه الصماخ أو الإبط^(١)
مقصرة عنهن ما ينبت الخط
بسامعته زانه منهما ما قرط
عليه الحفاظ الجعد والخلق السبط
وفى مثلها من سنة يترك القرط
ولم يشتمل مسك عايه ولا ضبط
قنا كالأفاعى الرقط أو دونها الرقط^(٢)
بهايل لا روم القديم ولا قبط
كأن رعاء بالعضاء لها خبط
فمن بيضها شكل، ومن سمرها نقط
ورھطهم الأنصار يا حبذا الرھط
إذا وشحت سحب القتام دم عبط
وأعمال بر لا يليق بها الخط
ولا غرو فالأقلام يصلحها القط
عزيزا تشيد المعلوات وتخط
من الطيب ما تهدى الألوّة والقسط
ضلالا فقله الرضا وله السخط
ولا يوجد المشروط إن عدم الشرط

هذا كاف فى المطولات لنجلب منها عرضا يدل على حبوبها ، وتتحف منها

(١) الصوار - بضم الصاد ، بزنة الغراب ، وبكسرهما بزنة الكتاب - القطيع من البقر الوحشية

(٢) نضنضت: حركت ، والقنا: جمع قناة ، وأراد بها الرماح ، والأفاعى: الحيات ، والرقط: جمع أرقط أو رقطاء ، وهى من أخبت الحيات

أنفس الظرفاء بمطلوبها ، منقولة من الكتاب المسمى « بأبيات الأبيات » ومن الكتاب المسمى « بالصيب والجهم » .

فمن التورية على طريقة المشاركة قولى :

مضجعى فيك عن قتادة يروى وروى عن أبى الزناد فزادى^(١)
وكذا النوم شاعر فيك أمسى من دموى يهيم فى كل وادى
ومن هذا الباب أيضا :

ولما رأت عزمى حثيثا على الشرى وقد رابها صبرى على موقف البين
أنت بصحاح الجوهرى دموعها فعارضت من دمعى بمختصر العين
وفى هذا المعنى :

كبتت بدمع عيني صفح خدى وقد منع الكرى هجر الخليل
وراب الحاضرين ، فقلت : هذا كتاب العين ينسب للخليل
ومن الأغراض الظرفية فيها :

تعجلت وخط الشيب فى زمن الصبا لخوضى غمار الهم فى طلب المجد
فهما رأيتم شيبة فوق مفرق فلا تنكروها لأنها شيبة الحمد
ومن التورية بالنجوم والكاتب بيته بيت شرفه :

بأوت على زمنى همّة فأعتبنى الزمن العاتب
وشرفنى الله فى موطنى وفى بيته يشرف الكاتب

وأبدع منها قولى لمن يدعى بشمس الدين :

قل لشمس الدين وقيت الردى لم يدع سقمك عندى جلدًا
رمدت عينك هذا عجب أو عين الشمس تشكو الرمدًا

(١) قتادة : راو من الرواة ، وهو الشوك ، والمراد هنا الأخير ، يعنى أن الرقاد ممتنع عليه ، وأبو الزناد : راو أيضا ، وهو النار ، والمراد هنا الثانى ، يعنى أن قلبه مشتعل بنار المحبة

وقلت في غرض التورية بما يظهر من الآيات :

أفل الألى كانوا نجو ما للورى فالكون مظلم^(١)
وتناكر الناس الحديث الحق وافتقد المعلم
أنا كاتب السلطان ما طالعت قط كتاب مسلم
إلا سـخاما قادحا في الدين والله المسلم

وفي معنى الدعاية مع بعض الطلبة :

قال لى عندما أتى بمجدال وشكوك على أصول الدين
ولسانى يبدل الدال ناء عاجز في الأمور عن تبين
التمس مخرجا يوافق قولى قلت أحسنت يا جلال التين

وفي التورية :

أذم ذوى التطفيل مهما أتى وإن تسكن أجملتهم فاعنه
يمشى على رجليه مع أنه من جنس من يمشى على بطنه

وقلت :

أفقد جفنى لذيد الوسن من لم أزل فيه خليع الرسن
عذاره المسكى فى خده أنبته الله النبات الحسن

وقلت في رثاء من اسمه حسن :

أشكو إلى الله من بنى ومن شجنى لم أجن من محنتى شيئا سوى محن
أصاب الحسنة العين التى رشقت وعادة العين لا تصمى سوى الحسن

وفي الشيب :

تفر عن الشيب الغوانى تعززا كما يعتريها إن رأت سأم أبرص^(٢)

(١) أفل : غرب وغاب

(٢) سأم أبرص : وزغة

بدا وَضَحًا في جِدة العمر شانيا
وقلت في السها من النجوم الجوفية :
قالوا : السهابادى النحول كأنه
أتراه يشكو ؟ قلت : هذا ممكن
وقلت :

عابوا وقالوا : بساقه شعر
قلت : انظروا ورد روض وجنته
وقلت في التضمين :

رفعت قصة اشتياقى ليحيى
ورمى بالكتاب ضعف اهتبال
فَزَوَى الوجه رافضا للفتوة^(١)
قلت يحيى خذ الكتاب بقوة^(٢)

وقلت :

وذى حيل يُعْمِي التقيّة أمره
يدبُّ شبول الليث والليث ساهر
مكايدَه في لجة الليل تسبح
ويسرق ناب الكلب والكلب ينبح

وقلت :

لما رأوا كفى به وَدَرَوْا
قالوا القى حلو فقلت لهم
مقدار مالى فيه من حب
طلعت حلاوته على قلبى

وقلت ، ولها حكاية :

وذى زوجة تشكو فقلت له : اسقها
فقال : أبت شرب الدواء بطبعها
دواء من الحبِّ الملين للبطن
فقلت : اسقها إن عافت الشرب بالقرن

(١) زوى وجهه : لفته عنى

(٢) هذا تضمين لقوله تعالى فى شأن يحيى بن زكريا عليهما السلام (يا يحيى

خذ الكتاب بقوة)

وقلت :

لعنوا بَرِيًّا من خبائث ظنهم فألله يلعن أهل سوق العنبر
والله لا أوطأت ساقى سوقهم أبد الزمان فتلك سوق العن برى
ومن الفكاهات :

ولما دعاني داعي الهوى وأخلف ما كنت أملتُهُ
ولم يبق غير البكا حيلة بكيت بمقدار ما نلتُهُ

وقلت ، وقد رفع للسلطان با كورة بنفسج :

قدم البنفسج وهو نعم الوارد قد نَمَّ منه إلى طيب زائد^(١)
فسألتُه : ما باله ؟ فأجابني والحق لا يُبغى عليه شاهد^(٢)
أقبلت أطلب من بنان محمد صلة فعاد علىَّ منه عائد
وقلت من التشبيه :

سهرنا وفي سير النجوم اعتبارنا إلى أن ضَفَا للَّيل من فوقنا رَيط^(٣)
فخلنَّا شهاب الرجم إبرة خائط مسوحا وما يبق من الذنب الخيط
وقلت أودع صديقا أنست به :

فلاحهُ مثلى ممقوتُهُ وإن أعجَبَ البدء منها وراق
زَرَعْتُ اللقاء وعالجته فلم أستفد منه إلا الفراق
ومن تضمين المثل :

لا تُهَيِّجْ بالذكور في كبدي نار وجد شق محتمله
ويقول الناس في مثل لا تحرك من دنا أجله

(١) نم : أراد ذباغ عرفه وانتشار طيبه

(٢) يبغي — بالبناء للمجهول هنا — يطلب

(٣) ضفا يصفو : سبغ وعم وغطى ، والريط : جمع ربطة ، وهي الملاة

ومن المدح :

عجبا لراحتك المثة بالندى أن لا تكون على الغمام غماما
يَهْمِي ووجهك نوره متألّق والقَطَرُ إن سحب السحاب أغاما

ومن أبيات المدح :

يا ناصر الدين لما قَلَّ ناصره ومطلع الجود في الدنيا وقد أفلا
لولا الشهد والترداد منك له لم يسمع الناس يوما من لسانك لا^(١)

ومن أوصاف صنيع سلطاني :

ماذا أحدث في صنيع خلافة هشت إليه الشهب في آفاقها
فكأنما الجوزاء حين تعرضت شَدَّتْ لتخدم فيه عَقْدَ نطاقها^(٢)

ومن قصيدة في وصف فرّس :

فبوانته من مهجتي مُتَبَوِّأ خفيا على سر الفؤاد المكم
وياعجبا منى وفرط تشيى أهِم بوجدى فيه وهو ابن ملجم

ومن الحماسة في التورية بالمنطق :

حتى إذا فرض الجلال جداله ورأيت ربح النصر ذات هُبُوبِ
قدمت سالبة العدو وبعدها أخرى بعز النصر ذات وجوب
وإذا توسط حد سيفك عندها جُرْأى قياس فزت بالمطلوب

وفي خاتمة قصيدة :

ماضرنى إن لم أجىء متقدما السبق يعرف آخر المضمار
ولئن غدا رَنع البلاغة بَلَقَعا فلب كنز في أساسِ جدار

(١) أخذه من قول الفرزدق في على زين العابدين :

ماقل لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاءه نعم

(٢) أخذه من قول الشاعر :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد متتطق

ومن المدح :

إن أبهم الخطبُ جَلَى في دُجُفَتِهِ رأيا يفرق بين النى والرشد^(١)
وإن عتا الدهر أبدي من أسرته وكفه هدى حَيْرَانٍ وَرَى صَدِ
وإن نظرت إلى لألاء غرته يوم الهياج رأيت الشمس في الأسد
ومن الأوصاف في قصيدة :

كم ليالٍ بتُّ في ظلمائها أمتطى من نار شوق فرشا
وكأن النجم شَرِبَ نَمَل واصلَ النملة حتى ارتعشا

ومن التورية بالكفتين من الحيل العديدة :

لا عدل في الملك إلا وهُوَ قد نصبه وصير الخلق في ميزانه عَصَبَه
والكفتان ترى من كفه درتا أن تخرج العدد المجهول للطلبة
وفي رجل يحتال على الولاية :

حافَتَ لهم بأنك ذو يسار وذو ثقة وبر في البمين
لبستندوا إليك بحفظ مال فقام كل باليسار وباليمين
وقلت ، ولهما حكاية تظهر من الأبيات :

قلت لما استقلَّ مولاى زَرْعِي ورأى غَلَّةَ الطعام قليـلـة
دمنتى لانتجاعى الحرث كلت فهى اليوم دمنة وكليلة
ومما صدرتُ به كتابا لأحد الفضلاء :

يا من تقلد للعلاء سلوكا والفضل صير نهجه مسلوكا
كانتبتنى متفضلا فملكنتى لازلت منك مُكَانِبًا مملوكا

(١) أبهم : خفى وجه الصواب فيه ، وجلى : أظهر ، والدجنة — بضم الدال والجيم وتشديد النون — شدة الظلام

وقلت في غرض يظهر منه :

جلس المولى لتسليم الورى ولقصل البرد في الجوا احتكام
فإذا ما سألوا عن يومنا قلت : هذا اليوم برد وسلام

وقلت من التورية :

يا مالكي بخلال تهدي إلى القلب حيرة
أضرمت قلبي ناراً يا مالك ابن نورية^(١)

وقلت أيضاً :

أضاف إلى الجفون السود شعرا كجنى الليل أو صبغ اللداد
فقلت أمير هذا الحسن تزكو الأجور له بتكثير السواد
وقلت أيضاً :

بأبي بدر غـ زانى مستبيحاً شرح صدرى
فأنا اليـوم شهيد الحب من غـ زوة بدر

وقلت ، ولها حكاية :

أيا ليلة بالخصب لم تال شهرة كما اشتهرت في فضلها ليلة القدر
فأمن قلب اللوز من علة النوى وأصبح فيها التين منشرح الصدر
ومن النزعات المشرقية في التورية :

يا قائدى نحو الغرام بمقلة نفقت حلاوتها بكل فؤادى
ماذا جنيت على من مَضَضِ الهوى الله ينصف منك يا قَوَّادى
ومن هذا النمط المشرقى :

وقالت حلقت الكس منى بنورة فقلت لها استنصرت من ليس ينصر
ألا فابلغنى عنى فديتك واصدق محلق ذاك الكس أنى مقصر

(١) ورى بمالك بن نورية ، وهو قاتل سيف الله خالد بن الوليد في حروب الردة ، وأخوه متم بن نورية هو الذى اشتعل قلبه عليه نارا فظال يرثيه ويبيكه حتى أسبلت عين له غائرة بالدمع .

ومنها :

قال لى والدموع تنهل سَحًّا في عراض من الحدود محول^(١)
بك مابى فقلت مولاي عافا ك المعافى من عبرتى ونحولى
أنا جفنى القريح يروى عن الأعمش والجفن منك عن مكحول
ومن أبيات التورية أو ما داخلته :

فى مصر قلبى من خزائن يوسف حب وعيرُ مدامعى تمتاره^(٢)
حليت شعرى باسمه فكأنه فى كل قطر حله ديناره
ومن المدح أيضا ولا أستحضر لقبه :

رأيت بكفك اعتبارا بأساوندى ما إن يبارى
فقلت وقد عجبت منها يا بحر متى تدعو نوارا
وقلت مما يجرى مجرى الحكم :

إن الهوى لشكاية معروفة صبر التصبر من أجلّ علاجها
والنفس إن ألقت مرارة طعمه ضمنت بذلك له صلاح مزاجها
ومن الغرائب فى الأوصاف :

كأما الروض ملك باهى به جلساه
يرضى النديم فهما سقى الرياض كساه
وفى غرض النسيب :

أصبح الخلد منك جنة عدن مجتلى أعينٍ وشتم أنوف
ظلالته من الجفون سيوف جنة الخلد تحت ظل السيوف

(١) مسح المطر يسح سحا : نزل متابعا ، ووقع فى ب «والدموع تنهل سحبا»

(٢) العير : الإبل والرادركاها ، وتمتاره : تطلب الليرة ، وهذا مأخوذ من قصة

وقلت في النسيب :

أرسلت طرفي في حُلاك بنظرة
وأراك بالعبرات قد عاقبتها
ومن تحسين القبيح :

وأخول بعدى القلب سهم جفونه
رأى الحسن أن اللحظ منه مهند
ومن النزعات الحسة :

من لي بذكرى كلما أوجستها
وسـجـاب دمع كلما أمطرته
ومن النسيب :

جاء العذار بظل غير ممدود
ناديت قلبي إذ لاحت طلائعه
وفي نقيضه :

ماضر مئى أن أخلفت موعودى
وقال قوس عذار فوق صفحته
ومن التضمين :

يا من بأكناف فؤادى ربّع
ما فيك لى جدوى ولا أرعوى
ومن الأغراض المحترقة :

أنكرت لما أطال عارضه
الم تقل لى بأننى قمر

(١) ذاوى العود : ذابل الفصن ، ذوى يذوى - كرمى يرمى - ذبل

(٢) الأكناف : جمع كنف - بالتحريك - وهو الجانب

(٣) الجدوى : النفعة ، ولا أرعوى : لا أكف ولا أزدجر

ومن التضمين:

يا كوكب الحسن يا معناه يا قره
يا روضه المتناهى الربيع يا ثمره
أمرتني بسـلو عنك ممتنع
مأمور حسنك لما يقض ما أمره

وقلت :

لما رضيت بفرقتي وبعادى
لما رضيت بفرقتي وبعادى
لا عنتُ أم الصبر فيك وبعده
ورثت للأشجان كنز فؤادى
فالصبر منى أجنبي بعدها
ولواعج الأشجان من أولادى

ومن الأغراض المشرقية :

ساربنى للأمير يشكو اعتراضى
يوسف والشهود أبناء جنسه
قال لى ما تقول قلت مجيبا
لم نخف من نكاله أو لجسه
حصحص الحق يا خوند فدعنى
أنا راودت يوسفنا عن نفسه

ومن الأوصاف :

بنينا نظارح هم القحط ليلتنا
وأيد الهم والسهد البراغيثا
وكان يحمد ما كنا نكابه
من المشقة لو أن البراغيثا

وفى قريب من المعنى:

وقالوا بدت منكم على الجسم حمرة
فقلت براغيث لكم رَقَطُونَا^(١)
عدت نحونا ليلا ومن بعدنا اعتدت
كما رقصت فى القلو بزر قَطُونَا^(٢)

ومن التضمين:

قال جوادى عند ما
همزت همزا معجزة
إلى متى تهمزنى
ويل لكل هُمزة

(١) رقطه ترقيطا : نقشه ، وأراد ما أحدثه البراغيث فيه من نقط حمراء باللسع

(٢) القلو : مصدر « قلوئ الشيء أقلوه » إذا وضعته على النار ، وبزر قطونا :

ضرب من البزر يشبه البراغيث ، قال داود : إنه ثلاثة أصناف : أبيض ، وأحمر ،

وأسود (انظر التذكرة ١ / ١٠٤ بولاق)

وفي رثاء السلطان أبي الحجاج رحمه الله تعالى :

غبت فلا عين ولا مخبر ولا انتظار منك مرقوب
يا يوسف أنت لنا يوسف وكلنا في الحزن يعقوب

وقلت ، ولها حكاية :

طال حزني لنشاط ذاهب كنت أسقى دائماً من حانيه
وشباب كان يندى نضرة نزل الثلج على ريجانيه

وقلت ، وقد أعجبني نشاطُ ولدي :

سرق الدهر شبابي من يدي فقبوادي مشعر بالكمد^(١)
وحمدت الأمر إذ أبصرته باع ما أفقدني من ولدي

وقلت ، ولها حكاية :

قلت للشيب لا يرَبِّكَ جَفَائِي في اختصاري لك البرور ومقتك
أنت بالعتب يا مشيبي أولى جئتني غملة وفي غير وقتك

ومما خططته في رملة تزلتها :

أقننا برهة ثم ارتحلنا كذاك الدهر حال بعد حال
وكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة فإلى ارتحل
ومن سام الزمان دوام أمر فقد وقف ارجاء على الحال

وقلت أيام مقامي بسلاً :

أيا أهل هذا القطر ساعده القطرُ بليت فدلوني لمن يُرْمَعُ الأمر
تشاغلت بالدينا ونمت مفرطاً وفي شُغْلِي أو نومتي سرق العمر

(١) مشعر بالكمد : معلم بالحزن ، ولو كانت « مشعر بالكمد » بالسین المهملة

بمعنى مشتعل بالحزن - لكان أظرف

وقلت ، والبقاء لله وحده ، وبه نَحْتَمِ الهذر :

عدّ عن كَيْت وكَيْت ما عليها غير ميت

كيف ترجو حالة البقاء لمصباح وزيت

انتهى ما نقلته من « الإحاطة » من ترجمة نظمه ، وبعض ما ذكر هنا قد تقدم ، وكرّره لكونه بلفظة في الإحاطة ، وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين - رحمه الله تعالى ! - كثيراً ، ولنعرّض ذلك هنا بذكر ما لم يتقدم ذكره ، إذ نظمه بحر لا ساحل له ، ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا الحل من الإحاطة ماصوته : ولوالدى أيضاً المترجم به - رحمه الله تعالى ! - في سكين الأضاحي لسلطانه أبي الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية :

لى الفخر إن أبصرتنى أو سمعت بى على كل مصقول الفرارين مرهف

كفانى فخراً أن ترانى قائماً بسنة إبراهيم فى كف يوسف

ومقطوعاته كثيرة لم يتضمن هذا الديوان منها إلا القليل بسبب الاختصار ، ومن أراد الوقوف على جملتها فعالية بكتاب « الصيب والجهام » فى شعره ، رحمه الله تعالى ! قال ذلك ولده على ، لطف الله تعالى به ! آمين ، انتهى .

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

عسى خطرة بالركب يا حادى العيس على الهضبة الشماء من قصر باديس ^(١)

لنظفر من ذلك الزلال بعله وننعم فى تلك الظلال بتعريس ^(٢)

حبست بها ركبى فواقاً ، وإنما عقدت على قلبى بها عقد تحبیس

لقد رسخت أى الجوى فى جوانحى كما رسخ الإبحيل فى قلب قيس

بميدان جفى للسهاد كتيبة تغير على سرح الكرى فى كراديس

(١) الركب : ركاب الإبل خاصة ، والحادى : أراد به السائق ، وأصله الذى يغنى

للإبل ينشطها على السير ، والعيس : الإبل ، واحدها أعيس أو عيساء

(٢) التعريس : النزول لىلا

وما بى إلا نفحة حاجرية
ألا نفسُ ياريح من جانب الحمى
ويا قلب لا تلق السلاح فر بما
وقد تُعْتَبُ الأيام بعد عتابها
ولا تخش الح الدمع يا خطرة الكرى
تقول سليمى ما لجسمك شاحبا
وقد كنت تعطو كلما هبت الصبا
ومن رايح الأيام يا ابنة عامر
فلا تحسبى والصدق خير سجية
وقمراء أما ركبها فمضلل
سحبنا بها من هضبة لقرارة
إذا ما نهضنا عن مقيل غزالة
أردنا بها كأساً دهافا من السرى
وحانة خمار هدايا لقصدها
تطلع ربانيتها من جداره
بكرنا وقلنا إذ نزلنا بساحة
أيا عابد الناسوت إنا صباة
وما قصدنا إلا المقام بحانة
فأنزلنا فوراً على جنباتها
بدرنا بها طين الختام بسجدة

مرت والدجى ما بين وهن وتغليس
تنفس من نار الجوى بعض تنفيس
تعذر فى الدهر أطراد المقائيس
وقد يعقب الله النعيم من اليوس (١)
إلى الجفن بل قيسى على صرح بلقيس
مقالة تأنيب يشاب بتأنيس (٢)
بريان فى ماء الشبية مغموس
بحجوب الفلا راحت يدها بتفليس
ظهور النوى إلا بطون النواميس
ومر بها من آنس غير مأنوس
ضلالا وملنا من كناس إلى خيس (٣)
نزلنا فعرسنا بساحة عريس
أملنا بها عند الصباح من الروس
شمم الحيا واصطكاك النواويس
يهيم فى جنح الظلام بتقديس
عن الصافات الجرد والضمير العيس
أتننا لتثليث بلى ولتسدس
وكم ألبس الحق المبين بتليس
محاريب شتى لاختلاف النواميس
أردنا بها تجديد حسرة إبليس

(١) أعتب فلان فلانا : ترضاه وأزال وجه عتبه ، ويعقبه كذا من كذا : يأتى به عقيه وبعده (٢) يشاب : يخلط

(٣) الكناس - بالكسر - مسكن الظباء ، والخيس : بالكسر - مسكن السباع

وَدَارَ الذَّارِعِ، بِالْمَدَامِ كَأَنَّهُمَا
 وَصَارِفْنَا فِيهَا نُضَارًا بِمَثَلِهِ
 وَقِنَا نَشَاوَى عِنْدَ مَا مَتَعَ الضَّحَى
 فَقَالَ لِبُئْسَ الْمَسْلُومُونَ ضَيُوفُنَا
 وَأَمَّا وَأَيُّكَ الْخَبِيرُ مَا نَحْنُ بِالْبَيْسِ
 بِحُلْبَةِ شُورَى أَوْ بِحُلْقَةِ تَدْرِيسِ
 أَسْأَلُ نَجِيعَ الْخَبِيرِ فَوْقَ الْقَرَاطِيسِ
 إِذَا التَّفَتُ الْأَبْطَالُ عَنْ مُقَلِّ شُوسِ
 بِحُلْيَةِ تَمْوِيهِ وَخَدْعَةِ تَدْلِيسِ
 وَهَلْ جَائِزٌ فِي الْعَقْلِ إِسْكَارُ مُحْسُوسِ
 وَكَمْ دَرَّةٌ عَلِيَاءُ فِي قَاعِ قَامُوسِ
 وَأَغْرَيْتَ سُوسِي بِالْعَذِيبِ وَبَارِقِ
 مِنْ أَيْدِعَ مَا صَدَرَ عَنْ لِسَانِ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَا مِيتَةَ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي خَاطَبَ
 بِهَا سُلْطَانُهُ حِينَ عَادَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَأَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مَلِكَهُ الَّذِي
 كَفَى خَلْعَ مِنْهُ ، وَيُقَالُ : إِنَّ السُّلْطَانَ أَمَرَ بِكُتُبِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ عَلَى قُصُورِهِ بِالْحِمَارِ
 بِأَبَابِهَا ، وَإِنَّمَا إِلَى الْآنَ لَمْ تَزَلْ مَكْتُوبَةً بِتِلْكَ الْقُصُورِ الَّتِي اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْعَدُوُّ
 الْكَفَرُ ، أَعَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِسْلَامِ ! وَأَوَّلُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

الْحَقُّ يَعْلُو وَالْأَبَاطِلُ تَسْفُلُ وَاللَّهُ عَنْ أَحْكَامِهِ لَا يُسْأَلُ

قَوْلُ لِسَانِ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : نَظَمْتُهَا لِلْسُلْطَانِ - أَسْعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى ! - وَأَنَا
 عَمْدِينَةُ سَلَا ، لَمَّا انْفَصَلَ طَالِبُ الْحَقِّ بِالْأَنْدَلُسِ ، كَانَ صُنْعُ اللَّهِ تَعَالَى بِرَاعَةِ اسْتِهْلَاكِهَا ،

(١) الْقَطَا - بِالْفَتْحِ مَقْصُورًا - طَائِرٌ شَبَّ الْحَمَامِ

(٢) الصَّرْفُ - بِالْفَتْحِ - أَصْلُهُ مِبَادَلَةُ الْمَالِ بِالْمَالِ ، وَأَرَادَ هُنَا مَجْرَدَ الْمِبَادَلَةِ ، وَالنُّضَارُ
 لُزْمٌ ، كَغُرَابٍ - الذَّهَبِ ، وَأَرَادَ أَنَّهُ أَعْطَاهُمُ الْخَمْرَ بِدَلِّ ذَهَبِهِمْ ، وَشَبَّهَهَا بِالذَّهَبِ فِي
 نَ ، وَهِيَ يَسْمُونُ الْخَمْرَ « النَّضَارُ الدَّائِبُ »

ووجهت بها إليه إلى رُنْدَة قبل الفتح ، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء
بنذرى ، وسميتها « المنح الغريب ، في الفتح القريب » ومنها :

وإذا استحالت حالة وتبدلت	فالله عز وجل لا يتبدل ^(١)
واليسر بعد العسر موعود به	والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعد لما يؤمل ظافر	وكفك شاهد قيدوا وتوكلوا ^(٢)
أحمد والحمد منك سجية	بحليها دون الورى تتجمل
أما سعودك فهو دون منازع	عقد بأحكام القضاء مسجل
ولك السجيا الغر والشيم التى	بغريبها يتمثل المتمثل
ولك الوقار إذا ترزلت الربا	وهفت من الروع الهضاب الميل
عوذ كلك ما استطعت فإنه	قد تنقص الأشياء مما يكمل
تاب الزمان إليك مما قد جنى	والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قدمضى	بإساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الجانى الذى	أرضاك فيما قد جناه الأول
والله قد ولاك أمر عباده	لما ارتضاك ولاية لا تعزل
وإذا تغمذك الإله بنصره	وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

ومنها :

وظعنت عن أوطان ملكك راكبا	متن العباب فأنى صبر يحمل
والبحر قد حُنيّت عليك ضلوعه	والريح تقطع للزفير وترسل
ولك الجوارى المنشآت وقد غدت	تختال فى برد الشباب وترفل
جوفاء يحملها ومن حملت به	من يعلم الأثنى وماذا تحمل

(١) استحالت : تغيرت وتبدلت

(٢) يريد ماورد فى حديث « اعقلها وتوكل »

ومنها :

صبتهم غُرَرَ الجياد كأنما سَدَّ الثنية عارض مهمل
 من كل منجرد أغر محجل يرمي الجلاد به أغر محجل
 زَجِلَ الجناح إذا أجد لغاية وإذا تقى للصهيل فبلبل
 جيدٌ كما التفت الظليم وفوقه أذن ممشقة وطرف أكحل
 فكأنما هو صورة في هيكل من لطفه وكأنما هو هيكل

ومنها :

وخليج هند راق حسن صفائه حتى يكاد يعوم فيه الصيقل
 غرقت بصفحته النمال وأوشكت تبغى النجاة فأوثقتها الأرجل
 فالصرحُ منه ممرد والصفح منه مورد والشط منه مهذل
 وبكل أزرق إن شكت ألحظه مره العيون فبالعجاجة تكحل
 متأود أعطافه في نشوة مما يعلُّ من الدماء وينهل
 عجبا له أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل

ومنها :

لله موقفك الذي وثباته وثباته مثل به يتمثل^(١)
 والخليل خطَّ والمجال صحيفة والسمر تنقط والصوارم تشكل
 والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الأسلِ المثقف تعمل
 لله قومك عند مشجر القنا إذ توب الداعي المهيب وأقبلوا
 قوم إذا لفتح الهَجِيرُ وجوههم حجبوا برايات الجهاد وظلّوا
 وهي طويلة لم يحضرني الآن منها سوى ما كتبتة .

(١) وثباته الأولى : جمع وثبة ، الواحدة من « وثب يشب » ووثباته الثانية مؤلف من واو العطف والثبت الذي هو مصدر ثبت ثبت .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :

يا إمام الهدى وأى إمام أنت عبد الخليم ، حلمك زرجو
أوضح الحق بعد إخفاء رشمه فالمسمى له نصيب من اسمه
وقال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان
إفريقية مودعا :

من نظمه
يخاطب ابن
سلطان إفريقية

أبا مالك أنت نجل الملوك غيوث الندى وليوث النزال^(١)
ومثلك يرتاح للمكرمات ومالك بين الورى من مثال
عزيز بأنفسنا أن ترى ركابك مؤذنة بارتحال
وقد خبرت منك خلقا كريما أناف على درجات السكال^(٢)
وفازت لديك بساعات أنس كما زار في الليل طيف الخيال
ولولا تعلقنا أنتــــا نزورك فوق بساط الجلال
ونبلغ فيك الذى نبتغى وذلك على الله سهل المنال
لما فترت أنفس من أسمى ولا برحت أدمع فى اهمال^(٣)
تلفتك حيث احتلت السعود وكان لك الله فى كل حال

وتوفى أبو مالك المخاطب بهذا فى بلاد الجريد سنة ٧٤٠ .

من نظمه
حين أشرف
على حضرة
مراكش

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها
الله تعالى :

ماذا أحدث عن بحر سبخت به من البحار فلا إثم ولا حرج
وعاه مبتدع الأشياء مستويا ما إن به درك كلا ولا درج
حتى إذا ما المنار الفرد للاح صحت أبشري يامطايا جامك الفرج

(١) الليوث : جمع ليث ، وهو السبع

(٢) أناف : زاد وأربى

(٣) انهمل المطر والدمع انهما لا : انصب وتتابع

قربت من عامر دارا ومنزلة والشاهد المدل هذا الطيب والأرج
وقال رحمه الله تعالى :

كأنا بتمامنا نجوس خلالها وممدودها في سيرنا ليس يقصر^(١)
مراكب في البحر المحيط تخبطت ولا جهة تدرى ولا البر يبصر
وقال ساعده الله تعالى ، وهو مكتوب بالمدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج
ابن نصر رحمه الله تعالى :

من نظمه
ما كتب على
مدرسة بناها
السلطان
أبو الحجاج

ألا هكذا تُبنى المدارسُ للعلم وتبقى عهود الجدة ثابتة الرسم
ويُقصد وجه الله بالعمل الرضا وتجنّي ثمار العز من شجر العزم
تفاخر منى حضرة الملك كلما تقدم خَصْمٌ في الفخار إلى خصم
فأجدى إذا ضن الإمام من الحيا وأهدى إذا جنّ الظلام من النجم^(٢)
فيا ظاعنا للعلم يطلب رحلة كُفِيتَ اعتراض البید أو ليج اليم
يبابى حُطَّ الرحل لا تنو وجهة فقد فزت في حال الإقامة بالغنم
فكم من شهاب في سماءى ناقب ومن هالة دارت على قرتم
يفيضون من نور مبين إلى هدى ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكم
جزى الله عنى يوسف خير ماجزى ملوك بين نصر عن الدين والعلم

وقال رحمه الله تعالى : مررت يوما مع شيخنا أبى البركات ابن الحاج ببعض مسالك
غرناطة حرسها الله تعالى فأنشدنى من نظمه :

إجازة بينه
وبين ابن الحاج

غرناطة ما مثلها حضره الماء والبهجة والخضره
واستجازنى رحمه الله تعالى ، فقلت :

سكانها قد أسكنوا جَنَّةَ فهم يُلقون بها نصره

(١) نجوس خلالها : نسير .

(٢) أجدى : أ أكثر جدى ونفعا ، وأهدى : أعظم هداية ، وجن الظلام : ستر
الكون أو سكن

وقال في تورية طيبة :

من نظمه في
تورية طيبة

إني وإن كنت ذا اعتلال رث القوى بَيْنَ الهـزال
في عارض التيس لي شفاء فكيف في عارض الغزال

وقال رحمه الله تعالى يخاطب شيخه سيدي أبا عبد الله بن مرزوق موطنًا على بيت
المشاركة في العذار :

من نظمه
يخاطب ابن
مرزوق

أما والذي تُبْلَى لديه السرائر لما كنت أرضى الخسف لولا الضرائر
غدوت لضيغ ابن الريب فريسة أما ثار من قومي لنصرى ثائر
إذا التمت كفي لديه جراحتي كَأَنِّي جَانٍ أَوْ بَقْتُهُ الجرائر^(١)
وما كان ظني أن أنال جناية يحكم من جرائهم سافي جائر^(٢)
متى جاد بالدينار أخضر زائعا ودارته دارت عليها الدوائر
وقد أخرج التعنيت كيسَ مرارتي ورقت لبـلواي النفوسُ الأماثر
تذكرت بيتا في العذار لبعضهم له مَثَلٌ بالحسن في الأرض سائر
وما أخضر ذلك الخلد نبتًا، وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر
وجاهُ ابن مرزوقٍ لدى ذخيرة وللشدة العظمى تُعَدُّ الذخائر
ولو كان يدري ما دهاني لساء وأنكر ما صارت إليه المصائر

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحد الشرفاء :

أعياء اللقاء على إلا لحة في جملة لا تقبل التفصيلا
فجعلت بابك عن يمينك نائبًا أهديه عند زيارتي تقبيلًا
فإذا وجدتكَ نات ما أملتُهُ أُولم أجْدك فقد شفيت غليلا

ولما دخل رحمه الله تعالى مدينة أنفا، ومر منها على دار عظيمة تنسب إلى والي

(١) أوبقته : أهلكته ، والجرائر : جمع جريرة ، وهي الذنب

(٢) جار في حكمه يحور فهو جائر : ظلم واعتدى

جبايتها عبو من بنى الترحمان فارون قومه وغنى صنفه ، قال :

من نظمه وقد مر بدار غني قد مررنا بدار عبو الوالى وهى ثكلتى تشكو صروف الالى الى

أقصدت ربهـا الحوادث لما رشقته بصائبـات زوال

كان بالأمس واليا مستطيلا وهو اليوم ماله من والـ

من نظمه فى وقال فى الشيخ ابن بطان الصنهاجى :
الشيخ ابن بطان

لله درك يا ابن بطان فـ لشهير جودك فى البسيطة جاحد

إن كان فى الدنيا كريم واحد يزن الجميع فأنت ذك الواحد

أجريت فضلك جمفراً يحيا به ما كان من مجد فذكرك خالد^(١)

فالقوم منك تجمعوا فى مفرد ولـكـ كما شاء العـلاء ووالـد

وهى الالى الى لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجـد

وبستعين الله يصلح منك ما قد كان أفسده الزمان الفاسـد

من نظمه وقد وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث :
انتابه البرغوث

زحفت إلى ركائب البرغوث نـمّ الظلام بركبها الحـثوث

بالحبة السوداء قابل مقدمى لله أى قرى ، أعد ، خبيث^(٢)

كسحت بهن ذباب سرح تجلدى ليلا فجل الصبر جد رثيث

إن صابرت نفسى أذاه تعبدت أو صحت منه أنفت من تخنيثى

جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختى بمغيث ؟

من نظمه وقال يخاطب الوالى محمد بن حسون بن أبى العلاء ، وصدر بها رسالة :
يخاطب محمد

لم يبق لى جود الولاية حاجة فى الأمن أو فى الجاه أو فى المال

بعد اللقاء أولو الفضائل بغيتى ورأيت هذا القصد شرط كمال

(١) الجعفر : النهر ، وقد ورى بجعفر ويحيى وخالـد البرامكة

(٢) « خبيث » نعت لقرى ، وجملة « أعد » معترضة بين النعت ومنعوتة

أجملته وتشوفت لبيــــــــــــــــانه
وخصصت بالإلقاء غيرك غيره
لبست يا ابن أبي العلا قشب الملا
إن دؤن الفضلاء فضلا مُعلماً
ثنى عليك رعية آماهاً
أرغيتها هملاً فلم يطرق لها
من كنت واليه تولته العلا

وقال في عثمان بن يحيى بن عمر بن روح :

أسمى ذى النورين وجهك في الوغى
شمس الضحى حلت بليث عرين
إن تفتخر بمرين أرض العمدوة القصوى
فإياك أنت فخر مرين
وقال رحمه الله تعالى عند وقوفه على مراکش واعتباره بما صار إليه أمرها :

بلد قد غزاه صرف الياالى
وأباح المصون منه مبيع
فالذى خرمن بناه قتيل
والذى خرمنه بعض جريح
وكأن الذى يزور طيب
قد تأتى له بها النشريح
أعجمت منه أربع ورسوم
كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغانى
وجمال أخفاه ذك الضريح
وملوك تعبّدوا الدهر لما
أصبح الدهر وهو عبد صريح
دوخوا نازح البسيطة حتى
قال ما شاء ذابل وصفيح^(١)
حين شبت لهم من البأس نار
ثم هبت لهم من النصر ريح
أترينــــــــــــدب المؤثر لما
طل بعد الدنوّ منه النزوح^(٢)

من نظمه وقد
وقف على
مراكش

(١) نازح البسيطة : بعيد الأرض ، والذابل : أراد به الرماح ، والصفيح :

أراد به السيف

(٢) النزوح : البعد

ساكن الدار وروحها، كيف يبقى جسد بعد ما تولى الروح؟
وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولى الصالح سيدى أبى محمد
صالح النائم فى ظل صيته رحمه الله تعالى :

من نظمه
يخاطب أحمد
ابن يوسف

يا حفيد الولى يا وارث الفخر الذى نال فى مقام وحال
لك يا أحمد بن يوسف جينا كل قطر يعي أ كف الرحال
وقال فى « نفاضة الجراب » : لما خرجت من أسفى سرت إلى منزل ينسب إلى أبى
حذو : وفيه رجل من بنى المنسوب إليه اسمه يعقوب ، فألطف وأجزل ، وآنس
فى الليل ، وطلبنى بتذكرة ثبت عندى معرفته فكتبت له :

نزّلنا على يعقوب مجل أبى حذو فعرفنا الفضل الذى ماله حدّ
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم نأله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وقال :

أألقى إلى الأيام فضل مقادى فتجنبنى ما بين كد وإرهاق^(١)
وأتلف بين الخلق والرزق فكرتى ولست بخلاق ولست برزاق
إذا كنت بالإبراء لى فى تملق رضيت بعز النفس فى عز إملاق

نماذج قصار
من نظمه فى
أغراض شتى

وقال :

لك الملك ملك الحسن فأقضى بنا الذى تشاء فما يُعصى لأمرك واجبه
إذا ما كسرت اللعظم من تحت حاجب تحكم فى الأبواب كسرى وحاجبه

وقال :

سأنار ربيع العام للعام رحمة فضنّ ولم يسمح بذرة إنعام

(١) ألقى فلان إلى فلان بالمقادة ، وألقى قياده له : سلم له ، وأذعن ، وخضع
والمقاد : مصدر ميمي فعلة قاده يقوده وقد يراد به العنان الذى هو آلة القيادة

فقلنا وقد رد الوجوه ولم يُبَلِّ
قليل الحيا قبحت والله من عام^(١)
وقال :

تخونه صرف الزمان وهل ترى
بقاء لحي أو دواما على أمر^(٢)
هو الدهر ذو وجهين يوم وليلة
ومن كان ذا وجهين يعقب في غدر
وقال رحمه الله تعالى في شجر الجوز :

انظر إلى ينعي وحسن بسوق^(٣)
يهفو والنسيم بقدي للمشوق
يجلو اللواحظ منظرى حسنا كما
يجعلو ثغور العانيات عروقي
وقال رحمه الله تعالى في ساق :

كيف آمنّا على الشرّب ظيما
لحظه في القلوب غير أمين
راح يسقى فصّب في الكأس نورا
ثقة منه بالذي في العيون
وقال يخاطب السلطان :

أنت للمسلمين خير عماد
وملاذ وأى حرز حرير
لورأى ما شرعت للخلق فيه
عمر العاضل بن عبد العزيز
لجزى ملكك المبارك خيرا
وقضى بالشفوف والتبريز
فاشكر الله ما استطعت بفعل
وبقول مطّـول أو وجيز
كل ملك يري بصحبة أهل العلم
قد باء بالحلّ العزيز
فإذا ما ظفرت منهم يا كسير ملأت البـ
لاد من إبريز
والبرايا تبـد والملك يفنى
أين كسرى الملوك مع أبرويز
وقال رحمه الله تعالى :

مالي أهذب نفسي في مطامعها
والنفس تأنف تهذيبى وتهذى بي

(١) لم يبل - بضم الياء وفتح الموحدة - أصله « لم يبال » أى لم يهتم ولم يكثرث،
ولما كثرت هذه الكلمة في كلامهم حذفوا الألف من جوفها ، و« قليل الحيا » فيه
تورية ، يراد منه أنه لاهياء عنده (٢) تخونه : أنقصه
تورية

إذا استعنتُ على أهلى بتجربة تأبى المقادير تجريبي وتجري بي
وقال :

من لا نصيب لصحبته فى خيره وإذا سعى لم يقض حاجة غيره
فاقصده أباه متى أردت وقل له الله يُلهمه العزاء بأيره
وقال رحمه الله تعالى :

أستخرج أكنز العقيق بآماق أناشدك الرحمن فى الرمق الباقى^(١)
فقد ضعفت عن حمل صبرى طاقى عليك وضافت عن زفيرى أطواقى
وقال رحمه الله تعالى :

إذا لم أشاهد منك قبل منيتى نهاية آمالى وغاية غاياتى
فحسن عزائى حيل بينى وبينه وقرة عينى لم تحل بمرأتى
شهودك أمنى من عداة خواطرى وقربك حرزى من توقع آفات
فإن لم يكن وصل فبهها إشارة فىا حسن شارأتى بها من إشارات
وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا :

دُنْيَا خدعت الذى سمرت له عن صفحة لم يحل بها كرم
سرق حظ الإله من يده فهان ما كان منه يحترم
هذا الذى نال منك ليس له منقطع دائم ومنصرم
وهبته نال الذى أراد أما بين يديه المشيبُ والمَهرمُ

ولما أورد رحمه الله تعالى قول القائل فى وصف الدنيا :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القنائة سنانا
وكأننا لم نرض فيها برئيب الدهر حتى أعاناه من أعانا

(١) كنز العقيق : أراد به دمه ، شبه دمه بالعقيق فى حمرة لونه ، والآماق : جمع

مؤق ، وهو جانب العين ممائلى الأنف

قال أثره ما نصه : والحق ما قلته من أبيات تناسب ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله :

والله إن لم يَدَارِكها وقد وحلت بلهجة أو بلطف من لدنه خفي
ولم يَجِدْ بـ_____لافيها على عجل ما أمرها صائرٌ إلا إلى تلف (١)
فحب الدنيا رأس كل بلية ، ولولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيئتها الأولية .
ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :
إن رأى الحق فيك منه بقيَّة فأتى البعد فيه حق التقية
وإذا لم يكن لذاتك رسم قائم تلك حالة حقـــــــــــــــــيه
وقوله رحمه الله تعالى :

فسامح إذا مالم تفدك عبارة وإن أشكلت يوما فخذها كما هيا
وتلخيص ما دندنت بالقول حوله إذا قمت بالباقي فما زلت باقيا (٢)
وقال رحمه الله تعالى :

ففي عالم الأسرار ذاتك تَجْتَلِي ملايح نور لاح للطور فاهدا
وفي عالم الحس اغتديت مبعأ لتشفى من استشفى وتهدي من استهدى
فما كنت لولا أن ثبت هداية من الله مثل الخلق رسما ولا حدا
وهذه الأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .
وقال رحمه الله تعالى :

حمامة البان ما هذا البكاء على مر الليالي وما ذا البث والحزن
لا منزل بنت عنه أنت تنسده ولا حبيب ولا خل ولا سكن
لو كنت تنفث عن شوق مُنيت به إذا لصار رمادا تحتك الغُصن

(١) تقول « تلافى الأمر تلافيا » تريد تداركه قبل أن يفوت أو أن تداركه
(٢) الدندنة : ترجيع صوت خفى ، وتقول « دندن الرجل » يريد أنه صوت ولم يفهم
منه كلام ، وقد قالوا « حول هذا دندن » يريدون أنهم يتغنون بذلك
(١٣ — فتح ٩)

وقال رحمه الله تعالى مضمنا :

أَمْطُ عَنْكَ مَهْمَا اسْطَعْتَ كُلَّ إِرَادَةٍ وَإِلَّا فَمَنْعِي الْقَوْمَ عَنْكَ بَعِيدَ
تَكُونُ مَرِيداً ثُمَّ فِيكَ إِرَادَةٌ إِذَا لَمْ تَرُدْ شَيْئاً فَأَنْتَ مَرِيدَ

وقال رحمه الله تعالى :

تَعَلَّقْتَهُ مِنْ دُوحَةِ الْجُودِ وَالْبَاسِ قَضِيْبَا لَعُوبَا بِالرَّجَاءِ وَالْبِيَاسِ (١)
ضُرُوبَا بِضَرْبِ الْبِرَاعَةِ وَالْقَنَّا طُرُوبَا بِحِمْلِ الْمَشْرِفِيَةِ وَالْكَاسِ (٢)
يَذْكُرْنِيهِ الصَّبِيحُ عِنْدَ انْصِدَاعِهِ جَمَالُ رُؤَا فِي تَارُجِ أَنْفَاسِ
وَيَبْدُو لِعَيْنِي شَفَرُهُ وَجَبِينَهُ إِذَا مَا سَفَحْتَ الْحَبْرَ فِي صَفْحِ قِرَاطِاسِ

وقال رحمه الله تعالى :

أَحَبُّ لِحَبْلِهَا جَمَلِي وَرَحْلِي وَعَزَمِي وَالْمَقَادَةَ وَالطَّرِيقَا
وَمَنْ أَخْشَاهُ مِنْ سَبْعِ وَلَصِ فَكَيْفَ فَرِيقَهَا ؟ سَلَمُوا فَرِيقَا !
وَكَيْفَ أَخْصَ بِاسْمِ الْحَبِّ إِنْ لَمْ أَحَبُّ لِأَجْلِهَا إِلَّا صَدِيقَا

وقال رحمه الله تعالى : وقلت من قصيدة :

أَنَا نَسْخَةُ الْأَكْوَانِ أَدْمَجَ خَطَهَا فَسِرُّ ذَوِي التَّحْقِيقِ فِي طَيِّ أَوْرَاقِ
فَمِنْ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ لِمَلِي وَظَلَمَتِي وَمِنْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ نَوْرِي وَإِشْرَاقِ

وقال رحمه الله تعالى :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ إِنْ أَرْضَاكَ بَدَلُ دَمِي فَقَدْ أَتَيْتَ بِهِ أَسْعَى عَلَى قَدَمِي
وَإِنْ تَعَاظَمَ ذَنْبٌ قَدْ جَنَّتْهُ يَدِي وَطَالَ قَرَعِي عَلَيْهِ السَّنُّ مِنْ نَدَمِ
فَهَبْهُ لِي وَاغْتَفِرْ مَا كَانَ مِنْ خَطِيئَةٍ وَزَلَّةٍ وَارَعَ لِي حَبِي عَلَى الْقَدَمِ

(١) أصل الدوحة - بالفتح - الشجرة العظيمة ، وهم يجعلون نسب الرجل

شجرة على التشبيه ، والقضيب : العَصَن

(٢) البراعة : القلم ، والقنا : أراد به الرماح ، والمشرقية : السيوف

وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السالوية التي وجهها إلى سَلَا أيام خلف بها أهله وولده :

بولي الله فابدأ وابقدر واحد الأحاد في باب الورع

ترجمة ولي الله
أحمد بن عاشر

قلت : هذا الولي هو العارف بالله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر أحد الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب ، وقد زرت قبره بسلا عام تسعة وألف ، وهو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر ، الأندلسي ، نزيل سَلَا ، الولي الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال .

قال ابن عرفة : ما أدركت مبرزاً^(١) في زماننا هذا إلا الشيخ أبا الحسن المنتصر وأحمد بن عاشر بسلا ، انتهى .

وقال بلدينا أبو عبد الله بن سعد التلمساني في كتابه « النجم الثاقب » فيما لأولياء الله تعالى من المناقب : « كان أحد الأولياء الأبدال ، معدوداً في كبار العلماء ، مشهوراً بإجابة الدعاء ، معروفاً بالكرامات ، مقدماً في صدور^(٢) الزهاد ، منقطعاً عن الدنيا وأهلها ، ولو كانوا من صالحى العباد ، ملازماً للقبور في الخلاء المتصل ببحر مدينة سَلَا ، منفرداً عن الخلق ، لا يفكر في أمر الرزق ، وله أخبار جليلة ، وكرامات عجيبة مشهورة ، ممن جُمع له العلم والعمل ، وألقى عليه القبول من الخلق ، شديد الهيبة ، عظيم الوقار ، كثير الخشية ، طويل التفكير والاعتبار ، قصده أمير المؤمنين أبو عنان ، وارتحل إليه عام سبعة وخمسين وسبعائة ، فوقف ببابه طويلاً ، فلم يأذن له ، وانصرف وقد امتلأ قلبه من حُبِّه وإجلاله ، ثم عاود الوقوف ببابه مراراً ، فما وصل إليه ، فبعث له بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته ، فأجابه بما قطع رجاءه منه ، وأيس من لقائه ، واشتد

(١) برز فلان في كذا : تفوق

(٢) الصدور : جمع صدر ، ويراد به الرئيس ، لأنه يكون في صدر المجالس

حزنه ، وقال : هذا ولى من أولياء الله تعالى حجه الله عنا ، انتهى .

ولما أجرى ذكره لسان الدين فى « نفاضة الجراب » قال ما ملخصه :
ولقيت من أولياء الله تعالى بسلاً الولى الزاهد الكبير المنقطع القرين ، فراراً عن
زهرة الدنيا ، وعزوفاً عنها ، وإغفاء فى الورع ، وشهرة بالكشف ، وإجابة الدعوة
وظهور الكرامة ، أبا العباس بن عاشر ، يسر الله تعالى لقاءه على تعذره لصعوبة
تأنيبه ، وكشف هيئته ، قاعداً بين القبور فى الخلاء ، رث الهيئته ، مُطْرِق اللحظ ،
كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد ضره ^(١) أهل الدنيا ، وتطارحهم ،
فهو شديد الاشتىاز من قاصده ، يُجرمز للوثبة ^(٢) من طارقه ، نفع الله تعالى به !
وقال ابن الخطيب القسطنطينى الشهير بابن قنفذ : لقيته بسلا سنة ٧٦٣ ،
وهو على أتم حال فى الورع ، والفرار من الأمراء ، والتمسك بالسنة ، وهو الشيخ
الفيقهِه الولى ، توفى فى سنة خمس وستين وسبعائة ، انتهى .
ومن انتفع به ونال بركته الولى العارف بالله سيدى أبو عبد الله بن عباد
شارح الحكم ، وقد ترجمناه فى هذا الكتاب .

وقال ابن عباد المذكور فى رسائله : وقد كنت قدما خرجت فى يوم مولده
صلى الله عليه وسلم صائماً إلى ساحل البحر ، فوجدت هناك سيدى الحاج ابن عاشر
رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه ، فأرادوا منى الأكل ،
فقلت : إني صائم ، فنظر إلى سيدى الحاج نظرة منكرة ، وقال لى : هذا يوم
فرح وسرور يُستقبح فى مثله الصوم كالعيد ، فتأملت قوله فوجدته حقاً ، وكأنه
أيقظنى من النوم ، انتهى .

وقال ابن قنفذ السابق فى رحلته ما صورته : وكان ابن عاشر رحمه الله تعالى

(١) ضره أهل الدنيا : جربوه وعرفوا شيمته ، وتطارحهم : أراد أنه لم يخاطبهم
فكانه طرحهم ورمى بهم (٢) تقول « فلان يجرمز لينباع » تريد تقبض واجتمع ،
وذلك كناية عن أنه متوثب ومستعد لينطلق فى أمره

فريدا في الورع ، ميسراً عليه في ذلك أتم تيسير ، محفوظاً من كل ما فيه شبهة ، كثير النفور من الناس ، وخصوصاً أصحاب الولاية في الأعمال ، وخرجت على يده تلامذة نجباء أخيار ، وطريقه أنه جعل « إحياء علوم الدين » ^(١) بين عينيه ، واتبع ما فيه بجد واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجة في ذلك الطريق ، وأول اجتماعي به نقر مني ، فحبستهُ بيدي ، وهزنته ، فتبسم ووقف معي ، وسألني عن نسبي ، ودعا لي ، وطلبته بما يطمئني ، فاعتذر لي بالإقلال ^(٢) ، ثم قال : أمهل ، فدخل وأخرج لي حبات تين يابسة في يده اليمنى ، وغطاها باليد اليسرى ، ودفعها إلي ، وضحك معي ، وعجب الحاضرون من لياقته وانشراحه معي ، لأنه لا ينبسط إلى أحد ، وحصل لي بذلك فخر لا يدرى قدره إلا مَنْ حاول بعضه معه ، وقصدني كثير من الخواص فسألني عن مجلسي معه وما وقع من جوابه وسؤاله ، وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه في عام سبعة وخمسين وسبعائة على لقائه فلم يقدر عليه بوجه ، وحجبه الله تعالى حتى تبعه يوم الجمعة من الجامع الأعظم على قدمه ، والناس ينظرونه ، وهو لم يره ، فرجع ، ولم يكن قوته إلا من نسخ العمدة في الحديث ، وكيف يبيعها ، ولمن يبيعها ، ولا يأخذ إلا قيمتها ، ولم تزل حالته وبركته في زيادة إلى أن توفي سنة ٧٦٥ ، وسأله بعض الأخيار بمحضري عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني ؛ لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذي له هذه الدرجة يبرئ من العاهة ، والنصراني لا يبرئ ، ثم قال : وهل يبرئ الفقيه من العاهة ؟ فقال له : نعم ، ثم نظر يميناً وشمالاً ليجد صاحب عاهة فيأتي بالعيان ، فلم يجد أحداً ، وكأنه اغتاظ لهذا السؤال ، ثم أخرج يده وقال : يأتي لمن يقعد عن الحركة ، فيحبسه بيده ، ويقيمه وقد ذهب ألمه بعد أن جثا إلى الأرض في الصفة ، ثم قال : وسئل بعضهم عن هذا ، وكان السائل نصرانياً في زى المسلم ، فقال له : الفرق

(١) « إحياء علوم الدين » كتاب شهير لحجة الإسلام الغزالي

(٢) الإقلال : يراد به الفقر ، وأراد أنه لا يجد ما يطعمه إياه

بينهما سقوط الزنار من وسطك ، قال : فسقط ، وفضحه الله تعالى ! وأسلم بسبب ذلك ، انتهى كلام ابن قنفذ القسطيني ، رحمه الله تعالى ! .

وترجمة ولي الله تعالى سيدى الحاج ابن عاشر - نفعنا الله تعالى ببركاته ! - متسعة جداً ، وكراماته ومناقبه لا نبلغ لها حداً ، ولا نطيق لها عدداً ، وإما ألمعنا بذكره قصداً للتبرك به ، والله ولي التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

رجع إلى نظم لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى - فنقول : ومن مداعباته لسان الدين رحمه الله تعالى قوله :

ومولع بالكتب يبتاعها بأرخص السوم وأغلاها

في نصف الاستدكار أعطيته مختصر العين فأرضاه

ويعنى بمختصر العين الزبى فافهم ، وقال رحمه الله تعالى من قصيدة :

والله ما اعتل الأصيل ، وإتما تعلم من شجوى فبان اعتقاله^(١)

وهذا غاية فى المبالغة وحسن التعليل .

وقال رحمه الله تعالى . وقفت على قبر المعتمد بالله فى مدينة أغمات فى حركة

حاجة^(٢) أعملتها إلى الجهات المراكشية ، باعتمها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار ، عام

واحد وستين وسبعائة ، وهو بمقبرة أغمات فى نشر^(٣) من الأرض ، وقد حفت به

سِدْرَة ، وإلى جنبه قبر « اعتماد » حظية مولاه رُمِيك ، وعليهما أثر التغرب

ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ، فأنشدت

فى الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا وياسراج اللىالى المدلهيات

(١) الأصيل : الوقت قبيل غروب الشمس ، والهواء حينئذ عليل : أى لاهر

فيه ولابرد ، ولكنه صرف ذلك اللفظ إلى العلة التى هى المرض ، وعلمها بما ذكر

(٢) فى ب « فى حركة راحة » (٣) نشر من الأرض : أى مكان عال مرتفع

وأنت من لوتخطى الدهر مصرعه إلى حياتي لجادت فيه أيباتي
 أناف قبرك في هَضْب يميزه فتنتجيه حَفَيَّات التحيات^(١)
 كرمت حيا وميتا واشتهرت علا فأنت سلطان أحياء وأموات
 ماريء مثلك في ماض، ومعتدى أن لا يرى الدهر في حال ولا آت
 وقد تقدم هذا في القسم الأول في الباب السابع منه ، وكررت هـنا ، والله الموفق
 وقال رحمه الله تعالى موريا حين أكل مشرف الدار القابض : أي أكل ماله :
 مشرف دار الملك ما باله منتفخ الجوف شكا نافضا^(٢)
 فقيل لي ليس به علة لكنه قد أكل القابضا

وقال :

يا نفس لا تصغى إلى سلوة كم أخلف الموعد عرقوب
 وأنت يا قلبي وصالك إبراهيم بالحزن ويعقوب
 وقال في السعيد أبي بكر ابن السلطان أبي عنان :

أمير كأن قير الدجى أفاض الضياء على صفحتيه
 تملأ قلبي من حبه غداة نظرت بعيني إليه
 فلا بسط الدهر كف الردى لذلك الشخيص وذاك الوجيه
 وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق :

تعلم طيفوري خلال سمييه وإن كان منسوباً إلى غير بسطام^(٣)
 وجاء فقير الوقت لابس خرقة فليس براض غير صحبة صوام
 فديتك لا تردده عنك مخيبا ودرسه يامولاي قصة بلعام

وقال : مما كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور ، وقد وصل ولده إلى سلا ومنع

(١) تنتجيه : تقصده ، والتحيات : جمع تحية ، والحفية : التي تريد الحفاوة به
 (٢) النافض ، هنا : الحمى (٣) أصل الطيفور الطائر الصغير ، وطيفور : اسم
 أبي يزيد البسطامي ، وهو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي (انظر الترجمة
 رقم ٢٨٩ في ابن خلسكان ٢ / ٢١٣ بتحقيقنا)

ابن الخطيب عن لقائه عذرُ مرضٍ ، وكان نزوله بزاوية النساك :

صدنى عن لقاء نجلك عذر يمنع الجسم عن تمام العبادة
واختصرت القرى لأن حطرحلا في محل الغنى ودار الزهادة
ولوّ أنى احتفلت لم يعن الدهر ولا نلت بعض بعض أراحه
وعلى كل حالة فقصورى عادة إذ قبولك العذر عادة
لاعدمت الرضى من الله والحسنى كما نص وخيّه والزياده
وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته فى قضاء غرضه
برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى ولي فهُوَ خير ولى (١)
أصبحت مالى من عطف أومله من غيره فى مهمات ولا بدل
ما كنت أحسب أن أرمى بقاضية للهجر أقطع فيها جانب الأمل
من بعد ما خلصت نحوى الشفاعة ما بين العلاء والدجا والبيض والأسل
إن كنت لست بأهل للذى طمحت إليه نفسى وأهوى نحوه أملى
فكيف يُلغى ولا ترعى وسيلته دخيل قبر أمير المسلمين على (٢)
من بعد ما اشتهرت حالى به وسرتُ بها الركائب فى سهل وفى جبل
والرسل تترى ولا تخفى نتائجها عند التأمل من قول ولا عمل
ولا ليلى من صبح أطلعه كأن همى قد مدّ الدجّة لى (٣)
لو أننى بآبن مرزوق عقدت يدى وكان محتسما فى خيرة الدول
لسكان كربى قد أفضى إلى فرج وكان حزنى قد أوفى على جدل
ألحت بالعتب لم أحذر مواقعه (أنا الفريق فما خوفى من البلل)
ولست أجد ما خولت من نعم لكنها النفس لا تنفك عن أمل

(١) الحول : القوة ، والحيل : جمع حيلة

(٢) الوسيلة : كل ما توصلت به إلى الشئ

(٣) الدجّة - بضم الدال والجيم وتشديد النون مفتوحة - الظلام

ولست أياس من وعد وعدت به وإنما خلق الإنسان من عجل
وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاي إن الشعر ديوان حكمة يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
وقد وجدَ المختار في الحفل مُنصِتًا له وَحَبَا كعبا عليه وحسانا^(١)
وفيا رواه الناقلون وأثبتوا بذلك ديوانا صحيحا فديوانا
بأن أبا بكر خليفته الرضا وفاروقه الأدنى إليه وعثمانا
وأن عليا قدس الله جمعهم وكرمنا بالقرب منهم وحيانا
لهم في ضروب القول إذ هم فحوله خطابٌ وشعر يستقران تبياناً
وقاض على أهل القريض نوالهم فروض روض القول سجاوتهتان
وأنت أحق الناس أن تفعل الذي به فعلَ المختار دينا وإيماناً
فمازلت تهدي في البرية هديه وتقضى بما يرضيه سرا وإعلاناً
وإن قيل قدرُ المرء ما هو محسن فصنعة نظم القول أرفعه شانا
وقال موريا :

بنفسي حبيبٌ في ثناياه بارق ولكنها للواردن عذابٌ
إذا كان لي منه عن الوصل حاجر فدمعي عقيق بالجفون مذاب
وقال :

عذبت قلبي بالهوى فقيامه في نار هجر ك دائماً وقعوده
ولقد عهدت القلب وهو موحد فعلام يقضى في العذاب خلوده
وقال في التجنيس :

دعوتك للود الذي جَنَّبَاته تداعت مبانها وهمت بأن تهبي

(١) يريد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استمع إلى الشعر وأنصت له ، وأنه أجاز عليه ، فقد أعطى كعب بن زهير بن أبي سلمى اللزى برده حين أنشده لاميته ، وأكرم حسان بن ثابت الأنصاري ودعى له بالتأييد

وقلت لعهد الوصل والقرب بعد ما تنأى وهل أسلو حياتى وأنت هى
ومَنْ شام من جوِّ الشبيبة بارقا ولم تنه عنه النّهى كيف ينتهى

وقال :

ناديت دمعى إذ جد الرحيل بهم والقلب من فرّق التوديع قد وجّبا^(١)
سقطت يا دمع من عيني غداة نأى عنى الحبيب ولم تقض الذى وجبا

وقال :

شلير لعمري أساء الجوار وسد علىّ رحيب الفضا^(٢)
هو الشيخ أبرد شئ يرمى إذا لبس البرنس الأبيض

وقال : قلت أخاطب بعض من أدل عليه وما أولانى بذلك :

إذا قت قلّ بعقيب الكرى إلهى أنت إله الورى
تباركت أنشأتهم من تراب وأنشأتني بينهم من خرا

قلت : ولا خفاء ببشاعة هذا ، فحذفه أولى من اثباته .

وقال يداعب بعض أصحابه :

شيخ رباط إن أتى شادنّ خلوته عند انسداد الظلام
أدلى وقد أبصره دّلوه وقال يا بشرى هذا غلام

وقال فى غرض يظهر :

لم أجد فيه لين بثّ لقلبي وقبولا لحجتي واعتذارى
ثقل الله ظهره بعيال سود الله وجهه بعدار

وقال من قصيدة :

أخذت وأمواج الردى متلاطمه بضبعى يا نجل الوصى وفاطمه

(١) الفرق — بالتحريك — الخوف ، ووجب قلبه يجب : خفق يخفق

(٢) شلير : اسم جبل فى أعمال البيرة لا يفارقه الثلج شتاء ولا صيفا ، وفيه يقول

بعض المغاربة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم وشرب الخمر ، وهوشى ، محرم
فرارا إلى نار الجحيم ؛ فإنها أخف علينا من شلير وأرحم

وقال :

ووجه غرست الورد فيه بنظرة
كأن سواد الخال في وجناته
وبينهما في باطن الأمر نسبة
وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء :

ضبط الفقيه فقلت ذاك غريبة
فَدَنَّا إلى وقال قد أصرفكم
وفي آخر سنة أربع وسبعين وجه إلى السلطان أبي حم سلطان تلمسان أبياتا لزومية
في غرض الهناء ، وهي :

وقف الغرام على ثفاك لسانى
فكأنما شكرى لما أوليته
أنا شيعته لك حيث كنت ، قضية
ولقد تشاجرت الرماح فكنت في
ورويت غر مآثر أسفدتها
ولأنت أولى بالتشيع شيمة
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى
جبرت بجبرك كل نفس حرة
وبَدَتْ سعودك مستقيما سيرها
فاستقبل السعد المعاود سافرا
وابغ المزيدي بشكر ربك ولتلق
رعيا لما أوليت من إحسان
شكر الرياض لعارض النيسان
لم يختلف في حكمها نفسان
ميدان نهرك فارس الفرسان
لعلاك بين صحاح وحسان
لم تتفق لسواك من إنسان
بين الورى في مطلع شمسان
وشدا بشكر الله كل لسان
وعلت فقرأ أمامها النحسان
عن أى وجهه للرضا حُسان^(١)
بمضاعف الإنعام والإحسان

(١) حسان - بضم الحاء وتشديد السين المهملة - أى حسن ، ويقال أيضا حسان - بضم الحاء وتخفيف السين - ونظير ذلك قولهم «كبار» قالوه بضم الكاف مع تخفيف الباء وتشديدها ، وفي القرآن الكريم (ومكروا مكرا كبيرا) بالتشديد ، وقال الشاعر في التخفيف :
كحلفة من أبى رياح يسمعها لاهه السكبار

من نظمه
يهىء السلطان
أبا حم

فالشكر يقتاد المزيـد ركائباً تنتاب بابك منه في أرسـان^(١)
ثم السلام عليك يُررى عـرفه طيباً بعـرفِ العود والبـلسـان^(٢)
وقال :

بحق ما بيننا يا ساكني القصبه ردوا على حياتي فهي مغتصبه
ماذا جنيتم على قلبي بينكم وأنتم الأهل والأحباب والعصبه
قلت : ولعل ابن زمرّك قال أبياته التي على هذا الروي المذكورة في غير هذا
الموضع من هذا الكتاب جواباً لهذه حين كان ابن زمرّك من جملة أتباع لسان
الدين ، رحم الله تعالى الجميع !

وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى :

حين ساروا عني وقد خنقنني عبرات قد أعربت عن ولوعي
صحت من ينصر الغريب ؟ فلما لم أجد ناصراً بلغت دموعي
وقال :

قال لي والدموع تنهل سُحباً في عراض من الحدود محول
بك ما بي فقلت مولاي عافا ك المعافي من عبّرتي ونحولي
أنا جفني القريح يروي عن الأعمش والجفن منك عن مكحول
وقال :

أشكو لبسمه الحريق وقد حمى غنى لَمَاء المتهى ورحيقه
ياريقه حيرتني ومطلتني ما أزلت إلا بارد ياريقه
وقال فيمن ركب البحر وماد :

ركب السفينة واستقل بأفقها فكأنما ركب الهلال الفرقد

(١) الأرسـان : جمع رسن — بالتحريك — وهو ما تقاد به الدابة
(٢) البلسان : شجر أبيض الزهر يستعمل زهره في الأدوية ، والأكثر
تحريك اللام

وشكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيبي الأملد^(١)
 وقال عند ما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجها إلى الأندلس لطلب حقه :
 ولما حثت السير والله حاكم للملك في الدنيا بعز وفي الأخرى
 حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ينقل من بيضاء إلا إلى حمراء
 ويعنى بالبيضاء فاسا الجديدة ، وبالحمراء حمراء غرناطة .

وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس ، وأظنه أبا عبد الله بن جزى ، لما رميت
 عين بعض أهل فاس سألها عنها ، فقال :

يا سيدى عيني قد أودى قذاها بالأنس
 فانظر إليها ترها دار مليك الأندلس

يعنى حمراء ، فأجابه بقوله :

وُقِّيتَ مما تشكى من القذى والوصب
 ما رمدت عينك بل عينُ العلا والأدب
 فلتحمدن إن لم تكن دار مليك المغرب

يعنى بيضاء ، وهذا من غريب ما يحاضر به .

رجع - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى :

أجاد يراع الحسن خطاً عذاره وأودعه السرّ المصون الذى يدرى
 ولم يفتقر فيه نلخم وطابع فنبسمه أغناه عن طابع السر

وقال فى غرناطة :

أحييك يا معنى السكال بواجب وأقطع فى أوصافك العرّ أوقاتي
 تقسم منك الترب قومي وجيرتي ففى الظاهر أحيائى وفى البطن أمواتي

(١) ماد القضيبي يميد : تنهى واهتز

وقال في غرض ينحو نحو المشاركة :

رموا بالسؤ حليف الغرام وأدمعه كالحيا الهاطل (١)
أعوذ بعزك ياسيدي لذلي من دعوة الباطل

وقال :

ياليل طلت ولم تجدد بتبسم وأريتني خلق العبوس النادم
هلاً رحمت تغربني وتفرق لله ما أقساك يا ابن الخادم

وقال في مروحة سلطانية :

كأنني قوس الشمس عند طلوعها وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر
وإلا فما هبت بمحتدم الوغى بنصر ولكن من بنودبني نصر (٢)
وقال يخاطب شيخه ابن الجيآب :

بين السهام وبين كُتُبِكَ نسبة هذى وهذى في الكفانة تجعل (٣)
وإذا أردت لها زيادة نسبة وقال بتغزل ، وفيه معنى غريب :

إن اللحاظ هي السيوف حقيقة ومن استراب فحجتي تكفيه
لم يدع غمدُ السيف جفنا باطلا إلا لشبه اللحظ يغمد فيه
قيل : وأحسن منه قول غيره :

إن العيون النُّجَلُ أمضى موقعا من كل هندی وكلُّ يمانی
فضل العيون على السيوف بأنها قتلت ولم تخرج من الأجفان
وأصل ما قال لسان الدين قول الأول :
بين اللحاظ وعينه مناسبة من أجلها قيل للأغمد أجفان

(١) الحيا : المطر ، والهاطل : المنهمر

(٢) في ب « وإلا كما هبت بمحتدم الوغى » وأصلحته إلى ما ترى

(٣) الكفانة - بكسر الكاف - وعاء السهام

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في الساعة ، وتسميها المغاربة المنجاة :
 تأمل الرمل في المنجان منقطعاً يجري وقد رَدَّ مُعَمَّرًا منك منتهياً
 والله لو كان وادي الرمل ينجده ما طال كامله إلا وقد ذهباً
 وقال :

أقول لعاذلي لما نهاني وقد وجد المقالة إذ جفاني
 علمت بأنه مُرُّ التجني وفاتك أنه حلو اللسان

وقال في غرض صوفي :

لا تنكروا إن كنت قد أحببتكم أو أننى استولى على هواكم
 طوعاً وكرها ما ترون فإننى طُفْتُ الوجود فما وجدت سواكم
 وقال يمدح ، وفيه تورية :

وإن نَظَرْتُ إلى لألاء غرته يوم الهياج رأيت الشمس في الأسد^(١)

وقال مما يكتب على طاق الماء بباب القبة :

أنا طاق تزهوى الأيام تعبت في بداعى الأفهام
 وتبدَّيتُ للنواظر محرا با كأن الإناء في إمام
 واقف للصلاة حتى إذا ما جئت للشرب حان منى سلام

وقال في ذلك أيضا :

يا صانعى الله ما أحكمته فلأنت بين العالمين رئيسُ
 أحكمت تاجى يوم صغت رقوشه فصبت إليه مفارق ورؤس
 وأقت في محرابه فكأنه مجلى إناء الماء فيه عروس

وقال في المشيب :

إنى لمبلى بالهوى من بعدما للوخط في القودين أى ديب^(٢)

(١) أراد بالشمس غرته ، وأراد بالأسد الممدوح نفسه ، والأسد منزله من منازل الشمس ، ومن هنا جاءت التورية (٢) الوخط ، هنا: الشيب ، والفودان: جانبا الرأس

لبس البياضَ وحلَّ ذروة منبر منى ووالى الوعظَ ، فعل خطيب
وقال رحمه الله تعالى :

والله ما جانٍ على مالٍ أواجهه من ذبٍّ عن عرضه
والناس في خير وفي ضده هم شهداء الله في أرضه

وقال :

إلهى بالبيت المقدس والمسعى وجمع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا^(١)
وبالموقف المشهود يارب فى منى إذا ما أسال الناس من خوفك الدمعا
وبالمصطفى والصحب عجل إفاقتى وأنجح دعائى فيك يا خير من يدعى
صدعتُ وأنت المستغاث جنابه أقل عثرتى يا موئلى واجبر الصدعا
وقال رحمه الله تعالى فى بنيونش سبتة :

بنيونش أسنى الأماكن رقعةً وأجلُّ أرض الله طراشانا
هى جنة الدنيا التى من حلَّها نال الرضا والروحَ والريحانا
قالوا القمود بها فقلت فضيلة حيوانها قد قارب الإنسانا

وفى بينونش هذه يقول أبو عبد الله بن مجبر^(٢) :

بينونش جنة ولكن طريقها يقطع النياطا^(٣)

وجنة الخلد لا يراها إلا فتى يقطع الصراطا

وقال ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

إن الهوى لشكاية معروفة صبر التصبر من أجل علاجها

(١) جمع - بفتح الجيم وسكون الميم - هو المزدلفة ، وهو مكان يؤدي فيه نسك من مناسك الحج

(٢) وقع هنا « مجبر » بالياء الموحدة ، وتقدم ذكره فى ب « مجبر » بالمشنة ، ونهنا عليه مرارا ، وهناك « أبو بكر بن مجبر » ويضبط بالياء وعلى زنة اسم المفعول من نحو أكرم

(٣) النياط - بكسر النون ، زنة الكتاب - عرق غليظ ، نيط به القلب إلى الوتين وإذا قطع مات صاحبه

والنفس إن ألفت مرارة طعمه	يوما ضمنت لها صلاح مزاجها
وقال رحمه الله تعالى :	
ولما رأت عزمي حثيثاً على السرى	وقد رابها صبرى على موقف البين
أنت بصحاح الجوهرى دموعها	فقابلت من دمعى بمختصر العين
وقال رحمه الله تعالى :	
تذكرت عهداً كان أحلى من الكرى	وأقصر من إلام طيف خياله ^(١)
فيا ليت شعرى مَنْ أتاح لى المنى	وعذب بالى هل أمر بباله ^(٢)
وقال رحمه الله تعالى :	
عيني جنت فعلاًم تحرق أضلعي	أبما جنى جار يـمـذب جار
يا قلب لا تدهشك نيران الهوى	فكنار إبراهيم تلك النار ^(٣)
فاصبر على ما حُمِّلُوا تنل المنى	بالسبك أدرك نقشه الدينار
وقال رحمه الله تعالى :	
وما كان إلا أن جنى الطرف نظرة	غدا القلب رهنا فى عقوبة ذنبه
وما العدل أن يأتى امرؤ بحريرة	فيؤخذ فى أوزارها جار جنبه
وقال رحمه الله تعالى :	
برى جسدى فيكم غرام ولوعة	إذا سكن الليل البهيم ثور
فلولا أنبنى ما اهتدى نحو مضجعى	خيالكم بالليل حين يزور
ولو شئت فى طى الكتاب لزرتكم	ولم تدر عنى أخرف وسطور
وقال رحمه الله تعالى :	
بلد تحف به الرياض كأنه	وجه جميل والرياض عذاره

(١) الكرى : النوم ، والإلام : الزيارة

(٢) أناح : هياً ويسر ، والمنى : جمع منية - بالضم - وهى ما يتمناه للرء

(٣) يريد أنها برد وسلام كنار إبراهيم

وَكأَما واديه مِغصَمُ غادةٍ ومن الجسور المحكمات سوارُهُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا حمو صاحب تلمسان ويشكره على ما كان
أعان به أهل الأندلس :

لقد زار الجزيرة منك بحرٌ يمدُّ فليس نعرف منه جزراً

أعدت لها بعهدك عهدَ موسى سميكٌ فهي تتلو منه ذكراً

أقت جدارها وأفدت كنزاً ولو شئت اتخذت عليه أجراً

وقال أيضاً :

وقالوا الجزيرة قد صوحت فقلت غمام الندى تنتظر

إذا وكفت كف موسى بها غماما يعود الجناب الخضر

وقال رحمه الله تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية :

أفادت وجهتي بنداك مالا قضى ديني وأصلح بعض حالي^(١)

ومنتعت الخواطر بانشرح وأطرفت النواظر باكتحال

وأبت خفيف ظهر ، والمطايا بجاهك تشتكي ثقل الحال^(٢)

وشانى للعالم غير شان وحالى بالمسكارم جد حال

فحب علاك إيماني وعقدي وشكر نداك ديني وانتحالي

كما قد صحَّ الله اقطاعى بتأميلي جنابك وارتحالي

وما يبقى سوى فعل جميل وحال الدهر لا تبقى بحال

وكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة فإلى ارتحال

ومن سام الزمان دوام أمر فقد وقف الرجاء على الحال

(١) أفادت : كسبت وحصلت الفائدة ، والندى - بالفتح مقصورا - الجود

(٢) أبت : رجعت ، وخفيف ظهر : يريد أنه لم يمتن عليه فيثقل حمل امتنانه ،

و « اللطايا تشتكي إلخ » كناية عن كثرة ما أعطاه

وقال رحمه الله تعالى في الضَّرَاعة إلى ربه ، والاعتراف بذنبه :

مولاي إن أذنبت ينكر أن يرى منك السكّال ومنى النقصان
والمعفو عن سبب الذنوب مسبب لولا الجنائيه لم يكن غفران

وقال رحمه الله تعالى :

سلام على تلك المراجع ؛ إنها معاهد الألفي وعهد صحابي (١)
ويا أسة المغنى انعمي فلطالما سكبت على مشواك ماء شبابي

وقال سماحه الله تعالى :

أموطني الذي أزعجتُ عنه ولم أرزأ به مالا ولا دم (٢)
لئن أزعجت عنك بغير قصد فقبلي فارق الفردوس آدم

ومن ميلاديته رحمه الله تعالى قوله :

ما على القلب بعدكم من جناح أن يرى طائراً بغير جناح
وعلى الشوق أن يشبَّ إذا هب بأنفاسكم نسيم الصباح
جيرة الحى والحديث شجون والليالى تلين بعد الجراح
أزرون السلو خامر قلبي بعدكم ؟ لا وفالق الإصباح
ولو أنى أعطى اقتراحى على الأيام ما كان بعدكم باقتراحى
ضايقتنى فيكم صروفُ الليالى واستدارت على دُورِ الوشاح
وسقتنى كأس الفراق دهاقا فى اغتباق مواصل واصطباح
واستباح من جدتي وفتاى حرماً لم أنله بالمستباح

ومنها :

يا ترى والنفوسُ أسرى أمانٍ ما لها من وثأفها من سراح

(١) المراجع : جمع مربع ، وهو منزل القوم زمن الربيع ، والألف : جمع ألف اسم فاعل من « أله يأله » أى أحبه

(٢) أزعجت عنه : اضطرت إلى زياله ومفارقته

هل يباح الورود بعد ديار أويتاح اللقاء بعد انتزاح
 وإذا أعوز الجسوم التلاقي ناب عنه تعارف الأرواح
 وهي طويلة لم يحضرني منها الآن سوى ما ذكرته .

وقد حذا حذوها الفقيه الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضي
 القضاة ولي الدين بن خلدون صاحب التاريخ ، فقال في مولد عام ثمانية وسبعين
 وسبعائة ، واستطرد لملاح السلطان أبي حمو موسى صاحب تلمسان الذي تقدم
 ذكره قريبا :

مألى الصب في الهوى من جُنَّاح	أن يرى حِافَ عبرة وافتضاح
وإذا ما الحب عيل اضطبارا	كيف يصنئ إلى نصيحة لاح (١)
يارعى الله بالمحصَّب ربعا	آذنت عهدته النوى بانتزاح (٢)
كم أدرنا كأس الهوى فيه مزجا	رب جد من الجوى في المزاح
هل إلى رَسمه الحيل سبيل	يا حُدَاة البطى تلك الطلاح (٣)
نسأل الدار بالخليط ونسقى	ذلك الربع بالدموع السِّفاح
أى شجو عاينت بعد نواها	من أسى لازم وصبر مزاح
أهل ودى إن راكم برَّح وجدى	من صبا بارق وبرق لباح
فاسألوا البرق عن خفوق فؤادى	والصبا عن سقام جسمى المتاح
يا أهيل الحى نداء مشوق	ماله عن هوى الشُّمى من برَّاح
طلنا استعذب المدامع ورَّدا	في هواكم عن كل عذب قراح
عاده بالطلول للشوق عيِّدُ	من حمام بدوحن صداح
من لِقَابٍ من الجوى في ضرام	ولجفن من البكا في جراح

(١) عيل اضطبارا : لم يطق حمل الصبر ، وشق عليه ، واللاحى : اللأثم المتسخط

(٢) المحصَّب - بتشديد الصاد مفتوحة - مكان بين مكة ومي

(٣) الرسم : ما بقى من آثار الديار لاصقا بالأرض ، والحيل : المتغير الذى تحول

عن الحال التى كنا نعهدا

ولصب يهيجه الذكر شوقا فهو سكرًا يرتاد من غير راح
وليام قضيت للهو فيه — وطراً والشباب ضا في الجناح
راكباً في الهوى ذلول نقاب ساحباً في الغرام ذيل سراح
ونجوم التي تنير إلى أن روع الشيب سر بها بالصباح (١)
أي مسرى حمدت لم أخل منه بسوى حسرة وطول افتضاح
واختارى يوم القيامة إن لم يغفر الله زلتي واجترأ (٢)
لم أقدم وسيلة فيه إلا حب خير الوري الشفيع الماحي
سيد العالمين دنيا وأخرى أشرف الخلق في العلا والسماح
سيد الكون من سماء وأرض سره بين غاية وافتتاح
زهرة الغيب مظهر الوحي معنى النور كنه المشكاة والمصباح
آية المكرمات قطب المعالي مصطفى الله من قريش البطاح
أول الأنبياء تخصيص زلتي آخر المرسلين بعث نجاح
صفوة الخلق أرفع الرسل قدرا وسراج الهدى وشمس الفلاح
من ميلاده بمكة ضاءت من قرى قيصر جميع الضواحي
وخبث نار فارس وتداغت من مشيد الإخوان كل النواحي
من رقي في السماء سبعا طباقا ورأى أي ربه في اتضاح
ودنا منه قاب قوسين قربا ظافرا في العلا بكل اقتراح
من هدى الخلق بين حمى وسود وجلا ليل غيهم بالصباح
من يجير الوري غداً يوم يجزى كل عاص وطائع باجترأ (٢)
من إلى حوضه وظلّ لواه ياجأ الناس بين ظام وضاحي (٣)

(١) في ب « روح الشيب سر بها بالصباح » وروع : أي أخاف ، والسرب - بالكسر - أصله جماعة القطا والظباء ونحوهما
(٢) اجترأ : ارتكب الإثم (٣) الضاحي : المتعرض للشمس والحر

أحمد المجتبي حبيباً ، وأنى
 في أناجيله المسيح تلاه
 ولكم حجة وبرهان صدق
 إن في النجم والنبات لآيا
 معجزات فتن المدارك وصفاً
 يارواة القريض والشعر عجزاً
 إنما حسبنا الصلاة عليه
 يا إلهي بحق أحمد عفوا
 وأدم دولة الخليفة موسى
 مفخر الملك مُستقر المزايا
 ناصر الحق خاذل الجور عدلاً
 يتلقى الندى بوجهه حياً
 وله المكرمات إرثاً ولبساً
 من عللاً باذخ وفخر صميم
 وأحاديث في المعالي حساب
 عاقد صفقة العلا كل حين
 للندى والهدى يروح ويغدو
 ملك تشرق الأسرة منه
 وإذا ما علا بعالي العوالى
 لبس الدهر منه حلة حسن

فوق عز الحبيب مرمى طماح ؟
 باسمه والكليم في الألواح
 في سماع أتى بها والتماح
 بهرت الجاد والأرواح
 وحساباً كل زهر أو كالصباح^(١)
 ما عسى تدركون بالأمداح
 وهى للفوز آية استفتاح
 عن ذنوب جنيتها قباح
 ذى المعالى المينة الأوضح
 مظهر اللطف ذو التقى والصلاح
 ملجأ الخائفين بحر السباح
 ويلاقى العدا بباس صفاح
 حاز حدا بها معلى القдах
 وكل بحث ومجد صراح
 رويت عنه فى العوالى الصّحاح
 فائز فيــــه سعيه بالرباح
 أى مغدّى إلى العلا ومرّاح
 فى سماء السرير نور صباح
 صهوة الجرّد فهو ليث الكفاح
 وثنى للسرور عطفَ مراح

(١) المدارك : أراد بها العقول ، وفتن المدارك : جاوزن مدى ما تستطيع العقول إدراكه ، والزهر - بالضم - أى النجوم ، واحداً أزهر ، أو زهراء

وعلى عائق الخلافة منه طرز فخر سبي النهى بالتماح
ورث الملك شامخاً عن سراة شيدوا ركنه بأيدي الصفاح
من بنى القاسم الذين تحلوا بالمعالي واستأثروا بالفلاح
فرغوا هضبة الخلافة مجدا رفعوا سقفه على الأرماح
نشروا راية المفاز حمدا خافق النور بالربا والبطاح
يا إماما بَدْءَ الملوك جلالا وجها لا فُديت بالأرواح
أنت شمس السكال دمت عليها في اغتباق من المنى واصطباح
وبنوك الأعلون أنجم سعد زاهرات بنورك الوضاح
وأبو تاشفين بدر منير زانه الله بالخلال الصُّباح
أكل العالمين خُلُقاً وخُلُقاً أشرف الناس في الندى والكفاح
وبكم زينت سماء المعالي واهتدى الناس في الدجى والصبح

احتفال السلطان أبي حمز بالمولد النبوي
وكان السلطان أبوحمو المدوح بهذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله . ومن احتفاله له ما حكاه شيخ شيوخنا شيوخنا الحافظ سيدي أبو عبد الله التتسي ثم التلمساني في كتابه « راحُ الأرواح » ، فيما قاله المولى أبوحمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح ، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح ونصه : أنه كان يُقيم ليلة الميلاذ النبوي - على صاحبه الصلاة والسلام - بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نَمَارِقٍ ^(١) مصفوفة ، وزَرَائِي مَبْنُوثة ، وَبُسْطٍ مَوْشَاه ، ووسائد بالذهب مغشاه ، وشمع كالأسطوانات ^(٢) ، وموائد كالهلالات ، ومباخر منصوبة كالقباب ، يَخَالُهَا المَبْصَرُ تَبْرًا مذاب ، ويقاض على

(١) النمارق : جمع نمرقة - بضم النون والراء بينهما ميم ساكنة - وهي الوسادة
(٢) الأسطوانات : جمع أسطوانة ، وهي العمود ، يريد عظم الشموع

الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، فقتشها الأنف وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن رِيَّاتها الأرواح ويخامر ، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفرات ترغب في الإقلاع عن الأنام ، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجاة^(١) قد زخرت كأنها حلة يمانية^(٢) ، لها أبواب موجهة على عدد ساعات الليل الزمانية ، فهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة بأسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويُسرّاهَا على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة ، هكذا حالم إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداء المفادى حى على الفلاح ، انتهى .

وقال التنسي المذكور في كتابه المسمى « بنظم الدر والعقيان ، في شرف بنى زِيَّان ، وذكر ملوكهم الأعيان » ما نصه : وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة ، فما شئت من تمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولَدَان قد لبسوا أقبية الخز الملوّن وبأيديهم مباخر ومرشاة ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجاة^(١) ذات تماثيل تجلّين بحكمة الصنعة ، بأعلاها أيكّة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويحتله فيها أرقم خارج من كوة بجذر الأيكّة صاعدا ، وبصدرها أبواب مرتجة

(١) المنجاة : هى الساعة ، بلغة أهل المغرب

(٢) اليمنية : المنسوبة إلى اليمن ، وكانت اليمن مشهورة بصناعة الحرير ونحوه

بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُورٌ
رأس الخزانة قرأ كمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت
أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عُقَابَانِ في يد كل واحد
منهما صنجة صُفْرٌ^(١) يلقيا إلى طست من الصفر مُحْوَفٌ بوسطه ثقب يفضى بها إلى
داخل الخزانة فيرن ، وينهش^(٢) الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح
باب الساعة الذاهبة ، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، يُبْمَنَّاها
إضبارة^(٣) فيها اسم ساعتها منظوما ، وبُشْرَاها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ،
والمُسْمِع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله
عليه وسلم ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دُورًا ، والرياض نُورًا ، وقد
اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين ،
وتلذ بسماع أسمائها الآذان ، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس
بغُرَّثَان ، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه ، وكل ذلك بمراى
منه ومُسْمِع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح ، على هذا الأسلوب تمضى ليلة المصطفى
صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ، أعلى الله تعالى مقامه في عليين ! وشكر له
في ذلك صنيعه الجميل آمين ! وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيدا
في مدح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يبتدىء المسمع في ذلك الحفل
العظيم بإنشاده ، ثم يتلو إنشاد مَن رُفِعَ إلى مقامه العلى في تلك الليلة نظما ، انتهى
وهو أتم مَسَافَا بما في « راح الأرواح » .

ولا بأس أن نلم ببعض المقطوعات التي أنشأها الكتّاب أبو زكريا يحيى

(١) الصفر — بالضم — النحاس الأصفر .

(٢) النهش : العض ، والأرقم : الثعبان .

(٣) إضبارة : أراد ورقة ، والأصل فيها الحزمة من الصحف ومن السهام .

ابن خلدون المذكور على لسان جارية المنجاة في مخاطبة السلطان أبي حمو معلمة
بما مر من ليل ، ففي مضى ساعتين قوله :

أخليفة الرحمن والملك الذي تنول عز عَلاَهُ أُملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكى عَلا بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهرها وَجْههُ الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت تشئ عليك ثَنًا الرياض على المطر
لازال هذا الملك منصورا بكم وَبَلَّغَتْ مما ترتجى أسنى الوطر
وقوله في مضى ثلاث ساعات :

أمولاي يا ابن الملوك الألى لهم في المعالى سنى الرتب^(١)
تولت ثلاث من الليل أبقت لك الفخر في مجدهما والعرب
قدم حجة الله في أرضه تنال الذي شئتَه من أرب
وقوله في مضى ست ساعات :

يا ماجدا وهو فرد تحاله في عساكر
ست من الليل ولت ما إن لها من نظائر
دامت لياليك حتى إلى المعاد نواضر
وقوله في مضى ثمان ساعات :

يا أكرم الخلق ذاتا وأشرف الناس أسرة
مرت ثمان وأبقت في القلب منى حسره
فيهن كان شبابي أخا نعيم ونضره
ولّى بها الدهر عني تُرى لها بعد كُره^(٢)

(١) سنى الرتب : رفيعها وعاليها ، والرتب : جمع رتبة — بالضم — وهى المنزلة

(٢) الكُره — بفتح الكاف وتشديد الراء — الرجعة .

فأله يقيق مولى يطيل في السعد عمره

وقوله في مضي عشر ساعات :

يا مالك الخير والخيل التي حكمت له بعز على الأيام مقبيل
هذا الصباح الذي لاحت بشأره والليل ودّعنا توديع مرتحل
لله عشر من الساعات باهرة مضين لا عن قلى منا ولا ملل^(١)
كذا تمر ليالى العمر راحلة عنا ونحن من الآمال فى شغل
نمسي ونصبح فى هو نسربه جهلا وذلك يُدّنيننا من الأجل
والعمر يمضى ولا ندرى فوا أسفى عليه إذ مر فى الآثام والزلل
يا ليت شعرى غدا كيف انخلاص به ولم تقدم له شيئا من العمل
يارب ، عفوك عما قد جنته يدي فليس لى بجزاء الذنب من قبل
يارب وانصر أمير المسلمين أبا فهو الرضا وأنه غاية الأمل
وأبق فى العز والتمكين مدته وأعل دولته العرا على الدول

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فنقول :

وأما مؤشحاته وأزجاله فكثيرة ، وقد انتهت إليه رئاسة هذا الفن ، كما صرح بذلك قاضى القضاة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه الكبير ، ولنذكر بعض كلامه ، إذ لا يخلو من فائدة زائدة ، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه :
وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قُطْرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التعميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا منه سَمَوْهُ بالموشح ، ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا ، يكثرُونَ منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويُسمُونَ للتعديد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعدُ إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل

(١) القلى — بكسر الكاف مقصورا — البغض ، والملل : السآمة .

كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ،
ويمدحون ، كما يفعل في القصائد ، ويتجاوزون في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه
الناسُ وجملة الخاصة والكافة ؛ لسهولة تناوله ، وقرب طريقه ، وكان الخترعُ لها
بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ،
وأخذ عنه ذلك ابنُ عبد ربه صاحب العقد ، ولم يذكر لها مع المتأخرين ذكر ،
وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدها عبادة القزاز
شاعر المعتصم بن صمّادح صاحب المريعة ، وقد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع
أبا بكر بن زُهر يقول : كلُّ الوشّاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بَدْرُ تَم شمس ضحى غصن نَقَى مسك شَمَّ

ما أتم ما أوضعا ما أوزقا ما أنم

لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاخ من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ،
وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب
طليطلة ، قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول :

قد ترم بأبدع تلحين وشقت المذائب ^(١) رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يقول :

تخبط ولم تسلم عساك المأمون مروّع الكتائب ^(٢) يحى بن ذى النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملتزمين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان
حلبتهم : الأعمى التطيلي ، ثم يحيى بن بَقى ، وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله :

كيف السبيل إلى صبرى وفي المعالم أشجان

(١) المذائب : جمع مَذْب — بزة المنبر — وهو الجدول : أى النهر الصغير

(٢) الكتائب : جمع كتيبة ، وأراد الجيش ، ومروعا : مخيفها

والركب وسط الفلا بالحررد النوام قد بانوا^(١)
وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة
من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة
وتأنق فيها ، فتقدم الأعمى الخطبلى للإشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحك عن جُحان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خَرَّقَ ابْنُ بَقِي موشحته ، وتبعه الباقر
وذكر الأعمى البطلاني أنه سمع ابن زُهر يقول : ما حسدت قط وشاحا
على قول إلا ابن بَقِي حين وقع له :

أما ترى أحمد في مجده العالى لا يلحق

أطاعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان في عصرهم أيضاً
الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ، ومن الحكايات المشهورة
أنه حضر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب سر قسطة فألقى عليه بعض موشحته
* جرر الذيل أيماجر * فطرب المدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلاء أبى بكر

فلما طرق ذلك التلاحين سمع ابن تيفلويت صاح « واطرباه » وشق ثيابه ، وقال :
ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشى ابن باجة
لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً في
نعله ومشى عليه .

ثم قل ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين

(١) الركب : ركاب الإبل ، أو الركاب عامة ، والفلا — بالفتح مقصوراً —
الصحارى ، والحررد — بضم الحاء وتشديد الراء مفتوحة — أحد جموع الخريدة ،
وأصلها الأولوة قبل أن تثقب ، وأطلقوها على الفتاة العذراء تشبيهاً بها ، وبانوا :
فارقوا الديار وانفصلوا عنها وبعثوا

محمد بن أبي الفضل بن شَرَف ، إلى أن قال : وابن هردوس الذى له :
يا ليلة الوصل والسعود بالله عودى
وابن مؤهل الذى له :

ما العيد فى حلة وطاق وشم طيب
وإنما العيد فى التلاقي مع الحبيب

وأبو إسحاق الديوبى ، قال ابن سعيد : سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول :
إنه دخل على ابن زُهر ، وقد أسنَّ ، وعليه زئ البادية ، إذ كان يسكن بمحصن
سبتة ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه
موشحة وقع فيها :

كل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهار فى حُلل خضر من البطاح
فتحرك ابن زُهر ، وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبر ، قال : ومن تكون ؟
فأخبره ، فقال : ارتفع ، فوالله ما عرفتك

قال ابن سعيد : وسابق الخلبة التى أدركت هو أبو بكر بن زُهر ، وقد شرقت
موشحانه وغربت ، قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن
زُهر : لو قيل لك : ما أبدع ما وقع لك فى التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما للمولاه من سكره لا يُفريق ياله سكران
[من غير خمر ما للكثير المشوق يندب الأوطان]^(١)
هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا
إذ يستفاد من النسيم الأربع مسك دارينا
وإذ يكاد حسن المكان البهيج أن يُحيينا

(١) سقط من الأصول كلها ما بين المعقوفين ، ونظام التوشيح لا يتم إلا به ، وقد
أثبتناه عن ابن خلدون (٥٢٠/١) الذى ينقل المؤلف هذا الموضع كله عنه .

نهر أظله دوح عليه أنيق مؤنق فينان
والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان
واشتهر بعده ابن حيون ، إلى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمُرسية ، ذكر
ابن الرانس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه ، فأنشده موشحة لنفسه ، فقال له
ابن حزمون : ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف ؟ فقال على
مثل ماذا ؟ فقال : على مثل قولي :

يا هاجرى هل إلى الوصال منك سبيل
أو هل يرى عَنْ هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغير نأطة ، قال ابن سعيد : كان والدى يعجب بقوله :

إِنَّ سَيْلَ الصَّبَاحِ فِي الشَّرْقِ عَادَ بَحْرًا فِي أَجْمَعِ الْأَفْقِ
فتداعت نواذب الْوُرُقِ أتراها خافت من الفرق

فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل ، قال ابن سعيد عن والده :
سمعت سهل بن مالك يقول له : يا ابن الفضل ، لك على الوشّاحين الفضل ،
بقولك :

أوا حسرتي لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى
وأفردتُ بالرغم لا بالرضا وبتُّ على جمرات الغضى
أعانق بالمكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال : وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدبّاج موشحاته
غير ما مرة ، فما سمعته يقول « لله درك » إلا في قوله :

(١) الدوح : الشجر العالى الملتف ، والأنيق : الذى يعجب الناظر إليه ،
والفينان : الفارع الطويل والكثير الأفنان .

قسما بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر (١)

حمد الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غدا (٢)

صحَّ يا ليل أذك الأبد

أو نقصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابوني قوله :

ما حال صب ذي ضنى واكتئاب أمرضه يا وياتاه الطيب

عامله محبوبه باجتئاب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جنى جفوني النوم لكنى لم أبكه إلا لتفقد الخيال

وذو الوصال اليوم قد غرنى منه كما شاء وشاء الوصال

فلست باللائم من صدنى بصورة الحق ولا بالمثل (٣)

واشتهر ببر العدوّة ابن خلف الجزائرى صاحب الموشحة المشهورة :

يد الإصباح قد قدحت زناد الأنوار من بحامر الزهر

وابن خنزر (٤) البجائى ، وله من موشحة :

نغر الزمان موافق حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها :

هل درى ظبى الحمى أن قد حنى قلب صب حله عن مكنس

فهو فى حرّ وخفق مثل ما لعبت ربح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس

والمغرب لعصره فقال :

(١) الحجر — بكسر الحاء وسكون الجيم — العقل .

(٢) فى ب « حمد الصبح ليس يطرد » وهو تحريف ، وأثبتنا ما فى ابن خلدون

(٣) فى ب « ولا بالمثل » . (٤) فى ابن خلدون « وابن هزر » .

جارك الغيث إذا الغيث هُمى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلماً في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى ينقل الخطو على ما يُرسم^(١)
زمرأ بين فرادى وثناً مثل ما يدعو الوفود الموسم^(٢)
والحيا قد جَلَل الروض سنى فقغور الزهر منه تبسم

وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعلماً يزدهى منه بأبهى ملبس

في ليالٍ كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلح البصر

حين لذا الأنس شيئاً أو كما هم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أوربما أثرت فينا عيون النرجس

أى شيء لا مرئى قد خلاصا فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الأزهار منه الفرصا أمنت من مكروه ما تنقيه
فإذا الماء تناجى والخصا وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيورا برّما يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس ليبيا فهما يسرق السمع بأذن فرس

(١) في ابن خلدون « ينقل الخطو على ما نرسم » وهو أحسن
(٢) الزمر : الجماعات ، واحدها زمرة ، وفرادى وثناً : كقولهم « شفع ووتر »
(١٥ — فتح ٩)

يا أهيل الحى من وادى الفضى وبقلى سكن أتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا لا أبلى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تعتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفساً فى نفس^(١)
حبس القلب عليكم كرما أفترضون عفاء الحبس^(٢)
وبقلى منكم مقرب بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المغررى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللئى جال فى النفس مجال النفس
سد السهم وسمى ورمى فقوادم نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممثّل فى ضلوع قد برّاها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب فى ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ومجازى البرّ منها والمسى
ما لقلبي كما هبت صبّا عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتبها « قوله إن عذابي لشديد »
جلب الهم له والوصبا فهو للاشجان فى جهد جهيد

(١) يتلاشى : يفتى ويذهب

(٢) العفاء - بفتح العين ، بركة السحاب - الذهاب والانعفاء ، والحبس - بضم الحين -

جمع حبس ، وهو المال الموقوف ، وهذا من اصطلاح الفقهاء

لا عج في أضلعي قد أضرمنا فهي نار في هَشِيمِ اليُس (١)
 لم يدع في مهجتي إلا ذمًا كبقاء الصبح بعد الغلس (٢)
 سلمى يأنس في حكم القضا واعمرى الوقت برُجَعَى ومتاب
 دعك من ذكرى زمان قدمضى بين عتي قد تقضت وعتاب
 واصر في القول إلى المولى الرضا ملهم التوفيق في أم الكتاب
 الكريم المنتهى والمتمنى أسد الشُّرُج وبذر المجلس
 ينزل النصر عليه مثل ما ينزل الوحي بزوح القدس
 إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ، ولا أدري لم لم يكملها ،
 وتتمامها قوله :

مصطفى الله سَمِيَّ المصطفى الغنى بالله عن كل أحد
 مَنْ إذا ما عقد العهد وَفَى وإذا ما قبح الخطب عقد
 من بنى قيس بن سعد وكفى حيث بَيَّتَ النصر مرفوع العمد
 حيث بَيَّتَ النصر محي الحمى وجنى الفضل زكى المغرس
 والهوى ظل ظليل خيا والندى هب إلى المعترس
 هاكها يأسبط أنصار الغلا والذي إن عَثَرَ الدهرُ أقال
 عادة ألبسها الحسن ملا تهر العين جلاء وصقال
 عارضت لفظا ومعنى وحلى قول من أنطقه الحب فقال
 هل درى ظلي الحِمَى أن قد حمى قلب صَبَّ خلّه عن مكْنَسِ (٣)

- (١) الهشيم : الخطب الذي جف حتى تكسر ، واليبس - بفتح الياء والباء جميعا - اليابس
 (٢) الدما - بفتح الدال - بقية الروح في البدن ، وأصله ذماء - بالمد - فقصره
 (٣) المكْنَس - ومثله الكناس بزنة الكتاب - مسكن الظباء

فهو في حَرٍّ وَخَفَقَ مِثْلَ مَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ^(١)

ثم قال ابن خلدون : وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانَوْهُ من الموشحات ، ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصرى التى اشتهرت شرقا وغربا ، وأولها :

حببي ارفع حجاب النور عن العذار

تنظر المسك على كافور فى جنار

كللى يا سَحْبُ تيجان الرب بالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول

الزجل ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلامته ، وتنميق كلامه ، وتصريح أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا فى طريقهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعجمة ، وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان ، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس ، لكن لم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رشاقتها ، إلا فى زمانه ، وكان العهد المسمى ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بمواضر المغرب ، قال : وسمعت أبا الحسن بن جحدر الإشبلى إمام الزجالين فى عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منزله مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عَرِيش ، وأمامهم تمثال أسد من رُخَام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال :

(١) الحقيق : الاضطراب ، والقبس - بفتح القاف والباء جميعا - النار

وعريش قد قام على دكان بحال رواق
 وأسـد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق
 وفتح فـمـو بحال إنسان به الفـواق
 وانطلق من ثم على الصفاح وألقى الصياح
 وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ، وينتـاب نهـرها ،
 إلى أن قل ابن خلدون : وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس ، وقعت له
 العجائب في هذه الطريقة ، فمن قوله في زجله المشهور :

ورذاذ دق ينزل وشعاع الشمس يضرب
 فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب
 والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
 وتريد تجي إلينا ثم تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله :

* لاح الضيا والنجوم سكارى *

ثم قال : وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين
 في فتح مَيُورقة بالزجل المشهور الذي أوله :

من يعاند التوحيد بالسيف يحق أنا برى ممن يعاند الحق^(١)
 قال أبو سعيد : لقيته ولقيت تلميذه البعبع صاحب الزجل المشهور الذي أوله :
 ياليتني إن ريت حبيبي أقبل أذنو بالرسيل^(٢)
 لش أخذ عنق الغزيل وسرق فم الحجيل^(٣)

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الأدب ، ثم من بعدهم لهذه

(١) محقه - يحقه - من باب فتح يفتح - أتى عليه واستأصله

(٢) ريت : أصله رأيت

(٣) لش بكسر اللام - محرفة عن «لأى شيء» وهذا كقولهم «أيش» تحريفا

عن «أى شيء» .

العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية
غير مدافع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواس واملالي نُجَدِّدَ ما خُلِقَ المال إلا أن يبدد
ومن قوله على طريقة الصوفية وينجو منحي الششتري منهم :

بين طـلوع وبين نزول اختلطت الغـزول
ومضى من لم يكن وبقي من لم يزول
ومن محاسنه أيضا قوله في ذلك المعنى :

البعد عنك يا ابني أعظم مصائبى وحين حصل لي قربك سييت قاربي^(١)
انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون ، وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا
المقصد ، ولم أرد إيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلق الغرض به ، وفيما ذكرته منه
كفاية لتعلقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى ، وشهادته له أنه شاعر الإسلام غير
مدافع ، وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيحية .

وأبو بكر بن بآجة الذي أشار إليه ابن خلدون : هو أبو بكر بن الصائغ التجيبي
السَّـرُفُسْطَى ، الذي قال في حقه لسان الدين في « الإحاطة » : إنه آخر فلاسفة
الإسلام بجزيرة الأندلس ، وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب « القلائد »
معاداة فلذلك هجاه في القلائد ، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصه : الأديب
أبو بكر بن الصائغ ، هو رمدعين الدين ، وكمد^(٢) نفوس المهتدين ، اشتهر سُخْفًا
وجنونا ، وهَجَرَ مفروضا ومسنونا ، فما يتشرع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا
يشرع ، ناهيك من رجل ماتظهر من جَنَابَةٍ ، ولا أظهر نَحِيلَةٍ^(٣) إنابة ، ولا استنجى
من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوارٍ في جَدَث ، ولا أقرَّ بباريه ومصوره ، ولا قر

ترجمة أبي بكر
ابن بآجة

(١) سييت : تركت ، وقاربي : أراد أقاربي .

(٢) الكمد — بالتجريك — الحزن .

(٣) أصل الخيلة مكان الظن ، والإنابة : الرجوع إلى الله والتوبة .

بتباريه في ميدان تهوُّره ، الإساءة إليه أجدى ^(١) من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدي من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذ وراء ظهره ثاني عِطْفِه ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على الهيئته ، وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فيئة ^(٢) ، وحكم للسكواك بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهي والإبعاد ، واستهزأ بقوله تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فهو يعتقد أن الزمان دور ، وأن الإنسان نبات أو نور ، حمامه ، تمامه ، واختطافه ، قطافه ، قد محى الإيمان من قلبه فماله فيه رَمَمٌ ، ونسى الرحمن لسانه فما يمرَّ له عليه اسم ، وانتمت نفسه ^(٣) إلى الضلال وانقسبت ، ونفت (يوم تجزى كل نفس بما كسبت) ، فقصر عمره على طَرَبٍ وهو ، واستشعر كل كبر وزهو ، وأقام سوق المويسيقى ، وهام بجادى القطار وسقى ، فهو يعكف على سماع القتلاحين ، ويقف عليه كل حين ، ويعلن بذلك الاعتقاد ، ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله تعالى في أسنس مقاد ، مع منشأ وخيم ^(٤) ، ولوم أصل وخيم ^(٥) وصورة شوَّها الله تعالى وقبحها ، وطلعة إذا أبصرها السكلب نبجها ، وقذار ، يؤذى البلاد نفسها ، ووضارة يحكى الحداد دَنَسُها ، وفند لا يعمر إلا كنفه ، ولددة لا يقيم إلا الصَّعاد جَنَفَه ، وله نظم أجاد فيه بعض إجاده ، وشارف الإحسان أو كاده ، فمن ذلك ما قاله في عبد حبشى كان يهواه ، فاشتمل عليه أسرَّسعى إلى حشاه ، ونقله إلى حيث لم يعلم مَثَوَاه ، فقال :

يا شائقى حيث لا أستطيع أدر كه ولا أقول غداً أغدو فألقاه
أما النهار فليلي ضم شملته على الصباح فأولاه كأخراه
أغر نفسي بأمال مزورة منها لقاءك والأيام تأباه

- (١) أجدى : أنفع وأعظم فائدة . (٢) الفيئة : الرجوع .
(٣) اتعمى إلى الشيء : انتسب إليه (٤) الوخيم هنا : الوصف من اللوخامة ، وهو البويء . (٥) وخيم ، هنا : مؤلف من كلمتين : الأولى واو العطف ، والثانية « خيم » بكسر الخاء — وهو الطبع .

وله فيه حين بلغه موته ، وتحقق عنده قوته :

ألا يارزق والأفـدار تجرى بما شاءت نشأ أو لا نشاء
هل أنت مطارحى شجوى فتدرى وأدرى كيف يحتمل القضاء
يقولون الأمور تكون دورا وهذا فقد فتي اللقاء
وله فى الأمير أبى بكر بن إبراهيم قدس الله تعالى تربته ، وأنس غربته ، مدائح
انتظمت بلبّات الأوان ، ونظمت على كل شئت من الإحسان ، فمن ذلك قوله :

توضح فى الدجى طرف ضرير سنا بلوى الصريمة يستطيع
فيا أبى ولم أبذل يسيرا وإن لم يكفهم ذاك الكثير
بريق لا تقل هو ثغر سلمى فتأثم ، إنه حوب وزور^(١)
فكيف وما أطل الليل منه ولا عبت بساحته الخور
ترامى بالسدير فزاد قلبى من البرحاء ما شاء السدير
فلولا أن يوم الحشر يقضى على بحكم مولى لا يحور
دعوت على المشقر أن يجازى بما تجزى به الدار الفرور

ومنها :

لقد وسع الزمان عليه عدوى وضر بشيله الليث المصور^(٢)
وقلبن الزمان فلا بطون تضمنت الوفاء ولا ظهور
سوى ذكر أطارحه فلولا الأمير لقد عفا لولا الأمير
هام جوده يصف السوارى وسطوته يغيرها البحير
وقلنا نحن كيف وراحته بحور يلتطى فيها سرور^(٣)
فهل فى سمعت به خصام يكون الخضم فيه هو العزيز

(١) الحوب — بضم الحاء المهملة — الإثم .

(٢) الليث المصور : السبع الذى يهصر فريسته : أى يكسرها .

(٣) يلتطى : من قولهم « لطفى الرجل بالأرض » أى لرق ، وأصله لطاء يلطأ

— بالهمز من باب فتح يفتح — فلما سهلت الهمزة بقى بحاله

وكان الأمير أبو بكر يعتقدله هذه المائة^(١) ويراه ، ويَجُودُ أبداً تَرَاهَا^(٢) ، فلما ولى
الثغر والشرق لم يغفله من رَعَى ، ولم يَكِلْهُ إلى شفاعة وسَعَى ، وحمله على ما كان
يعتقده فيه من المقت ، واستعمله على ما كان يقتضيه خلق الوقت ، من إقامة الوعد ،
وتسويغه كل نعيم رَغْد ، وتغليب حجة داحضة^(٣) ، وإنهاض عثرة غير ناهضة ،
فتقلد وزارته ودولته تزهى منه بأندى من الوسمى المبتكر ، وأهدى من النجم فى
الليل المعسكر ، وألويته تيمسُ زهواً ميسَ الفتاة ، ورعيته تبتهج بملكه ابتهاج
حبي بابن المومة ، ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها ، وكتائبه لا يكاد العدو
يعشرها ، فخش إليه وانبرى ، وراش فى تنكيلهم وبرى ، وأقطعهم ما شاء من
مقابحته ، وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتيحه ، فوْغِرَتْ صدورهم السليمة ، واعتلت
صحة ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ، ولم يزل يأخذ فى الإضرار بهم ولم يدع ، ويعان
به ويصدع ، حتى تفرق ذلك الجمع ، وألقاه بين بصر السباب والسمع ، وأفرد
الدولة من ولاتها ، وجردها من حُحاتها ، فاستعجل العدو بذلك واستشرى ، وزار
منه على سَرَقْسطة ليث شرى ، ولما رأى الشرق قد ثار قتأته ، وبدا من ليله إعتامه
ارتحل واحتمل ، وقال «لاناقة لى فى هذا ولا جمل» ، وأقام ببلنسية يشفى نفسه ،
ويستوفى أنسه ، ونجوم سعدا كل يوم غائرة ، والعدو يتربص بها أسوأ دائرة ،
ويروم منازلها ثم يدع الاقتحام ، ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام ، تهيبا لذلك
الملك السرى ، والليث الجرى ، وفى خلال هذه المحاولة ، وأثناء تلك المطاولة ،
عاجل الأمير أبا بكر حمامه ، واستشعر فيها تمامه ، وأجنته الثرى ، وحاز منه بدر
دُجْنَة وليث شرى ، فعطلت الدنيا من علاء وجود ، وأطلت عليها بفقده حوادث
أجذبت تهائمها والنجود ، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيعا ، ويبيت به الأسى
لسامعه ضجيعا :

(١) المائة : ما يمت به إليه : أى يتوصل .

(٢) الثرى : التراب ، ويجوده : يمحطره .

(٣) الحجة الداحضة : الباطلة المدفوعة .

أيها الملك قد لعمرى نعى المجد نَوَاعِيكَ يَوْمَ قَمْنٍ فَنَحْنُ
 كَمْ تَقَارَعْتَ وَالْخُطُوبَ إِلَى أَنْ غَادَرْتَ الْخُطُوبَ فِي التَّرْبِ رَهْنًا
 غَيْرَ أَنِّي إِذَا ذَكَرْتُكَ وَالْدهْرَ إِخَالُ الْيَقِينِ فِي ذَاكَ ظَنًّا
 وَسَأَلْنَا مَتَى اللِّقَاءَ فَقِيلَ الْحَشْرَ قَلْنَا صَبْرًا إِلَيْهِ وَحَزْنَا
 وَكَثِيرًا مَا يُغَيِّرُ هَذَا الرَّجُلَ عَلَى مَعَانِي الشُّعْرَاءِ ، وَيَنْبِذُ الْاِحْتِشَامَ مِنْ ذَلِكَ بِالْعَرَاءِ ،
 وَيَأْخُذُهَا مِنْ أَرْبَابِهَا أَخْذَ غَاصِبٍ ، وَيَعُوضُهُمْ مِنْهَا كُلُّهُمْ نَاصِبٌ ^(١) ، فَهَذَا مَا
 أَطَالَ بِهِ كَمْدَ أَبِي الْعَلَاءِ وَغَمِهِ ، فَإِنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ يَرِثُنِي أُمُّهُ :

فِيَا رَكِبَ الْمُنُونِ أَلَا رَسُولَ يَبْلُغُ رُوحَهُ أَرْجَ السَّلَامِ
 سَأَلْتُ مَتَى اللِّقَاءَ فَقِيلَ حَتَّى يَقُومَ الْهَامِدُونَ مِنَ الرَّجَامِ
 وَلِمَافَانَتْ سَرَقِطَةٌ مِنْ يَدِ الْإِسْلَامِ ، وَبَاتَتْ نَفُوسُ الْمُسْلِمِينَ فَرَقًا مِنْهُمْ ^(٢) فِي يَدِ
 الْاِسْتِسْلَامِ ، ارْتَابَ بِقَبْحِ أَفْعَالِهِ ، وَبَرَأَ مِنْ اِحْتِذَانِهِ بِتِلْكَ الْآرَاءِ وَانْتَقَالَ ، وَأَخَافُهُ
 ذَنْبِهِ ، وَنَبَا عَنْ مُضْجِعِ الْأَمْنِ جَنْبُهُ ، فَكَّرَ إِلَى الْغَرْبِ لِيَتَوَارَى فِي نَوَاحِيهِ ،
 وَلَا يَتَرَاى لِعَيْنِ لَأَمِّهِ وَلَا حِيهِ ، فَلَمَّا وَصَلَ شَاطِبَةُ حَضْرَةِ الْأَمِيرِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ
 ابْنِ تَاشْفِينٍ وَجَدَ بَابَ نِفَازِهِ وَهُوَ مُبْتَهَمٌ ، وَعَاقَهُ عَنْهُ مَدْلُولٌ عَلَيْهِ مُلْتَمِعٌ ، فَاعْتَقَلَهُ
 اعْتِقَالًا شَفَى الدِّينَ مِنْ آلَامِهِ ، وَشَهِدَ لَهُ بِعَقِيدَةِ إِسْلَامِهِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ، وَهُوَ
 مَعْقُولٌ ، وَيَصْرَحُ بِمَذْهَبِهِ الْفَاسِدِ ، وَغَرَضُهُ الْمُسْتَأْسَدُ :

خَفِّضْ عَلَيْكَ فَمَا الزَّمَانُ وَرِييَهُ شَيْءٌ يَدُومُ ، وَلَا الْحَيَاةُ تَدُومُ
 وَادْهَبْ بِنَفْسٍ لَمْ تَضَعْ لِتَحْلُمَا حَيْثُ اِحْتَلَّتْ بِهَا وَأَنْتَ عَلِيمٌ
 يَا صَاحِبِي لَفْظًا وَمَعْنَى خَلَّتَهُ مِنْ قَبْلِ حَتَّى يُبَيِّنَ التَّقْسِيمَ
 دَعَّ عَنْكَ مِنْ مَعْنَى الْإِخَاءِ ثَقِيلُهُ وَانْبِذَ بِذَلِكَ الْعَبْءَ وَهُوَ ذَمِيمٌ

(١) هم ناصب : حزن يعني من ينزل به ويتعبه .

(٢) الفرق — بالتحريك — الخوف .

واسمح وطارحنى الحديث فإنه ليل كأحداث الزمان بهم^(١)
خذى على أثر الزمان فقد مضى بؤس على أبنائه ونعيم
ففسى أرى ذاك النعيم ور به مرح ورب البؤس وهو سقيم
هيات ساوت بينهم أجدانهم وتشابه المحسود والمحروم^(٢)

ولما خلاص من تلك الجبلة ونجا ، وأنا من سلامته ما كان دجاً ، احتال في إخفاء
ماله ، واستيفاء آماله ، فأظهر الوفاء للأمير أبى بكر بالثناء له والتأبين ، وتداهيه في
ذلك واضح مستبين ، فإنه وصل بهذه النزعة من الحماية إلى حرم ، وحصل في
ذمة ذلك الكرم ، واشتمل بالرعى ، وأمن من كل سعى ، فاقتنى قيانا ، ولقنهن
أعريض من القريض وركب عليها ألحانا أشجى من النوح ، ولطف بها إلى
إشادة الإعلان باللوعة والبوح ، فسلك بها أبداع مسلك ، وأطلعها نيرات مالها
غير القلوب من فلک ، فمن ذلك قوله :

إن غرابا جرى بينهم جآوبه بالثنية الصرد^(٣)
طاروا فما أنت بعدهم جسد قد فارق الروح ذلك الجسد
واكتموا صيحة بينهم أليس لله بؤس ما اعتمدوا

وكفوله :

سلام وإمام ووسمى مزنة على الحدث النأى الذى لا أزوره
أحقاً أبو بكر تقضى فلا يرى ترد جماهير الوفود ستوره
لئن أنست تلك القبور بلحده لقد أوحشت أنصاره وقصوره
ومن قلة عقله ونزارته ، أنه في مدة وزارته ، سقر بين الأمير أبى بكر رحمه الله تعالى
وبين عماد الدولة بن زهو^(٤) رحمه الله تعالى بعد سعايات عليه أسلفها ، وذخائر كانت

(١) ليل بهم : أصل معناه تنبهم في المراثيات ولا تتميز ، وهم يريدون بذلك شدة ظلامه
(٢) الأجدات : القبور ، واحدها جدث (٣) الصرد - بضم الصاد وفتح الراء -
طائر أبقع ، أبيض البطن ، أخضر الظهر ، ضخم الرأس والمنقار ، له مخب ، يصطاد
المصافير وصغار الطير ، وهو مما يتشاهم به من الطير .

(٤) كذا ، وفي القلائد « بن هود »

له على يديه أتلّفها ، فوافاه أوْغَر^(١) ما كان عليه صَدْرًا ، وأصغرها كان لديه قدرا ،
فآل به ذلك الانتقال ، إلى الاعتقال ، فأقام فيه شهورا يغالظه الحمام بمقلة شوهاء ،
وتنازله الأوهام بفطرته الوَرْهَاء ، وفي ذلك يقول :

لعلك يا يزيد علمت حالى فتعلم أى خطب قد لقيت
وإنى إن بقيت بمثل ما بى فمن عجب الليالى إن بقيت
يقول الشامتون شقاء بخت لَعَمْرُ الشامتين لقد شقيت
أعندهم الأمان من الليالى وسالمهم بها الزمن المقيت^(٢)
وما يدرون أنهم سَيُسْقَوُا على كره بكأس قد سقيت^(٣)
وعزم عماد الدولة يوما على قتله ، وألزم المرقبين به التحيل على ختله ، فَنُسِيَ إليه
الأمر الوَغَر ، وارتمى به فى لجج اليأس الذعر ، فقال :

أقول لنفسي حين قابلها الردى فراغتُ فراراً منه يسرى إلى يمنى
قرى تحمدى بعض الذى تكرهينه فقد طالما اعتدت القرار إلى الأهنى
ثم قضى له قدر قضى بإنظاره ، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ، ويمهل
الفاجر حكمة من الله تعالى وعلماء (وإنما نملى لهم ليزدادوا إثما) انتهى نص القلائد .
وأين هذا من تحليلته له فى بعض كتبه بقوله فيه ما صورته : نور فهم ساطع ،
وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوَجَّت بعصره الأعصار ، وتأرَّجَتْ من طيب
ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فنناً وتهدّل ، وعَطَّلَ
بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ، إذا قدح زَنْدُ فهمه أورى
بشرر للجهل محرق ، وإن طالما بجر خاطره فهو لكل شىء مغرق ، مع نزاهة
النفس وصورنها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق ، الذى هو للإيمان شقيق ،
(١) وغر صدر فلان على فلان — من بابى ضرب وعلم — إذا توقد من الغيظ
وأصل الوغر شدة حر الشمس .

(٢) « سيسقوا » هكذا ، وقد حذف نون الرفع من غير ناصب ولا جازم ،
وله نظائر فى شعر العرب ، ولكنه مذهب غير مسلوک وطريق غير مرضى .

والجد ، الذى يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يؤدُّ عطار دأن يلتحفه ، ومذهب
يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبآت والنحور ، وتدّعيه مع نفاسة
جوهرها البحور ، وقد أثبت منه ما تهوى الأعين النجل^(١) أن يكون إثمها ،
ويزيل من النفوس حزنها وكمدها ، فمن ذلك قوله يتغزل :

أسكان نَعْمَان الأراك تيقنوا بأنكم فى ربع قلبى سكان
ودوموا على حفظ الوداد فطالما بلينا بأقوام إذا استحفظوا خانوا
سلوا الليل عنى إذ تناءت دياركم هل اكتحلت لى فيه بالنوم أجفان
وهل جرّدت أسياف برق سماءكم فكانت لها إلا جفونى أجفان

وله :

أتأذن لى آتى العقيق اليمانيا أسائله ما للمعالى وماليا
وهل داركم بالحزن قفراء ، إننى تركت الهوى يقتاد فضل زماميا
فيا مكرع الوادى أما فيك شربة لقد سال فيك الماء أزرق صافيا^(٢)
ويا شجرات الجزع هل فيك وقفة وقد فاء فيك الظل أخضر صافيا^(٣)

وأورد له فى المطمح أنه استأذن على المستعين بالله ، فوجده محجوبا ، فقال :

من مبلغ خير إمام نشا ذا عزة وساميا قدّرا
قول امرئ لو قاله للصفاء أنبت فيه ورقا خضرا
عبدك بالباب له خجلة لو أنها بالترجس أحرا

وحكى غير واحد أنه مات له سکن كان يهواه ، فبات مع بعض أصحابه عند
ضريحه ومثواه ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ، فزور فى
نفسه بيتين فى خطاب القمر أتقنهما ولحنهما ، حتى إذا كان قبيل وقت الكسوف

(١) النجل — بالضم — جمع نجلاء ، وهى الواسعة

(٢) المكرع : المكان الذى يكرع منه : أى يشرب

(٣) فاء : عاد ورجع ، والضافى : السابغ

بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجى ، واللحن يسوق الشوق ويُرْجى ، وهما :
 شقيقك غُيِّبَ في لحدّه وتُشرقُ يا بدر من بعده
 فهلا كَسِفَتْ فكان الكسوف حداداً لبست على فقده
 فكسف القمر في الحال ، وعدت هذه من نوادره التي جِئِدُ الأخبار بفرائدها
 حال ، سامحه الله تعالى ! .

ثم رأيت في « الإحاطة » نسبة ذلك لغيره ونصه : محمد بن أحمد بن الحداد ،
 الوادى آشى ، يكنى أبا عبد الله .

محمد بن أحمد
 الحداد
 الوادى آشى

شاعر مفلق ، وأديب شهير ، مشار إليه في التعاليم ، منقطع القرين منها في
 الموسيقى ، مضطلع بفك المعنى ، سكن المرية ، واشتهر بمدح رؤسائها من بنى
 صمداح ، وقال ابن بسّام : كان أبو عبد الله هذا شمس^(١) ظهيرة ، وبحر خبر وسيرة ،
 وديوان تعاليم مشهورة ، وضح في طريق المعارف ووضح الصبح المتهلل ، وضرب
 فيها قداح ابن مقبل^(٢) ، إلى جلاله مقطع ، وأصالة مَنزَع ، ترى العلم ينم على أشعاره ،
 ويبين في منازعه وآثاره .

تأليفه - ديوان شعره كبير معروف ، وله في العروض تصنيف مشهور مزج
 فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية

بعض أخباره - حدّث بعض المؤرخين مما يدل على ظَرفه أنه فقد سكناً عزيزاً
 عليه ، وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء ، وكان قد رصد
 الخسوف القمري ، فلما حقق أنه ابتداء أخذ العود وغنى « شقيقك غُيِّبَ - إلى
 آخره » وجعل يرددّها ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف ،
 وعظم من الحاضرين التعجب .

(١) شمس ظهيرة : كناية عن شهرة أمره ووضوحه

(٢) القداح : جمع قده ، وهى سهام الميسر ، وابن مقبل : هو تميم بن أبي بن مقبل
 ويضرب قده مثلاً في حسن الأثر ، وهو الذى يقول في وصف قده له :

غدا وهو مجدول ، وراح كأه من المس والتقليب في الكف أقطع
 خروج من الغماء إن صك صكة بدا والعيون المستطرفة تلح

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره : وقال :

أقبلن في الحَبَرَاتِ يقصرن الخطا وَيُرِينَ فِي حُلَالِ الْوَرَاثِينَ الْقَطَا^(١)
سرب الجوى لا الجوعود حسنه أن يرتعى حَبَّ الْقُلُوبِ ويلقطا
مالت معافهن من سكر الصبا ميلا يخيف قدودها أن تسقطا
وبمسقط العلين أوضح معلم لمهف سكن الحشى والمسقطا
ما أخجل البدر المنير إذا مشى يخال والغصن النضير إذا خطا
ومنها في المدح :

يا وافدى شرق البلاد وغربها أكرمتا خيل الوفاة فاربطا
ورأيتا ملك البرية فاهنأ ووردتما أرض المرية فاخططا
يدى نحر الدارين إذا ارتأى ويذل عز العالمين إذا سطا
انتهى المقصود منه ، وأورد له في الإحاطة قصيدة ثائية أولها :

* حديثك ما أحلى ، فزيدى وحدتى *

وهى طويلة .

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته : سمعتها من لفظ شيخى أبى جعفر
ابن خاتمة بالمرية فى سنة خمس وستين وسبعائة ، قاله على ابن الخطيب ، انتهى .

رجع إلى أخبار ابن الصائغ ، ومن نظمه قوله :

ضربوا القباب على أقاحى روضة خطر النسيمُ بها ففاح عبرا
وتركتُ قلبى سار بين حُومهم دامى الكلوم يسوق تلك العبرا
هلا سألت أميرهم هل عندهم عان يفك ولو سألت عبورا
لا والذى جعل الغصون معاففا لهم وصاغ الأفحوان ثغورا

(١) الحبرات : جمع حبرة — بكسر الحاء المهملة وفتح الباء — وهو ضرب من
برود اليمن ، وليس حبرة موضعا ولا شيئا معلوما ، إنما هو وشى ، كقولك : ثوب
قرمز ، والقرمز صبغه ، والوارشين : جمع ورشان ، وهو طائر .

رجع
إلى ابن باجة

مامر بى ريج الصبا من بعدهم إلا شهقت له فعاد سعيراً^(١)
وتوفى ابن الصانع فى شهر رمضان سنة ٥٢٣ ، وقيل : سنة خمس وعشرين ، مسموماً
فى باذنجان بمدينة فاس ، وهو نَحْبِيبِي بضم التاء وفتحها ، و بَاجَةٌ : بالباء الموحدة ،
وبعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهى القصة بلغة الفرنج . وسرقسطة -
بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة - مدينة
كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس فى تأليفه « زبدة الفكر » ، فى تاريخ الهجرة «
إن ابن الصانع كان عالماً فاضلاً ، له تصانيف فى الرياض والمنطق ، وإنه وَزَرَ
لأبى بكر الصحرأوى صاحب سَرْقُسْطَة ، ووزر أيضاً ليحيى بن يوسف بن تاشفين
عشرين سنة بالمغرب ، وإن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ، ونجحت على
يديهِ الآمال ، فحسده الأطباء والكتاب وغيرهم ، وكادوه ، فقتلوه مسموماً ، انتهى
وأشد له بعضهم :

هم رحلوا يوم الخميس عشية فودعهم لما استقلوا وودعوا
ولما تولوا وات النفس معهُم فقلت ارجعنى قالت إلى أين أرجع
إلى جسدٍ ما فيه لحم ولا دم وما هو إلا أعظم تققعقع
وعينين قد أعمها كثرة البكا وأذن عصت عذالها ليس تسمع

وقد قال بعضهم فى تعزيز بيتى الحريرى : إنه لابن الصانع الأندلسى ، وليس هو
بهذا فيما أعلم :

أُفدَّ مهوى أزره فانتنى مه يا عدولى فى الذى انقدمه
مندمة قتل المعنى فلا ترسل سهام اللحظ تأمن دمه

(١) ريج الصبا - بفتح الصاد - معروفة بالرخاء واللين ، ولكنه إذا تنفس
فى هذه الريح انقلب شواظاً من نار ، كناية عن شدة احتراق جوفه .

رجع إلى ابن باجه - وقد ذكر لسان الدين في « الإحاطة » سبب العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة الفتح ولذا ذكرها بنصه فنقول : قال رحمه الله تعالى :
الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى
يَحْصُب ، يكنى أبا نصر ، ويعرف بابن خاقان .
حاله - كان آية من آيات البلاغة لا يُشَقُّ غُبَارُهُ ، ولا يُدْرِكُ شَأُوهُ ، عذب
الألفاظ ناصعها ، أصبل المعاني وثيقها ، لعبوا بأطراف الكلام ، معجزا في باب
الحلى والصفات ، إلا أنه كان مجازفا مقدورا عليه ، لا يميل من المعاقرة والقصف ^(١) ،
حتى هان قَدْرُهُ ، وابتذلت نفسه وساء ذكره ، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس
إلا دخله مسترفداً أميره واغلا في عليته ، قال الأستاذ في « الصلة » : وكان معاصرا
للـكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال ، إلا أن بطالته أخذت ^(٢) به عن مرتبته ،
وقال ابن عبد الملك : قصد يوما إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض نمحرا ، فتنسم
بعضُ حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك ، فاستثبت وحدهُ حدا
تاما ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد ثمانية دنانير وعمامة ، فقال الفتح حينئذ
لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي المرسوم
بقلائد العقيان ، قال : فقلت : لا تفعل ، وهي نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟
فقلت له : قصتك معه من الجائز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل
من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه مَنْ هو مثله ودونه في العلم والصيت ،
فيسأل عن ذلك ، فيقال له ، فيتوارث العلم عن الأكبر الأصاغر ، قال : فتبين
ذلك ، وعلم صحته وأقر اسمه .

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقه على ابن باجه أبي بكر آخر فلاسفة

(١) المعاقرة : شرب الخمر ، والقصف : إقامة الرجل في أكل وشرب ولهو ،
ويقال : هي كلمة مولدة

(٢) أخذت به : أراد هنا أنها نزلت به ، وأصل معناه جعلته يسكن إليها

الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائيه به في تكذيبه إياه في مجلس إقرانه ،
إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حليا ، وكان يبدو من أنفه
فضلة خضراء اللون ، فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التي على شاربك؟
فقلبه في كتابه بما هو معروف ، وعلى ذلك فأبو نصر نسيجٌ وَخْدِه ، غفر الله
تعالى له ! .

مشيخته - روى عن أبوي بكر بن سليمان بن القصيرة ، وابن عيسى بن اللبانة ،
وأبي جعفر بن سعدون الكاتب ، وأبي الحسن بن سراج ، وأبي خالد بن بشتغير ،
وأبي الطيب بن زرقون ، وأبي عبد الله بن خلصة الكاتب ، وأبي عبد الرحمن
ابن طاهر ، وأبي عامر بن سرور ، وأبي محمد بن عبدون ، وأبي الوليد بن حجاج ،
وابن دريد الكاتب .

توالياه - ومصنفاته شهيرة : منها « قلائد العقيان » و « مطمح الأنس »
والمطمح أيضا^(١) ، وترسيلاه مدون ، وشعره وسط ، وكتابه فائقة .

شعره - من شعره قوله ، وثبت في قلائده ، يخاطب أبا يحيى بن الحاج :
أكعبة علياء وهَضْبَة سودد وروضة مجدد بالمفاخر تمطر
هنيئاً لملك زار أفقك نوره وفي صفحتيه من مضائك أسطر
واني خلفاق الجناحين كلما سرى لك ذكر أو نسيم مُعَطَّر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر فبت وأحشائي جوى تنفطر
فهل لك في ود ذوى لك ظاهرا وباطنه يَنْدَى صفاء ويقطر
ولست بعلق بيع بخسا وإننى لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

(١) ذكره مرتين لأن الكتاب من نسختين : إحداهما أكبر من الأخرى ،
وسأتي ذكر ذلك في كلام المؤلف ، ويذكر أن ابن خلكان حكى أن المطمح ثلاث
نسخ : صغيرة ، ووسيطه ، وكبيرة (انظر صفحة ٢٤٧ الآتية) .

فروجع عنه بما ثبت أيضا في قلائده مما أوله :

ثبت أبا نصر عناني ، وربما ثنت عزمة المههم المصمم أسطر
نثره - ونثره شهير ، وثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيرا كتيبه عن
بعض الأمراء لصاحب الشرطة ، ولا خفاء بإدلاله وبراعته ، وهو هذا : كتاب
تأكيد اعتناء ، وتقليد ذي منة وغناء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله تعالى ! لفلان
ابن فلان ، صانه الله تعالى ! ليتقدم لولاية المدينة القلانية وجهاتها ، ويصوّح
ما تكاثف من العدوّان في جنباتها ، تنويها أحظاه بعلائه ، وكساه رائق ملاءه ،
لما علمه من سنائه ، وتوسّعه من غنائه ، ورجاه من حسن منابه ، وتحققه من طهارة
ساحته وجنابه ، وتيقن - أيده الله تعالى ! - أنه مستحق لما ولاه ، مستقل بما
تولاه ، لا يعتريه الكسل ، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسل ، ولم يكل الأمر
منه إلى وَكَل^(١) ، ولا باطله بمناط عجز ولا فشل ، وأمره أن يراقب الله تعالى في
أوامره ونواهيه ، وليعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه ، وسائله عما حكم به وقضاه ،
وأنفذه وأمضاه ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ، فليتقدم إلى ذلك
بحزم لا يخمد توقده ، وعزم لا ينفد تفقده ، ونفس مع الخير ذاهبه ، وعلى متن البر
والنقوى راكبه ، ويقدم للاحتراس من عرف اجتهداه ، وعلم أرقه في البحث وسُهِداه ،
وحدث أعماله ، وأمن تفریطه وإماله ، ويضم إليهم من يحذو حذوهم ، ويقفو
شأوهم ، ممن لا يستراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه ، وأن
يُنْذِرَ كي العيون على الجناة ، وينفي عنها لذيذ السّنات^(٢) ، ويفحص عن مكائهم ،
حتى يغص بالريق نفس آمنهم ، فلا يستقر بهم موضع ، ولا يفر منهم خب
ولا موضع^(٣) ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه ، وبث السؤال في مواضع

(١) الوكل - بفتح الواو وكسر الكاف - الذي يترك أموره لغيره ويتكل

عليه في قضائها

(٢) السّنات : جمع سنة - بكسر السين - وهي النوم أو أوائله .

(٣) الموضع ، هنا : اسم الفاعل من الإيضاع ، وهو السير السريع .

تصرفه ومواطنه ، فإن لاحت شبهة أبدائها الكشف والاستبراء ، وتعدّأها البغي والافتراء ، نَكَلَه^(١) بالعقوبة أشدّ نكال ، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال ، بعد أن يبلغ أنه ، ويقف في طرفه مدّاه ، وحدّه له أن لا يكشف بشرة إلا في حد يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبين ، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور ، وأن لا يسمع من مكشوف في مستور ، وأن يسلك السنن المحمود ، وينزه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود ، وإذا انتهت إليه قصة مشكلة آخرها إلى غده ، فهو في العقاب أقدر منه على رده ، فقد يتبين في وقت مالا يتبين في وقت ، والمعالجة بالعقوبة من المَقْت ، وأن يتغمّد هفوات ، ذوى الهيات ، وأن يستشعر الإشفاق ، ويخلع التكبر فإنه من مَلَأَسِ أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله تعالى اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مَقَّاده ، وأن يعاقب الجرم قدر زلته ، ولا يعتز عند ذلّته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزين له مَثْوَاه ، فيشوق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافية ، وألبسه من ملابسها الضافية ، ويذكره جل وعلا في جميع أحواله ، ويفكر في الحشر وأحواله ، ويتذكر وعدا ينجز فيه ووعدا ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحَضَّرًا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، والأمير أيده الله تعالى ولى له ما عدل وأنسط ، وبرىء منه إن جار وقسّط ، فمن قرأه فليقف عند حدّه ورسمه ، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه ، ومن وافقه من شريف أو مشروف ، وخالفه في نهى عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبأل خَبَله ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، وكتب في كذا .

وفاته - بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم ، من عام تسع وعشرين وخمسمائة ، ألقى قتيلا بيت من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذبح وعبث به ،

(١) أصل التنكيل : التقييد ، والنكل - بالكسر - القيد ، ويراد منه التعذيب من باب إطلاق المقيد وإرادة المطلق .

وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله ، انتهى نص الإحاطة .

وقال في « المغرب » ماملخصه : فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس : أبو نصر الفتح

ابن محمد بن عبيد الله القيسي ، الإشبيلي ، صاحب « القلائد » و « المطمح »
 ذكره الحجارى فى المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملته فرائده ، طلع من
 الأفق الإشبيلي شمساً طَبَقَ الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها ،
 وكان فى الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ، وله كتاب « قلائد العقيان » ومن
 وقف عليه لا يحتاج فى التنبيه على قدره إلى زيادة بيان ، وهو وأبو الحسن بن بسام
 الشنتمرى مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قسّ وسحبان ، والتفضيل
 بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً فى الأخبار ،
 وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه
 أكثر تعلّقاً وتعشّقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عُرف من أجله بابن خاقان ،
 لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولى على الرهان ، وإنما أخل
 به ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بدم أولى الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء
 والكتاب ، وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن باجّه ،
 فوجد فى فندق بحضرة مراکش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه ، وتركه
 مقتولاً ، وفى دبره وتد ، والله سبحانه يتغمده برحمته .

ومن شعره قوله من أبيات فى المدح :

إلى أين تَرَقَّى قد علوت على البدر وقد نلت غايات السيادة والقدر ؟
 وجُدْتَ إلى أن ليس يذكرك حاتم وأغْنيت أهل الجذب عن سَبَلِ القطر ^(١)
 وكَم رام أهل اللوم باللوم وقفة وبحرك مدّاً لا يؤل إلى جزر

(١) جدت : منحت وأعطيت ، وحاتم الطائي مضرب المثل فى الجود ، والجذب :
 القحط ، وسبل القطر - بفتح السين والباء جميعاً - المطر ، وأصله أن يسمى به
 المطر قبل وصوله إلى الأرض .

ولم يكن فيك السماح جبلةً لأثر ذاك اللوم فيك مع الدهر
وذكره ابن الإمام في « سمط الجان » وأنشده :

لله ظبي من جنابك زارني يختال زهواً في ملاء مراح
ولى التماسك في هواه كأنه مروان خاف كتائب السفاح^(١)
فخلعت صبرى بالعرّا ونبذته وركبت وجدى في عنان جراح
أهدى لى الورد المضعف خده فقطفته باللحظ دون جناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق وأريت جداً في خلال مزاح
وتركت قلبى للصباية طائراً تهفّوبه الأشواق دون جناح

وذكره ابن دحية في « المطرب » ونعته بابن خاقان ، قال : والشيخ أبو الحجاج
البياسى ينكر هذا ، وقيل : إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام الحجارى
وقال ابن دحية : إنه قتل ذبحاً بمسكنه فى فندق بيت من حضرة مراکش صدر
مسنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أشار بقتله على بن يوسف بن تاشفين .

وقال أبو الحسن بن سعيد : رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول
افتتاحه فى خطبة قلانده « الحمد لله الذى راض لنا البيان حتى انقاد فى أعنتنا ، وشاد
مشواه فى أجننتنا » لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب مما تضمنته الفقرة الثانية ،
والصواب ضد ذلك ، انتهى .

وقال ابن الأبار فى « معجم أصحاب الصدى » : إنه لم يكن مرضياً ، وحذفه
أولى من إثباته ، انتهى .

ولذا لم يذكره فى التكملة .

وقال ابن خاتمة : إنه لم يُعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب .

(١) مروان : ابن محمد ، المعروف بالجعدي ، آخر ملوك بنى أمية الذى سقطت
فى عهده الدولة الأموية ، والكتائب : جمع كتيبة ، وهى الجيش أو الفصيلة منه ،
والسفاح : لقب أول خلفاء العباسيين .

وما حكاها في « الإحاطة » من تاريخ وفاته مخالف لما حكاها ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسة ، قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به .

وحكى ابن خلدون كان قولاً آخر أنه توفي سنة خمس وثلاثين وخمسة ، قيل : وهو خطأ ، على أنه حكى القول الآخر أيضاً .

ودفن بباب الدباغين ، رحمه الله تعالى ! .

وقد قيل : إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين أخى إبراهيم الذى ألف برسمه « فلاند العقبان » .

وقد ذكر ابن خلدون أن المطمح ثلاث نسخ : صغرى ، ووسطى ، وكبرى ، والذى قاله ابن الخطيب وابن خاتمة ، وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط : صغرى ، وكبرى ، ولعله الصواب ، إذ صاحب البيت أدرى بما فيه .

ومن تأليف الفتح « بداية المحاسن ، وغاية المحاسن » ومجموع فى ترسيله ، وتأليف صغير فى ترجمة ابن السيد البطلانيوسى نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد .

ومن بديع إنشاء الفتح المذكور سامحه الله تعالى قوله : أطل الله تعالى بقاء الوزير الأجل عثمادى الأسرى ^(١) ، وزنادى الأورى ، وأيامه أعياد ، وللسعد فى زمانه انقياد ، أما أنا - أدام الله تعالى عزه - فجوى عاتم ^(٢) ، وأعيادى مآتم ، وصُبْحى عشاء ، ومالى إلامن الخطوب انشاء ، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مُسَهَّد ^(٣) ، نأى الحلة من مزار العود ، حين لأرى الروض المنور ، ولا أحس سُهَيْلاً إذا لاح ثم تَهَوَّر ، وقد بعدت دار إلى حبيبه ، ودنت منى حوادث بأدناها تؤذى الشبيه ، وأى

(١) الأسرى : أفعل تفضيل من السراوة ، وهى السخاء فى مروءة .

(٢) عاتم : مظلم . (٣) الطرف ، هنا : العين ، ومسهد : مؤرق لا ينام .

عيش لمن لزم المفاوز لا يَرِيْمُهَا^(١) ، حتى ألفه رِيْمُهَا^(٢) ، قد رمته النواذب فما اتقى ،
وارتقت له الجوائم في وُغُور المرتقى ، يُواصل النوى ولا يهجر سيرا ، ولم يزجر في
الإراحة طيرا ، قد هام بالوطن ، هيام أبي طالب بالحوض والعطن ، وحنَّ إلى
تلك البقاع ، حنينه إلى أثلاث القاع ، ولا سبيل أن يشعب^(٣) صدر بينه شاعب ،
أو تكلمه أحجار للدار وملاعب^(٤) ، وليس له إلى أن يجنح ، ولا يرى أمله يستنح ،
قد طوى البلاد وبسطها ، وتطرف الأرض وتوسطها ، ولم يُلَفِّ مَقِيلًا ، ولا وجد
مُقِيلًا ، إلى الله أشكو ما أقاسى وأقاصى ، وبيده الأقدام النواصي ، ولقاؤه موعد
لسكل موعد ، وكل معمر سيد ركه يوما حمام الموعد ، وأنفذته وقد صدرت عن
فلانة بعد أهوال لقيتها ، وأنكال سقيتها ، وسفر لقيت منه نصبا ، وكدر أعقبنى
وصبا ، وإلى متى يعزلى السعد ؟ والله الأمر من قبل ومن بعد ، انتهى .

وكتب رحمه الله تعالى من رسالة : سيدى لاعدمت ارتقافا ، ولا حرمت
تكيفا من السعد واتقافا ، أنا الآن مشغول البال ، لا أفرق بين الإعراض والإقبال ،
وعند توجهى أفرغ لك ما حضر ، ومثلك أرجأ الأمر وأنظر ، وفي علم الله تعالى
لو أمكننى لملتك على كاهل ، وأوردتك منه أعذب المناهل ، وأبحت لك السعد
ثغرا ترشفه ، وخلعته بُرْدًا عليك تلتحفه ، لكن الزمان لا يجد ، وصروفه لا تنجد ،
وعلى أى حال فلا بد أن تجد قرارك ، وتحمد سُرَّاك ، إن شاء الله تعالى .

وكتب إلى أبى بكر بن على عند ولايته إشييلية : أطال الله بقاء الأمير
الأجل أبى بكر للأرض يتملكها ! ويستدير بسعده فلـكـها ! استبشر للملك وحق
له الاستيثار ، وأوماً إليه السعد فى ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك ، وخفف
عليه من أوليتك ، فلقد حُبى منك بملك أمضى من السهم المسدد ، طويل نجاد

(١) المفاوز : الصحارى ، واحدها : مفازة ، ولا يريمها : لا يبرحها ولا يفارقها

(٢) الريم - بالكسر - الظي . (٣) يشعب : يجبر ويصلح .

(٤) أخذ هذه الفقرة من قول كثير عزة :

وأسقيه حتى كاد مما أبته تكلمنى أحجاره وملاعبه

السيف رَحْب القلْد ، يُقَدِّم حيث يتأخر الذابل^(١) ، ويكرم إذا بخل الوابل ، ويحمي الحمى كربيعة بن مُسَكِّدَم ، ويسقي الظُّبَا نجيعةً كلون العنْدَم ، فهنيئاً للأندلس لقد استردت عهد خلفائها ، واستمدت تلك الإمامة بعد إغنائها ، حتى كأن لم تمر أعصارها ، ولم يمت حكمها ولا ناصرُها ، اللذان عمرا الرصافة والزَّهْرَا ، ونكحجا عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية^(٢) مَهْرَا ، والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عَصْرُكَ أعجب من عصرهم ، ونصرُك أعز من نصرهم ، والسلام ، انتهى .

وقال بعضهم : من أحسن ما رأيت له قوله : معاليك أشهر رؤُوما ، وأعطر نسيما ، من أن يغرب شهاب مَسْعَاها ، أو يجذب لرائد مَرَعَاها ، فإن نبهتك فإنما نبهت عُمرَا ، وإن استنرتك فإنما استنير قمرَا ، والأمير أيده الله تعالى أجل من اعتصم في ملكه ، وأنظمت في سلكه ، فإنه حسام بيد الملك ، طلاقته فِرْنْدُهُ ، وشهامته حده ، وقضيب ، في دوحة الشرف رطيب ، بشره زَهْرُهُ ، وبره ثَمَرُهُ ، وقد توسمت نارك لعل أفوز منها بقَبَس ، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس ، وعسى الأمل أن تلو بكم قِدَاخُهُ ، ويشف من أفقم مصباحُهُ ، فجرد - أيدك الله تعالى ! - صارم عزم لا يفل غروبه ، وأطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ، انتهى .
ولنذكر بعض كلامه في المطمح لغرابته في هذه البلاد الشرقية بخلاف القلائد فإنها موجودة بأيدي الناس فيه .

قال رحمه الله تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي :

إمام اللغة والإعراب ، وكعبة الآداب ، أوضح منها كل إبهام ، وفضح دون دون الجهل بها محل الأوهام ، وكان أحد ذوى الإنجاز ، وأسعد أهل الاختصار

من ترجمة
أبي بكر
الزبيدي

(١) الذابل : أراد به الريح ، والوابل : المطر الكثير .

(٢) المشرفية : السيوف ، منسوبة إلى مشارف اليمن

والإيجاز ، نَجَمَ والأندلس في إقبالها ، والأنفس أول تَهَمَّتها بالعالم واهتبالها ، فنفتت له عندهم البضاعة ، وانتقت على تفضيله الجماعة ، وأشاد الحكم بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار « العين » للخليل ، وهو معدوم النظير والمثيل ، و « لحن العامة » و « طبقات النحويين » وكتاب « الواضح » وسواها من كل تأليف مُجْجَل لمن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ، كأنما يتفجر من خاطره يَنْبُوع ، وقد أثبت له منه ما يقترح ، ولا يطرح ، فمن ذلك قوله :

كيف بالذَّيْنِ القديم لك من أم تميم
ولقد كان شفاء من هوى القلب السقيم
يُشْرِقُ الحسن عليها في دجى الليل البهيم
وكتب مراجعاً :

أغرقني في بحور فكر فكدت منها أموت لما
كَلَفْتَنِي غامضاً عويصاً أُرجم فيه الظنون رجماً
مازلت أسرو السجوف عنه كأنني كاشف لظلمة (١)
أقرب من ليلى ، وأناى مستبصراً تارة وأعمى
حتى بدا مشرق المحيّا لما اعتلى طالعا وتما
لله من منطق وجيز قد جَلَّ قدرا وجل فهما
أخلصت لله فيه قولا سلّمت لله فيه حكما
إذ قلت قول امرئ حكيم مراقب للإله علما
الله ربّي وليّ نفسي في كل بوس وكل نفعي

وكتب إلى أبي مسلم بن فهد وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيرا لسانه ، مقفرا من المعالم جنانه :

(١) أسرو السجوف : ألقبها وأزيعها ، والسجوف : جمع سجعف - بالكسر ، وبالفتح - الستر .

أبا مسلم ، إن الفتى بفؤاده ومَقُولِهِ لا بالمراكب واللبس^(١)
 وليس رِوَاء المرء يغنى قَلَامَهُ إذا كان مقصوراً على قصر النفس
 وليس يفيد الحلم والعلم والحجبا أبا مسلم طول القعود على الكرسي
 واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فبعجل إليه وأسرع ، فأمرع من آماله
 ما أمرع ، فلما طالت نَوَاه ، واستطالت عليه لَوَعَتُهُ وجَوَاه ، وحنَّ إلى مستكنه
 ياشبيلية ومَثَوَاه ، استأذنه في اللحق بها فلوهم ولَوَاه ، فكتب إلى من كان
 يألّفه ويهواه :

ويحك يا سَلَم لا تُرَاعِي لا بدّ للبين من مساع
 لا تحسبني صبرت إلا كصبر ميت على النزاع
 ما خلق الله من عذاب أشدّ من وقفة الوداع
 ما بينها والحِمَام فرق إلا المناحات في النواعي
 إن يفترق شملنا وشيكا من بعد ما كان في اجتماع
 فكل شمل إلى افتراق وكل شُعْب إلى انصداع
 وكل قرب إلى بعد وكل وصل إلى انقطاع

وقال - سألحه الله تعالى - بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صُمَادح ما نصه :

ابنه عز الدولة أبو مروان عبد الله ، فتى الراح المَعَاوِرُ لدِنَانِهَا ، المهتصر لأغصان
 الفتوة وأفنانها ، المهجّر لفلاة الظُّبَاء والآرام ، المشتهر في باب الصَّبَابَةِ والغرام ، نشأ
 في حِجْر أبيه نديم قَهْوَةٍ ، ومُدِيم صَبْوَةٍ ، وخديم شَهْوَةٍ ، لا يريم كاساً ، ولا يروم
 إلا اقتضاء وانتكاساً ، ما شهد قَتلاً ولا قتالاً ، ولا تقلد صارماً إلا مختالاً ، قد
 أمن منه جَنَانُ الجبان ، وعدّت له غصون البان ، وما زال مرتضعا لأخلاف

(١) هذا من قول زهير بن أبي سلمى المزني :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
 وقول الآخر :

ليس الجمال بأثواب تزينا إن الجمال جمال العلم والأدب

البطالة ، مقتطعا ما شاء من إطاله ، متوغلا في شباب الفتاك ، متغلغلا في طريق
الانتهاك ، إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيراً عند ما بدت له وجوه الفتنة
تُسفر ، ومعاهد الهدنة تُقفر ، مع أكامل أصحابهم نُقصانه ، وذوى أديان جعلهم
خُلصانه ، يسمعون بواذر بذأذته ، وينظرون مناكر لذأذته ، فآلت سقرته إلى
الاعتقال ، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال ، فجاء كلمهر لا يعرف لجاما ، وصار
حبس قوم لا يألونه استعجابا ، وحين شالت نعامته ، وسالت عليه ظلامته ،
كتب إلى أبيه :

أبعد السنا والمعالي خول وبعد ركوب المذاكي كُبول^(١)
ومن بعد ما كنت حراً عزيزاً أنا اليوم عبد أسير ذليل
حلت رسولا بغرناطة فحل بها في خطب جليل
وثققت إذ جئتها مرسلا وقبل كان يعز الرسول
فقدت المرية أكرم بها فما للوصول إليها سبيل
فراجعه أبوه بقطعة منها :

عزيز على ونوحى دليل على ما أفاسى ودعى يسيل
وقطعت البيض أغماها وشقت بنود وناحت طبول^(٢)
لئن كنت يعقوب في حزنه ويوسف أنت فصير جميل
ولم يزل يتحيل في تخلصه ، وأخذ من يد مُقْتَنِصه ، فسرق وحراسه منه بمكان
السلك من النحر ، وطرق به على تَبَج البحر ، فوافى المَرِيَّة ، وقد أخذ البحث
عليه آفاق البرية ، فبنى المعتصم بخلاصه ، وبقي مستقرا بعِراضه ، إلى أن أخلوها
ومضوا الطلبة ما نووها ، فنجأ أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ، ولجأ هو

(١) المذاكي : الحيل ، والكبول : القيود وزناً ومعنى .

(٢) البيض : السيوف ، واحدها : أبيض ، والبنود : الأعلام ، واحدها :

بند ، بالفتح .

إلى أحد المرابطين لأذمة^(١) كانت بينهما وأواصر ، وأقام معه سمرهوه ، وأمير سهوه ،
إلى أن انقضى أمده ، وطواه سروره لا كدده ، فلم يرَ إلا خالعا لِعذاره ، طالعا
في ثنّيات اغتراره ، غير مكترث باتّضاعه ، ولا منحرف عن ارتشاف النى
وارتضاعه ، وبدامنه في هذه الحال ندى كآثر به السحاب ، وظاهر بسببه الصّحاب ،
وتخدم الأوطار ، وتقدم لذوى الرتب فيها والأخطار ، حسنا من ذكره ، وأولع
الأسن بشكره ، فارتفع عنه الكدّح ، وشَفَع له في الذم ذلك المدح ، وكان نظمه
بديع الوصف ، رفيع الرّصف ، وقد أثبت له ما يشهد بإجادته وإحسانه ، شهادة
المروض بجود نيسانه .

أخبرني ابن القطان أنه سائر الأمير يحيى بن أبي بكر إلى طليطلة في جيوش
فاضت سَيْلا ، وخاضت المطايا قتامها آيلا ، وكان ماسكا لم يُعَقَد على مثله لواء ،
ولم يحتوِ على شِبهِه حواء ، جمال مُحَيّا ، وكال عُلَيّا ، وحسن شيم ، وبعد هيم ،
أغنى العَفَاة ، وأحيا الرفات ، والنى الأجواد ، وأنسى كعب بن مامة وابن أبي
دُواد ، فلما شارف طليطلة وكشفها ، واشتَفّ بالاتها وارشفها ، وضرب بكنفها
مضاربه ، وأجال بساحتها زَجْجَه وأعاربه ، سقط أحد ألويته عن يد حامله ،
وانكسر عند عامله ، فطائفة تفاعلت ، وطائفة تطيرت ، وفرقة ابتهجت ، وأخرى
تغيرت ، فقال :

لم ينكسر عودُ اللّواء لطيرةٍ يُخَشَى عليك بها وأن تتأولا
لكن تحمّق أنه يندقّ في نحر العِدَا ولدى الوغى فتعجلا

وأخبرني أخوه رفيعُ الدولة أن ابن اللبابة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه ، وقصر

(١) الأذمة : جمع ذمام ، وهو العهد ، والأواصر : جمع آصرة ، وهى :
كل ما يربطك بغيرك من قرابة ، أو صهر ، أو صداقة .

بوسه ، وكدر صفاءه ، وعذر وفاءه ، وطوى ميدان جوده ، وأذوى أفنان وجوده ،
قوله :

يا ذا الذى هز أمداحى بحليته وعَزَّه أن يهز الحمد والكرما
واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سَلَمًا^(١)
فدَعَتْه دواعى الندى ، وأولعته بالجداء فى ذلك المدى ، فتحيل فى برّ طبعه ،
وكتب معه :

المجد ينجل من نقديك فى زمن ثناه عن واجب البر الذى علما
فدونك التزر من مُصَنَّفٍ مودته حتى يوفيك أيام المنى سَلَمًا

ابنه الثانى : رفيع الدولة أبو يحيى بن المعتصم .

من بيت إماره ، والى السعد طوافه بها واعتماره ، عمرت أُنْدِيَتَهُ ، ونشرت به
رايات العز وألويته ، إلى أن خوى كوكبهم ، وهوى مرقبهم ، فتفرقوا أيادى سَبَا ،
وفرقوا من وقع الأسنة والظبا ، وفارقوا أرضاً كأرض غَسَّان ، ووافقوا أياما كيوم
أهل اليمامة مع حَسَّان ، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الزحيق ، وأمَّهُمْ
الناس من كل مكان سحيق ، وانتجعوا انتجاع الأنواء ، واستطعموا فى المحل
واللأواء ، وصالوا بالدهر وسَطَوْا ، وبين النهى والأمر فيه خَطَوْا ، ورفيع الدولة هذا
فجر ذاك الصباح ، وضوء ذلك المصباح ، وغصن تلك الدَّوْحَةِ ، وعَرَفَ تلك النفحة ،
لم يمتن الدهر قد بذله ، ولا ترك الانتصار والأمر قد خَذَلَهُ ، فالتحف بالصَّوْن
وارتدى ، وراح على الاقتباس واغْتَدَى ، فما نلقاه إلا سالكا جَدَدًا ، ولا تراه
إلا لابسًا سُودَدًا ، وله أدب كالروض المجوّد إذا زهر ، ونظم كزهر التهامم والنجدود

من ترجمة
أبي يحيى
رفيع الدولة
ابن صامح

(١) السلم : السلف وزنا ومعنى ، وهو فى اصطلاح الفقهاء : أن تعطى
غيرك جزءا من المال على أن يسلمك بعد مضى عدة سلعة موصوفة بأوصاف تمنع
المنازعة عند الاستلام .

بل كالصبح إذا أسفر واشتهر ، أوقفه على النسيب ، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب ،
فمن ذلك قوله :

مالي وللبدر لم يسمح بزورته لعلّ ترك الإجمال أو هجرا
إن كان ذاك لذنب ما شعرت به فأكرم الناس من يعفو إذا اقدر
وله أيضاً :

يا عابد الرحمن كم ليلة أرقّنتي وجدا ولم تشعر^(١)
إذ كنت كالغصن نثّته الصّبا وصحن ذاك الخلد لم يشعر^(٢)
وله أيضاً :

وأهيف لا يلوى على عتب عائب ويقضى علينا بالظنون الكواذب
يحكم فينا أمره فنطيعه ونحسب منه الحكم ضربة لازب
وله أيضاً رحمه الله تعالى :

وعالمته حلّو الشئائل ماجنا خنت الكلام مرخ الأعطاف
ما زلت أنصفه وأوجب حقه لكنه يأبى من الإنصاف
وله أيضاً :

حبيب متى ينأى عن العين شخصه يكاد فؤادي أن يطير من البين
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا كأن على قلبي تمام من عين
وله أيضاً :

أفدى أبا عمرو وإن كان جانياً على ذنوبا لا تعدد بالعتب
فما كان ذلك الود إلا كبارق أضاء لعيني ثم أظلم للقلب
وله وقد بلغه موتى ، وتحقق عنده فوتى :

(١) لم تشعر ، هنا : معناه لم تعلم ولم تفتن لما أنا فيه من السهد والأرق ،

(٢) لم يشعر ، هنا : معناه لم يثبت فيه الشعر .

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك الحابر والأقلام والطُّرس
ما كنت أحسب يوما قبل ميته أن البلاغة والآداب تختلس
واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع ، وأبهى مطلع ، وجوانب
حَفْدِهِ ^(١) بين يديَّ محته ، وسحائب رفده على مُنْهَلِهِ ، وكان أجمل مَنْ مُقِلَّ ^(٢) ،
وأكمل مَنْ مِنَ المهد إلى سرير الملك قد نُقِلَ ، وكتب إلى يهينني بقدم من سفر :
قدمت أبا بكر على حال وَخْشَةٍ فجاءت بك الآمال واتصل الأنس
وقررت بك العينان واتصل المنى وفازت على يأس بيفتيها النفس
فأهلا وسهلا بالوزارة كلها ومن رأيه في كل مظلمة شمس
وقال في المطامح في ترجمة الوزير أبي الوليد بن حزم .

من ترجمة
أبي الوليد
ابن حزم

واحدٌ دونه الجمع ، وهو للجلالة بصروسمع ، روضة علاه رائقة السني ، ودوحة
بهاء طيبة الجنى ، لم يترز بغير الصَّوْن ، ولم يشتهر بفسادٍ بعد الكون ، مع نفس
برئت من الكبر ، وخلصت خلوص التبر ، وعفاف التحف به برُوداً ،
وما ارتشف به ثغراً برُوداً ، فعَقَّتْ مواطنه ، وما استرابت ظواهره ولا بواطنه ،
وأما شعره ففي قالب الإحسان أفرغ ، وعلى وجه الاستحسان يلقي ويبلغ ،
وكتب إليه ابن زُهر :

أبا الوليد وأنت سيد مذحج هلا فككت أسير قبضة وغدير
وحياة مَنْ أمد الحياة بوصله وذهابها حتماً بأيسر صدّه
لأفانلك إن قطعت بمرهف من جفنه وبصعدة من قدّه ^(٣)
فراجعه أبو الوليد .

لييك يا أسد البرية كلها من صادق عبث المطال بوعده

(١) الحفد : جمع حافد ، وهو : التابع ، والخادم ، والناصر .

(٢) مقل : نظر وزنا ومعنى .

(٣) المرهف : السيف المرقق الحد ، والصعدة - بالفتح - الفناة المستوية ،
تثبت هكذا ، فلا تحتاج إلى تثفيف وتعديل ، شبه قوامه بها في اعتداله .

يمضي بأمرك ساراً وسد القضا
ويقلُّ حصد النابيات بحده
إيه وواقفت الصبا في معرض
ذهب المشيب بهزله وبجده

وقال في المطمح في ترجمة أبي بكر الغساني ، ما صورته :

صليب العود ، مهيب الوعود ، لودعي له الأسد الورد لأجاب ، ولورمي
بذكره الليل البهيم لانجاب ، ولوقعدت بين يديه الأطواد لتحرك سكونها ،
ولو عصته الطيور ما آوتها وكونها ، مع وقار تخاله يذُبُّ بلا^(١) ، وفخار يفضح بُدْبلا ،
وشيم لو كانت بالروض ما ذوى ، أو تقاسمت في الخلق ما رمد أحد بعد ماشوى ،
وسجاي تنجلي عنها الظلماء ، كأن مزاجها غسل وماء^(٢) ، انتهى .

وهذا الغساني هو صاحب تفسير القرآن وقد عرّف به «الإحاطة» فليراجع ثمة
وقال أيضاً في المطمح ما صورته : أبو عامر بن عقال .

كان له بيني قاسم تعلق ، وفي سماء دولتهم تألق ، فلما خوت نجومهم^(٣) ،
وغفّت رسومهم ، انحط عن ذلك الخصوص ، وسقط سقوط الطائر المقصوص ،
وتصرف بين وجود وعدم ، وتحرف قاعداً حيناً وحيناً على قدم ، وفي خلال حاله ،
وأثناء انتحاليه ، لم يدع حظه من الحبيب ، ولا ثنى لحظه عن الغزال الريب ، ولم
يزل يطير ويقع ، والدهر ينخرق حاله ويرقع ، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف
ابن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى ربّوه ، وأراه أبهى حُظوة ، فأدرك عنده رتبة أعلام
التحجير والإنشا ، وترك الدهر قلق الحشا ، وتسم منزلة لا يتسمنها إلا من تطهر من
درّنه ، وجمع إحسانه في ميدان حرّنه ، والحظوظ أقسام لا تُسام ، والدنيا
إنارة وإعتماد .

ولو لم يعلّ إلا ذو محلّ تعالى الجيش وانحطّ القتّام

(١) يذبل - بوزن ينصر - اسم جبل ، وفيه يقول امرؤ القيس :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يذبل

(٢) قد أخذ هذه الفقرة من قول حسان بن ثابت :

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها غسل وماء

(٣) خوى النجم : غرب وسقط

وقد أثبت عنه بعض ما انتقيته ، والذي أخذته مابين لما أبقيته ، فمن ذلك قوله :

يا ويح أجسام الأنا م فما تطيق من الأذى

خلقت لتقوى بال غذا وسقمها ذاك غذا

وتنال أيام السلا مة بالحياة تلذذا

فاذا انقضى زمن الصبا ورعى المشيب فأنفذا

وجد السقام إلى الفنا صل والجوانح منفذا

ويقول مهما يعط شيئا ناولوني غير ذا

وحذا في هذه القصيدة حذو الصابي في قوله :

وجع المفاصل وهو أيسر ما لقيت من الأذى

رد الذي استحسنته والناس من خطي كذا

والعمر مثل الكاس ير سب في أواخره القذى

وله يعتذر عن زيارة اعتمدها ، ومواصلة اعتقدها ، فعاقته عنها حوادث لوته ، وعدته عن ذلك وثبته :

بينما كنت راجيا للقاءه والتشفي بالبشر من تلقائه

وترقت من سماء نزاعى قر الأنس طالعا من سمائه

إذ دهاني اعتراض خطب ثنائى عن غمام يشفى الغليل بمائه

فتدلت وانزويت حياء منه والعذر واضح لسناؤه^(١)

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسة : وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جواره - أيده الله تعالى - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ، ومهمل بعد

(١) تدله تدلها : تحير وأخذته الدهشة ، وانزوى : انقبض ، والسنا :

أصله أن يقال بالفصر بمعنى الضوء ، وبالمعنى الرفعة ، والظاهر أنه أراد هنا معنى الضوء ، ولكنه مده حين اضطر .

أن أرى الشامخ من هضابه ، وصار حَيْه مَيْتًا ، وهذره صَمْتًا ، وجباله لا ترى
فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا ، وضعف تعاطيه ، وعَقَدَ السلم بين مَوْجِه وشاطيه ، فعبر آمنة
من لَهْوَانِه ، متملكا لَصَهْوَانِه ، على جواد يقطع الجوَّ سَبَحًا ، ويكاد يسبق البرق
لَمَحًا ، لم يحمل لجاما ولا سَرَجًا ، ولا عهد غير اللجة الخضراء مَرَجًا ، عِنانِه في
رجله ، وهذَّبُ العين يحكي بعض شكله ، فله هو من جَوَاد ، له جسم وليس له
فَوَاد ، يخرق الهوى ولا يَرَهْبُه ، وبركض الماء ولا يشر به .

من ترجمة
أبي مروان
الطنبلي

وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي ، ما نصه :
من ثَنِيَّة شرف وحَسَب ، ومن أهل حديث وأدب ، إمام في اللغة متقدم ،
فارغ لِرُتَب الشَّعْر مُتَسَمِّم ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد وقد
تَوَجَّ بالمعارف المُفَرِّق ، وأقام بقرطبة علما من أعلامها ، ومتسنا لترفعها وإعظامها ،
تَوَثَّره الذُّول ، وتصطفيه أُملاكها الأول ، ما زال فيها مقيا ، ولا برح عن طريق
أحانها مستقيا ، إلى أن اغتيلَ في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح
مقتولا في فراشه ، مذهولا كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه ، وقد
أثبت من محاسنه ما يعجب السامع ، وتُضَعِي إليه المسامع ، فمن ذلك قوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم على ما به منهم حنينُ الأباغر
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا إلا إن قلبي سائر غير صابر
ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع إليه في المجلس
خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وماله عندهم من الأثرة ، قال :

اني إذا حضرتني ألف محبرة يكتبن حدثني طورا وأخبرني
نادت بمفخرى الأقالِمُ معلنة هذى المفاخر لا قعبان من لبن^(١)

(١) عجز هذا البيت من قول أبي الصلت بمدح ذا يزن :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتقا في رأس غمدان دارا منك محلا
هذى المسكارم لاقعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وكتب إلى ذى الوزارتين أبي الوليد بن زيدون :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار وقلّ منا ومنك اليوم زوّار
وبيننا كل ما تدريه من ذِمِّم وللصبا ورق خضر وأنوار
وكل عتب وإعتاب جرى فله بدائع حلوة عندى وآثار
فاذكر أخاك بخير كلما لبث به الليالى فإن الدهر دوار

وقال فى ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبى عمر أحمد بن عبد ربه :

عالم ساد بالعالم ورأس ، واقتبس به من الخطوة ما اقتبس ، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرر الذكاء فكره ، وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية له متسقة ، وأما الأدب فهو - كان - حُبَّتُهُ (١) ، وبه غمرت الأفهام لجته ، مع صيانة وورع ، وديانة ورد ماءها فكرع ، وله التأليف المشهور الذى سماه بالعقد ، وحماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه مُثَقَّفَ الفَناء (٢) ، مرهف الشبابة (٣) ، تقصّر عنه ثواب الألباب ، وتبصر السحر منه فى كل باب ، وله شعر انتهى منتهاه ، وتجاوز سماك الإحسان وسماه .

من ترجمة
ابن عبد ربه
صاحب العقد

أخبرنى ابن حزم أنه مر بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبه ، وألهب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رش بماء من أعاليه ، فاستدعى رقعة ، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضنّ فى أحد
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضنّ على سمعى ومُنّ به صوتا يحول مجال الروح فى الجسد
أما النبىذ فإنى لست أشربه ولا أحبل إلا نسوتى بيدي

(١) « كان » فى هذه الفقرة زائدة ، و « حُبَّتُهُ » مرفوع على أنه خبر المبتدأ

(٢) القناة ، هنا : الرمح ، ومثقفها : معدها مقومها .

(٣) الشبابة - بفتح الشين - طرف السنان ، ومرهفها : محدها .

وعَزَمَ فتى كان يتألقه ، وخامره كَلَفُهُ ^(١) ، على الرحيل في غَدِهِ ، فأذهبت عزيمته
قوى جَلَدِهِ ، فلما أصبح عاقته السماء بالأنواء ^(٢) ، وساقته مكرها إلى التواء ، فاستراح
أبو عمر من كَمَدِهِ ^(٣) ، وانفسح له من التواصل ضائق أَمَدِهِ ، فكتب إلى المذكور ،
العازم على البكور :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر هيهات يأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكى حذار البين ملتها حتى رثى لى فيك الريح والمطر
يا برده من حَيَاً مزني على كبد نيرانها بغليل الشوق تستعر ^(٤)
آليت أن لا أرى شمساً ولا قرا حتى أراك فأنت الشمس والقمر
ومن شعره الذى صرَّح به تصرَّح الصب ، وبرَّح به وقائع اسم الحب ، قوله :
الجسم فى بلد والروح فى بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد
إن تبك عيناك لى يا من كلفت به من رحمة فهما سهماك فى كبدى
ومنه قوله :

وَدَّعَتْنِي بَزْفرة واعتناق ثم نادى متى يكون التلاق
وبدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أقطع يوم لينى مت قبل يوم الفراق
وله أيضا :

إذا الذى خَطَّ الجلال بخده خطين هاجا لوعة وبلا بلا
ما صح عندى أن لحظك صارم حتى لبست بعارضيك حائلا
وأخبرنى بعضهم أن الخطيب أبا الوليد بن عيال حج ، فلما انصرف ، تطلع إلى

(١) خامره : داخله ، وكلفه : حبه .

(٢) الأنواء ، هنا : الأمطار ، واحدها نوء . (٣) الكمد : الحزن .

(٤) فى ب « على كبدى » وحذف ياء المتكلم أدق وأظرف .

لقاء المتنبي واستشرف ، ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لا يحتسبها ،
فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ، ثم قال : أنشدني
المليح الأندلس ، يعنى ابن عبد ربه ، فأنشده :

يا أولوا يسبي العقول أنيقا ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكل إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيتك
العراق حبوا .

وله أيضا :

ومعذّر نقش الجبال بخطه خدا له بدم القلوب مضرجا^(١)
لما تيقن أن سيف جفونه من نرجس جعل النجاد بنفسجا

وله أيضا :

وساحبة فضل الذبول كأنها قضيب من الریحان فوق كثيب
إذا ما بدت من ثعراها قال صاحبي أطفئ وخذ من وصلها بنصيب

وله أيضا :

هيج الشوق دواعى سقى وكسا الجسم ثياب الألم
أيها البين أقلني مرة فإذا عذت فقد حل دمي
يا خلى الروع نم في غبطة إن من فارقته لم ينم
ولقد هاج بجسمى سقما حب من لو شاء داوى سقى

(١) المعذر - بزنة المعظم - الذى نبت عذاره ، وهو شعر الوجه .

و بلغ سنَّ عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمٍ^(١) ، واعترف بذلك اعتراف متألِّم ، عندما وَهَتْ شدته ،
وبليت جدَّته ، وهو آخر شعر قال ، ثم عثر في أذيال الردى وما استقال :

كلانى لما بى عاذلى كفى طويت زمانى برهة وطوانى
بليت وأبليت الليالى مكرها وصرفان للأيام معتوران
ومالى لا أبلى لسبعين حجة وعشرأت من بعدها سنتان
فلا تسألانى عن تباريح على ودونكما منى الذى تريان
وإنى بحول الله راج لفضله ولى من ضمان الله خير ضمان
ولست أبالى من تباريح على إذا كان عقلى باقيا ولسانى

وفى أيام إقلاعه عن صَبَوته ، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوْبَتِهِ ، وانثنائه عن
مجون المجون إلى صفاء توبته ، محص أشعاره فى الغزل بما ينافيها ، ونصل من
قوادمها وخوافيها ، بأشعار فى الزهد على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة
التي أولها :

* هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر *

محصها بقوله :

يا راقد العين يغفوحين يقتدر ماذا الذى بعد شيب الرأس ينتظر
عين بقلبك إن العين غافلة عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تزفر من غيظ إذا سمرت للظالمين فلا تبقى ولا تذر
لوم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مُزْدَجَرُ
أنت المقول له ما قلت مبتدئا هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر

(١) هو عوف بن محلم - بزنة معظم - خزاعى ، شيبانى ، بلغ الثمانين ، وهو
الذى يقول فى مدحة مدح بها عبد الله بن طاهر :
إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

من ترجمة
أبي القاسم
المنيشى

وقال فى ترجمة أبى القاسم المنيشى ، ما صورته :

أبو القاسم المنيشى ، أحد أبناء حضرة إشبيلية المقلين ، الناهضين بأعباء الضرائر
المستقلين ، لم يزل يعشوا لكل ضوء ، وينتجع مصاب كل نوء^(١) ، فيوما يخصب ،
ويوما يجذب ، وآونة يفرح وأخرى ينتدب ، إلى أن صدقت تخايله ، فرمقت بخوته
وتحايله ، وأتى من العجب ، بمنسدل الحجب ، ومن الأثر ، ما لم يأت من بشر ،
وما تصرف إلا فى أنزل الأعمال ، ولا تعرف إلا بأخون العمال ، لم يفرغ رهوة
ظهور ، ولم يفرغ باب رجل مشهور ، وله أدب ولسن ، ومذهب فيهما يستحسن ،
لكنه نكب عن المقطع الجزل ، وذهب مذهب الهزل ، إلا فى النادر فر بما جد ،
ثم أخلق منه ما استجد ، وعاد إلى ديدنه ، عودة أبى عباد إلى واوانه ومُدنه ،
وأخذ فى ذلك الغرض ، وليس شرط كتابى بذاه ، ولا أن يقف حذاه ، وقد
أثبت له ما هو عندى نافق ، ولغرض كتابى موافق ، فمن ذلك قوله :

يا رَوْضَةَ باتت الأنداء تخدمها	أتى النسيم وهذا أول السحر
إن كان قدك غصنا فالثراء به	مثل السكائم قد زرت على الزهر
ارزأاً بخديك عن ورد وعن زهر	اغنىاً بقرطيك عن شمس وعن قمر
يا قاتل الله لحظى كم شقيتُ به	من حيث كان نعيم الناس بالنظر
وله من رثاء فى والدتى رحمة الله عليها :	

يا ناصحى غير مفتات ولا شجن	على النصائح والنصائح مفتات
لا أستجيب ولو ناديت من كَثَبٍ	وقد قدتني تعلات وعلات
إن كان رأيك فى برى وتكرمتي	بحيث قد ظهرت منه علامات
لا ترض لى غير شجوا لا أفاقه	فذاك أختاره والناس أشتات

(١) ينتجع : يقصد ، ومصاب : اسم مكان من « صاب المطر يصب » أى
نزل ، والنوء - بالفتح - المطر ، وأصله سقوط نجم بعود آخر ، وكأنه قال :
يقصد مكان نزول كل مطر ، والعبارة كناية عن غشيانه منازل الكرماء .

ومنها :

يا إذا الوزارات من مثني وواحدة لله ما اصطفعت منك الوزارات
 لله منك أبا نصر أخو جلد إذا أملت ملات مهمات
 أستودع الله نورا ضمه كفن كما تُؤارى بدور التم هالات
 قضت وليت شبابي كان موضعها هيهات ! لوقضيت تلك اللبانات
 مضت ولما يقيم من دونها أحد هلا وقد أعذرت فيها المروآت
 وله يصف زرزورا :

أمنبر ذاك أم قضيب يفرعه مضقع خطيب
 يختال في بردى شباب لم يتوضح بها مشيب
 كأنما ضمخت عليه أبراده مسكة وطيب
 أخرس لكنه فصيح أبله لكنه لبيب
 جهم على أنه وسيم صعب على أنه أريب

أبو الحسن البرقي :

من ترجمة
 أبي حسن
 البرقي

بلنسى الدار ، نفيسى المقدار ، ما سمعت له بشرف ، ولا علمت له بسلف ،
 ولا اطلمت منه على غير سرف ، ورد إشبيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، واتصل
 بابن زهر ، فناهيك من حظ في أكنافه^(١) جال ، ومن لحظ فيا أراده أجال ، ومن
 أمل استوفر ، وحظ مسك أذفر ، ومن وجه جاده أسفر ، سلك به ساحة الرغائب ،
 وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب ، وقال فما نبذت^(٢) مقالته ، وأقال فما قيدت
 إقالته ، وكان حلو المجالسة ، مجلو الموانسة ، ذا نشب وافر ، ومذهب في المساهمة
 سافر^(٣) ، إلا أنه كان كلفا بالفتيان ، مُعنى بهم في كل الأحيان ، ونيف على السبعين

(١) الأكناف : جمع كنف ، وهو الناحية والجانب ، وجال : تحرك .
 (٢) نبذت - بالبناء للمجهول - طرحت . (٣) سافر : أراد ظاهره وأوضحها

وهو برداء الصبوة مرتد ، وبعترها معقد ، مع أدب زهرته ترف ، وكأنه بحر
والألباب منه تغترف ، وقد أثبت له بعض ما وجدت له في الغلمان ، وأنشدت له
في تلك الأزمان ، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

إن ذكرت العقيق هاجك شوق رب شوق يهيجه الأدكار

يا خليلي حـدثنى عن الركب سحيراً أنجبـدوا أم أغاروا^(١)

شغلونا عن الوداع وولوا ما عليهم لو ودعوا نم ساروا

أنا أهـواهم على كل حال عدلوا في هـواهم أم جاروا

وعلق ياشيلية فتى يعرف بابن المكر ، وبات من حبه طريحا بين أيدي الوسواس
والفكر ، لا يمشى إلا صَبًا ، ولا يفشى إلا غراما وحبًا ، وما زال يقاسى لوعته ، مقاساة
يناجى بها صرخته ، ويكابد جواه ، ويلازم هواه ، حتى اكتسى خده بالعدار ،
وانمحت عنه بهجة آذار ، فسلاً من كلفه ، وتصدى ذلك لمواصلته بصلته ، فقال :

الآن لما صوّحت وجناته شوكا وأصحت سلوة العشاق^(٢)

واستوحشت منه المحاسن واكتست أنوار وجهك واهن الأخلاق

أمسيت تبذل لى الوصال تصنعا خلق اللئيم وشيمة المذّاق

هلا وصلت إذ الشمائل قهوة وإذ الحياء روضة الأحداق

ياكم أطلت غرام قلب موجّع كم قد ألبّ إليك بالأشواق

ما كنت إلا البدر ليلة تمه حتى قضت لك ليلة بمحاق

لاح العذار فقلت وجد نازح إن ابن داية مؤذن بفراق

وله فيه مناقضا لذلك الغرض ، معارضا للوعة سلوه الذى كان عرض :

يلومون فى ظي تزايد حسنه بخطين خطا لوعتى وغراميا

(١) أنجدوا : أتوا نجدا ، وأغاروا : أتوا الغور .

(٢) تقول : « صوح التبت » تريد أنه جف ويسس ، وأراد أن وجناته نبت

فيها الشعر .

وقد كنت أهوى خده وهو عاطل فكيف وقد أضحي لعيني حاليا
وله أيضا في مثله :

أجبل الطرف في خد نصير يردد ناظري نظري إليه
إذا رمدت بحمرته جفوني شفاها منه إتمد عارضيه
أبو الحسن علي بن جودي :

بَرَزَ في الفَهم ، وأحرز منه أوفر سَهم ، وعانى العلوم بقريحة ذَكِيَّة ،
وواخى بنفس في المعارف زكية ، وله أدب واسع مداه ، يانع كالروض بلله نداه ،
ونظم أرق من دمع العاني ، ولطيف المعاني ، وأعَبَقَ من نفس الخائل ، في أكف
الصبا والشمال ، ونثر كالزهر المَطْلُول ^(١) أو السلك المحلول ، لإلانه سَهًا فأسرف ،
وزها بما لا يعرف ، وتصدى ^(٢) إلى الدين بالافتراء ، ولم يراقب الله تعالى في ذلك
الاجترأ ، واشتهرت عنه في ذلك أقوال سَدَدَ إلى الملة نِصَالَهَا ، وأبدى بها ضالَها ،
فَعَظُمَتْ به الحُنة ، وكنت له في كل نفس إحنه ^(٣) ، وما زال يتدرج فيها وينتقل ،
حتى عثر وما كاد يستقل ، فمر لا يُلوِي على تلك النواحي ، وفر لا يئنثي إلى لوائهم
ولواحي ، وما زال يركب الأهواء ويخوضها ، ويذل النفس بها ويروضها ، حتى
أسمحت ببعض الإسماع ، وكفت عن ذلك الجراح ، واستقر عند أبي مالك فأواه ،
ومهد له مَنَواه ، وجعله في جملة من اختص من المبطلين ، واستخلص من المعطلين ،
فكثيراً ما يصطفيهم ، ولا يدرى أيدخرهم أم يقتنيهم ، وقد أثبت له ما يبهز سامعا ،
ويظهر برقاً لامعا ، فمن ذلك قوله :

أحنُّ إلى ريح الشمال فإنها تذكركنا نجدا وما ذكرنا نجدا
تمرُّ على ربع أقام به الهوى وبذل من أهليه جائمة رُبداً

(١) المَطْلُول : الذي نزل عليه الطل ، وهو المطر الخفيف ،

(٢) تصدى : تعرض . (٣) كنت : استترت ، والإحنة : الحقد .

من ترجمة
أبي الحسن
علي بن جودي

فيا ليت شعري هل تقضى لبانة
خليلي لا والله ما أحمل الهوى
فأرشف اللّميّا وأعتنقُ القدّا (١)
وإن كنت في غير الهوى رجلاً جلدًا
وقوله أيضا :

سل الركب عن نجد فإن تحية
وإلا فما بالُ المطى على الوجّا
لساكن نجد قد تحملها الركب
خفافا وما للريح مرجعُها رطبُ
وقوله أيضا :

إذا ارتحلت غريبة فاعرضا لها
لقد ساءنا أنا بعيد وأننا
بأرضين شتّى لا مروراً ولا قرباً
وإما أمور باعثت لنا كرباً
فيا ليت لم ندر الليالى ولا الخطبا
ظعننا على حكم الليالى وخطبها
وكنّت أرجى الدهر بعد الذى مضى
أحقا يسير الركب لم ترتحل بنا
وقوله أيضا :

لقد هيج النيران يا أم مالك
عشية لا أرجو لقاءك عندها
بتدمير ذكري ساعدتها المدامعُ
ولا أنا أن يدنوم مع الليل طامع
وقوله أيضا :

حننت إلى البرق اليماني ، وإنما
فيا راكبا يطوى البلاد تحملنُ
نعالج شوقاً ما هنالك هانيا
ليالينا بالجزع جزع محجر
تحيقنا إن كنت تلجأ لاقيا
وما ضر محبي وقفة بمحجر
سقى الله يا فيحاء تلك اللياليا
أحيى بها تلك الرسوم البواليا

(١) اللبانة - بضم اللام - الحاجة ، واللميا : أراد الشفة العليا ، وهى السمراء ، وأصلها لمياء - بالهمز - فحذف الهمزة حين اضطر لإقامة الوزن .

وله أيضا :

خليلى من نجد فإن بنجدهم مصيفا لبیت العامرى ومربعا
ألا رجعا عنها الحديث فإننى لأغبط من ليلى الحديث المرجعا
عزيز علينا يا ابنة القوم أننا غريبان شتى لا نطيق التجمعا^(١)
فريق هوى منا يمان ومُشَّم يحاول يأسا أو يحاول مطمعا^(٢)
كأننا خلقتنا للنوى ، وكأنا حرام على الأيام أن نتجمعا

من شعر الفتح
ابن خافان

ووجدت له فى بعض نسخ « المطمح » قوله أيضا :

سقى دارك اللأى بيطن مُحَصَّبٍ مثاكيل من وفد الغمام المرح
ألم تعلمى يا فتنه القلب أننى تطارحت من حبلكم كل مطرح
إذا نعبت غر بان دار ووجدتنى وشوقى مقيم بين ناء ونزح

وله أيضا :

ألا خبر وللبلوى ضروب وفيك لكل مشتاق حبيب
حبك الله بالنعى فنونا وجر لكم مع النعمى خطوب
متى تقضى بخسفتك الليالى وتعصف فيكم ريح هبوب
فإنكم تجرون المنيايا وتعمر من مجانينكم قلوب
وقد ذكر فى « المطمح » له تخميسا جاريا على أسنة الناس إلى الآن ، وهو :
أيا ساكنين بأرض اللوى وصالكم أسقامى دوا
وعافاكم الله من ذا الجوى ملكتم فؤادى فصار الهوى
على رقيب رقيب رقيب
ولما تبدت لهم حالتى وما حرك الهجر من زفرتى

(١) غريبان شتى : أى متفرقان ، وفى القرآن الكريم . (تحسبهم جميعا

وقلوبهم شتى)

(٢) مشَّم : قد أتى الشام .

بكوا رحمة لى من ساعى فقلت متى الوصل ياسادى

فقالوا قريب قريب قريب

وهو وإن لم يكن فى ذروة البلاغة فقد ذكرته لأنه مطروق بالمغرب عند أهل التلاحين وغيرهم .

ولنذكر بعض نص خطبة المطمح ، قال رحمه الله تعالى فيه : أما بعد حمد الله الذى أشعرنا إيماناً وإلهاماً ، وصير لنا أفهاماً ، ويسر لنا برود آداب ، ونَشَرَنَا^(١) للانبعاث لإثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة ، ونبأه منة منه ونعمة ، وسلم تسليماً ، فإنه كان بالأندلس أعلام ، فتمنوا بسحر الكلام ، ولقوامه كل تحية وسلام ، فشعشعوا البدائع وروقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هَوَّوْا فى مهاوى المنايا ، وانطووا بأيدي الرزايا ، وبقيت ماثرهم الحسان ، غير مثبتة فى ديوان ، ولا جملة فى تصنيف تجتلى فيه العيون ، وتجتنى منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها ، واتصال صدورها بأعجازها ، فخلت من الوزير أبى العاصى حكم بن الوليد عند من رَحَبَ وأَهَّلَ ، وأَعْلَى بمكارمه وأنهل ، ونذبنى إلى أن أجمعها فى كتاب ، وأدركنى من التنشط إلى إقبال ما ندب إليه ، وكتابة ما حث عليه ، فأجبت رغبته ، وحليت بالإسعاف لَبَّتْهُ ، وذهبت إلى إبدائها ، وتخليد عليها ، وأملت منها فى بعض أيام ، ثلاثة أقسام : القسم الأول يشتمل على سَرْدِ غرر الوزراء ، وتناسق درر الكتاب والبلغاء . القسم الثانى : يشتمل على محاسن أعلام العلماء ، وأعيان القضاء والحكام . القسم الثالث : يشتمل على ذكر محاسن الأدباء ، والنوابغ النجباء ، انتهى .

وهذه خطبة المطمح الصغير ، وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك

من ثر
أبى نصر الفتح
ابن خاقان

(١) فى ب « ونشرت للانبعاث لإثباتها والانتداب » وأثبتنا ما فى المطمح ، والنشر فى الأصل ضد الطى ، والمراد به آثارنا لهذا العمل وحرك همتنا له .

والسلطين حسبا نقلنا بعضه فيما مر من هذا الكتاب ، على أننا نقلنا بعضا من الصغير أيضا ، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب ، ومن له أدنى ممارسة ، وليراجع من الترجمة الفرق بين كلامه في الصغير وغيره ، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه الله تعالى في تحلية الناس ، ووصف أيام الأنس ، وليس الخبر كالعيان ، وقد سردنا بعض كلامه في القلائد وفي المطمح .

ولنرجع الآن إلى ما كنا بصددده من أمر التوشيح فنقول :

وتمام موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين هو قوله :

هل درى ظلي الحمى أن قدحى	قلب صب حله عن مكس
فهو في حرّ وخفقٍ مثل ما	لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا أطلعت يوم النوى	غررا تسلك في نهج الغرر
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى	منكم الحسن ومن عيني النظر
أجتني اللذات مكوم الجوى	والتذاذي من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وجدا بسمّا	كالربا بالعارض المنبجس ^(١)
إذ يقيم القطر فيها مائما	وهي من بهجتها في غرُس
غالب لي غالب بالتؤدة	بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نصّده	أفحوانا عصرت منه رحيق ^(٢)
أخذت عيناه منه العربة	وفؤادي سكره ما إن يفيق
فاحم الجمّة معسول الهمي	أكل اللحظ شهى اللعس ^(٣)
وجهه يتلو الضحى مبتسما	وهو من إعراضه في عبس

(١) الربا : جمع ربوة ، وهي المكان المرتفع ، والعارض : السحاب ، وأراد به المطر ، والمنبجس : المتفجر بالماء ، يريد ابتساما كابتسام الربا عند نزول المطر عليها .

(٢) الرحيق : الخمر ، شبه ريقه بها .

(٣) الجمّة - بضم الجيم - مجتمع شعر الرأس ، والهمي - بالفتح مقصورا - الريق ، واللّس - بفتح اللام والعين - سواد في الشفة ، وهو مما يستحسنه العرب .

عود إلى ذكر
الموشحات

موشحة
ابن سهل

أيها السائل عن دُلِّي لديه لي ينجي الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقا للصب فيه مغرب
ذهبت أدمع أجفاني عليه وله خـد بلحظي مذهب
يطلع البدر عليه كما لاحظته مقلتي في الخُلَسِ (١)
ليت شعري أى شيء حرّما ذلك الورد على المغترس
كما أشكو إليه حُرقي غادرتني مقلتهاه دنفا (٢)
تركت الحَاظه من رَمَقي أثر النمل على صُمِّ الصفا (٣)
وأنا أشكره فـيما بقي لست ألحاه على ما أتلعا
فهو عندي عادل إن ظلما وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الحب حكم بعدما حل من نفسي محل النَّفسِ
منه للنار بأحشائي اضطرام يلتظي في كل حين ما يشا
وهي في خديه برد وسلام وهي ضر وحريق في الحشا
أنقى منه على حكم الغرام أسد الغاب وأهواه رشا
قلت لما أن تبدى معلما وهو من الحَاظه في حرسِ
أيها الآخذ قلبي مغنا أجعل الوصل مكان الخُمسِ

بعض أهل وقد عارض هذا الموشح أيضا بعض متأخري المغاربة فقال :

يا غريبُ الحى من حى الحمى أتم عيمدى وأنتم عرسى
لم يحل عنكم ودادى بعد ما خلتم لا وحياة الأنفس
من عذيرى فى الذى أحببته مالك قلبي شديد البرحا
بدرتم أرسلت مقلته سهم لحظ لقوادى جرحا
إن تبدى أو تننى خلته غصن بان فوقه شمس ضحا

بعض أهل
المغرب يعارض
ابن سهل

(١) الخلس : جمع خلسة - بالضم - وهى الاسم من « اختلس فلان الشيء »

إذا أخذه فى نهزة ومخاتلة . (٢) دنفا - بفتح فكسر - مريضا .

(٣) الصفا : جمع سفاة ، وهى الصخرة الملساء

تَطْلُعُ الشمسُ عِشاءً عندما تنجلي منه بأهـى ملبس
وترى الليل أضـاً منهزماً وترى الصبح أضـاً في الغلـس^(١)
يا حياة النفس صِلْ بعد النوى والهاً مُضَيَّ شديـد الشغف^(٢)
قد براه السقم حتى ذا الهوى كاد أن يُفِضِي به للتلف
آه من ذكر حبيب بالوى وزمان بالنى لم يسعف
كنت أرجو الطيف يأتى حلما عائداً يا نفس من ذا فأيأس
هل يعود الطيف صبا مغرماً ساهراً أجفانه لم تنعس
هِمَّتْ في أطلال ليلي وأنا ليس في الأطلال لى من أرب
ما مرادى راقيةً والمنحنى لا ولا ليلي وسعدى مطلبى
إنما سؤلى وقصدى والمنى سيد العجم وتاج العرب
أحمد المختار طه من سما الشريف ابن الشريف الكيـس
خاتم الرسل الكريم المنتمى طاهر الأصل زكى النفس

وقال في مباراة هذه الموشحات السابقة :

لا تلمنى يا عدولى تأثماً ما ترى جسمى بسقم قد كسى
مثل ما شرح غرامى علماً حيث أشكو وحشة من مؤنس
ظبى أنس عن فؤادى نفرا وفؤادى مكتوم من صده
وعدولى فى هوى الحب فرى بلام مذهى عن وده
أنت أعمى يا عدولى ما ترى يانع الورد بدا من خده
وله ثغر إذا ما ابتسما كبروق أو مَصَّتْ فى الغلس
وثناياه كدُرّ نظاً فضيها فى الدجى كالقـبس

(١) أضـاً : أصله « أضـاء » خذف الهمز حين اضطر ، وعامله معاملة الممدود ،

وهذه ضرورة أخرى .

(٢) الواله : الوصف من الوله - بفتح الواو واللام جميعاً - وهوا الحيرة من شدة الحب

(١٨ - نفع ٩)

كم ترى سحرا يحفنيه بدا
 ليس سحر مقلتي هذا سدى
 خيفة أوجس قلبي وغدا
 يا إله العرش يارب السما
 قلبي الوهان يشكو ألما
 أغنيدي سبي البرايا بالمثل
 لوراته الشمس أضحت في خجل
 من معاني حسنه رق الغزل
 آخذ بالروح مني كُلمًا
 يقنص الأسد بلحظ قد رمى
 يا رعى الله زمانا سلفا
 مثل دينار وها قد صرفا
 فاعذروا القلب الذي قد شغفا
 بدرتم أهيف حلو اللعى
 كسلاف عهدا قد قدما
 قهوة بكر عجز عتقت
 هي لما في زجاج أشرقت
 جددت بسطاوكم قد مزقت
 حلف الخمار عنها قسما
 فاسقنى صِرْفًا ولا تمزج بما
 لفؤاد في الهوى أضحي كليم^(١)
 يافؤادى إن شفى السحر السقيم
 راحلا صبرى وهاشوق مقيم
 يا عليما بضمير الأنفس
 من جفا ظبي أغن أكيس
 أدعج الجفن بعينه حور
 وهو للبدر بوجه قد قر
 في غزال قد غزاني بالنظر
 رمو الصب بطرف أنعس
 أسهما تفتك من غير قسي
 بلويلات تفضت بانسراح
 في ألد العيش مع حب وراح
 بحبيب ماله عنه براخ
 ريقه شهد شهى اللعس
 تنجلي في كأسها كالعرس
 زمنا في دنها من قبل نوح
 شمس راح غربت في كل روح
 قلب صب في غبوق وصبوح
 أنها بالملكث كادت تنسى
 راحة كم أذهبت من عبس

(١) وقع في ب « لفؤادى في الهوى » وهو بدون ياء المتكلم أرق وأدق ، وقد
 وقف على « كليم » المنسوب بالسكون ، على لغة ربيعة ، ولغة الجهمرة من قبائل العرب
 أن يوقف على المنسوب المنون بالألف ، فيقال « أضحي كليا » .

في رياض قد شدا شجر وره عاطفها بين أكناف الشجر^(١)
وانظم الشمل ودع منشوره حول ورد وأفاح وزهر
وإذا الطلّ بدا شـبوره كلل الأوراق منه بالدرر
ما ترى الريحان عبدا خدما حيث أضحى واقفا في المجلس
جلس النسرين لكن ربما استتحت منه عيون النرجس
فتنزه في رياض خضر وغصون غرّدت فيها هزار
وانتشق عرف زهور عطر ياسمين زينته الجلنار
وشذا الزهر كمسك أذفر واقبل العذر لابن البزدار
طامع في رحمة الله وما خاب عبد طامع لم ييأس
يا إلهي جد علينا كرما يا كريما قبل أخذ الأنفس
رجع إلى مؤشحات ابن الخطيب .

موشحة
قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى : ومما قلته من الموشحات التي
انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها :

رب ليل ظفرت بالبدر ونجوم السماء لم تدر
حفظ الله ليلنا ورعى أي شمل من الهوى جمعا
غفل الدهر والرقيب معا ليت نهر النهار لم يجز
حكم الله لي على الفجر
علل النفس يا أخا العرب بحديث أحلى من الصّرَب
في هوى من وصاله أربى كلما ذكر من تدرى
قلت يا برده على صدرى

(١) شدا : غفى ، والشجور — بزنة العصفور — طائر أسود فويق العصفور
يحبس لحسن صوته ، ويقال له « شجور » أيضا ، وعاطفها : اسقنها ، وأكناف
الشجر : نواحيه وجوانبه ، واحدها كنف ، بالتحريك .

صاح لا تهتم بأمر غد وأجز صرّفهما يدأيّد^(١)
 بين نهر وبلبل غرد وغصون تميل من سُكّر
 أعلّنت يا غمام بالشكر

يا مرادى ومنتهى أملى هاتها عَسْجَدِيَّة الحلل
 حلت الشمس منزل الحَلِّ وبرودُ الربيع في نشر^(٢)
 والصَّبَا عنبرية الذَّشْرِ^(٣)

غرة الصبح هذه وضحت وقيان الغصون قد صدّحت
 وكأن الصبا إذا نفحت وهفا طيبها عن اَصْر
 مدحة في علا بني نصر

هم ملوك الورى بلائُنْيَا مهدوا الدين زينوا الدنيا
 وحى الله منهم العَلْيَا بالإمام المرفيع الخطر
 والغمام المبارك القَطَر

إنما يوسف إمام هُدَى حازفي المعلوات كل مَدَى
 قل لدهر بملكه سعدا افتخر جملةً على الدهر
 كافتخار الربيع بالزهر

يا عماد العلّاء والجد أطلع العيد طالع السعد
 ووفى الفتح فيه بالوعد وتجلت فيه على القصر
 غُرُرٌ من طلائع النصر

فتنهًا من حسنه البهيج بحياة النفوس والمهج
 واستمعها ودع مقال شجى قسما بالهوى لدى حجر
 ما لِلَّيْلِ الْمَشُوق من فجر

(١) يدأيّد : أى مقابضة لا يتأجل فيها أحد البدلين .

(٢) النشر ، هنا : ضد الطي ، من قولهم « نشر ثوبه » مثلاً .

(٣) النشر ، هنا : طيب الرائحة .

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله :

كم ليوم الفراق من غُصَّه في فؤاد العميد^(١)
 نرفع الأمر فيه والقصة للولي الحيد
 رحل الركب يقطع البيدا بسفين النياق
 كل وَجْناً تتلع الجيدا وتبذ الرفاق
 حسبت ليلة اللقا عيدا فهي ذات اشتياق
 صائمات لا تقبل الرُخصه قبل فطر وعيد
 فهي مذ أمته مختصه بجهاد جهيد

ومنه في آخره :

يا إمام العلاء والفخر ذا السنا المبهج
 ها كُنْها لا عدمت في الدهر آملًا يرتجى
 عارضت قول بايع التمر بمقال شجى
 غروبك الجمال يا حفصه من مكان بعيد
 من سجلماسة ومن قفصه وبلاد الجريد

وقد ألف - رحمه الله تعالى! - في هذا الفن كتابه المسمى بحيش القوشيج، وأتى فيه بالغرائب ، وذيل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العلم الشهير المنفرد في عصره بحيازة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد القشتالي - رحمه الله تعالى! - بكتاب سماه «مدد الجيش» واستهله بقوله : حمدا لمن أمدَّ جيش محمد بعقرته ، وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ، وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسني - رحمه الله تعالى

لسان الدين
 يؤلف كتابا
 في الموشحات
 ويذيل عليه
 القشتالي

(١) الغصة - بضم الغين وتشديد الصاد - الشرق ونحوه ، ويراد منها هنا الضيق ، والعميد : فعيل بمعنى مفعول ، تقول «عمده الحب» أي أضناه وأوجعه وفدحه

ورضوانه عليه ! - ما زاده زَيْنَا ، وأخبرني - رحمه الله تعالى ! - أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من ثلثائة موشح ، ولا حرج في إيراد بعضها هنا ، فمنها قول أحد الوافدين من أهل مكة على عتبة السلطان مولانا المنصور ، وهو رجل يقال له « أبو الفضل بن محمد العقاد » وقد عارض بها موشحتي لسان الدين وابن سهل السابقتين :

ليت شعري هل أروى ذا الظما	من لَمَى ذاك الثَّغِيرَ الأَلسَ (١)
وترى عيناي ربأت الحى	باهيات بُقْدُودٍ مُيَسِّ (٢)
يَدْخُلُونَ السُّتْمَ من دار اللوى	كَلَمَ الهجر فَوَادى وأسر
هد من ركن اصطبارى والقوى	مبدلا أَجفان نوى بالسهر
حين عز الوصل عن وادى طوى	هملت أعين دمعى كالطر
ففساكم أن تجودوا كرما	بلقاكم فى سواد الحِنْدِسِ
وتداووا قلب صب مغرما	من جراحات العيون النفس
كلما جن ظلام الفسق	هزنى الشوق إليكم شغفا
واعترانى من جفاكم قلقى	مذ تذكرت جيادا والصفاء
وتناهت لوعتى من حُرْقَى	ثم زاد الوجد فى القلفا
فانعموا لى ثم جودوا لى بما	يُطْفِئُ نيران الجوى ذى القبس
ساعة لى من رضاكم مغنا	وتداوى جثتى مع نفسى
كنت قبل اليوم فى زهووتيه	مع أحبابى بسلع العسب
ومعى ظبىّ ياحدى وجنتيه	مشرق الشمس وأخرى مغرب
فرمانى بسهام من يديه	ضارب البين فقلابى متعب

موشحة
ابن العقاد

(١) اللمي - بفتح اللام مقصورا - الربق ، والثغير - بزنة التصغير - مصغر ثغر ، وهو الفم ، والألس : الوصف من اللامس ، بالتحريك ، وهو سمرة الشفة
(٢) القدود : جمع قد ، وأراد القامة ، والميس - بتشديد الياء - جمع مائس ، وهو المتبخر

لست أرجو للقاهم سلما غير مدحى للامام الأراس
أحمد الحمود حقا من سما الشريف ابن الشريف الكيس

ومنها قول بعض المراكشيين :

واخجلنا للصباح والشمس إذ لاح جوذر^(١)
ساق يدير الكؤسا تضيء حمرا وتزهر
تقادت في الدنان من عهد نوح تروق
في لونها البهرمانى تدار فينا وتعبق
قد أطلعت من عنان من عن صبوح يرقق
يسعى بها من ملاح من كان باللحظ يسكر
بالحسن يصبى الجليسا ويستخف الموقر
يشير كامن وجيد في قلب كل سقيم
يسطو علينا بقدر يزرى بغصن قويم
أشقى بعشقى ووذى في جنّة ونعيم
من ذى الوجوه الصباح ياشادنا غنّ واذكر
وهات لحنا نفيسا نرويه عنك ونأثر
في مدح من ساد طفلا هذى البرايا وفاقا
من حاز مجدا وفضلا بين الأنام وفاقا
في عدله قال قولا يسرى فيعدو العراق^(٢)
في أحمد ذى السماح في الشرق والغرب ينصر
أحيا الهدى والنفوسا وذل ملة قيصر

موشحة لبعض
أهل مراکش

(١) الجوذر - بضم الجيم وسكون الهمزة - ولد لها

(٢) يعدو العراق : يجاوزه ، وكفى بهذا عن سرعة نفاذ قوله

تراه سـلماً وحرّاً من رأيه في جنود^(١)
 يخال لم يبع عجباً من عزه في برود^(٢)
 يـوى المعالي كسبا ويقتنيها بـجود
 فخار أهل البطاح وعز من قد تمصّر
 ثناء يملأ الطروسا عن صورة الجدد عبر
 ملك بنى في البديع منازلا كالدرارى
 فياله من صنيع الروض والماء جارى
 وقل بصوت رفيع إذ بان فجر النهار
 أهدى نسيم الصباح مسكا شميا وعنبر
 وجىء بها خندرسا من خد ساقيه تعصر

ومن موشحات السلطان المنصور المذكور :

موشحة
 للسلطان
 المنصور

ريان من ماء الصبا أهيف ومثلى البرد
 كالغصن هزته الصبا فوق الربا الشهب
 قد قلت لما أن سبى بحسنه يسبى
 من عينه سلّ ظبا وغمد لها قلبى^(٣)
 أسبرنى ماضى الشبا أوطف مرّح القدد
 يا فاضح الروض سنى ونججل البدر
 وقاطعى ظلما عنا ومن مقره صدرى
 ألم تكن شمس دنا فإنها تجبرى
 علقتة من الظببا أسجف يسطو على الأسد

(١) يريد أن له جنودا يعاونونه من رأيه

(٢) البرود : جمع برد - بالضم - وهو فى الأصل الثوب

(٣) الظبا : جمع ظبة - بضم الظاء - وهى حد السيف ، شبه الحافظه بها

قلت له وقد نهّد وجدّ في حــــــرّبي
وغلبَ الظبيّ الأسد وفاز بالغلب
الشمس برّجها الأسد فاسمى إلى قلبي
ولم يحضرني الآن تمامها .

موشحة أخرى
للسلطان
المنصور

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني :
وليالى الشعور إذ تسرى ما لنهر النهار من فجر
حبذ الليل طال لى وحدى لو ترانى جعلته بردى
فاطمياً فى خلعة الجعدى هى ليلى أخت بنى بشر
فأين أنت يا أبا بدر

كم سقطنا ألطف من طلّ واجتمعنا وما درى ظلى^(١)
واسترحنا من كاشح نذل رب ليل ظفرت بالبدر
ونجوم السماء لم تدر

وبنفسى مهفّف أُملى ومطيع قد غرنى لما^(٢)
سألته وقانعى مما فى رباط قسمتى صدرى
لحنين وناظرى بدر

وهلال فى حسنه اكتملا هو شمس وأضلعى الحملا
قام يشدو يفتنى فى ملا قسما بالهوى لذى حجر
ما لليل المشوق من فجر

ثم عنّ لنا أن نورد هنا جملةً من مقطوعات مولانا السلطان المنصور مما تلقيناه عنه أيام كوننا فى إيالته الشريفة ؛ فمن ذلك قوله راداً على من قال فى ابن أبى الحديد :

(١) الطل - بفتح الطاء وتشديد اللام - خفيف المطر ، وأراد به الندى

(٢) الأملى : الأسمر باطن الشفة ، وهى صفة محمودة عند العرب

من مقطعات
السلطان
النصور

لقد أتى بارداً ثقيلاً ولم يرث ذاك من بعيد
فهو كما قد علمت شيء أشهر ما كان في الحديد

ما صورته :

لقد أتى صارماً صقيلاً ولم يرث ذاك من بعيد
شديد بأس متى يعادى وشدة البأس في الحديد

ومن نظمه قوله :

لله تمـــــر طيب وافي على البشرى انطوى
يا حسنه مجتمعا يحلو لنا بلا نوى^(١)

وقوله معنياً في قر على طريقة الاكتفاء :

معذبي أعجزني نيله من لى بمن مسكنه في السما
لم أنس إذ قال ألا تكنتي قلت بمن بالطرف قلبي رمى

وقوله :

تبدى وزند الشوق تقدحه النوى فتوقد أنفاسي لظاه وتضرم
وهشاً لتوديعي فأعرضت مشفقاً على كبد حرّاً وقلب يقسم
ولولا ثواه بالخشى لأهنتها ولكنها تعزى إليه فتكرم
فأعجب لآساد الشرى كيف أحجمت على أنه ظبي الكناس ويقدم

وقال قدس الله تعالى روحه مورياً :

إن يوماً لناظري قد تبدى فتملّى من حسنه تكحيلاً
قال جفنى لصنوه لا تلاق إن بيني وبين لقياك ميلاً

وقد تبارى خدام حضرة هذا السلطان في تخميس هذين البيتين ، ومن أشهر ذلك

(١) في هذا البيت تورية ، والمعنى القريب هو نوى التمر ، والمعنى البعيد —

وهو المقصود — البعاد

قول الأستاذ الحافظ سيدى أحمد الزمورى رحمه الله تعالى ، وكان يصلى بالسلطان
التراويح :

ورقيب يردد اللحظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بُعْدًا
سأه الطرف مذجنى الخدوردا إن يوما لناظرى قد تبدى
فتملّى من حسنه تكحّيلا

وتصدى من فحشه فى استباق يمنع اللحظ من جنّى واعتناق
أيأس العين من لحاظ اثتلاق قال جفنى لصنوه لا تلاق
إن بينى وبين لقياك ميلا

ومن نظم السلطان المذكور ، وهو من أوليات شعره قوله فى وردة مقلوّبة بين
يدى محبوبه :

ووردة شفعت لى عند مرتّينى راقّت وقد سجّدت لفاتر الحدق
كأن خضرتها من فوق حمرتها خال على خده من عنبر عبق^(١)
وقال أيضا من أولياته :

شادن نَمَّ عليه عَرَفُهُ من خلاصى من سهام كامنه
أحلال فيه أنى خائف وحلالى بعد خوفى آمنه

وقال فى وصف رقيب ملازم :

رقيبى كأن الأرض مرآة شخصه فأين تَوَلَّى الطرف منى يراه
مقيم بوجه الوصل حتى كأتما وصالى هلال والسواد صداه

وقال :

أيا روضة ضنت على بزهرها ولم يتلق ناظراى سواك

(١) الحال : نكتة يخالف لونها لون سائر الجسد ، وتكون سمراء فى الخد الأبيض
ولهذا يشبهونها بالمسك ، والعبق — بفتح فكسر — ذو الريح الطيب .

أبيحى لنفسى من شَدَاكَ بقاءها إذا فت طرفى عل الأنف يراك
وقال أيضاً :

على جَدُول غطت عليه بشعرها لئلا يرى الشمس الرقيقة لى طَرَفُ
فبتُ أرى فى جدول بدر وجهها غريقا ونقطات العبير به كَلَفُ
وقال :

طرقت حِمَاهُ والأسود خَوَادِر به فتولّى بالطُّبَا وهو يبعد
فعلمت آساد الشرى كيف تقدم وعلم غزلان النقا كيف تشرد
وقال :

لما نأى المحبوب رق لى الدجى وأنى يعلانى برعى كواكبه
أولى غراب البين ردك يا حشا والبين مُزِنِي الصبح كواك به
وقال معنياً باسم حَظِيَّتِهِ الشهيرة الحسن والإحسان « نسيم » .

يا هالالا طلوعه بين جفنى وغزالا كِنَاسِه بين جنبي (١)
إن سهما رميتَ غادرهما لو تناهى ما شك آخر قلبى (٢)

ورأيت بخطه على هذا المحل ما صورته : قولى « إن سهما » تنصيص ، و« غادرها » إسقاط ، وهو إشارة لإسقاط « هما » من هذا الاسم ، وقولى « لو تناهى » انتقاد ، والانتقاد : الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب ، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ، ويعنى به الحرف الأول من الكلمة ، والقلب والجوف والحشا والخصر ، ويراد به الوسط ، والآخر والمنتهى والختم ، ويقصد به آخر الكلمة ، فقولى « لو تناهى » معناه أنه أخذ لفظة هم غير متناه ، فبقيت الهم من هما ، وقولى « ما شك آخر قلبى » انتقاد أيضاً ، وأردت بآخر

(١) الكناس — بالكسر ، بزنة الكتاب — مسكن الظباء

(٢) شك آخر قلبى : أصابه .

قلبي الياء ، ويسمى أيضاً التسمية ، وهو : أن تذكر الاسم وتريد المسمى ، أو تذكر المسمى وتريد الاسم ، وقد تم الاسم .

واعلم أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها ، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن الحسنات ، ويسمى العمل التذييلي ، انتهى كلامه على البيتين في اسم نسيم .

وقال في اسم « غزال » وقد جمع تعميمين ولغزاً :

وأملد مطوى الحشا زال ردفة فلاخصر إلا أن [ذا لم يكن وصماً]^(١)

بنصف اسمه يرمي القلوب وعكس ما بقي أبداً إذن الحب به أصمى

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت به بعمل الترادف غصن ، و « مطوى الحشا » انتقاد ، و « زال ردفة » قضيت به غرضين ، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقي بعد طى الصاد التي بوسطه ، وأثبتته - أعني « زال » - في موضعها : أي النون من غصن ، والحال أن الصاد محذوفة ، وذلك بعمل الانتقاد ، وأوضحت ذلك بقولي « فلاخصر » وإن كنت لا أحتاج إليه ، لئلا يكون في البيت شيء خارج عن التعمية ، انتهى تفسيره ، رحمه الله تعالى ! .

ويعني بقوله « بنصف اسمه يرمي القلوب » غز ؛ لأنه نصف غزال ، ويعني بقوله « وعكس ما بقي إلى آخره » لفظة « لا » لأنها مقلوب ما بقي وهو أل .

وقال في اسم « سلاف » على منهاج ما تقدم .

وأخوّر وسنك الجفون كأنما سقى لحظه من ريق فيه بقرقف

نضا صارما لا فل صارمه لحظه تزايد فيه منذ سل تلاه في

وفسره بقوله : قولي « تلاه » من طريق التسمية ، و « في » من العمل التذييلي

(١) الأملد : الناعم من الناس والفصون ، ومطوى الحشا : ضامر البطن ، وهو

مما يتمدحون به ، والوصم - بالفتح - العيب ، وقد سقط ما بين المعقوفين من أصلى ب ، وأثبتناه تبعاً لناشرها .

وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها أو سكفاتها ، وهى من المحسنات كما سبق .

وقال فى اسم « آمنة » من التعمية أيضا :

من شقائى قنصته وهو خشفٌ فى رضاه عن الملوك ابقدلت^(١)

أملد منه مذ تحلل خصر وتثنى عن حبه ما عدلت

وكتب عليه ما صورته : قولى « أملد » أردت الألف بعمل النشبيه ، و « خصر منه » انتقاد ، وأردت بالخصر وسط لفظة « منه » وتحله : أن ينحل منه السكون الذى على النون ، وقولى « وتثنى » أى الألف من التثنية ، لا التثنى ، فتم الاسم بحركاته وعدده ، انتهى تفسيره .

وقال وقد لبس منصورية من النوع الذى يقال له « قلب حجر » والمنصورية :

نوع لبس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه :

وصفّوا اشتياقى للحبيب وسرّهم قول الحبيب أنا أنا فيه

قلبي له حجر ، فقلت مغالطا للعادل المؤذى أنا فيه

قال : وفى هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية : منها جناس التركيب المسمى بالملفق ، وحدّوه : بأن يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين ، وهذا هو الفرق بينه وبين المركب ، وقُلَّ مَنْ فرق بينهما ، ومنها الانسجام ، ومنها الاستخدام .

وعهدى بالفقهاء على بن منصور الشيطمى تعرض إلى شرحهما فى كراسة .

والتعمية فى هذين البيتين بالعمل الحسابى وهو كثير ، إلا أن هذا العمل أحسننى أبا عذرتة إذ لم أره لغيرى ، ومادة التعمية فيه « أنا أنا فيه ، قلبي له حجر » فقولى « أنا أنا فيه » معناه أن تضرب « أنا » فى هـ ، وقولى « فى هـ » نص فى الضرب ،

(١) قنصته : صدته ، والخشف — بسكون الشين وتثليث الحاء المعجمة —

ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيأني وحقك ي ، وقولي « قلبي له حجر » بعمل القلب يصير « رجح » فصار المجموع « هيأني وحقك رجح » ، وفيه التورية ، و« هيأني وحقك » الخارج من هذا الضرب فيه تهكم بالواشي ، فهو من الحسفات أيضاً ، أعني قوله « وحقك » ويصلح أن تسمى هذه التعمية بالافتتان ، لأن الافتتان عندهم : أن يفتن الشاعر فيأتى بفنن متضادين من فنون الشعر في بيت واحد ، وهذا وقع التضاد فيه في كلمة واحدة ، فظاهر « أنا أنا فيه » يضاد « هيأني وحقك رجح » الذي يخرج بطريق الحساب ، فافهمه ، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعادل المؤذى « أنا فيه » انتهى .

والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله « أنا فيه » أى في هذا الثوب المسعى بقلب حجر ، كما دلت عليه الحكاية ، وأما المعنى الثاني لقوله « أنا فيه » فظاهر . وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن النرجس :

وإني بها البستان صنوك وردة يقضى بها لما مَطَلَتْ وعودا
أهدى البهار محاجراً وأتى بها في وقته كما تكون خدودا
فبعثتها مرتادة بنسيمها ثنى من الروض النضير قُدودا

وقال :

لي حبيب يأتي بكل غريب هو عندي مُنْكَرٌ ومعرف
لست أشكو لصيرفي ونحوى إنه بي نَحَاً وفيَّ تصرف
فعله فيَّ لازم متعبد ومزيد مجرد ومضعف

وقال :

لا وطيف علم السيف فقد في قوام كقمنا الخط نَهْد^(١)

(١) القوام — بالفتح كسحاب — القامة ، والقنا : جمع قناة ، وهى الرمح ، وإضافة الرمح إلى الخط الذي هو مرفأً بالبحرين لأنه موطن ابتياعها ، ونَهْد : ماض من باب فتح : أشرف

ووميض لاح لما بسمت فارتنا منه دُرّاً أو برَد^(١)
 ما هلال الأفق إلحاسد منه حسنا وعلاء وغَيْد^(٢)
 ولذا عاش قليلاً ناحراً كيف لا يَفْنَى نحولاً من حسد
 وقد ضمن قوله « ما هلال الأفق » أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد
 على حضرته من بيت المقدس فقال :
 قَسَمًا بالبيت والركن الذي طاب حجاً واستلاماً للأبد
 ما هلال الأفق إلا حاسد منه حسنا وعلاء وغَيْد
 وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية ، هو والعقاد المكي السابق
 والشريف المدني ، وهو رجل وافد من أهل المدينة انتهى إلى الشرف ، فقال
 إمام الدين : يا أمير المؤمنين ، إن المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال شدَّ أهلها
 إليك الرحال : هذا مكي ، وذاك مدني ، وأنا مقدسي ، ثم أنشد :
 إن أمير المؤمنين أحمد بحر الندى وفضله لا يححد
 فطية ومكة أهلها والمسجد الأقصى بذاك شهدوا
 رَجَعَ إلى نظم المنصور ، وقال :
 وكيف بقلب في هواه مقلَّب وأنى له بين الضلوع مقام
 فيأشادنا يرعى الحشا أنت بالحشا أما لحلَّ أنت فيه ذمام
 وقال يخاطب رئيس كتابه صاحبنا سيدي عبد العزيز القشتالي السابق الذكر :
 يا كاتباً أفاضله تغرس روضاً ذا فنن
 إن جوابي للذي يشكودناه أردد حزن

(١) الوميض : اللعنان والبريق ، والبرد — بفتح الباء والراء جميعاً — حب الغمام

(٢) الغيد — بفتح الغين والياء جميعاً — لين الأعطاف .

وقال مُورِياً بمصانِفِهِ الثلاثة : البديع ، والمسرة ، والمشتهى :
 بستان حسنك أبدعت زهراته ولكم نهيت القلب عنه فما اتقى
 وقوام غصنك بالمسرة يَنْثَنِي يا حسنه رمانة للمشتهى
 ولولا خوف الإطالة المملة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور - رحمه الله
 تعالى ! - بعض ما أودى به حقه ، سقى الله تعالى عياده ! وقد بسطت الكلام على
 السلطان المذكور في كتابي « روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ، في ذكر من لقيته
 من أعلام مراکش وفاس » وأطال الكلام على ترجمته صاحبنا الوزير الكبير
 الشهيد سيدي عبد العزيز بن محمد القشتالي في كتابه المسمى « بمناهل الصفا ، في
 فضائل الشُّرَفَا » وعهدى به أكل منه ثمان مجلدات ، وهو مقصور على دولة
 السلطان المذكور وذويه ، وألف كاتبُ أسرارهِ الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى
 فيه كتاباً سماه « الممدود والمقصور ، من سَناء السلطان المنصور » وهذه التسمية وحدها
 مطربة ، رحم الله تعالى الجميع !

عود إلى
التوشيح

رجع إلى التوشيح .
 كتب إلى بعض أذكى الأصحاب الأعيان موشحاً يمدحني به في آخره
 عارض به موشح لسان الدين السابق الذي أوله :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

ونصه :

عَطَّرَ الأَرْجاءَ لما نَسَمَا شَمَّالٌ للصبح عند الفاسِ
 وأنت شمسُ الضحى تنسخ ما يقرأ الليلُ لنا من عَبَسِ
 طاف بالكأس من الزهر قتي مُولَعٌ بالصد غنى مذَقَتِي^(١)

(١) فتي فتي - بوزن رضي رضي - فتي ، وفتاء ، وفتوة : إذا صار فتي ،
 والمولع بالشئ : المغموم به .

فتن الأبواب لما التفتا واحتسى منه ببعض الشفة^(١)
وأنا ما بين حَيٍّ وميتي صدّه تيه الهوى عن ألقى
وكؤس الراح بين الندما أرجت بالعرف أفق المجلس^(٢)
خمرة صفراء في البلورما أشبه الحان بروض النرجس
بادر اللذة واجمع شملها بمدام وغلام مُطْرِبِ
ذى عيون ناعسات كم لها من فنون السحر ما يلعب بي
وافر الأرداف عانى حملها ناحِلِ الخصر، وذا من عجب
كلما أترع كأسا قال ما أنت بالشارى حياة الأنفس
قابذل الجهد وكن مقتنما لنفيس النفس طيب الأُنس
فرصُ الأيام كن منتهزا مبتدأها قبل حذف الخبر
ورحاب الأنس لُجّ منتجزا قبل أن تمضى كلمح البصر
واجن من زهر الهوى محترزا من جنائيات هجوم الكبر
لا تحف لوما ويم حيثما لاحِ اللذات كالمحتلس
ما مضى أنسٌ ووافى مثل ما كان ذا الدهر لنا بالحرس
للرياض اذهب ترى بلبلها لا شتيق الورد مثل الثكل
وخدود الورد قد كلالها دمعُ طَلٍّ لاشتيق البلبل
وقدود البان قد قام لها مانع الوصل بحمد الأسل
والر بافاحت تحاكي خَدَمًا وعليهن ثياب السندس
جيبها زرر بالزهر كما زر بالقضة ثوب الأطلس

(١) احتسى : شرب .

(٢) أرجت : تعطرت ، والعرف — بالفتح — طيب الرائحة .

وجلا الروض لنا أشجاره مائساتٍ في قَبَاءٍ أخضر
وترى في جِيدِها نواره يتلألًا كعمودِ الجَـوهر
خلع الليل به أطماره ففدا كالصبح باهى المنظر^(١)
وبقايه زهت فيه أما فدا للغير لا الملتمس^(٢)
كعذار في محيا نلما
حبذا الصبوة أيام الصبا وعيون الشيب في سهو الوسن
فإذا أيقظها دهرٌ صَبَا لصروف حد شفرِها وسن
جرد الشيب لنا بيض الشَّبَا واقننى شرخ شَبَابٍ وظعن
وغدا الإنسان شيخا هرما واعتراه لاعج من وجس
فات إذ مات فيقضى ندما واغتنام الوقت شغل الكَيِّسِ
لا تدع عمرك يمضى هدرا أنت إذ ذك جبان غافل
وارق بالجهد من السؤل الذرا واجتهد والضرع ضخم حافل
إنما الأيام أمثال السرى والجريء الشهم ليث باسل
ووحوش الإنس تسعى مغنا بارداً للأسد المفترس
ترك الوهم وخاض الظلمات وله العزمُ أضا كالنفس
ليس يحظى بالنى إلا الذى كابدَ الأهوال حتى ظفرا
كان للراحة كالمنبذ من وراء الظهر أئى ظهرا
مثل ماقد بات ذا طرفٍ قَذَى يقطع الليل جميعا سهرا
في طلاب العلم حتى غمما أنه يملا بروح القدس

(١) الأطمار : جمع طمر - بالكسر - وهو الثوب البالى الخلق الرث .

(٢) اللعس - بالتحريك - ممرة في الشفة .

أحمد الناصب فينا علما
 حلّ في مصر وإن كان العلا
 ورياض الفضل لما أن علا
 ازدرت أغصانها حتى خلا
 نفرت إذ حل فيها كالسما
 حوله الطلاب كالشهب سما
 أيها الطالب للعلم انتد
 إن ترم نيّال المرجى فاجتهد
 علم من يعمل ! كسير فزد
 والزم الاعتبار وانزل بالحى
 باعتقاد فاز من قد لثما
 مذ خبرتُ الناس طراً نظرا
 لم أجد إلا مقالا صدرا
 غير ما يمليه فانظر لترى
 ببديع النطق لما نظما
 وأتى يخضع جمعُ العلما
 إنما المجد الرفيع الممتطى
 يدعُ الرفوع كالنهبط
 ناظراً في أمره بالأخوط
 كل من أم حماه قد حمى
 فإذا جرد منه انفصا

(١) للثقى فاز به من يأنسى
 قد غفت لما اغترها في خلل
 نفعُ جهل جف منهن البلال
 قاعها من عذب ما يشفى الغلل
 وهو بدر بكمال مكثس
 قدرها من نوره المقتبس
 ليس إلا بابه ينفعك
 في اتباع الذى يرفعك
 منه وانك حاسداً يدفك
 خالع الربة من قول المسى
 نعله والكبر شأن الملبس

(٢) لمناظر الأمر في هذا الزمان
 عن دعاو أخلفت عند العيان
 دُرر الألفاظ في سيمط البيان
 بهت المنطيق مثل الأخرس
 نحو ذا المفرد فى الملتبس
 أروس الآساد قسراً مثل ذا
 ثم للنازل يعلى منفذا
 خافض الطرف على حرّ القذى
 بحسام العزم هش الملمس
 جلد الصخر بذاك اللبس

(١) يأنسى : يقلده ويجعله أسوة له .

(٢) الملبس : التحيير الذى أصابته الدهشة .

حبذا المغرب قطراً بالسنا فضله يَهر بِدُر الأفق^(١)
قطره الشامخ قد أهدى لنا سيدا قد فاق شمس المشرق
كل من فاتته أسباب المنى بعلاه للثريا يرتقي
قل لمن يَرَجو سوى المذكورما ينبت الزهر بأرض اليبس
لا، ولا الناس سواء إنما رأى مَنْ سَواهم في هوس

لُذْ بشهم فازمَنْ أمله بنوال فاق سَحَّ الهامل^(٢)
أثقل السؤدد إذ حمله وَقَرَّ فضل مستبين شامل
وحماه الأمن من أمله بلغ القصد فبشرى الآمل

بحره الوافر بالعلم طما كامل الأمداد لم يحتبس
نال منه الناس حتى عمما مشرقا والغرب للأندلس

رجع إلى مَوْشحات لسان الدين بن الخطيب، رحمه الله تعالى!

فمن المنسوب إلى محاسنه قوله :

قد حرك الجللج بازى الصباع والفجر لاح
فيا غراب الليل حُثَّ الجناح

وهذا مطلع موشح بديع له لم يحضرني الآن تمامه ؛ لكوني تركته وجملته من
كلام لسان الدين في كتيبي بالمغرب جبرها الله تعالى على ، وهو معارض للموشح
الشهير الذى أوله :

بنفسج الليل تذكى وفاح بين البطاح
كأنه يسقى بمسك وراح

(١) يهر : أراد يفوقه ويزيد عليه ، وحرفيته يصيبه بالهر وهو الإعياء .

(٢) سح الهامل : انصباب المطر وانسكابه .

وهذا المنحى هو الذى سلكه الجملُ ابنُ نُبَّانة إذ قال مادحا لجلال الدين الخطيب
رحم الله تعالى الجميع :

ما سح محمّر دموعى وساح على الملاح

إلا وفى قلبى المعنى جراح

بى من بنى الأتراك حلو الشباب مرُّ السَّطَا

عشقتة حين عدمت الصواب من الخطا

تشكو حشا الغزلان منه النهاب إذا عُمَا

وربما تشكو الفصون اكتباب إذا خطَا

ما ماس ذاك الفصن بين الوشاح إلا وراح

قول عذولى كله فى الرياح

أهالصب دمه حيث كان دمع أريق

هذا أسير فى وجوه الحسان وذا طليق

أرقّ جسمى بالضنا يوم بان بدر الفريق

فها أنا اليوم له يا فلان عبد رقيق

يزيد أجفانى ندى وارتياح نهى اللّواح^(١)

مثل جلال الدين يوم السماح

خبر له فى الخلق ذكر جميل لا يُفترى^(٢)

ماح على غيظ الغمام البخيل محلّ الثرى^(٣)

ما رأت العين له من مثل ولا ترى

يوقد فى أوطانه للنزىل نار القبرى

(١) اللّواح : جمع لاحية ، وهى اسم الفاعل المؤنث من « لحاه يلحاه » إذا
لامه وعذله . (٢) لا يفترى : لا يخلق ولا يقال كذبا . (٣) المحل : الجذب .

شرارها في الكيس حمر صحاح لها اقتداح
 لكنها في القلب عذب قراح
 يا مالك العلم وفيض الندى جزت المدى
 فابق وكل العالمين القدا دع العدا
 أنت الذي أصبح غيث الجدا^(١) صبح الهدى^(٢)
 كم يُقْتَفَى منك وكم يُقْتَدَى ويحتدى
 علم أجلى ونوال صراح صفو مباح
 يروى به راوى الرجا عن رباح
 ومغرم لا يخشى من رقيب ولا عدول
 معلق القلب بشجو عجيب ولا وصول
 يسكر لكن بصفات الحبيب لا بالشمول^(٣)
 لما رنا الظبي وماس القضيبي أضحي يقول
 كم ينتضى جفنك وعطفك صفاح على رماح
 ماذى محاسن ، ذى خزان سلاح

ومن الموشحات الصادرة من المشاركة المعارضة للمغاربة قولُ عثمان اللطى يمدح
 القاضي الفاضل :

ويلاه من روائح بجوره يقضى
 ظبي له إغذاذ منه الجفاحظي

ولم أقف على تمامها ، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة ، وهو :
 عقارب الأصداع في السوسن الغض

(١) الجدا - بفتح الجيم مقصورا - العطاء .

(٢) الشمول - بفتح الشين - اسم من أسماء الحجر .

تَسْبِي تَقَى مِنْ لَازٍ بِالنَّسْكِ وَالْوَعْظِ^(١)

مَنْ قَبْلَ أَنْ يَعْدُو عَلَى لَمْ أَحْسَبْ

أَنْ تَخْضَعَ الْأَسَدَ الْجَوْذَرَ الرَّبْرَبِ^(٢)

ظَلِي لَهُ خَدَّ مُفَضَّضٍ مَذْهَبِ

وَشَادَنْ يَبْدُو فِي صَدْغِهِ عَقْرَبِ

رَقَّة زَهْرِ الْبَاغِ فِي جَسْمِهِ الْفَضَى

وَقَسْوَةِ الْأَفْلَازِ فِي قَلْبِهِ الْفُظْ

مَهْفَهفٍ بَدَعَ أَصْبَحَتْ مَغْرَى بِهِ

قَلْبِي لَهُ رُبْعٌ لَوْ كُنْتُ فِي قَلْبِهِ

أَصَابَنِي صَدْعٌ مَذْلُجٌ فِي عَتَبِهِ

السَّهْدِ وَالْدمْعِ حَظِي مِنْ قَرْبِهِ

وَالْعَيْنِ لَا يَنْسَاغُ لَهَا جَنَى الْغَمَضِ

وَالْدمْعِ ذُو إِغْذَاذٍ نَاهِيكَ مِنْ حَظِ

وَمَنْ أَحْسَنَ مَا لِلْمُشَارَقَةِ مِنَ التَّوْشِيحِ قَوْلُ الشَّهَابِ الْعَزَازِيِّ يَعَارِضُ أَحْمَدَ
ابْنَ حَسَنِ الْمَوْصِلِيِّ :

موشحة
للشهاب
العزازي

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَكَأْسَ الْعَقَارِ دُونَ اسْتِقَارِ

عَلَّمَتَانِي كَيْفَ خَلَعَ الْعَذَارِ

اغْتَنِمِ اللَّذَاتِ قَبْلَ الزَّهَابِ وَاشْرَبِ فَقْدَطَاتِ كُؤُسِ الشَّرَابِ

تَحْكِي ثَغُورَهَا الثَّنَايَا الْعَذَابِ

(١) تسييه : تأسره ، والمراد تغلبه على أمره ، ولأذ بكذا : لجأ إليه .

(٢) الجوذر : ابن البقرة الوحشية ، والربرب - بزنة جعفر - جماعة بقر الوحش

على خدود تنبت الجلنار ذات احمرار
طرزها الحسن بأس العذار
الراح لا شك حياة النفوس فحلّ منها عاطلات الكؤوس
واستجلاها بين الندامى عروس
تُجلى على خطابها في إزار من النضار^(١)
حَبَابُهَا قام مقام النثار^(٢)
أما ترى وجه الهنا قد بدا وطائر الأشجار قد غردا
والروض قد وشّاه قَطَرُ الندى
فكمل اللهو بكأس تدار على افتقار
مباسم النوار غبّ القطار^(٣)
أجن من الوصل ثمار المنى وأوصل الكأس بما أمكنا
مع طيّب الريقة حلو الجنى
بمقلة أفنك من ذى الفقار ذات احمرار^(٤)
منصورة الأجنان بالانكسار
زار وقد حل عقود الجفا وافتر عن ثغر الرضا والوفا
فقلت والوقت لنا قد صفا
ياليلة أنعمَ فيها وزار شمسُ النهار
حييت من بين الليالى القصار

ويعجبني من موشحات العزازی المذکور قوله :

ما عَلَى مَنْ هامَ وَجَدًا بذوات العلا

موشحة أخرى
للعزازی

(١) النضار - بالضم - الذهب ، شبه الخمر به فى اللون .

(٢) النثار - بالكسر - ما ينثر فوق رأس العروس عند الجلوة .

(٣) القطار : جمع قطر ، وهو المطر .

(٤) المقلة - بالضم - العين ، وذو الفقار : سيف أمير المؤمنين على بن أبى طالب

مبتلى بالحدق السود وبيض الطلا^(١)

باللوى مَلِيَّ حسن لديوني لَوَى

كم نوى قتلى وم عَذَّبَنِي بالنوى

قد هوى في حبه قلبي بحكم الهوى

واصطفى نار تجنيه ونار القلَى

كيف لا يذوب من هام برِيمِ الفلا^(٢)

هل ترى يجمعنا الدهر ولو في الكرى

أَمْ تَرَى عيني مُحَيًّا مَنْ لَجمي بَرَى

بالسرى يا حادي ركب منى بليلي سرى

عللا قلبي بتذكار اللقا عللا

وانزلا دون الحمى ، حى الحمى منزلا

بى رَشَا دمعى جرى فى هواه فشا

لو يَشَا بَرَدَ منى جمراتِ الحشا

ما مشى إلا انثنى فى سكره وانتشى

عطلا من الحميا يامدير الطلا

ما حلا إذا أدار الناظر الأكللا

هل يلام من غلب الخب عليه فهم

مستهم بفاتر اللحظ رشيق القوام

ذى اقسام أحسن نظما من حَبَاب المدام

(١) الحدق : جمع حدقة ، وأراد بها العين ، والطلا : الأعناق .

(٢) الريم - بالكسر - الظبي ، والفلا : جمع فلاة ، وهى الصحراء .

لوملا من ريقه كأسألأحيا المـ
أوجلا وجها رأيت القمر المجتلى
لوعفا قلبك عن زلّ أو من هفا
أوصفا ما كان كالجلهد أو كالصفأ
بالوفا سلّ عن فتى عذبتة بالجفا
هل خلا فؤاده من خطرات الولا
أوسلا أوخان ذاك الموثق الأوّلا

وقوله أيضا يعارض الموصلى :

موشحة أخرى
للعزازی

ما سئلت الأعين الفواتر من غمد أجفانها الصفاح
إلا أسالت دمّ الحناجر من غير حرب ولا كفاح
تالله ما حرك السواكن غير الظباء الجآذر
لما استجاشت بكل طاعن من القدود النواضر^(١)
وفوقت أسهم الكنائن من كل جفن وناظر^(٢)
عُرب إذا صحن يالعامر بين سراًيا من الملاح
طلت علينا من المحاجر طلائع تحمل السلاح
أخيب بما تطلع الجيوب منها وما تُبرز الكلال
من أقر ما لها مغيب وأغصن زانها الميسل
هيئات أن تعدل القلوب عنها ولو جارت المقل
لما توشحن بالفدائر سقرن عن أوجه صباح
فانهزم الليل وهو عائر بذيله واختفى الصباح

(١) شبه القدود بالرماح التي يطعن بها .

(٢) الكنائن : جمع كنانة - بكسر الكاف - وهى في الأصل وعاء السهام .

وأهيف ناعم الشمائل تهزه نَسْمَة الشمال^(١)
 فيثني كاتقصيب مائل كما انثني شارب ومال
 له عِذار كالنَدَّ سائل لله كم من دم أسال
 شُقَّتْ على نبتة المرائر من داخل الأنف الصراح
 تكلُّ في وصفه الخواطر وتخرس الألسن الفصاح^(٢)
 ظي إلى الأنس لا يميل الشمس والبدر من حُلَاه
 الحسن قالوا ولم يقولوا مبدآه منه ومنتهاه
 وطرفه الناعس الكحيل هيات من سيفه النجّاه
 أنلَّ بالسحر كل ساحر فهو له خافِضُ الجناح
 يحول في باطن الضمائر كما يحول القضا المتأح
 أما ترى الصبح قد تطلع مذ غمضت أعين الغسق
 والبدر نحو الغروب أسرع كهارب ناله فرق^(٣)
 والبرق بين السحاب يلمع كصارم حين يمشق^(٤)
 وتحسب الأنجم الزواهر أسِنَّة ألقى الرماح
 فانهزم النهر وهو سائر فدرّعه يد الرياح

وموشحة الموصلى التي عارضها العزازى هي قوله :

موشحة
للموصلى

رنا بأجفانه الفواتر لما انثني واحد الملاح
 فسَلَّ من طرفه بواتر وهز من عطفه رماح
 ناظره جرّد المهندّ وغدده مِنّي الحشا
 وعامل القد فهو أملد يطعن للقلب إن مشى

(١) الأهيف : الوصف من الهيف - بالتحريك - وهو ضمور البطن ورقة الخصر

(٢) تكل : تضعف . (٣) الفرق - بالتحريك - الخوف .

(٤) الصارم : السيف ، ويمشق - بالبناء للمجهول - يسل ويخرج من غمده .

والعارض القائم المزرد لفتنة الناس قد نشأ
والحاجب القوس بالقوار لنبله في الحشا جراح
ومشرف الصدغ فهو جائر سلطانه للدها أباح
نجفته القاتك الكنانى من ثعل راشلى نبال^(١)
وهو الخفاجى قد غزاني وجهه من بنى هلال
عَبَسى لحظ له سباني جسم زيدي بالدلال
والردف يدعى من ال عامر وأوضح الصلّت من صباح
وخصره من هشيم ضامر يدور من حوله وشاح
فوجهه جَنَّة وكوثر رُضابه العذب لى حلا
والنار فى وجنتيه تسعر والخال خيالها اصطلى
عجبت من خاله المعنبر إذ يعبد النار كيف لا
يحرق بالنار وهو كافر وما سقى ريقه القراح
كامل حسن معناه وافر بسيط وصف كالمسك فاح
ما أخضر نبت العذار إلا بأسه سيح الشقيق
وهو كمنل سعى وولى ولم يجد للجنى طريق
من ربة البدر إذ تجلى فى هالة العارض الأنيق
لما تبدى بالوجه دائر وحير العقل حين لاح
شق على خده المرائر وقطع الأنفس الصّحاح

(١) الكنانى : تورية ، يراد المنسوب إلى كنانة قبيلة ، أو المنسوب إلى كنانة السهام وهى وعأوها ، وثعل : قبيلة من طي . مشهورة بجودة الرمي وإصابة الغرض وفيها يقول امرؤ القيس :

رب رام من بنى ثعل متلج كفيه فى قتره

ومتلج : مدخل ، والقتر : جمع قتره - بالضم - وهى بيت الصائد الذى يكن فيه للوحش لئلا يراه فينفر منه .

ورب يوم أنى وحيّا
بالكأس والراح والحيا
وقال قم يانديم هيا
فالخر تُجلى على المزار
وطافت الراح بالجامر
كالشمس والنجم والقمر
ثلاثة تفتن البشر
اقض بنا لذة الوطر
من اغتباق إلى اصطباح
من عنبر الزهر في البطاح

ومما يُطَرَّبُ من الموشحات قولُ بعضهم :

مالي شمولٌ إلا شـجـون
الله ما بَذَرُ من الدموع
أودى به جـوْذَرُ
فهو قتيل لا بلاطعين
جرحت للـحـيْنِ^(١) كفى بكفى
لاشك بالبين
حال الرحيل ولى ديون
أما ترى البدر السـعود
إذا انثنى نضرا
أضحى يقول مت ياـحـزـين
قلت وقد شرد النوم عنى
صد فلما صد
جسمى نحيل لا يستبين
تجاوز الحد قلبى اشتياقا
قلت وقدمد
ليلى طويل ولا مـعـين
مزاجها فى الكاس دمع هتون
صب قد استعبر من الولوع
يوم الطلوع
بين الرجا والياس له مَنون
وحيل ما بينى وبين إلى
يكون حنفي
إن رَدَّها العباس فهو الأمين
قدا اكتسى خُصْرا من البرود
من القـدود
قدا اكتسى بالأس الياسمين^(٢)
وأياس العـود السقم منى
قرعت سِنِّي
يطلبه الجلاس حيث الأين^(٣)
وكلف السهد من لا أطاقا
ليلى رواقا
ياقلب بعض الناس أمّا تـلـين

(١) الحين - بالفتح - الهلاك . (٢) أراد بالأس العذار ، وبالياسمين الحد .

(٣) يقول : لولا أنيى ما عرفنى جلاسى لأنى لا أظهر لشدة نحولى .

البَابُ السَّابِعُونَ

في مصنفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحمَّقة للواقف عليها الآمال والظنون ، وما كل منها أو اخترمته دون إتمامه النُّون^(١) .

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمتُ نحوُ الستين ، وكلها في غاية البراعة ، بحيث إنه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به ، بل وكثير من غير أهل عصره رحمه الله تعالى ، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها ، وفيها أقول مضمنا ببعض تعبير :

تصانيف الوزير ابن الخطيب ألد من الصِّبَا الغَضُّ الرَطِيبِ
فأية راحة ونعيم عيش توازى كتيبه أم أى طيب

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر « الإحاطة » ما صورته :

التوايف : « التاج الحلى ، في مساجلة القدح المعلى » ، و « الكتيبة الكامنة » ،
في أدباء المائة الثامنة » ، و « الإكليل الزاهر » ، فيما فضل عند نظم التاج من
الجواهر » ثم « القاية » ، بعد الكفاية » هذا في نحو القلائد والمطمحين لأبى
نصر الفتح بن محمد ، و « طرفة العصر » ، في دولة بنى نصر » في أسفار ثلاثة ،
و « بستان الدول » موضوع غريب ماسم بمثله ، قل أن شذَّ عنه فن من الفنون ،
يشتمل على شجرات عشر : أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة
الكتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة الشرطة والحسبة ، ثم شجرة
العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهى فرعان : أسطول ، وخيول ، ثم شجرة ما يضطر

(١) النون : النون ، واخترمته : أخذته ، والنون يذكر ويؤنث .

(٢) الغض : الطرى .

(٣) توازى : أراد تساوى .

باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيازرة^(١) والبيطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين ، ثم شجرة الرعايا ، وتقسيم هذا كله غريب يرجع إلى شعب ، وأصول ، وجراثيم ، وعمد ، وقشر ، ولحاء ، وغصون ، وأوراق ، وزهرات مشمرة ، وغير مشمرة ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصيغ اسم الفن المراد به ، وبرنامجه صورة بستان ، كمل منه نحو من ثلاثين سفرا ، ثم قطع عنه الحادث على الدولة ، وديوان شعري في سفرين سميت « الصيب والجهام » ، والماضى والسهام » والنثر في غرض السلطانيات كثير ، والكتاب المسمى باليوسفي في صناعة الطب في سفرين كبيرين ، كتاب ممتع ، و « عائد الصلة » وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، في سفرين ، وكتاب « الإحاطة » بما تيسر من تاريخ غرناطة « كتاب كبير في أسفار تسعة ، هذا متصل بآخرها ، و « تخلص الذهب ، في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة » ، و « جيش التوشيح » في سفرين ، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كيد الدولة « نُفَاضَةُ الجراب » ، في علالة الاغتراب « موضوع جليل في أربعة أسفار ، وكتاب « عَمَلُ مَنْ طَبَّ لِمَنْ حُب » ومنزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبي عمرو بن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية ، لانظيره ، ومن الأراجيز المسماة « برقم الحلل ، في نظم الدول » والأرجوزة المسماة « بالخلل المرقومة » ، في اللمع المنظومة « ألفية من ألف بيت في أصول الفقه ، والأرجوزة المسماة « بالمعلومة » معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالا لا يشينه نقص ، والأرجوزة المسماة « بالمعتمدة » ، في الأغذية المفردة « والأرجوزة في السياسة المدنية ، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز في عمل الترياق

(١) البيازرة : جمع يبرز - بزة جعفر - والتاء للتعريب عن الأعجمية ، والبيزر - فيما أحسب - العام بالأدوية المفردة ومنافعها ، ولست من ذلك على ثبت .

الفاروق ، والكلام على الطاعون المعاصر ، والإشارة ، وقطع السلوك ، و «مُثْلِي الطريفة» ، في ذم الوثيقة « حتى في المويسيقى ، و «البيطرة» و «البيرزة» ، هذر كُتِفَ به الحجاب ، ولعب بالنفس الإيجاب ، وضاع الزمان ولا تسل بين الرد والقبول والنفي والإيجاب ، والله در القائل :

والكون أشراك نفوس الورى طوى لنفس حرة فازت
إب لم تحز معرفة الله قد أوطأها الشيء الذى حازت
وكل مُيسر لما خلق له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، انتهى ماله فى آخر الإحاطة بحروفه .

قلت : ولندكر ما تأخر تأريخه عن الإحاطة أو أشير إليه فيها مجملا فنقول :
من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب «ريحانة الكتاب ، ونبجة المنتاب»
فى عدة مجلدات ، وهو داخل فى قوله السابق فى الإحاطة «والنثر فى غرض السلطانيات
كثير» ، وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير فى أغراض شتى من
مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم وأحوال
الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر فى صدره خطب بعض كتبه ،
وفى آخره بعض مقاماته وتحليته لأهل عصره ، وغير ذلك ، وبالجملة فهو كتاب
مفرد فى بابيه .

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى فى
كتابه «نثر فرائد الجمان ، فيمن يضمنى وإياه الزمان» ما صورته : لابن الخطيب
الأوضاع المصنفات ، التى آذان إحسانها هى المقررات المصنفات^(١) ، منها فى
النصوف ، الذى أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف «روضة التعريف ،

(١) قرطه : ألبسه القرط ، وهو حلية تلبس فى شحمة الأذن ، وشنفه : ألبسه
الشف - بالكسر - وهو من حلى الأذن يلبس فى أعلاها ، وهذا هو الأصل فى
استعمال هذين اللفظين ، وقد يراد بهما محرد التحسين والترزين .

استدراك
بما ألف بعد
كتابته ترجمة
نفسه

ابن الأحمر
يتحدث عن
مصنفات
لسان الدين

بالحب الشريف » انتهى ، وسرد غير هذا الكتاب مما قدمنا ذكره وغيره .
وهذا الكتاب - أعني « روضة التعريف » - غريب المنزع ، وعارض به
« ديوان الصبابة » لابن أبي حجلة صاحب السكردان ، وضمنه من التصوف
وعبارات أهله العجب العجائب ، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة ،
وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ، ونسبوه إلى
مذهب الحلول^(١) وغيره ، مما ذكره يطول حسبما ألعنا بذلك ، وقد جعل هذا الكتاب
شجرة ذات أفنان وعمود ، مشتمل على القشر والعود ، وأوراق ، وصورة طائر
فوقها ، ولم أر في فنه مثله ، جازاه الله تعالى عن نيته ! فإنه في الحب الشريف
الرباني ، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته .

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ماسبق « اللحة البدرية » في الدولة النصرانية
وكتاب « السحر والشعر » و « معيار الأخبار » و « مفاضلة مائقة وسلا »
و « خطرة الطيف » ورحلة الشتاء والصيف » وقد ذكرهما في الريحانة بنصهما ،
وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه ، و « المسائل الطبية » في مجلد ، و « الكتبية
الكامنة » في شعراء المائة الثامنة » ورسالة « تكوّن الجنين » ، و « الوصول
لحفظ الصحة في الفصول » وكتاب « الوزارة » و « مقامة السياسة » و « الغيرة
على أهل الحيرة » و « حمل الجمهور ، على السنن المشهور » و « الزبدة المخوضه »
و « الرد على أهل الإباحة » و « سد الذريعة ، في تفضيل الشريعة » و « تقرير
الشبه ، وتحجير الشبه » و « استنزال اللطف الموجود ، في سر الوجود » و « أبيات
الآيات » فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ماله من الشعر ، « وقتأت الخوان ،
واقط الصوان » في سفر يتضمن المقطوعات فقط ، و « كناسة الدكان ، بعد انتقال

(١) الحلول : عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما
إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد . ويسمى الساري خلا ، ويسمى
المسرى فيه محلا ، وهذا هو الحلول السرياني ، وللرافضة مذهب خبيث يزعمون أن
الباري - حل وعلا ! - يحل في أجسام بعض رجالانهم ، لعنهم الله !

حديث عن
« روضة
التعريف »
أحد مؤلفات
لسان الدين

بقية مؤلفاته

في
الدين
الطبي
الطبي

السكان » و « الدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة » جمع فيه نظم ابن صفوان ،
و « أعمال الأعلام ، فيمن بويج قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام ، وما يجر ذلك
من شجون الكلام » و « والمباخر الطيبة ، في المفاخر الخطيبية ، و « خلع
الرسن ، في أمر القاضي ابن الحسن »^(١) وتدوين شعر شيخه ابن الجياب ، وجمع نثر
المذكور وسماه « تافه من جم ، ونقطة من يَمِّ » وشرحه لكتاب نفسه « رقم الحلل
في نظم الدول » ؛ فهذا ما حضرني علمه من توالي لسان الدين رحمه الله تعالى ،
فأما البيزرة ففي مجلد ، وأما البيطرة فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من
محاسن الخيل وغير ذلك ، وأما « رجز الأصول » فقد شرحه قاضي القضاة
ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور ، وأما « رقم
الحلل ، في نظم الدول » فهو في غاية الخلاوة والعذوبة والجزالة ، وقد كنت بالمغرب
أحفظ أكره ، فنسيته الآن ، وابتدأه بقوله :

الحمد لله الذي لا ينكره من سرحت في الكائنات فكره

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد :

ثم الوليد بن يزيد العاث ثم الوليد بن يزيد العاث قد نقلت من فعله خباث

وفي آخر دولة بني أمية قوله :

وصار قصر الملك من أمية أقفر ربعا من ديار ميه

وفي الأمين :

باع الملا بشادين وكاس وصحبة الشيخ أبي نواس^(٢)

وفي المعتصم :

وهو الذي تألف الأتراكا فنصبوا لقومه الأشراكا

(١) سبق أن نقل المؤلف من هذا الكتاب فارجع إلى الجزء السابع من مجزئتنا

(٢) الشادن : الظبي إذا شذن وترعرع .

ومن أبيات هذا الكتاب قوله :

وَيَفْسُدُ الْمَلِكُ بِالْإِحْتِجَابِ كَذَاكَ بِالزَّهْوِ وَالْإِعْجَابِ^(١)

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك :

وَأَقْفَرْتُ مِنْ مَلِكِهِ أَوْطَانُهُ سَبْحَانَ مَنْ لَا يَنْقُضُ سُلْطَانَهُ^(٢)

حديث عن كتاب الإحاطة « وأما كتاب « الإحاطة » فهو الطائر الصيت بالشرق والمغرب ، والمشاركة أشد إعجاباً به من المغاربة ، وأكثر لهجاً بذكره ، مع قلته في هذه البلاد الشرقية ، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي ، وسماه « مركز الإحاطة ، في أدباء غرناطة » وهو في مجلدين بخطه ، رأيت الأخير منهما بمصر ، وقال في آخره مانصه : هذا آخر ما أردت إيراده ، وقوّفتُ أبراده ، من كل طرفه ، ونخفة ، وفائدة أدبية ، ونادرة تاريخية ، في كتاب « الإحاطة ، بتاريخ غرناطة » ولما كان المعول عليه ، والباعث الداعي إليه ، ذكر أدبائه ، ومآثر علمائه ، سميت « مركز الإحاطة ، بأدباء غرناطة » والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، علقه نفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقير إلى غفوره محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي ، لطف الله تعالى به بمنه وكرمه ! مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى .

وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلد ، إذ هو في مجلدين كما سبق ، ونسخة الأصل في ثمان مجلدات ، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها .

ولما وقف سلطان الأندلس من كتاب الإحاطة نسخة على بعض مدارس

حجة سلطانية غرناطة كتب ابنُ عاصم حجة الوقفية بخطه ، ولتبتها لما فيها من الفوائد ، قال الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان « الإحاطة »

(١) الزهو : السكر .

(٢) أقفرت : خلت .

المحرسة : كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، والفائقة الكمال ، من « الإحاطة ، بتاريخ غرناطة » المحبسة على المدرسة اليوسفية ، من الحضرة العلية ، بخط قاضي الجماعة ، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة ، صدر البلاء ، وعلم العلماء ، ووحد الكبراء ، وأصيل الحسباء ، الوزير الرئيس المعظم أبي يحيى بن عاصم - رحمه الله تعالى عليه ! - ما نصه : الحمد لله الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام ، وشهدت به العقول الراحجة والأحلام ، وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الأبواب وتتقاصر الأنهام ، وبه الاستمسك إن طرقت الشكوك أو عرّضت الأوهام ، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالی من الأدلة ، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة ، تحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول ، ويستنبط^(١) المهتدى لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول ، وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل ، ومُنْتَم^(٢) من صحة النظر إلى أكرم قبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب - رحمه الله تعالى ! - من أثر هذه الدولة النصيرية أدامها الله تعالى بكل اعتبار ، ومآثرها التي هي عبرة لأولى الأبواب وذكري لذوى الأبصار ، أما الأول فلأن الأنباء التي أظهرت بهجتها ، وأوضحت حجتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصعدها ، إنما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، وأخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأفلام ، وأفذاذ حفظة الدين والدنيا ، والشرف والعليا ، والملك والإسلام ، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك ، وينتظم نظم الجمان في ذلك السلك ، من حصانة قلعتها ، وأصالة منعتها ، وقديم اختطاطها ، وكریم جهادها ورباطها

(١) يستنبط : يعتبر ويعد نبيلاً .

(٢) منتم : منتسب .

وحسن ترتيبها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربّها^(١) ، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممن انتابها^(٢) من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل ، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة ، ومُبدع محاسنها الجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوة ، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصيرية الكريمة ، ونشأة من نشأت جودها الشامل النعمة الهامل الدّيمة^(٣) ، فظاهر عليه من كالات الأوصاف ، على الإنصاف ، فأخلاف^(٤) هذه المكارم النصيرية أرضعته ، وعناياتها الجميلة أسّمته فوق الكواكب ورَفَعَتَهُ ، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشریفها اكتسب ، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره ، بل أفضّه الذي أشرق فيه بدره ، والتشريفات السلطانية التي فَتَحَتِ اللَّهُمَّ بِاللَّهِ^(٥) ، واحتلت من مراق العز فوق السها ، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق ، وطوّقت المنن كالثقلان في الأعناق ، وقلدت الرياسة والأقلام أقلام ، وثفت الوزارة والأعلام أعلام ، فبهرت أنواع المحاسن ، وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الآسن ، وبرعت التوايف في الفنون المتعددة ، واشتهرت التصنيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لماله من الأذمة المتأكدة ، إذ أظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتبه الإجمال ، فلنُفَصِّحَ الآن بما قصّد ، ولنحقق من أنجم السعادة ما رصّد ، وذلك أن لمولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين ، أيدّه الله ونصره ! وسنّ له الفتح المبين ويسّره ! ما تَرى لم يُسَبِّقَ إليها ، ومكارم لم يمر أحد ممن وسم بالكرم عليها ، لجلالة قدرها ، وضخامة أمرها ، من ذلك هذا المقصد الذي أثير لها كالكتاب المذكور وسواه ، مما هو واحد في فنه وفد

(١) الربع : المنزل ، وآهل : عامر بأهله وسكانه . (٢) انتابها : قصدتها .

(٣) الدّيمة : المطر الدائم . (٤) الأخلاف للناقاة : بمنزلة الثدي للمرأة .

(٥) اللهم : جمع لهاة - بفتح اللام - وهى هنا بأقصى الحلق ، والله - بضم

اللام - العطايا ، وقد قالوا « اللهم تفتح اللهم »

في معناه ، عَقَدَ في جميعها التحجيس ^(١) على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ، ويتولى المَثُوبَة على هذا العقد الجسيم ، وهذه النسخة في اثني عشر سفرا متفقة الخط والعمل ، اكتب هذا على ظهر الأول منها ، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة عرّف الله تعالى بركته بمنه ! انتهى .

وكان لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى ! - أرسل في حياته نسخة من « الإحاطة » إلى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء ، وقد رأيت منها المجلد الرابع ، وهذا نص وقفيته : الحمد لله وحده ، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو بن عبد الله بن الحاج الأندلسي - نفع الله تعالى به ! - عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السَّلَامَى - فَسَحَّ الله تعالى في مدته ! وفتح لنا وله أبواب رحمته ! ومنحنا وإياه من رفده وعطيته ! وأسكننا وإياه أعلى جنته ! - جميع هذا الكتاب « تاريخ غرناطة » ، وهو ثمانية أجزاء ، هذا رابعها ، عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره ، وهو أنه فَوَّضَ إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها ، وشؤونه أجمعها ، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها ، تفويضا تاما على العموم والإطلاق ، والشمول والاستغراق ، لم يستثن شيئا مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه ، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بشعر الإسكندرية المحروس - أدام الله تعالى أيامه ! - كمال الدين خالصة ^(٢) أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذى الحجة عام سبعة وستين وسبعائة ، وقفا شرعيا

(١) التحجيس : أراد الوقف .

(٢) هذا الرجل خالصة هذا الرجل : أي أنه استخلصه لنفسه واحتصنها به من

على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخاً ومطالعة ، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء ، رحم الله تعالى واقفها ! وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة ، حرسه الله تعالى ! ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله العظيم ، ويعلم أنه صائر إلى ربه الكريم ، أن يبطله ولا شيئاً منه ، ولا يبدله ولا شيئاً منه ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين شهر الله تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعائة ، انتهى .

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء ، فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقرئ المؤرخ ، ونصه : انتقى منه داعياً لمؤلفه أحمد بن علي المقرئ في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة .

ومارقه ^(١) الحافظ السيوطي ونصه : الحمد لله وحده ، طالعت على طبقات النجاة واللغويين ، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين وثمانمائة ، انتهى .

وبعد هذين ما صورته : انتقى منه داعياً لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

وبعد ما صورته : أنهاه نظراً وانتقاء على الحموى الحنفى ، لطف الله به .

وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان الشيخ محمد البكري الصديق ما نصه : طالعت مبهجاً رياضته الموثقة ^(٢) ، وأزهار معانيه المشرقة ، مرتقياً

(١) رقه : كتبه وسطره .

(٢) الموثقة : المعجبة .

في درج كلماته العذاب سماء الاقتباس ، مقتنيا من لطائفه دررا وجواهر بل أحاشيها بذلك القياس ، كتبه محمد الصديق غفر الله له ! انتهى .
ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كان دُعماق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ابن المؤلف أبي الحسن علي الخطيب ، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله بن مرزوق ، والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني ، والنحوي الراعي ، والشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسى شارح الألفية وصاحب التأليف ، وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم ، رحم الله تعالى جميعهم !

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيراً له ابن الأحمر ثم انفصل عنه حسبا تقدم إلى ما يتعلق بكتاب « الإحاطة » في جملة كلام نصه : **يبين مأخذ** وتلقينا ممن ثقب به أن الكاتب المجيد الأصيل حسبا ، البارع أدبا ، أبا عبد الله **ابن الخطيب** كتابه الإحاطة ابن جُزَي وقد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعائة ، فأكرم جنابه ، وكل من تقرّبه واصطفاه آرا به ^(١) ، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي ، وصاح بمن عدله أيا وَيَحْج الشجى من الخلى ^(٢) ، وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه ، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، فلم يكن شيء من الكلام إلا قال الإحسان وأنامعه ، استوعب ماشاء ، وأبدع في كل ما نقل سواء كان شعرا أو إنشاء ، لكن سابق أجله منَع من الإمتاع بمجمله ومُفَصِّله ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكاتبة خاص الدولة ورئيس الجلالة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ

(١) الآراب : جمع أرب ، بالتحريك ، وهو الحاجة .

(٢) هذا مثل ، يقولون « ويل للشجى من الخلى » ويشددون ياء « الشجى » وأصلها كياء القاضي ؛ لوقوعها مع « الخلى » المشدد الياء ، ومعناه : العذاب حاصل للعاشق المتبلى من الخلى البال من العشق .

ابن جُزَي على شاطئ نهر فياض ، وانتشق من وِرْقَاتِهِ أَزَاهِرَ رِيَاضٍ^(١) ، وحمله
النظر في بدائعه على أن يأخذ في جَمْعِ كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالْإِحَاطَةِ فِيمَا تيسر من تاريخ
غرناطة ، ووجد لذلك موجبا أغراه بجمعه ، وهو أن الشيخ الحجة الشاعر المفلح
أبا إسحاق بن الحاج وَدَّ على الأندلس بعد جَوْبِهِ الْآفَاقُ^(٢) ، وترحله إلى ما وراء
الشام والعراق ، وإعلامه أنه يذهب في بدأة تاريخ مذهب ابن جُزَي وغيره ،
وكان وحيدا في فنون الآداب ، والمساجلة لأعلام الكتاب ، وبحكم الاتفاق على
أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وَدَّ الْحَاجِبَ الْخَطِيرَ
أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك
المسمى ، وبأن وقفه دون طُمُوْحه إلى عادته من المرقب الأسمى ، فانتج الانتباز
من تلك الرياسة الخطيبية أن أنفى الخطبة على جلالة مقدارها ، وتوضح أنوارها ،
في مرتقى إجلالها وإكبارها ، وأخذ في تأليف «الإحاطة» مستدعيا تصحيح الموالد
والوفيات ، والأسماء والمسميات ، ومستكثرا من طُرْفِ^(٣) المصنفات ، ليم قصده من
الإطناب ، ونقله العيون الرائقة من كل كتاب ، وألقى جميع مقاصده ، والمعظم
من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العمدة معلم الجملة منا كتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم أبي عبد الله الشريشي ، قدس الله تعالى ضريحه ! وهذا الشيخ
الذي لم يجاوز سن الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نقله ،
وأحكم جنسه وفصله ، وانحتم على مجلدات ستة ، ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس
بعودة جدنا الغنى بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروع
من كتاب «الإحاطة» بالأصول ، وأنجز من التبحر فيه الوعد المطول ، ووضعت
بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتممة من اثني عشر سفرا ، انتهى كلامه .

(١) انتشق : شم . (٢) جاب الآفاق : قطع النواحي سيرا .

(٣) الطرف : جمع طرفة — بالضم — وهي الشيء النادر الذي لا مثيل له
تطرف به أصحابك : أى تحفهم به .

وقد علمت أن المكتوب في الوقفية كما مر ثمان مجلدات ، لا اثنا عشر ، فلعل ذلك الاختلاف بسبب السكبر والصغر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
والكاتب أبو عبد الله بن جُزَي الذي أشار إليه قد عرفنا به فيما سبق فليراجع .

ترجمة
أما العلامة ابن الحاج ، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النخعي ، ويعرف بابن الحاج ، الغرناطي ، قال في الإحاطة : نشأ على عفاف وطهارة ، وبروصيانة ، وبلغ الغاية في جودة الخط ، وارتسم في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعائة ، مع حسن صمت^(١) ، وجودة أدب وخط ، وظهور كفاية ، يقيد ولا يفتر^(٢) ، ويروي الحديث مع الطهارة والنزاهة ، مليح الدعاة ، طيب الفكاهة ، شرق وحج وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره ، وناهيك بها طرفة ، وقفل لإفريقية ، وخدم بعض ملوكها ، وكتب ببجاية ، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ، ثم كتب عن صاحب بجاية ، ثم تنزه عن الخدمة ، وانقطع بترية الشيخ أبي مدين مؤثر الخول ، ذاهبا مذهب العكوف بباب الله تعالى ، حجة على أهل الحرص والتهافت ، ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان ، ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس ، وألقى ببروتنويه وعناية ، وولى القضاء بقرب الحضرة ، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه ، متوسط الاكتحال ، روى عن مشيخة بلده واستكثر ، وأخذ في رحلته عن ناس شتى ، وألف توالييف منها « إبقاظ الكرام ، بأخبار المنام » وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة ، و« نزهة الخلق ، في ذكر الفرق » وكتاب « اللباس والصحبة ، في جمع طرق المتصوفة » المدعى أنه لم

(١) كذا ، ولعله « مع حسن صمت » أي هيئته .

(٢) لا يفتر : لا يضعف ولا يعل .

يجمع مثله ، وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالمشرق ، وجزء في الأحكام الشرعية سماه « بالفصول المقتضية » ، في الأحكام المنتخبة » ورجز في الجدل ، ورجز صغير في الحجب والسلاح ، ورجز صغير سماه « بمطالب القوانين » ، في التورية والاستخدام والتضمين « مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعائة ، وامتحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ، ثم فكاه الله تعالى . انتهى ملخصا وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر بن عاصم صاحب التحفة وغيره ، وهو من الأدباء المكثرين ، وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطه ، وقد أتى فيه بالعجب المُجَاب ، وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق ، لأنه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزني ، وناهيك بالثلاثة ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم وله نظم الرائق ، العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقة المشاركة ، كما ستراه ، فمن نظمه يمدح الحفاظ جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزني ، وقد أبصره على أسيرة دار الحديث الأشرفية بدمشق :

جمال الدين للإقراء يعلو أسرته إذا اصطف الرجال

فذل جليت محاسنه بدالي مُحيا في أسرته الجمال

ضمن قول المعري :

أهل فبشر الأهلين منه محيا في أسرته الجمال

وقوله في الحفاظ علم الدين أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي :

نوى النوى علم الدين الرضا فأننا من بعد فرقته بالشام ذو ألم^(١)

فلا تُلْمني على حبي دمشق فقد أصبحت فيها زمانا صاحب العلم^(٢)

(١) نوى : قصد وعزم ، والنوى : الفراق والبعد .

(٢) العلم - بالتحريك - الجبل ، وهو جزء لقب الحفاظ البرزالي ، ومن هنا

جاءت التورية

وقال فيه أيضا :

نوى النوى علم الدين الرضا فذكت نأراً اشتياقي حتى استعظموا ألى
فقلت : إني من قوم شعارهم جود فلا تنكروا نأري على علم^(١)
وقال في الحافظ شمس الدين الذهبي :
رَحَلْتُ نحو دمشق الشام مبتغياً رواية عن ذوى الأحلام والأدب
فقرت في كتب الآثار حين غدت تُروى بسلسلة عظمى من الذهب^(٢)
وقال في الحافظ المزي أيضا :

جَمَالَ الدين أضحى في دمشق إماماً نحوه طال الذميل
فلم أعدم بمنزله جميلاً فحيث هو الجمال هو الجليل
وقال حين بُدِوره على الأمير الصالح المحدث الجليل قطب الدين أبى إسحاق إبراهيم
ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق بن السلطان الملك الرحيم بدر الدين بن لؤلؤ
ابن عبد الله النورى صاحب الموصل ليروى عنه :
إلى قَصْدِ قُطْبِ الدين وافيت عندما أقمت على الترحال في الشرق والغرب
وأصبحت كالأفلاك في السير والشرى فها أنا في مصر أدور على القطب
وقال في قاضى القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكفندى ، وهو ممن
أخذ عنه بغير الإسكندرية :

ولما اختبرت ذوات الورى تعجبت من حسن ذات العماد
فتلك التى لم أكن مبصراً مدى عمرنا مثلها في البلاد
وقال في القاضى وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجى :
أضحى وجيه الدين أسبق سابق فى العلم والعلواء والخلق النبىء

(١) يقولون « فلان أشهر من نار على علم » والتورية في هذين البيتين كالتى ذكرناها في السابقين .

(٢) من اصطلاحات المحدثين قولهم عن الإسناد الذى فى غاية الصحة « سلسلة الذهب » وقد أطلقوها على مالك عن نافع عن ابن عمر .

عجب الورى من سبقه وتعجبوا
ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى قوله :
فأجبتهم لا تفكروا سبق الوجيه (١)
قد قارب العشرين ظي لم يكن
وإلى الربيع بخده فكأنما
وقوله :

وعارض في خـده نبأته
أجرى دموى إذ جرى شوقا له
بحسنه بين الورى يسحرنا
فقلت : هذا عارض ممطرنا
وقال وقد توفى أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولى ابنه أبو حفص عمر بعد قتله
لإخوته :

وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصبا
فقلت لهم كفوا فما رضى الورى
وإخوته أولى وقد جاء بالنكر
سوى عمر من بعد موت أبى بكر
وقال :

أتونى فعاثوا من أحب جماله
فما فيه عيب غير أن جفونه
وذاك على سمع الحب خفيف
مرّاض ، وأن الخصر منه ضعيف
وقال :

أيا عجبا كيف تهوى الملوك
وتحسدنى وهى مخدومة
محلى وموطن أهلى وناسى
وما أنا إلا خديم بفاس
وقال :

لى المدح يروى منذ كنت كأنما
ومالى هجاء فاعجبني لشاعر
تصوّرت مدحا للورى وثنا
وكاتب سر لا يقيم هجاء (٢)

(١) الوجيه : فيه تورية ، والوجيه : اسم فرس من الخيل البرزة فى السبق
مثل لاحق . (٢) المراد بالهجاء فى آخر البيت التهجى .

وقال في حقه القاضي أبو البقاء خالد البلوى : نقلت من خط سيدي ورفيقي وصديقي
إمام المسلمين ، برهان الدين ، أبي إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن الحاج ، وأكثره
مما كان أنشدنيه قديما من نظمه في التورية قوله :

ومَهْة تقول إن هي كلت ودعا للمزاح خل ممزوج
وازرِ الردف إنَّ في الأزر منى رَمَل يَبْرين يا طيب وعالج^(١)
وقوله :

وروض محل جَدْب المراعى سريع القِيظ وَقْدًا والتهابا
حكى ابن أبي ربيعة لاشْجُونًا ولكن كونه يهوى الربابا^(٢)
وقوله :

وظبي طرَّ عارضه وأعنى عذارا بعد يزهو باخضرار
رأى سقما بمقلته فوافى بأسٍ عاد لكن من عِذار
وقوله :

أتوني بنام من الروض يانع سَقَمته العَوَادى كل أسْجَم مِذار
فلا غرو إن أصليته نار زَفَرَتى وحكم على النمام الألقاء في النار
وقوله :

هذه الشمس بالحجاب توارت بعد نور لها ورحب وبشر
وأنى الليلُ بالنسيم عليلا فهو يمشى من أققه لابن زهر
يعنى بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي ، فإنه كان
وحيد دهره في الطب ، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية .
وقال أبو إسحاق النميري المذكور :

(١) يبرين وعالج : موضعان مشهوران بكثرة الرمل ، ويقال « هذا أكثر من
رمل عالج » وعالج ، أيضا : فعل أمر من المعالجة وهى التطبيب .
(٢) ورى بابن ربيعة عن زمان الربيع ، وبالرباب عن المطر .

أيا ضوء الصباح أَرْفُقُ بِصَبٍّ تسيل دموعه في الخلد سَيْلاً
وكنْتُ بليلة ليلاء طالت فها أنا في الوري مجنون ليلي^(١)
وقال يخاطب شيخه سيف الدين :

لمولاي سيف الدين في الفقه بيننا مقامُ اجتِهَادٍ ليس يلحقه الحيف
فتقليده فرض على أهل عصرنا ولا تَجَبُّ عندي إذا قلد السيف

وقال :

رعى الله معطار النسيم فإنه رأى من غصون البان ماشاء من عطف
وأبدى حديث الغيث وهو مُسَلْسَل لذلك لعمري ليس يخلو من الضعف
وترشحت التورية بكون الحديث يقولون « الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف ،
ولو في التزام التسلسل ، مع كون متن الحديث صحيحاً » كما قرر في محله .
وقال رحمه الله تعالى :

نظرت إلى روض الجلال بوجهه وسَقَيْتُهُ دمعاً به العين تكلف
فصحَّ حديثُ الحسن عن ورد خدِّها وإن كان أضحى وهو راوٍ مضعف
وقال رحمه الله تعالى :

بدا عارض المحبوب فاجمراً خجلة وأهدى لنا ورداً به الحسن ناهض
فقلت له لا تنكر الورد ناضراً فقد سال في خديك من قبلُ عارضُ

وقال :

النوم عن إنسان عيني نافر كاللوحش ليس يقارب الإنسانا
والدمع منها فاض طوفانا فلا عجب إذا ما غرَّق الأجنفانا

(١) مجنون ليلي : لقب غلب على قيس بن الملوح ، و « مجنون ليلي » في هذا البيت من إضافة الشيء إلى زمان وقوعه ، وكان حقه أن يكتب « مجنون ليلة » إلا أن قصد التورية دعا إلى هذا التغيير .

وقال رحمه الله تعالى :

بكت شجنا ففاض الدمع يحكي يتامى الدر إذ يهوى تُؤاما^(١)
وسلّت من محاجرها سيوفا فحقت على المحاجر واليتامى

وقال القاضي خالد البلوى رحمه الله تعالى : من نظم صاحبنا أبي إسحاق بن الحاج الميمرى يخاطب شيخه وشيخنا أيضاً صاحب ديوان الإنشاء الإمام جمال الدين إراهيم بن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس الفصاحة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ، وقد تقرب إليه في قصد الرواية عنه :

إلى ابن شهاب الدين طال تغربى فلما سرت عيسى له وركابى
رويت حديث الفضل عنه فصحتلى كما شئت مرويا عن ابن شهاب

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور :

أشبهت والدك الرضا في فضله وأخذته عنه بخير مناب
وملكتنى فحديث فضلك فى الورى عن مالك يروى عن ابن شهاب

وقال رحمه الله تعالى :

لعمرك ما ثقره باسم ولكنه حبّ لالعاب
ولولم يكن ريقه مسكرا لما دار من حوله الشارب

وقال رحمه الله تعالى ملفزاً فى القلم :

سألتك ما واش يراد حديثه ويهوى الغريب النازح الدار إفصاحه
تراه مدى الأيام أصفر ناحلا كمثل عليل وهو قد لازم الراحة

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء يبيع النغور وشرب منها :
تعجبت من ثغر هذى البلاد ومولاي من عينها شارب

(١) التؤام : جمع توأم ، وهو الذى معه نظيره ، مثل قولهم « زوج » وانظر

إلى قول البحترى :

غرائب من فنون النبات فيها جنى الزهر الفرادى والتؤاما

(٢١ - نهج ٩)

فَللهُ ثَمَرٌ أرى شارباً وعين بدا فوقها حاجب
وقال :

وحمرء في الكأس مشمولة تحث على العود في كل بيت
فلا غرو أن جاءني سابقاً إلى الأنس خل يحث الكميت
وقال :

بروضتنا الظمياء طال اكتبنا بيا فله غيث ميت آمالنا أحيا
وأشبهه مهيّاراً فيها تلك عينه تفيض إذا شام البروق على ظميا
وقال :

أثنان عزّاً فلم يظفر بنبيلهما وأعوزا مَنْ هما في الدهر مطلبه
أنح مودته في الله صادقة ودرهم من حلال طاب مكسبه
وقال مورياً بالقائد نافع على ما اختاره البخارى وجماعة أن أصبح الأسانيد مالك
عن نافع^(١) :

عن نافع أسند حديث أحبتي يا مالكا رقي بحسن صنائع
فأجل إسناد وخير رواية عندي رواية مالك عن نافع

وقال :

إني لأعجب من فعالك في الهوى لما حلت بحسن ذاتك ذاتي
ونفيت نومي ثم أثبت الأسى فجمعت بين النفي والإثبات^(٢)

وقال :

ألا معصم للصب من وثى معصم أطلت إليه نظرة المتوسم
فأبقت به عيني حلى من سوادها وبعض سوادٍ وسطُ قلبي المتيم

(١) قد ذكرنا فيما مضى أن المحدثين يسمون الإسناد « مالك عن نافع عن ابن عمر » سلسلة الذهب (٢) اجتماع النفي والإثبات على شيء واحد في وقت واحد محال ؛ لأنه جمع بين النقيضين ، وهذا من اصطلاح المناطقة

وليس خضابا ما علاه ، وإنما جرى فيه بعد الدمع ما عزم من دمي
ولم يعد مني اللون لون سواده خلا أننى أشقى وقيل له أنعم
وقال وقد جاء الشاعر المنلق أبو العباس أحمد بن عبد المنان بيت الكتاب وفي
عينه خضرة :

أيا أحمد المرتضى للعلا ومن حاز في صنعه كل زين
تراءيت في العلم روضا نضيرا فلا تفكرون خضرة حول عين
وله فيه :

لك الخير عدم السبك أبدل ناظري زمردة مخضرة من لجينه
فلا تنكروا مارع من ذلك إننى لصائع تبر القول ناقد شينه
ولا عجب إن أعوز السبك صائغا فأوجب عدم السبك خضرة عينه (١)
وقال فيمن يعرف بالصهال :

ألا رب فرسان توافوا فأدر كوا مع الليل أوتارا لهم دون إمهال
وأجروا بصهال كميتا كما ابتغوا فلا تفكروا الإجراء منهم بصهال (٢)
ولما كتب الرئيس الكاتب الجليل أبو عبد الله العزفي مداعبا :

يا عصبية كل فتى منهم علم فرغتم من كتبكم ردوا القلم
أجابه ابن الحاج المذكور بقوله :

ألا احتسبوا ما قد أعزتم لفتية تكثركم بالصفح عن فعلهم قاضي
ولا تطعموا في الرد فالناس كلهم رأوا أن مولانا له القلم الماضى

وقل الوادى آشى : مما نقلت من خط الكاتب العلامة الصدر البارع الحاج

(١) أعوزه : عز عليه ولم يجده .

(٢) أصل الصهال الفرس ، ومن هنا جاءت التورية .

القاضي النازم النائر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج المنيرى
ما نصه : كتب إلى الفاضل النخبة أبو الفضل بن رضوان متمثلاً بقول المأمون :

* ملك الثلاث الآنسات عنانى * (١)

فكتبت إليه فى التورية :

هنيئاً لك البشرى بهنّ قدم كما تريد بنعمى للسعادة جامعہ
وإن كنت من أهل الصلاح فلا تكن بمائل قلب منك عن حب رابعه
فأجابنى بقوله :

ياسيدى ذكرتني بالرابعه لعلها لكل خير جامعہ
إني أخاف أن تكون باقعہ فتفرك المغازل المطاوعه (٢)
ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة :

لمن الخيام سطت ببيض صفاح وارت سواداً غال كلّ صباح
إن مزقت رقعت بنقع كتائب أو قوضت عمدت بسر رماح
وله فى رثاء الطيب ابن عمار ، واقترح عليه ذلك ابن جزى :

ألا أسعدا عيني على السهد والبكا فقد واصل السهد المبرح نذكارى
وأبدى الردى فتك ابن عباد أذسطا فلا غرو أن أبكى لفقد ابن عمار
وقال مما يكتب فى الترس :

أنا الترس قد أنشئت بالأمر عُدّة ليوم جهاد مطلع غرة النصر
فلاقوا بى الأعداء فى رَحْفهم ولا تبالوا بقرع الزرق والبيض والسمر
ولا تفكروا سترى لمقتل حاملى فى أسمى كما شاهدتم أحرف الستر

(١) تكملة هذا قوله : * وحللن من قلبى بكل مكان *

(٢) الباقية : الداهية . وتفرك : تغضب وتسكرو .

وله يهني السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المريني بالإبلال من المرض :

مطالب إلا أنهن مواهب قضى الله أن تقضى ، فنعم الطالب
شفاء أمير المؤمنين وإنه لأكرم من تحدى إليه الركائب (١)
وكم قلت غاب البدر والشمس ضلة ورأيت على قلبي الهموم النواصب
ولم يغباً لكن شكاً الضر فارس وأوحش منه مجلس الملك غائب
لك الله يا خير الملوك وخير من تحن له حتى العتاق الشواذب (٢)
وقل لمن وافى بشيرا نفوسنا فاهى إلا بعض ما أنت واهب
أقول لجرد الخيل قباً بطونها معقدة منها لحرب مناسب
طوالع من تحت العجاج كأنها نعام بكشبان الصريم خواصب
مُحَجَّلَةٌ غراً كأن رعالها بحار جرت فيها الصبا والجنائب
من الأغوجيات الصوافن ترمى إذا رجفت يوم القراع مقائب
هنيئاً فقد صح الإمام الذي به نُقِلَ السيوف المرفهات القواضب
ومستأصل الفل المُغَدِّ جياده لضرب كاترغو الفحول الضوارب
ومن حطم الشمر الطوال كعوبها بطعن كما امتاح الركبة شارب
وكرر على أرض العدا بفوارس كأنهم في الحرب أسدٌ غوالب
كأن ظباهم في الهياج أكتفهم تجود وأرواح العداة مواهب
كأن رماح الخط أحسابهم ، وما حوت من نفوس المعتدين مناقب
هم مامم ، حدث عن البحر أو بنى مرينٍ فتهجُ القول أبلج لا حب
من البيت شادت قيس عيلان فخره فطالت معاليه وطابت مناسب
وأحيا له ملك الخليفة فارس مآثر غالتها الليالى الذواهب

(١) تحدى — بالبناء للمجهول — تفاق .

(٢) العتاق : الجياد ، والشواذب : الضامرة اليابسة ، واحدها شاذب ، ووقع

في ب « الشوارب » بالراء المهملة — تحريف .

كريم فلا الحادى النجائب مخفق
 أرى بذله النعمى قفضت مكاسب
 أنامله يروى الورى صوبَ جودها
 وكم خلت برقافى الدجى نور بشره
 فأخجلنى أنى أرى البرق خلباً
 أعزنى أمير المؤمنين بلاغة
 وأنطق لسانى بالبيان معلما
 وكيف ترى لى بعدُ فى الجود رغبة
 وقد شبت الآمال إذ شبت ثم إذ
 بلغت بك الآمال حتى كأنها
 عجبت وما تولى ، وأوليت معجبا
 وحسبى دعاء لو سكتُ كُفَيْتُهُ
 وما أنا إلا عبدك المخلص الذى
 فخذها تبثُ المدر لا المدح ؛ إنه
 بقيت بقاء الدهر مذكك قاهر
 وعوفيت من ضر وأعطيت أجره
 وقال رحمه الله تعالى :

ولولا ثلاث جاء جبريل سائل
 مقامات إسلام أريد لفعله
 لخبر الورى عنها لآثرت فقدانى^(١)
 ثوابا وإيمان أديم وإحسانى

(١) خلت : ظننت ، وتشيم : تنظر أين يقع مطره ، هذا أصله ، والمراد هنا مجرد النظر ، والناجيات : جمع ناجية ، وهى السريعة السير ، والنجائب : جمع نجية وهى الكريمة الأصل . (٢) يشير إلى حديث عمر بن الخطاب أن جبريل جاء فسأل النبی صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، رواه الشيخان ، وهو أول حديث فى الأربعين النووية .

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني السلطان أمير المؤمنين أبو عنان فارس
ابن أمير المسلمين أبي الحسن المربني رحمهما الله تعالى :

يا ملما بأرض تلك البلاد حَيَّ فاسا وحَيَّ أهل الوداد^(١)

إن تناءت بشخصها عن عياني فحماها مُصَوِّر في فؤادي

قلت : تذكرت بهذا البحر والروى والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة الناظم
النائر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير المسلمين
أبي حمو موسى بن يوسف الزياي يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

أيها الحافظون عهد الوداد جدّدوا أنسنا بيباب الجياد^(٢)

وصِلُّوها أصانلا بليال كلالٍ نظمن في الأجياد^(٣)

في رياض مُنصَّذات المجاني بين تلك الربا وتلك الوهاد

وبروج مُشَيَّدات المباني باديات السنى كشهب بَوَاد

رق فيها النسيب مثل نسبي وصفا النهر مثل صفو ودادي

وزها الزهر والفصون ثمت وتغننت عليه وُرُقُ شَوَاد

وانبرى كل جدول كحسام عارى الغمد سندسى النجاد

وظلال الفصون تكتب فيه أحرفا سَطَّرت بغير مداد

تذكر الوشم في معاصم خوِّد قضب فوقه ذوات امتداد

وكؤوس المنى تُدَار علينا بجنى عفة ونقل اعتقاد

واصفار الأصيل فيها مُدَام وصفير الطيور نفمة شاد

كم غَدَوْنَا بها لأنس ورحنا جادها رائح من المزن غاد

ولكم روحة على الدوح كادت أن تريح الصبا لنا وهوَ غاد

رقت الشمس في عشاياه حتى أحدثت منه رقة في الجاد

تصديده لحمد
ابن يوسف
الثغري، يمدح
أبا حمو سلطان
تلمسان

(١) ألم بالدار إماما : نزلها وزارها .

(٢) باب الجياد : أحد أبواب فاس .

(٣) الأجياد : الأعناق ، واحدها جيد .

جددت بالغروب شجوا غريب
يا حَيَا المزنِ حَيَّهَا من بلاد
وتعاهدُ معاهد الأُنس منها
حيثُ معنى الهوى وملهى الغواني
ومقر العلا ومرقى الأمانى
كل حسن على تلسان وَقَفْ
ضحك النور فى رُبَاها وأربى
وسما تاجها على كل تاج
يدعى غيرها الجمال فيقضى
وبشعرى فهمت معنى علاها
حَضْرَة زانها الخليفة موسى
وحبّاها بكل بذل وعدل
ملك جاوز المدى فى المعالى
مَقْل للهدى منبع النواحي
قاتل المحل والأعداى جميعا
كلما ضنت السحائب أغنت
كم هبات له وكم صدقات
فأياى خليفة الله موسى
ركب الجود فى بسيط يديه
جل باريه ملجأ للبرايا

هاجه الشوق بعد طول البعاد^(١)
غرس الحب غرسها فى فؤادى
وعهود الصبا بصَوْب العهاد^(٢)
ومَرَاد المنى ونيل المراد
ومجرّ القنا ومجرى الجياد
وخصوصا على رنى العباد
كهف ضحاكها على كل ناد
ونما وهدها على كل واد
حسنها أن تلك دعوى زياد
من حلاها فهمت فى كل وادى
زينت الحلى عاطل الأجياد
وحماها من كل باغ وعاد
فانهايات عنده كالمبادى
مظهر للعلا رفيع العباد
بغرار الظبا وغرّ الأيادى
راحتاه عن السحاب الغوادى
عائدت على العفاة بواد
أبحر عَذْبَة على الورد
فتلافى به تَلَاَف العباد
كالخيا ضامنا حياة البلاد

(١) الشجو — بالفتح — الحزن .

(٢) العهاد : المطر .

جل مَنْ خَصَّه بقلك المزايا باهرات من طارف وتلاد
شيم حلوة الجنى وسجّايا شهد المجّد أنها كالشهاد^(١)
يا إمام الهدى وشمس المعالي وغمام الندى وبدر النادى
لك بين الملوك سرخفي ليس معناه للعقول بياد^(٢)
فكان البلاد كفك ممها كان فيها من ينتمى لعناد^(٣)
قبضت كفك البنان عليه فأنى بالإذعان حلف اتقياد
بكم تصلح البلاد جميعا إن آراءكم صلاح البلاد
لم تزل دائما تحن إليكم كحنين السقيم للعواد
لو أعيت بمنطق شكرتكم مثل شكر العفاة للأجواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا طاعة أرغمت أنوف الأعادى
فأربحوا الجياد أتعبتموها وأقرّوا السيوف فى الأعماد
واهنؤا خالدين فى عز ملك قائم السعد دائم الإسعاد
وإيكم من مذہبات القوافى حكما سہلت لیان المقاد
كل بيت من النظام مشيد عطر الأفق بالثناء المجاد
ذو ابتسام كزهر روض مجود وانتظام كسلك در مجاد

ولأبى المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب المقدمة الآجرومية قصيدة فى المنحى لأبى المكارم
وافقت قصيدة الثغرى فى البحر وبعض المطلع ، فلا ندرى أيهما نسج على منوال منديل فى فاس
الآخر ؛ إذ هما متعاصران ، إلا أن ذاك قالها فى تلمسان ، وهذا فى مدينة فاس ، وهى :
أيها العارفون قدّر الصّبح جدّدوا أنسا بباب الفتوح

(١) الشهاد — بالكسر ، بزنة الكتاب — العسل .

(٢) بدا يبدو فهو باد : ظهر .

(٣) ينتمى : ينتسب .

يعنى بباب الفتوح أحد أبواب فاس ، كما أن باب الجياد فى كلام الثغرى أحد أبواب تلمسان .

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع :

- جـددوا ثم أنسنا ثم جدوا
حيث شابت مفارق اللوز نورا
وبدا منه كلما أحمر يحكى
وكأن الذى تساقط منه
وإذا ما وصلتكم للمصلى
وبطيفورها فطوفوا لسيما
ولتقيموا هناك لحمة طرف
ثم خطوا رحالكم فوق نهر
فوق حافاته حدائق خضر
وكأن الطيور فيها قيات^١
وهى تدعوكم إلى قبة الجؤ
فيه ما تشتهون من كل لون
وغصون تهيج رقصا إذا ما
فأجيبوا دعاءها أيها السر
واجنحوا للمجنون فهو جدير
واخلعوا ثم^٢ للتصابى عذارا
- يَسْرَح الطرف فى مجال فسيح^(١)
وتساقطن كاللجين الصريح^(٢)
شفقا مزقته أيدي الربح
نُقَطْ لُحْن من دم مسفوح^(٣)
فلتحلوا بموضع التسبيح
تبصروا من ذراه كل سطوح^(٤)
لتردوا به ذماء الروح^(٥)
كل فى وصفه لسان المديح
ليس عنها لعاشق من نزوح^(٦)
هتفت بين أعجم وفصيح
زهلموا إلى مكان مليح
مغلق فى الكيام أو مفتوح
سمعت صوت كل طير صدوح
ب واخلؤا مقال كل نصيح
وخليق من مثلكم بالجنوح
إن خلع العذار غير قبيح

(١) الطرف — بالفتح — العين ، والمجال — بفتح الميم — المكان الذى تجول

فيه : أى تتحرك ، وفسيح : واسع . (٢) اللجين — بزنة التصغير — الفضة .

(٣) دم مسفوح : مائل . (٤) ذرى كل شئ : أعلاه .

(٥) الذماء — بالفتح — بقية الروح (٦) النزوح : البعد .

وإذا شئتُ مكاناً سواه هو أجلى من ذلكم في الوضوح
فاجمعوا أمركم لنحو خليج جاء كالصلِّ من قفار فسيح^(١)
عطرت جانبيه كف القوادي بشذا عرّف زهرها الممنوح
قل لمهيار إن شمت شذاها قول مستخبر أخى تجريح
أبن هذا الشذا الذكى من القيصوم والرند والفضى والشيخ^(٢)
حبذا ذلك المهاد مهادا بين دان من الزبا ونزوح
نم من ذلك المهاد أفيضوا نحو هضب من الهموم مريح
فيه للحسن دوحة وروايا وانشرح لذى فؤاد قريح
وحجار تدعى حجار طبول غير أن التطليل غير صحيح
تنثر الشمس نم كل غدیر زعفرانا مبلاا بنضوح
وسوى من هناك يسى عقولا ويحلى لحاظ طرف طموح
وعيون بها تقر عيون وكلاها يأسو كلوم الجريح
فرشت فوقها طنائس زهر ليس كالعن نسجها والمسوح
كلما مر فوقهن طليح عاد من حسنهن غير طليح
فاهضوا أيها المحبون مثلى لنرى ذات حسننا الملموح
هكذا يريح الزمان وإلا كل عيش سواه غير ربيع
وما أحسن قول الكاتب الثغرى يمدح تلمسان وسلطانها المذكور آنفا :
تاهت تلمسان بحسن شبابها وبدا طراز الحسن من جلبابها
فالبشر يبدو من حجاب ثغورها متبسما أو من ثغور حبابها
قد قابلت زهر النجوم بزهرها و بروجها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبى هو الذى يحمى حى أربابها

لثغرى يمدح
تلمسان
وسلطانها

(١) الصل - بكسر الصاد - الثعبان (٢) القيصوم، والشيخ: من نبات البادية ،
والفضى : شجر شديد الانتقاد سريع ، والرند : زهر .

ملك شمائله كزهر رياضها ونَدَاهُ فاض بها كفيض عُبَابِهَا^(١)
 أعلى الملوك الصِّيد من أعلامها وأجلها من صفوها ولُبَابِهَا^(٢)
 غارت بغرة وجهه شمس الضحى وتنقبت خجلا بثوب ضبابها
 والبدر حين بدت أشعتها له حسنا تضال نوره وخَبَابِهَا^(٣)
 لله حضرته التي قد شرفت خدامها فسَمَوْا بخدمة بابها
 فالأم في يمناه يبلغها المي والمدح في علياه من أسبابها

للتعري في مدح السلطان تلمسان المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو ، ووصف بلاد
 سلطان تلمسان أيضا

قم مبصرا زمن الربيع المقبل ترما يسر المجتنى والمجتهلى
 واشق نسيم الروض مطولا وما أهداك من عَرَف وعرف فاقبل
 وانظر إلى زهر الرياض كأنه در على لبات ربات الحلى
 فى دولة فاضت يداها بالندى وقضت بكل مئى لكل مؤمل
 بسطت بأرجاء البسيطة عدلها وسطت بكل معاند لم يعدل
 سلطانها المولى أبو حمو الرضا ذو المنصب السامى الرفيع المعتلى
 تاهت تلمسان بدولته على كل البلاد بحسن منظرها الجلى
 راقى محاسنها ورق نسيمها فخلا بها شعري وطاب تغزلى
 عرج بمنعرجات باب جياها وافتح بها باب الرجاء المقفل
 ولتغد للعباد منها غدوة تصبح هموم النفس عنك بمعزل
 وضريح تاج العارفين شعبيها زره هناك فخبذا ذاك الولى
 فزاره للدين والدنيا معا تمحى ذنوبك أو كرو بك تنجلي

(١) شمائله : طبائعه وسجاياه ، واحدها شمال ، والندى : الجود والكرم ،
 والعباب — بالضم بزة غراب — معظم ماء البحر أو موجه .
 (٢) لباب كل شيء : خالصه . (٣) خبا : سكن .

وبكفها الضحك قف متزها
وتمش في جناتها ورياضها
تسليك في دوحاتها وتلاعها
وبربوة العشاق سلوة عاشق
بنواسم وبواسم من زهرها
فلوامرو القيس بن حجر راءها
لوحام حول فنائها وطلبائها
فاذكر لها كلني بسقط لوائها
كم جاد لي فيها الزمان بمطلب
واعمد إلى الصفصيف يوما ثانيا
واذ تراه من الأزاهر خاليا
ينساب كالأيمن انسيابا دائما
فزلاله في كل قلب قد حلا
واقصد بيوم ثالث فوارة
تجرى على در لجينا سائلا
واشرف على الشرف الذي يازائها
تاج عليه من المحاسن بهجة
وإذا العشية شمسها مالت فل
وبلعب الخيل الفسيح بحاله
فلحلبة الأشراف كل عشية

تسرح نفوسك في الجمال الأجل
واجنح إلى ذاك الجناح الخضل (١)
نعم البلباب واطراد الجدول (٢)
فتنت وألحاظ الغزال الأكل
تهديك أنفاسا كعريف المندل (٣)
قدما تسلي عن معاهد مائل
ما كان محتفلا بمجومة حومل
فهوى عنها الدهر ليس بمذسل
جادته أخلاق الغمام المسبل
وبه تسلى وعنه دأبا فاسأل
أحسن به عطلا وغير معطل
أو كالحسام جلده كف الصيقل
وجاله في كل عين قد حلي
وبعذب منهلها المبارك فأنهل
أحلى وأعذب من رحيق سلسل
لترى تلمسان العلية من علي
أحسن بتاح بالبهاء مكل
نحو المصلى ميلة المتمهل
أجل النواظر في العتاق الحقل
لعب بذلك الملعب المتسهل

- (١) أخضل الشيء : ابتل ، وأخضلته : بللته ، لازم متعد .
(٢) الدوحات : جمع دوحة ، وهي الشجرة العالية الوارفة ، والتلاع : جمع تلة — بالفتح — وهي ما علا من الأرض .
(٣) العرف — بالفتح — طيب الرائحة ، والمندل — بزنة جعفر — من عود الطيب

فترى المجلى والمصلى خلفه وكلاهما في جريه لا يأتلى (١)
 هـذا يكر وذا يفر فيثنى عطا على الثانى عنان الأول
 من كل طِرف كل طِرف يستبى قيد الفواظر فتنة المتأمل
 وَرَدَ كَأَن أَدِيمَهُ شَفَقَ الدجى أو أشهب كشهاب رجم مرسل
 أو من كُمَيْتٍ لا نظير لحسنه سام مع في السوابق مخول (٢)
 أو أحر قانى الأديم كمسجد أو أشقر يزهو بعرف أشعل
 أو أدم كالليل إلاغرة كالصبح ، بورك من أغر محجل
 جمع المحاسن في بديع شياته مهما ترقَّ العين فيه تسهل (٣)
 عقبان خيل فوقها فرسانها كالأسد تنقض أنقضاض الأجل
 فرسان عبد الواد آساد الوغى حامو الذمار أولو الفخار الأطول
 فإذا دنت شمس الأصيل لغربها فإلى تلمسان الأصيله فادخل
 من باب ملعبها لباب حديدتها متنزها في كل ناد أحفل
 وتأن من بعد الدخول هنبهة واعدل إلى قصر الإمام الأعدل
 فهو المؤمل والديار كناية والسر في السكان لا في المنزل
 فإذا أمير المؤمنين رأيته فالتم نرى ذاك البساط وقبِّل
 فالحمد لفظ في الحقيقة مجمل وحلَّاه تفصيل لذاك الجمل
 بشرى لعبد الواد بالملك الذى خلصوا به من كل خطب معضل
 بأعزهم جارا وأمنهم حمى وأجلهم مولى وأعظم موئل
 بالعاذل المستنصر المنصور والـ مأمون والمهدى والمتوكل

- (١) المجلى : اسم لأسبق خيل الحلبة ، والمصلى : اسم للفرس الثانى ، ولا يأتلى : لا يقصر .
 (٢) مع مخول : يراد أنه كريم الأبوين .
 (٣) أخذ عجز هذا البيت من قول امرئ القيس في وصف فرس :
 ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترق العين فيه تسهل
 ووقع في ب « مهما ترف » تحريف .

وكفاهم سعدا أبو حمو الذي يحى حمهم بالحسام الفيصل
وبحسن نيته لهم وبجده وبسعدده وبسعيه المتقبل
ذو الهمة العليا التي آثارها حلت به فوق السماء الأعزل^(١)
بحر الندى الأخلى وفخر المنتدى وسنا الدجى الأجل وزين المحفل
ينهل منه لنا الجدا وبه الدجى تجلى بمشرق وجهه المتهلل
هنيئاً به زمن الربيع وقل له بشرى بأملح من حلاك وأجل
وعلى علاه من صنعة فضله ترداد نافحة السلام الأكمل^(٢)

وكانه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرها وروياها في مدح مدينة فاس لبعض العلماء ، وأظنه القاضي المزدغى ، وهى :

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى وسقاك من صوب الغمام المسيل
يا جنة الدنيا التي أربت على حصص بمنظرها البهى الأجل
غرف على غرف ويجرى تحتها ماء ألد من انزحيق السلسل
وبساتن من سندس قد زخرت بجداول كالأيمن أو كالفيصل
وبجامع القروين شرف ذكره أنس بذكراه يهيج تلهلى
وبصحنه زمن المصيف عجائب فمع العشي الغرب فيه استقبل
واشرب بتلك البيلة الحسنابه واكرع بها عنى فديتك وانهل

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل :

بلد أعارته الحامة طوقها وكساه ريش جناحه الطؤوس
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكان ساحات الديار كؤوس

وما أحسن قوله - أعنى لسان الدين - في مدح تلمسان :

حيا تلمسان الحيا فربوعها صدف يحود بدرها المسكنون

(١) السماء - بكسر السين - كوكب نير ، وما سماكك يقال لأحدهما : السماء الأعزل ، وللآخر : السماء الرامح (٢) النافحة : ذات الريح الطيب .

ما شئت من فضل عيم إن سقى أرؤى ومنّ ليس باليمنون^(١)
 أو شئت من دين إذا قدح الهدى أوري ودنيا لم تكن بالدون
 ورَدَ النسيم لها بنشر حديقه قد أزهرت أفنانها بفنون
 وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت فلها الشفوف على عيون العين
 يعنى بحبيبة أم يحيى عين ماء تلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت جارية
 بالقصور السلطانية ، ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم ، والبقاء لله تعالى
 وحده .

ومن مدح تلمسان الحاجّ الطيّب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير
 بالتلايسى رحمه الله تعالى ، إذ قال :

للتلايسى في
 مدح تلمسان

سقى الله من صوب الحياها طلاً و ربوع تلمسان التي قدرها استعلى
 ربوع بها كان الشباب مصاحبي جررت إلى اللذات في دارها الذبلا
 فكم نلت فيها من أمان قصية وكم منّح الدهر الضنين بها النيلة
 وكم غارلتني الغيد فيها تلاعبا وكل عذول لا أطيع له قولا
 وكم ليلة بتنا على رغم حاسد ندير كو من الوصل إذ بالصفاء ثملاً
 وكم ليلة بتنا بصفصيفها الذي تسامى على الأمهار إذ عدم المثلا
 وكدية عشاق لها الحسن ينتهى يعود المسن الشيخ من حسناتها طعلا
 نعم ، وغدير الجوزة السالب الحجا نعمت بها طفلا وهمت بها كهلا
 ومنه ومن عين أم يحيى شرابنا لأنهما في الطيب كالليل بل أحلى
 وعبادها ما القلب ناس ذمامه به روضة للخير قد جعلت حلاً
 به شيخنا المذكور في الأرض ذكره أبو مدين أهلا به دائماً أهلا

(١) من ليس باليمنون : عطاء لائمة فيه ولا تنغيس ، أو عطاء لا ينقطع .

(٢) قصية : بعيدة ، ومنّح : أعطى ، والضنين : البخيل

(٣) عملاً : أصله عملاً — بالهمز — فسهل الهمزة بقلبها ألفاً

لها بهجة تزدى على كل بلدة
فياجنة الدنيا التي راق حسنها
ولا عجب أن كنت في الحسن هكذا
ولاحت لدينا فيك منه محاسن
مطاع شجاع في الوغى ذو مهابة
كريم حلیم حاتمی نواله
له راحة كالغيث ينهلٌ ودَّقْها
هو الملك الأرقى هو الملك الرضا
ومن هذه الأوصافُ فيه تجمعت
إمام حَبَّاه الله ملكا مؤزرا
من الزاب وافاها عزيزا مظفرا
بدت للمليك الغرب شدة بأسه
فَبَادَرَهُ بالصلح خوف فواته
فكان بحمد الله صلحا مُهَنَّا
له في المعالي رتبة لا ينالها
أطاعته كل الأنام تبادرت
أَحْسَادُهُ موتوا فإن قلوبكم
لقد جبر الله البلاد بملكه
فلا زال هذا الملك فيه مخلدا
ومما مدحت به تلسان قول الإمام الصوفي أبي عبد الله محمد بن خيس الذي قدمنا

(١) ينهل : ينكسب ، والودق : ماء المطر ، والصارم : السيف القاطع ،
ومرهف الحد : مرققه ومحدده ، و « لافلا » دعاء له بأن يبق على السلامة

(٢) ناطه به : علقه (٣) تصلى : تحرق

لابن خنيس ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلق به ، وذكرنا أيضاً فيما مر بعض في مدح تلمسان أمداحه لها :

- تلمسان جادتكَ السحاب الروائح وأرست بَوَادِيكَ الرِّياحُ اللِّوَاقيحُ ^(١)
وسح على ساحات باب جياها مِلثٌ يَصَافِي تَرْبَهَا وَيَصَافِحُ
يطير فَوَادِي كُلِّ لَاحٍ لَامِعٍ وَيَنْهَلُ دَمْعِي كُلَّ نَاحٍ صَادِحٍ ^(٢)
ففي كل شفر من جفوني مَأْمَحٍ وفي كل شطر من فَوَادِي قَادِحٍ
فما الماء إلا ما تَسَحُّ مَدَامَعِي وَلَا النَّارُ إِلَّا مَا تُجْنِ الْجَوَانِحُ ^(٣)
خليلي لا طيف لعلوة طارق بليل ولا وجه لصبحي لأمح
نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر لعيني ولا نجم إلى الغرب جارح ^(٤)
بحقكم كُفًّا الملام وساححا فما انحل كل انحل إلا المسامح
ولا تعذلاني واعذراني فقها يرد عناني عن عُليّة نصح
كتمت هواها ثم برّح بي الأسي وكيف أطيع السكتم والدمع فاضح
لساقية الرومي عندي مزية وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح
فكم لي عليها من غدو وروحة تساعدني فيها المني والمنامح
فطرف على تلك البساتين سارح وطرف إلى تلك الميادين جامع
تَحَارِبُهَا الْأُذْهَانُ وَهِيَ ثَوَاقِبُ وَتَهْفُو بِهَا الْأَحْلَامُ وَهِيَ بَوَارِحُ
ظباء مغانيها عَوَاطِرُ عَوَاطِفِ وَطِيرُ مَجَانِيهَا شَوَادِرُ صَوَادِحُ
تَقْتَلِمُ فِيهَا عَيُونُ نَوَاطِرِ وَتَبْكِيهِمْ مِنْهُمْ عَيُونُ نَوَاضِحِ
على قرية العباد مني تحية كما فاح من مسك اللطيمة فأمح
وجاد ترعى تاج المعارف ديمة تنقص بها تلك الربا والأباطح

- (١) لواقح : جمع لافحة ، والمراد أنها تحمل لقاح النبات ، وفي القرآن الكريم :
(وأرسلنا الرياح لواقح)
(٢) الصادح : المنفي ، وأراد الطير
(٣) تجن الجوانح : تنحني وتكتم
(٤) جنح للغروب : مال

إليك شعيب بن الحسين قلوبنا
سميت فما قصرت عن نيل غاية
نسيت وما أنسى الوريث ووقفة
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت
أماؤك أم دمعي عشية صدقت
لئن كنت ملائنا بدمعي طالفا
وإن كان مهزى في تلاغك سائحا
قراح أنى ينصب من رأس شاق
أرق من الشوق الذى أنا كاتم
أما وهوى من لا أسميه إتنى
أبعد صيامي واعتكافى وخلوتى
لبعت رشادى فيه بالنى ضلة
وأئى مقام ليس لى فيه حاسد
ألا قل لقرسان البلاغة أسرجوا
أيمحل ذكرى عندهم وهو ناه
بدور إذا جن الظلام كوامل
تركنت سوق البز لا عن تهاون
وإنى وقلبى فى ولانك طامع
أيا أهل ودى والعشير مؤمن
وهل ذلك الظبى النصاحى للذى

نوازع لکنّ الجسوم نوازح^(١)
فسعیك مشکور وتجرك راجح
أنافح فیها روضه وأفاوح
لإنسان عینی من صفاه صفائح
علیه فینا ما یقول المكاشح
فإنى سكران بحبك طافح
فذلك غزالى فى عبابك سابح
بمثل حلاه تستحث القرائح
وأصنى من الدمع الذى أنا سافح
لعرضى كما قال النصیح لناصرح
یقال فلان ضیق الصدر مانح
وكم صالح مثلى غدا وهو طالح
وأى مقال ليس فيه مادح
فقد جاءكم منى المكافى المكافح
ويغبط شجوى عندهم وهو شائح؟
وأشد إذا لاح الصباح كوالح
وكيف وظبى سائح فىك نارح؟
وناظر وهى فى سماطك طامح
أتقضى ديونى أم غريمى فالح
يقطع من قلبى بعينیه ناصرح

(١) نوازع : مائلات ، تقول « نزع فلان إلى كذا » تريد أنه مال إليه ،
ونوازح : مفترقة متباعدة .

كنيت بها عنه حياء وحشمة ووجه اعتذارى في القضية واضح وتلمسان هذه هي مدينتنا التي عُلِّقت بها التمام ، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن ابن أبي بكر المقرئ بن علي صاحب الشيخ أبي مدين ، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم ، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسبا قال ابن مرزوق :

* يكفيك منها ماؤها وهواؤها *

وإل السكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون في كتابه « بغية الرواد » ، في أخبار بني عبد الواد ، وأيام أبي حمو الشاخنة الأطواد « بعد كلام في شأن البربر ، ماصورته : ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن ، كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع ، و « سن » ومعناه اثنان : أى الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الأبلبي رحمه الله تعالى ! وكان حافظا بلسان القوم ، ويقال « تلمشان » وهو أيضاً مركب من « تلم » ومعناه لها ، و « شان » أى لها شأن ، وهي مدينة عريقة في التمدن ، لذنة الهواء ^(١) ، عذبة الماء ، كريمة المنبت ، اقتعدت بسفح جبل ، ودوئن رأسه بسيط ^(٢) أطول من شرق إلى غرب ، عروسا فوق منصة ، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ، ويطل منها على فحص أفيح ^(٣) معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى ^(٤) ، وتبقر في بطونه عند تدميث الغمام عن مثل بطون العذارى ، وبها الملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفاتقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الزائقة ، مما زخرفت عروشه ، ونمقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأخجل الرصافة ، وعبث بالسدير ، وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدي

حديث عن
تلمسان

(١) لدنة الهواء : أراد أنها طيبة الهواء معتدلة لا هو بالحر ولا بالبارد

(٢) أراد بالبسيط الأرض المنبسطة الممتدة في سهولة (٣) أفيح : واسع

(٤) المهارى : النوق ، واحدها مهريه ، المنسوبة إلى مهرة بن حيدان .

المذانب^(١) والأسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالتقصير وعلية الدور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ، ويسقى ريعه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب ، فهي التي سحرت الألباب رؤاء ، وأصبت النهى جمالا ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا ، إلى أن قال : فأننا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إياه عندي :

ماجنة الخلد إلا في منازلكم وهذه كنت لو خيرت أخيار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

ونوسطت قطرا ذا كور عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب مريعة الجنبات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمة الفلاحة ، زاكية الإصابة ، فر بما انتهت في الروح الواحد منها إلى أربعمائة مد كبير ، ثم أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور .

ومما ينسب لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته :
تلسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه ، عبادها يدها وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيق ، وماؤها برود صريد ، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب ، فلا نحول فيها ولا شحوب ، خزانة زرع ، ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رفاق رفاع ، إلا أنها بسبب حب الملوك ، مطعمة للملوك ، ومن أجل جمها الصييد في جوف القرا ، مغلوقة للأمرأ ، أهلها ليست عندهم الراحة ، إلا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحه ، إلا لمن أقام رسم

لسان الدين
يصف تلسان

(١) المذانب : جمع مذنب — بوزن منبر — وهو مسيل الماء إلى الأرض ، وهو أيضاً الجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها .

الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، إلا فيما بين الأفارب ، ولا شطارة^(١) ، إلا فيمن ارتكب الخطارة ، انتهى .

وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا أسميه « بأنواء نيسان ، في أنباء تلمسان » وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأفدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرّواق ، فشغلت بأمر الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ، ثم ارتحلت بنية الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة الحجاز ، وها أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية ، وفي علم الله تعالى مالا نعلم ، والتسليم لأحكام الأفدار أسلم ، والله تعالى يحتم لنا بالحسنى بجاه نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم .

تقبلات المؤلف في البلاد
وبها ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف ، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف ، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف ، وأبْتُ منها إلى مصر أواخر شوال من العام ، وشرعت في هذا المؤلف بالعدة من العام .

ترجمة الشيخ
أبى مدين
وقد تخرّج بتمسان من العلماء والصلحاء مالا يفيض ، ويكفيها افتخارا دَفَنُ وَلَىَّ الله سيدى أبى مدين بها ، وهو شعيب بن الحسين الأندلسى ، شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقدوة السالكين ، قال الشيخ أبو عبد الله محمد

(١) الشطارة — بفتح الشين — الحبث ، وتقول « شطر فلان — من باب ضرب — شطارة ، فهو شاطر » وذلك إذا أعيا أهله خبثا .

ابن التلمساني في كتابه « النجم الثاقب » ، فيما لأولياء الله تعالى من المناقب : كان الشيخ سيدى أبو مدين فردا من أفراد الرجال ، وصدرا من صدور الأولياء الأبدال ، جمع الله له علم الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هاديا وداعيا للحق ، فقصده بالزيارة من جميع الأقطار ، واشتهر بشيخ المشايخ ، وذكر القادلى وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولى الكرامات ، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف ، خصوصا مقام التوكل ، لا يُشَقُّ غِبَارُهُ ^(١) ، ولا تجهل آثاره ، قال القادلى : كان مبسوطا بالعلم ، مقبوضا بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك ، أخبرني مَنْ شهد وفاته أنه رآه في آخر الرَمَق يقول : الله الحق ، وكان من أعلام العلماء ، وحفاظ الحديث ، خصوصا جامع الترمذى ، وكان يقوم عليه ، ورواه عن شيوخه عن أبى ذر ، وكان يلزم كتاب « الإحياء » ويعكف عليه ، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت ، وله مجلس وعظ يتكلم فيه ، فتجتمع عليه الناس من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلم فتقف تسمع ، وربما مات بعضها ، وكثيرا ما يموت بمجلسه أصحاب الحب ، تخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال ، وكان شيخه أبو يعزى يثنى عليه جميلا ، ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل ، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبى الحسن بن حرزهم ، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبى الحسن بن غالب ، وذكر عنه أنه قال : كنت في أوّل أمرى وقرأت على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أنخذ مأوى للعمل بما فُتِحَ به على ، فإذا خلوت به تأتيني

(١) لا يشق غباره : لا يلحق ولا يدرك ، وأصله أن الفرس السريع إذا سار أثار غبار الأرض ، فإذا كانت الخيل التى تجرى وراءه لا تشق غباره فهى لا تدركه من باب الأولى ، فهذه العبارة كناية عن هذا .

غزالة تأوى إلى وتؤنسني ، وكنت أمرُّ في طريقى بكلاب القرى المتصلة بفاس ،
 فيدورون حول ، ويبصبصون^(١) لى ، فبينما أنا يوما بفاس إذا برجل من معارفى
 بالأندلس سلم على ، فقلت : وَجِبْتَ ضيافته ، فبعت ثوبا بعشرة دراهم ، فطلبت
 الرجل لأدفعها له ، فلم أجده هنالك ، فخليتها معى ، وخرجت لخلوتى على عادتى ،
 فمررت بقريتى ، فتعرض لى الكلاب ، ومنعوني الجواز ، حتى خرج من القرية
 مَنْ حال بينى وبينهم ، ولما وصلت لخلوتى جاءتنى الغزالة على عادتها ، فلما شمتنى
 نفرت عنى ، وأنكرت على ، فقلت : ما أتى على إلا من أجل هذه الدراهم التى
 معى ، فرميتها ، فسكنت الغزالة ، وعادت لحالها معى ، ولما رجعت لفاس جعلت
 الدراهم معى ، ولقيت الأندلسى ، فدفعتها إليه ، ثم مررت بالقرية فى خروجى
 للخلوة ، فدار بى كلابها وبصبصوا^(٢) على عادتهم ، وجاءتنى الغزالة فشمتنى من
 مفرق لقدمى ، وأنست بى كهاداتها ، وبقيت كذلك مدة ، وأخبار سيدى أبى
 يعزى ترد على ، وكراماته يتداولها الناس وتنقل إلى ، فلما قلبى حبه ، فقصدته
 مع جماعة الفقراء ، فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة دونى ، وإذا حضر الطعام
 منعنى من الأكل معهم ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فأجهدتنى الجوع^(٣) ، وتحيرت
 من خواطر ترد على ، ثم قلت فى نفسى : إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهى فى
 المسكان ، فقام ، ومرغت وجهى فقامت وأنا لا أبصر شيئا ، وبقيت طول ليلتى با كيا
 فلما أصبح دعانى وقربنى ، فقلت له : يا سيدى ، قد عميت ولا أبصر شيئا ، فمسح
 بيده على عيني ، فعاد بصرى ، ثم مسح على صدرى ، فزالت عنى تلك الخواطر ،
 وفقدت ألم الجوع ، وشاهدت فى الوقت عجائب من بركاته ، ثم استأذنته فى الانصراف
 بنية أداء الفريضة ، فأذن لى ، وقال : ستلقى فى طريقك الأسد فلا يرُعك فإن غلب خوفه

(١) بصبص الكلب والظبي والبعير : أى حرك ذنبه ، وإنما يفعل ذلك عند
 الأنس وقصد التملق ، ولهذا قالوا « تبصبص فلان » وهم يريدون معنى تملق .
 (٢) أجهدتنى الجوع : أورثنى الجهد والمشقة والتعب .

عليك فقل له : بحرمة يدنور إلا انصرفت عني ، فكان الأمر كما قال ، فتوجه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوارُ الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء ، واستفاد من الزهاد والأولياء ، وتعرف في عَرَفَة بالشيخ سيدي عبدالقادر الكيلاني ، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيرا من أسرارهِ ، وحلاه بملبس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ، ويعده أفضل مشايخه الأكابر .

وعن بعض الأولياء قال : رأيت في النوم قائلا يقول : قل لأبي مدين : بُثَّ^(١) العلم ولا تُبَال ، ترتع غدا مع العوالى ، فإنك في مقام آدم أبي الذرارى ، فقصصتها عليه فقال لى : عزمت على الخروج للجبال والفيافي^(٢) حتى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بى عن هذا العزم ، وتأمرنى بالجلوس ، فقولك « ترتع غدا مع العوالى » إشارة لحديث « خلق الذكر مراتع أهل الجنة » والعوالى : أصحاب عليين ، ومعنى قوله « أبى الذرارى » أن آدم أعطى قوّه على النكاح وأمر به ، ولم يجعل له قوّه على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا بيشه^(٣) وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين .

وكان يقول : كراماتُ الأولياء نتائج معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، وطريقتنا هذه أخذناها عن أبى يعزى بسنده عن الجنيد عن سَرى السقطى عن حبيب العجمى بالسند إلى رب العزة جل جلاله .

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال : سمعت سيدي أبا مدين يقول : أوقفت ربي عز وجل بين يديه وقال لى : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ قلت : يارب عطاؤك ، قال : وعن شمالك ؟ قلت : يارب قضاؤك ، فقال : يا شعيب قد ضاعفت

(١) بث العلم : انشره على الناس

(٢) الفيافي : الصحارى ، وكأن واحدها فيفاة .

لك هذا ، وغفرت لك هذا ، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك .

وعن سيدى أبى العباس المرسى : جُلْتُ فى ملكوت الله تعالى ، فرأيت سيدى أبا مدين متعلقا بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق ، فقلت له : وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال : علوى أحد وسبعون علما ، وأما مقامى فراجع الخلفاء ، ورأس السبعة الأبدال .

وسئل رضى الله عنه عما خصه الله تعالى به ، فقال : مقامى العبودية ، وعلوى الألوهية ، وصفاتى مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سرى وجهرى ، وأضاء بنوره برى وبحرى ، فالمقرب من كان به علما ، ولا يسمو^(١) إلا من أوتى قلبا سليما ، الذى يسلم مما سواه ، ولا يكون فى الوعاء إلا ما جعل فيه مولاه ، فقلب العارف يسرح فى الملكوت بلا شك (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرمر السحاب) .

وسئل عن الحياء ، فقال : أوله دوام الذكر ، وأوسطه الأنس بالذكور ، وأعلاه أن لا ترى شيئا سواه .

واختلف أهل مجلسه : هل الخضر^(٢) ولى أم نبي ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فقال صلى الله عليه وسلم : الخضر نبي ، وأبو مدين ولى .

وذكر التادلى وغيره أن رجلا جاءه ليعترض عليه ، فجلس فى الحلقة ، فأخذ صاحب الدولة فى القراءة ، فقال له أبو مدين : أمهل قليلا ، ثم التفت للرجل ، وقال له : لم جئت ؟ فقال : لأقتبس من نورك ، فقال له : ما الذى فى كمك ؟ قال له : مصحف ، فقال له : افتحه واقرأ فى أول سطر يخرج لك ، ففتحته وقرأ أول

(١) لا يسمو : لا يرتفع ويعلو قدره

(٢) هو الرجل الصالح صاحب موسى عليه الصلاة والسلام .

سَطَرَ فَإِذَا فِيهِ (الذين كذبوا شعيباً كَأَن لَّمْ يَغْتَبُوا فِيهَا ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) فقال له أبو مدين : أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل ، وتاب ، وصلاح حاله .

وذكر صاحب الروض عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال : مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب ، فرأى أسداً افترس حماراً وهو يأكله ، وصاحبُه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة^(١) ، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية^(٢) الأسد ، وقال لصاحب الحمار : أمسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة موضع حمارك ، فقال له : يا سيدي أخاف منه ، فقال : لا تخف ، لا يستطيع أن يؤذيكَ ، فمرَّ الرجل يقوده والناسُ ينظرون إليه ، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له : يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبتُ ، وأنا شديد الخوف منه ، لا طاقة لي بعشرته ، فقال الشيخ للأسد : اذهب ولا تعد ، ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم .

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشياً يوماً على ساحل ، فأسره العدو ، وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين ، فلما استقر في السفينة توقفت عن السير ، ولم تتحرك من مكانها ، مع قوَّة الرياح ومساعدتها ، وأيقن الروم أنهم لا يقدرّون على السير ، فقال بعضهم : أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس ، ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى ، وأشاروا له بالنزول ، فقال : لا أفعل إلا إن أطلّقتم جميعاً من السفينة من الأسارى ، ففعلوا أن لا بد لهم من ذلك ، فأنزلوهم كلهم ، وسارت السفينة في الحال .

ومن كراماته أنه لما اختلف طلبة بجاية في حديث « إذا مات المؤمن أعطى

(١) الفاقة : الفقر .

(٢) ناصيته : رأسه .

نصف الجنة » وأشكل عليهم ظاهره : أموت مؤمنين يستحقان كل الجنة ، فجاءوا إليه وهو يتكلم على رسالة القُشيري ، فكشفهم في الحال بلا سؤال ، وقال لهم : المراد أنه يعطى نصف جنته هو ، فيكشف له عن مقعده ليقنع به ، وتقر عينه ، ثم النصف الآخر يوم القيامة .

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل .
وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنه قال : سمعت رجلاً يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء ، وكان رجل يأتيني عند صدع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع لي في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به ، وطال على الليل في انتظاره ، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل ، فإذا هو الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال : نعم ، ثم سألني وانصرف ، ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي : صلينا الصبح ببغداد ، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح ، فأعدنا معهم ، وجلسنا حتى صلينا الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر ، فقال لي صاحبي هذا : نعيد معهم ، فقلت : لا ، فقال لي : ولم أعدنا الصبح بمكة ، فقلت له : كذلك كان شيخني يفعل ، وبه أمرنا ، فاختلفنا وأتيناك للجواب ، فقال أبو مدين : فقلت لهم : أما إعادة الصبح بمكة فلأنها بها عين اليقين ، و ببغداد علم اليقين ، وعين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة - وهي ^(١) أم القرى - فلذلك لاتعاد في غيرها ، قال : فقنعابه وانصرفا .
وكان استوطن بحاية ويقول : إنها معينة على طلب الخلال ، ولم يزل بها

(١) « أم القرى » من ألقاب مكة المكرمة وورد هذا اللقب في القرآن الكريم وذلك قوله تعالى (ولتذرن أم القرى ومن حولها) ولقبت بذلك لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، أو لأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، أو لأنها أعظم القرى شأنًا ، وقال فيها بعض الذين جاوروا البيت فيها :

فمن يلق في بعض القريات رحلة فأم القرى ملق رحلى ومنتابى

يزداد حاله على مر الليالي رفعة ، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ، ويخبر بالوقائع والغيوب ، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب المنصور ، وقال له : إنا نخاف منه على دولتكم ، فإن له شَبَهًا بالإمام المهدي ، وأتباعه كثيرون بكل بلد ، فوقع في قلبه ، وأهمه شأنه ، فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره ، وكتب لصاحب بجاية بالوصية به والاعتناء ، وأن يُحْمَلَ خير محمل ، فلما أخذ في السفر شرق على أصحابه ، وتغيروا ، وتكلموا ، فسكتهم وقال لهم : إن منيتي ^(١) قربت ، ولغير هذا المكان قدرت ، ولا بد لي منه ، وأنا شيخ كبير ضعيف ، لا قدرة لي على الحركة ، فبعث الله تعالى مَنْ يَحْمِلُنِي إليه برفق ، ويسوقني إليه أحسن سوق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني ، فطابت نفوسهم ، وذهب بؤسهم ، وعلموا أنه من كراماته ، فارتحلوا به على أحسن حال ، حتى وطئوا به حَوْزَ تلمسان ^(٢) ، فبذت له رابطة العباد ، فقال لأصحابه : ما أصلحه للرقاد ، فرض مرض موته ، فلما وصل وادى يسر اشتد به المرض ، ونزلوا به هناك ، فكان آخر كلامه : الله الحق . وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فحمل إلى العباد ، ومدفن الأولياء الأوتاد ، وسمع أهل تلمسان بجنائزته ، فكانت من المشاهد العظيمة ، والمحافل الكريمة ، وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو على عمر الحباك ، وعاقب الله تعالى السلطان ، فمات بعده بسنة أو أقل .

ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب ، وجربه جماعة ، وقد زرتة مئين من المرات ، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله . وقد أطل في ترجمته التادلي في كتابه « التشوّف ، لرجال التصوّف » وقد

(١) المنية : الموت ، وهي فعيلة من « مَنَى الله الشيء بمنه — بوزن رماه يرميه إذا قدره وهياً أسبابه ، أي مقدرة ، والتاء ليست للتأنيث لأن فعلاً بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ولكن التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية .

(٢) الحوز — بالفتح — الناحية ، وبضمة الملك ، والطبيعة .

أفردها ابن الخطيب القسطنطيني بتأليف سماه « أنس الفقير » .

ومن كلامه : من رزق خلاوة المناجاة زال عنه النوم ، ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتلى فيها بالذل ، ومن لم يجد من قلبه زاجرا فهو خراب
وقوله : بفساد العامة تظهر ولاية الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجة الدين المفتاتون

وقوله : من عَرَف نفسه لم يَغترَّ بثناء الناس عليه ، ومن خدم الصالحين ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالملت من خلقه ، وانكسار العاصي خير من صولة (١) المطيع

وقوله : من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق .
وسئل عن المحو (٢) والشيخ ، فقال : المحو من شهد له ذاتك بالتقديم ، وسرك بالاحترام والتعظيم ، والشيخ من هداك بأخلاقه ، وأيدك بإطرأقه ، وأنار باطنك بإشرأقه ، إلى غير ذلك من كلامه النير ، وهو بحر لا ساحل له .
وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس ، ومما ينسب له قوله :

بكت السحاب فأضحكت لبكائها زهر الرياض وفاضت الأنهار
وقد أقبلت شمس النهار بحلة خضرا ، وفي أسرارها أسرار
وأنى الربيع بخياله وجنوده فتمتعت في حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى فتسابق الأطياف والأشجار (٣)
والكأس رقص والعقار تشعشت والجو يضحك والحبيب يُرَار (٤)

(١) الصولة — بالفتح — السطوة والقدرة والقهر .

(٢) المحو — بفتح فسكون — هو إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان ، وفسره الشيخ محي الدين بأنه « رفع أوصاف العادة » وقيل : إزالة العلة .

(٣) الورود : مصدر ورد يرد ، وأصل معناه إتيان الماء للستيا .

(٤) العقار — بالضم — الحجر ، سميت بذلك لأنها تعمر عقل شاربها ، وتشعشت : مزجت .

والعود للغيد الحسان مجاوب والطار أخفى صوته المزمار^(١)
 لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا مزمارنا التسبيح والأذكار
 وشربنا من لطفه ، وغناؤنا نعم الحبيب الواحد التهار
 والعود عادات الجليل ، وكأسنا كأس الكياسة ، والعقار وقار
 فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل المات فدهركم غدار
 والله أرحم بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفار
 ثم الصلاة على الشفيع المصطفى مارَّتمت بلغاتها الأطيَّار
 وإنما ذكرت ترجمة سيدى الشيخ أبى مدين للتبرك به ، ولكونه شيخ جدى ،
 فأنا فى بركته لقول جدى : إنه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله ، ولأننا ذكرنا فى
 هذا التأليف كثيرا من أنباء أبناء الدنيا ، فأردنا كفارة ذلك بذكر الصالحين ، والله
 الموفق بمنه وكرمه ، آمين .

(١) الغيد : جمع غيداء ، وهي الناعمة .

قد تم — بمعونة الله تعالى ، وحسن توفيقه — الجزء التاسع من كتاب
« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيره لسان الدين
ابن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المقرئ ، التلمساني ، وإليه — إن شاء الله تعالى —
الجزء العاشر مفتتحاً بقول المؤلف « الباب السابع ، في ذكر بعض تلامذته »
نسأل الله أن يعين على إكماله ، بمنه وكرمه ! آمين .

فهرس الجزء التاسع

من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

للشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣	فاتحة الجزء التاسع	٣٥	من كلامه في نظر الإنسان لنفسه
٤	تكملة الباب الخامس من القسم الثاني		قبل غروب شمس
	من الكتاب : من ثر لسان الدين	٣٦	رسالة من إنشائه على لسان سلطانه
	وشعره		إلى شيخ الموحدين بتونس ابن
٤	خاتمة كتاب المحبة الذي ألفه لسان الدين		تفراجين
١٢	من كلام لسان الدين في عد ما عدد	٤١	من ثره خطبة يبشر فيها بالفتح
	من فرق الاعتزال	٤٢	من ثره ما أنشأه عن لسان سلطانه
١٥	من كلامه في بعض تراجم كتاب		الغنى بالله يخاطب سلطان فاس بعد
	« الروضة » وهى الخاتمة التى تنبه		أن رجع ابنه من فاس
	النفوس الصبة ، على حكم المحبة	٤٦	من إنشائه ما كتبه على لسان الأمير
١٧	من كلامه في محركات العزيمة (الوعظ		سعد ابن سلطانه الغنى بالله ليعث به
	وأثره) .		إلى أبيه
١٩	موعظة من إنشائه	٤٩	من إنشائه ظهر كتبه على لسان
٢٥	موعظة أخرى من إنشائه		سلطانه بتولية الأمير يوسف ابن
٢٨	من إنشائه يخاطب بعض من استدعى		السلطان مشيخة الغزاة
	منه موعظة	٥٢	من إنشائه ظهر كتبه على لسان
٣٠	قصيدتان لابن العتاهية ختمهما كلامه		سلطانه بتقليد الأمير سعد ابن السلطان
٣٣	تنبيه يشتمل على سؤالين وجوابهما	٥٥	من إنشائه ما كتب به من سلا
	عن الوعظ		إلى سلطانه الغنى بالله ، وقد عاد إلى
٣٤	من كلامه في ذم السكسل		ملكه

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٥٧	من إنشائه ما كتب به مخاطباً لأبي عبد الله بن عمر التونسي	٩٩	من رسالة له كتب بها إلى الفقيه أبي زكريا بن خلدون لما ولي الكتابة عند أبي حموس سلطان تلمسان من بني زيان
٥٨	من إنشائه ما كتب به عن لسان سلطانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٠٣	من مخاطبات لسان الدين ما كتب به إلى صاحبه العلامة أبي القاسم ابن رضوان
٦٤	رسالة أخرى كتبها عن لسان سلطانه للرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم !	١٠٤	من كلامه يخاطب شيخ العرب المبارك بن إبراهيم
٨٣	من إنشائه من رسالة في العزاء خاطب بها ملك المغرب	١٠٦	من إنشائه يخاطب شيخه أبا عبد الله ابن مرزوق
٨٤	رسالة لمؤلف هذا الكتاب في العزاء على نمط رسالة لسان الدين	١٠٩	من إنشائه ظهر كتبه على لسان سلطانه لأحد الفقهاء ، وقد ولاء استكشاف أحوال الرعية
٨٦	رسالة من إنشاء لسان الدين يخاطب بها السلطان أبا زيان سلطان المغرب لما تم له الأمر	١١١	من إنشائه ما خاطب به تربة السلطان أبي الحسن المريني وقد لجأ إلى ولده
٨٩	من إنشائه في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور أيضاً	١١٣	من إنشائه يخاطب الوزير المنقلب على بلاد المغرب
٩٠	من رسالة له خاطب بها شيخ الدولة يحيى بن رحو	١١٥	من إنشائه إلى وزير المغرب أيضاً على أثر الفتح الذي تكيف له
٩١	من رسالة له خاطب بها شيخه أبا عبد الله بن مرزوق التلمساني في شفاعته	١١٦	من إنشائه وهو ساكن بسلا إلى وزير المغرب
٩٢	من رسالة أخرى خاطب بها ابن مرزوق في شفاعته أيضاً .	١١٧	من إنشائه يعزى الرئيس عامر بن محمد الهنتاني ، وقد مات أخوه عبد العزيز بن محمد
٩٣	من رسالة له خاطب بها الرئيس أبازيد بن خلدون	١٢٠	من إنشائه يخاطب الرئيس عامر بن محمد الهنتاني أيضاً

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٦٩	من نظمه في أغراض مختلفة ، عن الكتاب المسمى « آيات الآيات »	١٢١	من إنشائه يخاطب شيخ الدولة وقد أبل من مرض
١٨٠	من شعره يتشوق إلى قصر باديس	١٢٣	من إنشائه يخاطب أبا عبد الله بن مرزوق ، جوابا عن كتاب منه ، وقد استقر خطيب السلطان بتونس
١٨٢	من لاميته المسماة « المنح الغريب ، في الفتح القريب » التي خاطب بها سلطانه حين عاد للمسكة من المغرب	١٢٧	من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق أيضا
١٨٥	من نظمه يخاطب عبد الواحد بن زكريا ابن سلطان إفريقية	١٣٠	من إنشائه جواب عن كتاب ورد إليه من الفقيه الكاتب عن لسان سلطان تلمسان
—	من نظمه وقد أشرف على الحضرة المراكشية	١٣٥	من إنشائه قصة عن الرشيد في سياسة الدولة ، ومنازل رجالاتها
١٨٦	من نظمه ما كتب على مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج .	١٥٠	من ثمره نماذج قصار ، في تحلية أهل زمانه ، وفي وصف بعض البلدان
—	إجازة بينه وبين ابن الحاج وقد مرا ببعض مسالك غرناطة	١٥١	وصف بسطة للقصادي
١٨٧	من نظمه في تورية طيبة	—	وصف بسطة لابن الأزرق
—	من نظمه يخاطب ابن مرزوق	١٥١	من إنشاء لسان الدين ماخاطب به السلطان على لسان جدته
—	من نظمه يخاطب أحد الشرفاء	١٥٣	من شعر لسان الدين في مدح النبي صلى الله عليه وسلم
١٨٨	من نظمه وقد مر بدار أحد الأغنياء	١٥٥	قصيدة له أخرى في مدح الرسول أشدها في يوم الميلاد النبوي من عام ٧٦٣
—	من نظمه في الشيخ ابن بطان	١٦٠	قصيدة له خاطب بها السلطان أباعنان على إثر انصرافه من بابه
—	من نظمه وقد انتابه البرغوث	١٦٥	قصيدة له يهنئ بها السلطان ، وقد أعذر أولاده وتشتمل على وصف أشياء كثيرة
—	من نظمه يخاطب محمد بن حسون في صدر رسالة		
١٨٩	من نظمه في عثمان بن يحيى بن روح		
—	من نظمه وقد وقف على مراکش		
١٩٠	من نظمه يخاطب أحمد بن يوسف		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢١٨	مقطوعات للكاتب أبي زكريا يحيى بن خلدون	—	نماذج قصار من نظمه في أغراض شتى
٢١٩	حديث عن الموشحات والأزجال (نشأتها، وتدرجها، وأنواعها)	١٩٥	ترجمة العارف بالله أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، الأندلسي، نزيل سلا
٢٢٤	موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين	١٩٨	رجع إلى نظم لسان الدين : — من مداعباته
٢٢٨	الزجل	—	من شعره وقد وقف على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمت
٢٣٠	ترجمة أبي بكر بن باجة آخر فلاسفة الإسلام ببلاد الأندلس (ابن الصائغ)	١٩٩	من نظمه في التورية
٢٣٨	ترجمة محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آشي	—	من نظمه في السعيد أبي بكر بن السلطان أبي عنان
٢٣٩	رجع إلى ترجمة ابن باجة الفيلسوف	—	من نظمه يخاطب الخطيب ابن مرزوق
٢٤١	ترجمة الفتح بن خاقان، وفيها ذكر سبب العداوة التي كانت بينه وبين ابن باجة	٢٠١	من شعره يخاطب السلطان أبا الحجاج
٢٤٩	نماذج من تراجم الفتح في كتابه «المطمح»	—	من نظمه في التورية والتجنيس
—	من ترجمة أبي بكر الزبيدي اللغوي	٢٠٣	من شعره، وقد وجهه إلى أبي حمو سلطان تلمسان في آخر سنة ٧٧٤ في التهئة
٢٥١	من ترجمة أبي مروان عبد الله بن المعتصم بن صراح	٢٠٤	مقطوعات من شعره
٢٥٤	من ترجمة رفيع الدولة أبي يحيى بن المعتصم بن صراح	٢٠٥	بين أبي عبد الله بن جزى وبعض أهل فارس
٢٥٦	من ترجمة الوزير أبي الوليد بن حزم	—	رجع إلى مقطوعات من شعر لسان الدين
٢٥٧	من ترجمة أبي بكر الغساني	٢١٢	قصيدة لأبي زكريا يحيى بن خلدون في مولد عام ٧٧٨ يحذو فيها حذو قصيدة لسان الدين
—	من ترجمة أبي عامر بن عقال	٢١٥	حديث عن احتفال السلطان أبي حمو بالمولد النبوي
٢٥٩	من ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله، الطبقي		

ص	الموضوع	ص	موضوع
٢٦٠	من ترجمة الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عبد ربه ، صاحب كتاب « العقد الفريد »	٢٩٣	من موشحات لسان الدين
٢٦٤	من ترجمة أبي القاسم المنبثي	٢٩٥	موشحة لعنان الملطى ، في مديح القاضي الفاضل
٢٦٥	من ترجمة أبي الحسن البرقي	٢٩٦	موشحة للشهاب العزازی
٢٦٧	من ترجمة أبي الحسن طي بن جودي	٢٩٧	موشحة أخرى للشهاب العزازی
٢٦٩	نماذج من شعر الفتح بن خاقان	٢٩٩	موشحة أخرى للشهاب العزازی
٢٧٠	من نثر أبي نصر الفتح بن خاقان	٣٠٠	موشحة الموصلى التى عارضها الشهاب العزازی
٢٧١	تمام موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين	٣٠٢	موشحة مطربة
٢٧٢	بعض أهل المغرب يعارض موشحة ابن سهل	٣٠٣	الباب السادس ، من القسم الثانى من الكتاب
٢٧٣	معارضة أخرى لموشحة ابن سهل		فى مصنفات لسان الدين بن الخطيب
٢٧٥	موشحة لسان الدين بن الخطيب	٣٠٣	لسان الدين يذكر مؤلفاته فى الترجمة التى عقدها لنفسه فى الإحاطة
٢٧٧	لسان الدين يؤلف كتابا اسمه « جيش التوشيح » ثم يذيل عليه وزير القلم بالمغرب عبدالعزيز القشتالى	٣٠٥	استدراك المقرئ مؤلف هذا الكتاب ذكر فيه ما ألّفه لسان الدين بعد كتابته ترجمة نفسه المشار إليها
٢٧٨	موشحة لابن العقاد تعارض موشحة ابن سهل		— ابن الأحمر يتحدث عن مؤلفات لسان الدين
٢٧٩	موشحة لبعض المراكشيين	٣٠٦	حديث عن « روضة التعريف »
٢٨٠	موشحة للسلطان المنصور		أحد مؤلفات لسان الدين
٢٨١	موشحة أخرى للسلطان المنصور		— بقية مؤلفات لسان الدين
٢٨٢	مقطوعات من نظم السلطان المنصور	٣٠٨	حديث عن كتاب « الإحاطة » أحد تأليف لسان الدين ، ومختصره « مركز الإحاطة ، فى أدباء غرناطة » للبدر البشتكى
٢٨٩	موشحة كتبها بعض الأذكىاء فى مديح المقرئ مؤلف هذا الكتاب وقد عارض بها موشحة ابن سهل		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٠٨	حجة سلطانية بوقف كتاب «الإحاطة»	٣٣٥	للقاضى المزدغى فى مدينة فاس
	على بعض مدارس غرناطة	٣٣٥	للسان الدين بن الخطيب فى تلمسان
٣١١	لسان الدين يقف نسخة من كتاب	٣٣٦	لأبى عبد الله التللىسى فى تلمسان
	«الإحاطة» بخاتمة سعيد السعداء بمصر	٣٣٨	لابن خميس فى تلمسان
٣١٢	المؤلف يرى خطوط جماعة من العلماء	٣٤٠	حديث عن تلمسان للكاتب أبى زكريا
	على هوامش نسخة «الإحاطة» بمصر		يحيى بن خلدون فى كتابه «بغية
٣١٣	ابن الأحمر يبين أصول ابن الخطيب		الرواد ، فى أخبار بنى عبد الواد ،
	فى كتابه «الإحاطة»		وأيام أبى حمو الشاحمة الأطواد «
٣١٥	ترجمة أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الله	٣٤١	وصف تلمسان للسان الدين بن
	ابن الحاج القرناطى (عن الإحاطة)		الخطيب
٣٢٧	قصيدة لمحمد بن يوسف الثغرى مدح	٣٤٢	المقرى مؤلف هذا الكتاب يتحدث
	فيها السلطان أباحو سلطان تلمسان		عن تقلباته فى البلاد وتوارىخها
٣٢٩	لأبى المكارم منديل ابن صاحب	٣٤٢	ترجمة الشيخ الولى العارف بالله
	المقدمة الآجرومية قصيدة فى فاس		تعالى شعيب بن الحسين الأندلسى
٣٣١	قصيدة أخرى للثغرى مدح تلمسان		المعروف بأبى مدين
	وسلطانها أباحو	٣٥٢	خاتمة الجزء التاسع من كتاب
٣٣٢	قصيدة أخرى للثغرى فى تلمسان		«نفع الطيب ، من غصن الأندلس
	وسلطانها		الطيب «

تم فهرس الجزء التاسع من كتاب «نفع الطيب ،
من غصن الأندلس الرطيب » والحمد لله تعالى
أولا وآخرا ، وصلاته وسلامه على سيدنا
محمد وآله وصحبه

COLUMBIA UNIVERSITY



0026814340

893.7M32

03

v.9

OCT 14 1964

AUG 4 1959

